المُعلّم الأعظم

بقلم: إلن ج. هوايت

الشَّرْق الأَوْسَط
للنَّـشْر

« إنَّ آيات محبة اللّٰه لمسطورة على كل كِمّ من أكْمام الأزهار وعلى كل ورقة من أوراق الأشجار، مُعْلَنةٌ لنا في كل قطرة ماء، وفي كل ذرة هباء، وفي كل نجم لامع وفي كل كوكب ساطع، وفي أناشيد البلابل وأغاريد العصافير – كل هذه تشهد لعناية اللّٰه بنا وتُعلِن رغبته الأبويّة في إسعادنا. »

المؤلفة

المقَدّمة

إن المسيح، المعلم الأعظم، كان يسير بين تلال فلسطين ووديانها، أو حين كان يجلس ليستريح على شاطئ بحيرة أو نهر، نطق بكثير من التعاليم، وإذ كان يعلّم بأمثال قرن الحق الإلهي بالأشياء والوقائع العادية، كما يُرى في اختبارات الراعي والبنّاء والفلاح الذي يحرث الأرض والمسافر وربّة البيت. فالأشياء المألوفة صاحبت الأفكار الحقيقية والجميلة – الأفكار عن اهتمام اللّه المُحب بنا، والولاء الشكور الذي يستحقه منا، ورعاية كل منا للآخر. وهكذا صارت دروس الحكمة الإلهية والحق العملي قوية ومؤثرة.

وفي هذا الكتاب جُمعت الأمثال بحسب موضوعاتها وهي موضحة ومشروحة. والكتاب ملئ بدرر الحق وهو يقدم لكثيرين من القرّاء معنى أغنى للأوساط العادية في الحياة اليومية.

إن الكاتبة وهي تعد مخطوطات هذا الكتاب أُرشدت لتكريس إيرادات بيع الكتب لمساعدة العمل التهذيبي. وبواسطة التعاون بين جهود الكاتبة والناشرين وأعضاء الكنيسة قُدِم مبلغ كبير للمساهمة في نجاح مصالح التهذيب المسيحي.

إنّنا لنرجو مخلصين أن يمضي هذا السفر في أداء رسالته مجتذباً القارئ العزيز إلى المُخَلِّص بواسطة فهم تعاليمه فهماً أفضل.

الناشرون

حقوق الطَّبْع والنَّشْر © مَحْفُوظَة لمَجْلِس أُمَنَاء كِتَابَات إِنْ ج. هوايْت
12501 Old Columbia Pike
Silver Spring, Maryland 20904, U.S.A.

الناشر باللغة العربية: الشَّرْق الأوسَط للنَشْر، جميع الحقوق محفوظة

اقتباسات الكِتاب المُقدَّس مَأخُوذَة مِنْ تَرْجَمَة فاندايك

مُرَاجَعة نِهائيَّة: أشرف فوزي

صُورَة الغِلاف: Shutterstock.com

تَصْمِيم الكِتاب: سَارَه كَالَادُو

طَبْعَة ٢٠١٨
طُبِعَ فِي لُبْنان

لمَزيد من الدّراسة، يمكن الرجوع إلى الكتاب بلغته الأصلية. فالأرقام الإنجليزيَة المتخلّلة متن النَّص في هذا الكتاب تُشير إلى أرقام الصّفحات الموازية في المؤلَّف الأصلي باللغة الإنجليزية. وستجدون تلك الأرقام عَلَى هَذَا الشَّكْل [10].

محتويات الكتاب

المُعلّم الأعظم ١

محتويات الكتاب ٥

١ التَّعليم بأمْثَال ٧

٢ « الزَّارع خَرجَ ليزرَع » ١٣

٣ « أوَّلاً نَبَاتًا، ثُمَّ سُنْبُلاً » ٣٣

٤ الزَّوَان ٣٩

٥ « مِثْل حَبّة خَردل » ٤٣

٦ دُروس أخرى مِن إلقَاء البذار ٤٧

٧ يُشْبه خَميرة ٥٥

٨ الكَنز المُخْفى ٦١

٩ اللؤلؤة ٧١

١٠ الشَّبَكَة ٧٧

١١ جُدد وَعُتقَاء ٧٩

١٢ اطلبوا لِتُعطوا ٨٧

١٣ رَجُلان يُصَلّيان ٩٥

١٤ « أفلا يُنصِف اللّٰه مختَاريه؟ » ١٠٥

١٥ « هذا يقبَل خُطاة » ١١٧

١٦ « كَانَ ضَالاًّ فَوُجِدَ » ١٢٧
١٧ « اتْرُكْهَا هذِهِ السَّنَةَ أَيْضًا » ١٣٥
١٨ « أُخرُج إلى الطرق وَالسِيَاجَات » ١٤١
١٩ مقِيَاس الغفران ١٥٥
٢٠ رِبح هو في حقيقته خسَارة ١٦١
٢١ « هُوَّةٌ عَظِيمَةٌ قَدْ أُثْبِتَتْ » ١٦٧
٢٢ القَول والعَمَل ١٧٧
٢٣ كَرْمُ الرّبُ ١٨٥
٢٤ إنسَان ليسَ عَليهِ لبَاس العُرس ٢٠١
٢٥ الوَزنَات ٢١١
٢٦ « أَصْدِقَاء بِمَالِ الظُّلْمِ » ٢٤١
٢٧ « مَنْ هُوَ قَرِيبِي؟ » ٢٤٩
٢٨ مجَازاة النّعمَة ٢٥٩
٢٩ « لِلِقَاء العَرِيس » ٢٧١

١

التَّعليم بأمْثَال

في تعليم المسيح بأمثال يُرى نفس المبدأ كالذي يُرى في رسالته إلى العالم. فلكي نتعرف على صفات المسيح الإلهية وحياته اتخذ هو طبيعتنا وحل بيننا. لقد أُعلنت الألوهية في البشرية، المجد غير المنظور في الجسم البشري المنظور. فلقد أمكن الناس أن يتعلموا عن المجهول بواسطة المعلوم، فالأمور السماوية أُعلنت بواسطة الأشياء الأرضية، وأُظهر اللّه في شبه الناس. وكذلك كانت الحال في تعليم المسيح، فقد أوضح المجهول بما كان معلوما، والحقائق الإلهية بالأمور الأرضية التي كان الشعب على علم وخبرة بها.

يقول الكتاب: « هذَا كُلُّهُ كَلَّمَ بِهِ يَسُوعُ الْجُمُوعَ بِأَمْثَال ... لكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِالنَّبِيِّ الْقَائِل: « سَأَفْتَحُ بِأَمْثَال فَمِيَ، وَأَنْطِقُ بِمَكْتُومَات مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ » (متى ١٣: ٣٤، ٣٥). كانَت الأشَياء الطَبيعيَة وسيلةً الوصولَ إلى الحقائق الروحية، فأشياء الطبيعة واختبار حياة سامعيه كانت مرتبطة بحقائق الكلمة المكتوبة. وأمثال المسيح، إذ تنقلنا من المملكة الطبيعية إلى الملكوت الروحي [18] إن هي إلا حلقات في سلسلة الحق توحِّد الإنسان باللّه والأرض بالسماء.

إنّ المسيح إذ علَّم بدروس من الطبيعة إنما كان يتحدث عن الأشياء التي هي صنعة يديه والتي لها صفات وقوى أودعها فيها. إنّ كل الخليقة في حالتها الأولى، حالة الكمال، كانت تعبيرا عن فكرة اللّه. ففي نظر آدم وحواء وهما في وطنهما في عدن كانت الطبيعة ملأى من معرفة اللّه ومن التعاليم

الإلهية. فالحكمة خاطبت العينين فقبلها القلب، لأنهما كانا يتحدثان مع اللّٰه في أعمال خليقته. ولكن حالما تعدى ذانك الزوجان القديسان شريعة العلي أمَّحى بهاء وجه اللّٰه عن وجه الطبيعة. فالأرض مشوهة الآن ومنجسة بسبب الخطية. ومع ذلك فحتى في حالتها الراهنة، حالة اللفح واليبوسة، لا يزال باقيا فيها كثير من ألوان الجمال. إن دروس اللّٰه المنظورة لم تُمحَ. فلو فهم الناس الطبيعة على حقيقتها لتحققوا من أنها تتحدث عن خالقها.

ولكن في أيام المسيح كانت هذه الدروس قد غابت عن الأنظار والأذهان. فقد كاد الناس لا يدركون وجود اللّٰه في أعمال يديه. ذلك لأن شرّ البشرية كان قد ألقى على وجه الخليقة الجميل غطاء سميكا فبدلا من أن تعلن اللّٰه أعمالُه صارت مانعا يحول دون ذلك. فالناس « وَاتَّقَوْا وَعَبَدُوا الْمَخْلُوقَ دُونَ الْخَالِقِ » وهكذا حدث أنّ الوثنيين: « حمقوا في أفكارهم وأظلم قلبهم الغبي » (رومية ١: ٢٥، ٢١). وكذلك في إسرائيل وُضعت تعاليم الناس في موضع تعاليم اللّٰه. وليس فقط أمور الطبيعة بل أيضاً الخدمة الكفارية وكلام اللّٰه نفسه – وكلها معطاة لتعلن اللّٰه – حُرّفت بحيث صارت وسيلة لحجبه.

وقد سعى المسيح ليرفع عن الحق ما قد حجبه. لقد أتى لكي يزيح الحجاب الذي قد غطت به الخطية وجه الطبيعة [19] كاشفاً للأبصار عن المجد الروحي الذي قد خُلقت كل الأشياء لكي تعكسه. وقد وضعت أقواله تعاليم الطبيعة وتعاليم الكتاب في وضع جديد وجعلتها إعلانا جديداً.

لقد قطف يسوع الزنبقة الجميلة ووضعها في أيدي الأولاد والشباب، فإذ نظروا إلى وجهه النضير الذي استنار بنور وجه أبيه قدّم لهم هذا الدرس قائلاً: « تَأَمَّلُوا زَنَابِقَ الْحَقْلِ كَيْفَ تَنْمُو (في بساطة جمالها الطبيعي) لاَ تَتْعَبُ وَلاَ تَغْزِلُ، وَلكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ وَلاَ سُلَيْمَانُ فِي كُلِّ مَجْدِهِ كَانَ يَلْبَسُ كَوَاحِدَةٍ مِنْهَا ». ثم تبع ذلك التأكيد الجميل والدرس الهام القائل: « فَإِنْ كَانَ عُشْبُ الْحَقْلِ الَّذِي يُوجَدُ الْيَوْمَ وَيُطْرَحُ غَدًا فِي التَّنُّورِ، يُلْبِسُهُ اللّٰهُ هكَذَا، أَفَلَيْسَ بِالْحَرِيِّ جِدًّا يُلْبِسُكُمْ أَنْتُمْ يَا قَلِيلِي الإِيمَانِ؟ ».

والمسيح في موعظته على الجبل نطق بهذه الأقوال في مسامع أناس آخرين غير الصبية والشباب. فقد أسمعها لجموع من الناس كان بينهم رجال ونساء أضناهم الانزعاج والارتباك وانسحقت نفوسهم بسبب الفشل والحزن

وأستطرد يسوع قائلا: « فَلاَ تَهْتَمُّوا قَائلينَ: مَاذَا نَأْكُلُ؟ أَوْ مَاذَا نَشْرَبُ؟ أَوْ مَاذَا نَلْبَسُ؟ (فان هذه كلها تطلبها الأمم) لأَنَّ أَبَاكُمُ السَّمَاوِيَّ يَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى هذه كُلِّهَا » ثم بسط يديه إلى الجمع المحيط وقال: « لكن اطْلُبُوا أَوَّلاً مَلَكُوتَ اللّٰه وَبِرَّهُ، وَهذه كُلُّهَا تُزَادُ لَكُمْ » (متى ٦: ٢٨-٣٣).

وهكذا فسَّر المسيح الرسالة التي قد أضفاها بنفسه على الزنابق وعشب الحقل. إنّ أقواله عامرة باليقين وهي ترمي إلى تثبيت ثقتنا في اللّٰه. [20]

ولقد كانت نظرة المسيح إلى الحق واسعة جدا، وكان تعليمه ممتدا وواسع المدى بحيث استخدم كل مظهر من مظاهر الطبيعة في شرح الحق وإيضاحه. فالمشاهد التي تقع عليها العين كل يوم كانت كلها مرتبطة بحق روحي بحيث أنّ كل الطبيعة ملأى بأمثال السيد.

إن المسيح في سنيّ خدمته الأولى كان يخاطب الشعب بكلام غاية في البساطة حتى يفهم كل سامعيه الحقائق التي كان يمكن أن تحكِّمهم للخلاص. ولكن كانت توجد قلوب كثيرة لم يتأصل الحق فيها، فسرعان ما أخذ الحق منهم. قال السيد: « منْ أَجْل هذَا أُكَلِّمُهُمْ بأَمْثَال، لأَنَّهُمْ مُبْصرينَ لاَ يُبْصرُونَ، وَسَامعينَ لاَ يَسْمَعُونَ وَلاَ يَفْهَمُونَ ... لأَنَّ قَلْبَ هذَا الشَّعْب قَدْ غَلُظَ، وَآذَانَهُمْ قَدْ ثَقُلَ سَمَاعُهَا. وَغَمَّضُوا عُيُونَهُمْ » (متى ١٣: ١٣-١٥).

لقد رغب المسيح في أن يوقظ التساؤل في قلوب الناس. سعى لتنبيه [21] المهملين وطبع الحق على القلوب. لقد كان التعليم بأمثال أمرا شائعاً، وكان يسترعي الاحترام والانتباه من الأمم الأخرى. ولم تكن هنالك وسيلة للتعليم افعل من هذه كان يمكنه أن يستخدمها. فلو رغب سامعوه في معرفة الأمور الإلهية لأمكنهم أن يفهموا كلامه لأنَّه كان يرغب دائما في أن يوضحها لكل سائل مخلص أمين.

وكانت لدى المسيح أيضاً حقائق ليقدمها إلا أن جموع الشعب لم يكونوا مستعدين لقبولها أو حتى فهمها. فلهذا السبب أيضاً علمهم بأمثال. فإذ قرن تعليمه بمشاهد الحياة أو الاختبار أو الطبيعة استرعى انتباههم وأثّر في قلوبهم. وبعد ذلك إذ نظروا إلى الأشياء التي أوضحت تعاليمه تذكروا أقوال المعلم الإلهي. فالأذهان التي كانت مفتوحة للروح القدس تبَّين لها مغزى تعليم المُخَلِّص أكثر فأكثر. وقد اتضحت الأسرار. وما كان يعسر فهمه قبلا صار واضحا وجليا.

وقد حاول يسوع أن يجد طريقاً إلى كل قلب. فإذ أستعمل تشابيه متنوعة لم يقدم الحق في وجوهه المختلفة وحسب بل خاطب سامعيه على اختلاف طبقاتهم، فاسترعى اهتمامهم لدى سماعهم الرموز المأخوذة من بيئات حياتهم اليومية. ولم يكن أحد ممن قد أصغوا إلى [22] المُخَلِّص يحس بأنّه قد أغفل أو نسي. وأن أحقر وأشرّ إنسان سمع في تعاليمه صوتا خاطبه في عطف ورقة

وكان لديه سبب آخر للتعليم بأمثال. فقد كان بين الجموع التي احتشدت حوله كهنة ومعلمون وكتبة وشيوخ وهيرودسيون ورؤساء الذين كانوا قوما محبين للعالم متعصبين وطماعين، وكان جل اهتمامهم منصرفا إلى إيجاد علّة عليه. وقد تعقّبه جواسيسهم يوما بعد يوم لكي يستخلصوا من كلامه علّة لإدانته ويبكموا إلى الأبد ذاك الذي بدا وكأنه قد اجتذب العالم وراءه. لقد عرف المُخَلِّص صفات هؤلاء الناس فقدّم الحق بكيفية لا توجب عرض قضيته على السنهدريم. وفي أمثاله وبخ رياء وشرور من قد احتلوا مراكز رفيعة، وبلغة رمزية ألبس الحق الجارح الذي لو نطق به في تشهير سافر مباشر، لكانوا انصرفوا عن سماعه وعطلوا رسالته. وبتجنّب الجواسيس فقد أوضح الحق بحيث ظهر الضلال واستفاد من تعاليمه الناس أنقياء القلب. لقد اتضحت الحكمة الإلهية والنعمة غير المحدودة بواسطة خليقة اللّٰه. وتعلم الناس عن اللّٰه عن طريق الطبيعة واختبارات الحياة. « لأَنَّ أُمُورَهُ غَيْرَ الْمَنْظُورَةَ تُرَى مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ مُدْرَكَةً بِالْمَصْنُوعَاتِ، قُدْرَتَهُ السَّرْمَدِيَّةَ وَلاَهُوتَهُ » (رومية ١: ٢٠).

إنّ في تَعليم المُخَلِّص بأمثالَ لدلالة على ماَ يكوِّن « التهذيب الأسمى » الحقيقي. كان يمكن للمسيح أن يكشف للناس عن أعمق حقائق العلم. كان في مقدوره أن يفتح كنوز الأسرار التي كان استكشافها يحتاج إلى عدة قرون من الدرس والاستقراء. كان يمكنه أن يقدم بعض المقترحات في فروع العلم التي كانت [23] كفيلة بتقديم غذاء للفكر وحافز على الابتكار إلى انقضاء الدهر. إلا أنه لم يفعل هذا. فلم يقل شيئا لإشباع الفضول أو لإشباع طموح الإنسان بفتح الأبواب للعظمة العالمية. إن المسيح في كل تعليمه قرّب العقل البشري وجعله على اتصال بالعقل الإلهي غير المحدود. إنّه لم يوجّه الناس إلى دراسة النظريات البشرية عن اللّٰه أو كلمته أو أعماله. بل علمهم أن يروه كما هو ظاهر ومعلن في أعماله وكلمته وفي ظروف عنايته.

ولم يتناول المسيح النظريات المعنوية بل تناول ما هو جوهري في إنماء الخلق وتطويره، وما من شأنه أن يوسّع إمكانيات الإنسان لمعرفة اللّٰه ويزيد من

مقدرته على عمل الخير. لقد تحدث إلى الناس عن تلك الحقائق الخاصة بسلوك الإنسان في الحياة وما يجعله يمسك بالأبدية.

إن المسيح هو الذي وجَّه تعليم العبرانيين. ففيما يختص بوصايا الرب وفرائضه قال لهم: « قُصَّهَا عَلَى أَوْلاَدِكَ، وَتَكَلَّمْ بِهَا حِينَ تَجْلِسُ فِي بَيْتِكَ، وَحِينَ تَمْشِي فِي الطَّرِيقِ، وَحِينَ تَنَامُ [24] وَحِينَ تَقُومُ، وَارْبُطْهَا عَلاَمَةً عَلَى يَدِكَ، وَلْتَكُنْ عَصَائِبَ بَيْنَ عَيْنَيْكَ، وَاكْتُبْهَا عَلَى قَوَائِمِ أَبْوَابِ بَيْتِكَ وَعَلَى أَبْوَابِكَ » (تثنية ٦: ٧-٩). ولقد أبان يسوع في تعليمه كيفَ يجبَ إتمام هذا الأمر، وكيف يمكن تقديم قوانين ملكوت اللّه ومبادئه بحيث تكشف عن جمالها وقيمتها الغالية. فحين كان الرب يدرّب العبرانيين على أن يكونوا ممثلين له أعطاهم بيوتا بين التلال والوديان. وفي حياتهم البيتية وخدمتهم الدينية كانوا على اتصال دائم بالطبيعة وبكلمة اللّه. وكذلك علّم المسيح تلاميذه على شاطئ البحيرة وعلى جانب الجبل وفي الحقول الحدائق والغابات حيث كان يمكنهم النظر إلى مشاهد الطبيعة التي بواسطتها كان يوضح تعاليمه. فإذ تعلموا من المسيح استفادوا مما قد تعلموه بتعاونهم معه في عمله.

وهكذا فعن طريق الخليقة يمكننا التعرّف بالخالق. إنّ سفر الطبيعة هو كتاب درس عظيم، وعلينا أن نستخدمه بالارتباط مع الكتاب المُقَدَّس حين نعلّم الآخرين عن صفات اللّه وإرشاد الخراف الضالة إلى حظيرة اللّه. فإذ ندرس أعمال اللّه فالرُّوح الْقُدُس يقنع العقل. إلاّ أن الاقتناع هذا ليس هو الذي يجيء نتيجة للمحاجّة المنطقية، ولكن إذا لم يكن العقل مكتنفا بظلمة داجية بحيث لا يعرف اللّه، وما لم تكن العين عمياء عن أن تراه، وما لم تكن الأذن غلفاء فلا تسمع صوته فإنّ الإنسان يدرك معنى أعمق وتنطبع على القلب الحقائق الروحية السامية المدونة في كلمة اللّه.

ففي هذه الدروس التي نتلقاها من الطبيعة مباشرة توجد بساطة وطهارة تجعلها ذات قيمة عظيمة، وانّ الجميع بحاجة إلى التعليم من هذا المصدر. إنّ جمال الطبيعة في ذاته يقود النفس بعيداً عن الخطية وجاذبية العالم، إلى القداسة والطهارة والسلام واللّه. [25] وفي غالب الأحيان تكون عقول الطلبة ممتلئة بنظريات الناس وتخيلاتهم التي تُسمّى، كذباً، علما وفلسفة. فهم بحاجة لأن يتصلوا بالطبيعة ويتعلموا أن الخليقة والمسيحية لهما إله واحد. ويتعلموا أن يروا التوافق والانسجام بين ما هو طبيعي وما هو روحي، ليصير

كل ما تراه عيونهم وما يمسكونه بأيديهم درساً لبناء الخلق. وهكذا تنشط قوى الذهن وينمو الخلق وتتسامى الحياة كلها.

كان هدف المسيح من التعليم بأمثال على وفاق مع هدف السبت. فلقد أعطى اللّٰه للناس تذكار قدرته الخالقة حتى يميزوه ويعرفوه في أعمال يديه. والسبت يأمرنا بان نرى في أعمال خليقته مجد الخالق. [26] وحيث أن يسوع أرادنا إن نفعل هذا جعل تعاليمه الثمينة مرتبطة بجمال الأشياء الطبيعية. فيجب أن ندرس أمثال المُخَلِّص حيث نطق بها في الحقول والأحراش، تحت قبة السماء وبين الأعشاب والأزهار. فإذ نقترب من قلب الطبيعة فالمسيح يحقق لنا حضوره ويخاطب قلوبنا بكلام السلام والمحبة.

وقد قرن المسيح تعليمه ليس فقط بيوم الراحة بل أيضا بأسبوع الكد والعمل. إن عنده حكمة يمنحها لمن يسوق المحراث ويبذر البذار. ففي الحرث وإلقاء البذار، وفي الزرع والحصاد يعلمنا أن نرى شرحا لعمل نعمته في القلب. وهكذا ففي كل فرع من فروع العمل المثمر وفي كل صلة من صلات الحياة يريدنا إن نقتبس درسا من دروس الحق الإلهي. وحينئذ لن يعود عملنا اليومي يشغل انتباهنا ويجعلنا [27] ننسى اللّٰه، ولكنه يذكرنا على الدوام بخالقنا وفادينا. وسيجري تفكيرنا في اللّٰه كخيط من ذهب في كل اهتماماتنا الساذجة وأعمالنا. وبالنسبة إلينا سينعكس مجد وجه اللّٰه على وجه الطبيعة. وسنظلّ نتعلم بلا انقطاع دروساً جديدة من الحق السماوي وننمو لنكون في شبه طهارته. وهكذا نصير « تلاميذ الرب »، وفي النصيب الذي نُدعى إليه نلبث « فِي ذلِكَ مَعَ اللّٰهِ » (إِشَعْيَاء ٥٤: ١٤؛ ١كورنثوس ٧: ٢٤). [33]

٢

« الزَّارع خَرجَ ليزرَع »

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في متى ١٣: ١-٩، ١٨-٢٣؛
مرقس ٤: ١-٢٠؛ لوقا ٨: ٤-١٥).

إن المسيح يشرح لنا في مثل الزارع الأمور المختصة بملكوت السَّمَاوَات وعمل الفلاح العظيم لأجل شعبه. فكزارع في الحقل أتى هو ليبذر بذار الحق السماوي. وكان نفس تعليمه بالأمثال البذار الذي به زُرعت أثمن حقائق نعمته. إنّ مثل الزارع نظرا لبساطته لم يُقَّدر التقدير اللائق به. يريد المسيح أن يرشد أذهاننا من البذرة الطبيعية التي تُزرع في الأرض إلى بذار الإنجيل، الذي يؤول زرعه إلى رجوع الإنسان إلى حالة الولاء للّه. فذاك الذي ضرب مثل البذرة الصغيرة هو ملك السماء، ونفس النواميس التي تسود على البذار الأرضي تتحكم في زرع بذار الحق.

فبجانب بحر الجليل اجتمع جماعة ليروا يسوع ويسمعوه – وكانوا جمعا مشتاقا ومنتظرا. كان هناك المرضى منطرحين منتظرين أن يتقدموا [34] إليه بشكاتهم. وكان حق المسيح المعطى له من اللّه أن يشفي أمراض جنسنا الخاطئ وبلاياه. وها هو الآن قد انتهر المرض ونشر من حوله الحياة والصحة والسلام.

وإذ بدأ عدد المتجمهرين يتكاثر، زاد ضغط الشعب على المسيح بحيث لم يعد يوجد متّسع لمزيد. فإذ تكلم المسيح كلمات قليلة مع الرجال الذين في

قوارب صيدهم نزل في القارب الذي كان في انتظاره ليأخذه عبر البحيرة، وإذ أمر تلاميذه أن يبعدوا قليلاً عن البرّ جعل يخاطب الجموع الذين على الشاطئ.

بجانب البحر امتدّ سهل جَنيّسَارَت الجميل ومن خلفه ارتفعت التلال، وعلى جانب التلال وفي السهل كان الزارعون والحاصدون مشتغلين، هذا في إلقاء البذار وذاك في جمع الحصاد المبكر. فإذ نظر المسيح إلى هذا المشهد قال: « فَكَلَّمَهُمْ كَثِيرًا بِأَمْثَال قَائِلاً:« هُوَذَا الزَّارِعُ قَدْ خَرَجَ لِيَزْرَعَ، وَفِيمَا هُوَ يَزْرَعُ سَقَطَ بَعْضٌ عَلَى الطَّرِيق، فَجَاءَت الطُّيُورُ وَأَكَلَتْهُ. وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الأَمَاكِن الْمُحْجِرَة، حَيْثُ لَمْ تَكُنْ لَهُ تُرْبَةٌ كَثِيرَةٌ، فَنَبَتَ حَالاً إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عُمْقُ أَرْضَ. وَلكِنْ لَمَّا أَشْرَقَت الشَّمْسُ احْتَرَقَ، وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَصْلٌ جَفَّ. وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الشَّوْك، فَطَلَعَ الشَّوْكُ وَخَنَقَهُ. وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى الأَرْض الْجَيِّدَة فَأَعْطَى ثَمَرًا، بَعْضٌ مِئَةً وَآخَرُ ستِّينَ وَآخَرُ ثَلاَثِينَ » (متى ١٣: ٣-٨).

إنَّ الناسَ في عهد المسيح لم يفهموا رسالته. فلم تكن كيفية مجيئه مطابقة لتوقعاتهم. لقد كان الرب يسوع أساس كلّ التدبير اليهودي. كانت خدماتهم المهيبة بموجب تعيين إلهي. وكان القصد منها تعليم الشعب انه في الوقت المعين سيأتي ذاك الذي كانت تلك الطقوس تشير إليه. ولكنّ اليهود مجّدوا الفرائض والطقوس وغاب عن أنظارهم هدفها وغايتها. إنّ التقاليد وقوانين الناس وتشريعاتهم اخفت عنهم الدروس التي قصد اللّه [35] أن يتعلّموها. فقد صارت هذه القوانين والتقاليد عقبة في طريق فهمهم وممارستهم للدين الحقيقي. وعندما جاءت الحقيقة في شخص المسيح لم يميّزوا فيه إتمام كل رموزهم وجوهر كل رموزهم وظلالهم. لقد رفضوا المرموز إليه وتعلقوا برموزهم وطقوسهم العديمة النفع. إنّ ابن اللّه قد أتى ولكنهم ظلوا يسألون آية. والرسالة القائلة: « تُوبُوا، لأَنَّهُ قَد اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّماوَات » أجابوا عليها بأن طلبوا آية (متى ٣: ٢).

لقد كان إنجيل المسيح صخرة عثرة لهم لأنهم طلبوا آيات بدلا من أن يطلبوا مخلصاً. كانوا ينتظرون أن يثبت مسّيا صدق ما قاله عن قدرته على كسب انتصارات عظيمة، وتأسيسه إمبراطوريته على أطلال ممالك الأرض. وقد أجاب المسيح على هذا التوقع بما جاء في مثل الزارع. فملكوت اللّه لم يكن لينتصر بقوّة السلاح أو التدخل العنيف بل بغرس مبدأ جديد في قلوب بني الإنسان.

« اَلزَّارِعُ الزَّرْعَ الْجَيِّدَ هُوَ ابْنُ الإِنْسَان » (متى ١٣: ٣٧). فالمسيح قد أتى لا كملك بَل كزارع، لا ليهدم الممالك بَل ليلقي البذار، لا ليوجّه تابعيه إلى

نصرات أرضية وعظمة قومية بل إلى حصاد يجب أن يُجمع بعد كدّ صبور في وسط الخسائر والمفشلات.

لقد فهم الفريسيون معنى مَثَل المسيح ولكنهم لم يكونوا يرحبون بالدرس المستفاد منه. فقد تظاهروا بأنّهم لم يفهموه. أمّا بالنسبة إلى الجمع فقد اشتمل المثل، في سرّ أعظم، على غرض المعلم الجديد الذي قد حرك كلامه قلوبهم بكيفية غريبة ولكن بمرارة خيّب كلّ طموحهم. أمّا التلاميذ أنفسهم فلم يفهموا المثل، إلاّ أنّ اهتمامهم قَد أثير. فجاءوا إلى يسوع على انفراد ليفسره لهم.

هذا هو الشوق الذي كان المسيح يرغب في أن يثيره فيهم، لكي يقدّم لهم مزيداً من الإرشادات المعينة. [36] وقد فسر لهم المثل، كما يفسر ويوضح كلمته لكل من يطلبونه بقلوب خالصة. فالذين يدرسون كلمة اللّه بقلوب مفتوحة لإنارة الرُّوح الْقُدُس لن يفوتهم فهم معنى الكلمة. قال المسيح: « إِنْ شَاءَ أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ مَشِيئَتَهُ يَعْرِفُ التَّعْلِيمَ، هَلْ هُوَ مِنَ اللّٰه، أَمْ أَتَكَلَّمُ أَنَا مِنْ نَفْسِي » (يوحنا ٧: ١٧). فكل مَن يأتونَ إلى المسيحَ في طَلَب معرفة أوضَح للحَق سينالونها. وهو سيكشف لهم عن أسرار ملكوت السَّمَاوَات، والقلب الذي يتوق لمعرفة الحق سيفهم هذه الأسرار. وسيضيئ نور سماوي في هيكل النفس وسيعلن للآخرين كسراج موقد منير في طريق مظلم.

« هُوَذَا الزَّارِعُ قَدْ خَرَجَ لِيَزْرَعَ ». كانت الحالة في الشرق غير مستقرة، وكان يوجد خطرَ عظيم من الغزو والعنف حتى كان أكثر الناس يسكنون في مدن ذات أسوار، وكان الفلاحون يخرجون كل يوم لمباشرة أعمالهم خارج الأسوار. وهكذا المسيح الزارع السماوي خرج ليزرع. لقد ترك وطنه حيث الأمن والسلام، ترك المجد الذي كان له عند الآب قبل كون العالم، وترك مكانه على عرش الكون. ثم خرج إنسانا متألّما مجرّباً، خرج منفردا ليزرع بالدموع وليروي بدمه بذار الحياة للعالم الهالك.

وبنفس هذه الكيفية يجب على خدامه أن يخرجوا ليزرعوا. فإبْرَاهيم حين دُعي ليصير زارع بذار الحق صدر إليه هذا الأمر قائلاً « اذْهَبْ مِنْ أَرْضَكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ » (تكوين ١٢: ١) : « فَخَرَجَ وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ إِلَى أَيْنَ يَأْتِي » (عبرانيين ١١: ٨). وكذلك إذ كان بولس الرسول يصلّي في الهيكل في أورشليم جاءته هذه الرسالة من اللّه: « اذْهَبْ، فَإِنِّي سَأُرْسِلُكَ إِلَى الأُمَمِ بَعِيدًا » (أعمال ٢٢: ٢١). وكذلك من يُدعون [37] ليتحدوا مع المَسيح عليهمَ أن يتركوا كل شيء ليتبعوه. فيجب فصم عرى الصداقة

مع العشراء القدامى، ويجب هجر خطط الحياة والتخلي عن الآمال الأرضية. فيجب أن يُزرع الزرع بالتعب والدموع والوحشة والتضحية.

« اَلزَّارِعُ يَزْرَعُ الْكَلِمَةَ » (مرقس ٤: ١٤). لقد جاء المسيح ليزرع كلمة الحق في العالم. فمنذ سقوط آدم دأب الشيطان في زرع بذار الضلال. فلقد تسلط على الإنسان في البدء بكذبة وهكذا هو ما زال يعمل ليهدم ملكوت اللّٰه في الأرض وليجعل الناس [38] تحت سلطانه. وقد أتى المسيح الذي هو زارع من عالم أسمى ليزرع بذار الحق. فذاك الذي وقف في مجمع اللّٰه، والذي سكن في داخل مقدس الإله السرمدي أمكنه أن يأتي إلى الناس بمبادئ الحق النقية. فمنذ سقوط الإنسان كان المسيح هو معلن الحق للعالم. وبواسطته سُلمت للناس البذرة التي لا تفنى « كَلِمَةِ اللّٰهِ الْحَيَّةِ الْبَاقِيَةِ إِلَى الأَبَدِ » (١بطرس ١: ٢٣). ففي ذلك الوعد الأول المقدم لجنسنا الساقط في جنة عدن كان المسيح يزرع بذار الإنجيل. ولكن مثل الزارع ينطبق بكيفية خاصة على خدمة المسيح الشخصية بين الناس وعلى العمل الذي قد ثبته.

وكلمة اللّٰه هي البذار. إنّ كل بذرة مودع فيها مبدأ الإنبات. ففي داخلها تكمن حياة النبات. وكذلك في كلمة اللّٰه توجد الحياة. فالمسيح يقول: « اَلْكَلاَمُ الَّذي أُكَلِّمُكُمْ به هُوَ رُوحٌ وَحَيَاةٌ » (يوحنا ٦: ٦٣). « مَنْ يَسْمَعُ كَلاَمي وَيُؤْمِنُ بِالَّذي أَرْسَلَنِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ » (يوحنا ٥: ٢٤). ففي كل أمر وكل وعد في كلمة اللّٰه توجد قوة اللّٰه ونفس حياته التي بواسطتها يمكن للإنسان أن يطيع الأمر وبالتالي يتحقق له الوعد. إنّ من يقبل الكلمة بإيمان إنّما يقبل نفس حياة اللّٰه وصفاته.

هذا، وان كلّ بذر يثمر ثمرا كجنسه. فازرع البذار بموجب الشروط الصحيحة فتنتقل حياته إلى النبات. وإذا كنت تقبل في نفسك بالإيمان بذرة كلمة اللّٰه التي لا تفنى فإنها ستثمر صفات وحياة شبيهة بصفات اللّٰه وحياته.

إن معلمي اليهود لم يكونوا يزرعون بذار كلمة اللّٰه. فقد كان يوجد تباين واضح بين عمل المسيح كمعلم للحق وعمل معاصريه من معلّمي اليهود. لقد حوّلوا جل اهتمامهم إلى التقاليد والنظريات والتخمينات البشرية. وكثيرا ما كانوا يضعون ما قد علم به الناس وكتبوه عن [39] كلمة اللّٰه في مكان الكلمة نفسها. ولهذا فلم يكن لتعليمهم قوّة على إحياء النفس. أما المسيح فكان موضوع تعليمه وكرازته كلمة اللّٰه. وكان يواجه المتسائلين والمتشككين بالقول: « مَكْتُوب »، « ماذا يقول الكتاب؟ »، « كَيْفَ تَقْرَأُ؟ »

وفي كل فرصة عندما يستيقظ اهتمام صديق أو عدوّ كان السيد يزرع بذار الكلمة. فذاك الذي هو الطريق والحق والحياة والذي هو نفسه الكلمة الحية يشير إلى كلمة اللّٰه قائلا: « وَهِيَ الَّتِي تَشْهَدُ لِي » وإذ « ابْتَدَأَ مِنْ مُوسَى وَمِنْ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ » جعل يفسر لتلميذيه « الأُمُورَ الْمُخْتَصَّةَ بِهِ فِي جَمِيعِ الْكُتُبِ » (يوحنا ٥: ٣٩؛ لوقا ٢٤: ٢٧).

ويجب على خدام المسيح أن يقوموا بنفس العمل. ففي أيامنا هذه كما في أيام القدم نرى أن الحقائق الحية لكلمة اللّٰه قد ألقى بها جانبا واستعيض عنها بنظريات البشر وتخميناتهم. إنّ كثيرين ممن يُعرف عنهم أنهم خدام الإنجيل لا يقبلون كل الكتاب على انّه كلمة اللّٰه الموحى بها. فهذا رجل حكيم يرفض جزءا من الكتاب، ورجلٌ آخر يشكّ في جزء آخر. يجعلون حكمهم أسمى من حكم الكلمة، والآية التي يعملون بها تستند على سلطانهم. وهكذا يطمس منشأها الإلهي وبهذه الكيفية يبذر بذار الإلحاد على مدى واسع، لأن الناس يرتبكون ولا يعرفون ما الذي يصدقونه. توجد عقائد كثيرة لا حق للعقل أن يقبلها. في أيام المسيح جعل رؤساء اليهود لكثير من أجزاء الكتاب استنتاجا قهريا غامضا. فلكون تعليم كلمة اللّٰه الواضحة دان تصرفاتهم وشجبها حاولوا أن يلاشوا قوتها. وهذا ما يحدث في يومنا هذا. فكلمة اللّٰه تُصَّور على أنها مبهمة وغامضة لكي يكون ذلك مبررا للناس ليرتكبوا خطية العصيان على شريعته. والمسيح وبخ هذه التصرفات في أيامه، فقد علّم أنّ كلمة اللّٰه يجب أن يفهمها الجميع. وأشار إلى الكتاب المُقَدَّس كالحجة غير المشكوك في صدقها أو سلطانها، وهذا نفس ما يجب علينا أن نفعله. فيجب تقديم الكتاب ككلمة اللّٰه السرمدي، وكفيصل ينهي [40] كل مشاجرة أو خصام، وأساس كل إيمان.

لقد جُرد الكتاب من قوته، وها نحن نرى النتائج في انحطاط الحياة الروحية. فالعظات التي تلقى من على المنابر اليوم ينقصها ذلك الإعلان الإلهي الذي يوقظ الضمير ويمنح النفس حياة. ولا يستطيع السامعون أن يقولوا: « ألم يكن قلبنا ملتهبا فينا إذ كان يكلمنا في الطريق ويوضح لنا الكتاب؟ » (لوقا ٢٤: ٣٢). يوجد كثيرون ممن يصرخون إلى الإله الحيّ مشتاقين إلى حضور اللّٰه. فالنظريات الفلسفية والرسائل الأدبية مهما تكن باهرة متألقة لا يمكنها أن تشبع القلب. إنّ تصريحات الناس واختراعاتهم لا قيمة لها. فلتتكلم كلمة اللّٰه إلى الشعب. وأولئك الذين لم يسمعوا غير التقاليد والآراء والقوانين البشرية، ليسمعوا صوت ذاك الذي تستطيع كلمته أن تجدّد النفس للحياة الأبدية.

إنّ الموضوع الذي كان محبّبا إلى قلب المسيح هو رقة اللّٰه الأبوية ونعمته المتفاضلة. لقد تكلم كثيرا عن قداسة صفاته وشريعته. وقدم نفسه للناس على أنّه الطريق والحق والحياة. فلتكن هذه هي المواضيع التي يتكلم فيها خدام المسيح. قدموا الحق كما هو في يسوع. وأوضحوا مطاليب الناموس والإنجيل. وأخبروا الناس عن حياة المسيح. حياة إنكار الذات والتضحية. وعن اتضاعه وموته وقيامته وصعوده وشفاعته لأجلهم في محاكم اللّٰه، وعن وعده القائل: « آتي أَيْضًا وَآخُذُكُمْ إِلَيَّ » (يوحنا ١٤: ٣).

فبدلا من التحدث في نظريات خاطئة مضللة أو محاولة مقارعة خصوم الإنجيل اتبعوا مثال المسيح. لتلمع الحقائق الجديدة المستقاة من كلمة اللّٰه وخزانته في الحياة « اكْرِزْ بِالْكَلِمَةِ. اعْكُفْ عَلَى ذلكَ فِي وَقْتٍ مُنَاسِبٍ وَغَيْرِ مُنَاسِبٍ »، « طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الزَّارِعُونَ عَلَى كُلِّ الْمِيَاهِ »، « وَالَّذِي مَعَهُ كَلِمَتِي فَلْيَتَكَلَّمْ بِكَلِمَتِي بِالْحَقِّ. مَا لِلتِّبْنِ [41] مَعَ الْحِنْطَةِ، يَقُولُ الرَّبُّ »، « كُلُّ كَلِمَةٍ مِنَ اللّٰهِ نَقِيَّةٌ ... لاَ تَزِدْ عَلَى كَلِمَاتِهِ لِئَلاَّ يُوَبِّخَكَ فَتُكَذَّبَ » (٢تيموثاوس ٤: ٢؛ إِشَعْيَاءَ ٣٢: ٢٠؛ إِرْمِيَا ٢٣: ٢٨؛ أَمْثَال ٣٠: ٥، ٦).

« اَلزَّارِعُ يَزْرَعُ الْكَلِمَةَ » (مرقس ٤: ١٤) هنا يقدم المبدأ العظيم الذي يجب أن يكون أساس كل عمل تهذيبي. « الزَّرْعُ هُوَ كَلاَمُ اللّٰهِ » (لوقا ٨: ١١). ولكن في مدارس كثيرة جدا في أيامنا هذه نجد أن كلمة اللّٰه ملقاة في زوايا النسيان. فتوجد موضوعات أخرى تشغل الذهن. إنّ دراسة مؤلفات الكتّاب الملحدين أُفسح لها مجال كبير في نظم التعليم. والآراء الإلحادية تُنسج في مادة الدرس في الكتب المدرسية. والبحث العلمي يصير مضللا لأن استكشافاته تحرَّف وتُفسد. وكلمة اللّٰه تشبَّه وتقارن بتعاليم العلم المزعومة، ويبدو وكأنها غير يقينية وغير موثوق بها. وهكذا يُزرع بذار الشك في عقول الشباب وفي وقت التجربة ينمو ويكبر ومتى ضاع الإيمان بكلمة اللّٰه فالنفس تُمسي بلا مرشد أو حارس. والشباب ينقادون في طرق تبعدهم عن اللّٰه والحياة الأبدية.

فإلى هذا السبب، إلى حد كبير، يُعزى الإثم المستشري في عالمنا اليوم. فعندما يُلقى بكلمة اللّٰه جانباً فإنّ قوتها على كبح أهواء القلب الطبيعي الشريرة تُرفض. الناس يزرعون للجسد ومن الجسد يحصدون فساداً.

وهنا أيضا يكمن السبب العظيم لضعف العقل وقصوره. فالعقل إذ يتحوّل بعيدا عن كلمة اللّٰه ليقتات على كتابات رجال غير ملهمين فالعقل يمسي قاصراً ورخيصاً تافهاً. فهو لا يلامس مبادئ الحق الإلهي الأبدية العميقة

الواسعة الرحاب. والفهم يكيّف نفسه على إدراك واستيعاب الأشياء المألوفة لديه. وفي تكريسه نفسه للأشياء المحدودة يضعف وتتقلّص قدرته. وبعد وقت يصير غير قادر على التمدّد والتوسّع.

كل هذا تهذيب كاذب. فعمل كل معلّم [42] يجب أن يهدف إلى تثبيت وتركيز عقول الشباب في الحقائق السامية، حقائق كلمة الوحي. هذا هو التعليم الجوهري لهذه الحياة والحياة الآتية.

ولكن لا يظنَّن ظانّ أن هذا سيمنع دراسة العلوم أو يسبّب تخفيضا في المستوى التهذيبي. إنّ معرفة اللّه عالية وسامية بقدر علو السماء، ومتسعة بقدر اتساع الكون. لا شيء يسمو بالإنسان ويشرّفه وينشطه كدراسة المباحث العظيمة الخاصة بحياتنا الأبدية. فليحاول الشباب فهم هذه الحقائق المعطاة من اللّه وحينئذ تتسع مداركهم وتتقوى عندما يبذلون هذا الجهد. وهذا سيأتي بكل طالب عامل بالكلمة إلى حقل للفكر أرحب ويضمن له ثروة من المعرفة لا تفنى.

والتهذيب الذي يُجتنى من تفتيش الكتب هو معرفة اختبارية لتدبير الخلاص. [43] مثل هذا التهذيب يعيد إلى النفس صورة اللّه ويقوي العقل ويحصّنه ضد التجربة ويؤهل المتعلم لأن يكون عاملا مع المسيح في رسالة رحمته إلى العالم. ويجعله عضوا في الأسرة السماوية ويؤهله لشركة ميراث القديسين في النور.

إلاّ أنّ معلّم الحق المقدس لا يمكنه أن يعطي للغير إلاّ ما قد عرفه هو بالاختبار. « خَرَجَ الزَّارِعُ لِيَزْرَعَ زَرْعَهُ » (لوقا ٨: ٥). إنّ المسيح قد علَّم الحق لأنَّه كان هو الحق. فَفكرهُ وصفاته واختبار حياته تجسمت في تعليمه. وكذلك الحال مع خدامه، فالذين يريدون أن يعلموا الكلمة يجب أن يجعلوها ملكا لهم بالاختبار الشخصي. عليهم أن يعرفوا معنى أن يصير المسيح لهم حكمة وبراً وقداسة وفداء. فإذ يقدمون كلمة اللّه للآخرين عليهم ألاّ يجعلوها فرضا أو احتمالا. بل عليهم أن يعلنوا مع بطرس الرسول قائلين: « لأَنَّنَا لَمْ نَتْبَعْ خُرَافَاتٍ مُصَنَّعَةً، إِذْ عَرَّفْنَاكُمْ بِقُوَّةِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَمَجِيئِهِ، بَلْ قَدْ كُنَّا مُعَايِنِينَ عَظَمَتَهُ » (٢بطرس ١: ١٦). فعلى كل خادمَ من خدامَ المسيح وعلى كَلَ معلم أن يكون قادراً أن يقول مع يوحنا الحبيب: « فَإِنَّ الْحَيَاةَ أُظْهِرَتْ، وَقَدْ رَأَيْنَا وَنَشْهَدُ وَنُخْبِرُكُمْ بِالْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَ الآبِ وَأُظْهِرَتْ لَنَا » (١يوحنا ١: ٢).

التربة – بجانب الطريق

إنّ ما يتناوله مثل الزارع بالأكثر هو التأثير الذي يحدث في نمو البذار بواسطة التربة التي يقع عليها. بهذا المثل كان المسيح في الواقع يقول لسامعيه: إنّه ليس أمرا مأمون العاقبة لكم أن تقفوا كمنتقدين على عملي، أو أن تشعروا بالفشل وخيبة الأمل لأنّه لا يوافق آراءكم. فالسؤال[44] البالغ في أهميته لكم هو هذا: كيف تتصرفون إزاء رسالتي؟ فمصيركم الأبدي يتوقف على قبولكم أو رفضكم إياها.

وفي تفسيره للبذار الذي سقط بجانب الطريق قال: « كُلُّ مَنْ يَسْمَعُ كَلِمَةَ الْمَلَكُوتِ وَلاَ يَفْهَمُ، فَيَأْتِي الشِّرِّيرُ وَيَخْطَفُ مَا قَدْ زُرِعَ فِي قَلْبِهِ. هذَا هُوَ الْمَزْرُوعُ عَلَى الطَّرِيقِ » (متى ١٣: ١٩).

إنّ الزَرعَ المزروع على الطريق يمثل ويصور كلمة اللّٰه إذ تسقط على قلب إنسان غير منتبه إلى ما يسمع. إنّ القلب الذي يصير طريقاً لحركة العالم التجارية ومسرّاته وخطاياه مشبّه بالطريق الصلب المطروق الذي تدوسه أقدام الناس والبهائم. فإذ تكون النفس منغمسة في أغراضها الذاتية وتمتعاتها الخاطئة فهي تتقسّى « بِغُرُورِ الْخَطِيَّةِ » (عبرانيين ٣: ١٣). فالقوى الروحية تصاب بالشلل. الناس يَسمعَون الكَلمَة ولكنهم لا يفهمونها ولا يدركون أنها تنطبق عليهم. وهم لا يستوعبون حاجاتهم أو خطرهَم. إنهم لا يحسّون بمحبة المسيح ويتجاوزون رسالة نعمته وكأنّ لَا شأن لهم بها.

وكما أنّ الطيور تسرعَ في خطف البذار من الطريق كذلك الشيطان يسرع في خطف بذار الحقّ الإلهي من النفس. فهو يخشى لئلا توقظ كلمة اللّٰه العديمَي الاكتراث وتحدث أثرها في القلب القاسي. فالشيطان وملائكته يوجدون بين الجماعات التي يُكرز لها بالإنجيل. ففي حين أن ملائكة السماء يحاولون أن يؤثروا في القلوب بكلمة اللّٰه فإنّ العدّو متيقظ ليجعل الكلمة عديمة التأثير. فبغيرة تضارع خبثه يحاول أن يعرقل عمل روح اللّٰه. وفي حين أن المسيح يجتذب النفس بمحبته فالشيطان يحاول أن يبعد انتباه الإنسان الذي يحركه روح اللّٰه ليطلب المُخَلِّص. إنه يشغل عقله بمشاريع دنيوية. إنه يثير [45] الانتقاد أو يوعز بالشكوك وعدم الإيمان. فانتقاء المتكلم للكلمات اللغوية أو طريقته في الكلام قد لا تعجب السامعين فيفكرون في هذه النقائص. وهكذا فالحق الذي يحتاجونه والذي قد أرسله اللّٰه إليهم رحمة منه لا يدوم تأثيره.

وللشيطان كثيرون من المساعدين. فكثيرون ممن يعترفون بأنهم مسيحيون يساعدون المجرّب على خطف بذار الحق من قلوب الآخرين. وكثيرون ممن يستمعون للكرازة بكلمة اللّه يجعلونها مادة للانتقاد في بيوتهم. وهم يجلسون في منصة القضاء ليحكموا على العظة كما يفعلون لدى سماع خطاب يلقيه محاضر أو خطاب أحد الساسة. فالرسالة التي يجب اعتبارها كلمة الرب لهم يفكرون فيها باستخفاف أو بالتعليقات التهكّمية. وهم بكلّ حرية يتباحثون في أخلاق الخادم وبواعثه وأعماله وتصرفات زملائهم من أعضاء الكنيسة، وهم ينطقون بأحكام صارمة، ويتفرغون للقيل والقال والافتراء وهذا في مسامع غير المتجددين. وغالبا ما تقال هذه الأقوال من الوالدين [46] في مسامع أولادهم. وبذلك يتلاشى الاحترام والتوقير لخدام اللّه والإكرام لرسالتهم. وكثيرون يتعلّمون الاستخفاف بكلمة اللّه نفسها.

وهكذا ففي بيوت من يعترفون بأنهم مسيحيون يتعلم الشباب أن يكونوا ملحدين. ثم يسأل الوالدون لماذا لا يهتم أولادهم أكثر بالإنجيل؟ ولماذا هم على أتم استعداد للشك في صدق الكتاب المُقَدَّس؟ وهم يستغربون كيف يغدو من الصعب عليهم جدا الوصول إليهم بواسطة المؤثرات الأدبية والدينية. ولكنهم لا يرون أن مثالهم هم هو الذي قسّى قلوب أولادهم. فالبذار الجيد لا يجد مجالا فيه يمد جذوره فيخطفه الشيطان.

في الأرض المحجرة

« وَالْمَزْرُوعُ عَلَى الأَمَاكِنِ الْمُحْجِرَةِ هُوَ الَّذِي يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، وَحَالاً يَقْبَلُهَا بِفَرَحٍ، ٢١ وَلكِنْ لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ فِي ذَاتِهِ، بَلْ هُوَ إِلَى حِينٍ. فَإِذَا حَدَثَ ضِيقٌ أَوِ اضْطِهَادٌ مِنْ أَجْلِ الْكَلِمَةِ فَحَالاً يَعْثُرُ » (متى ١٣: ٢٠، ٢١).

إِنّ البذرة المزروعة في الأرض المحجرة لا تجد إلاّ عمقاً قليلاً من التربة. فينمو النبات بسرعة. إلاّ أنّ الجذر لا يمكنه اختراق الصخر ليجد غذاءً يساعده على النمو فسرعان ما يذبل ويموت. إنّ كثيرين ممّن يعترفون بالديانة هم سامعون تُشبه قلوبهم الأماكن المحجرة. إنّ أنانية القلب الطبيعي تكمن تحت تربة رغائبهم الصالحة وأشواقهم كالصخر الذي يكمن تحت طبقة التربة. فحبّ الذات لم يخضع. وهم لم يروا شرّ الخطية العظيم. والقلب لم يتذلّل تحت الإحساس بإثمه. هذا النوع من الناس قد يسهل إقناعهم ويبدو أنّهم متجدّدون أذكياء، إلاّ أنّ تدينهم سطحي.

إنّ الناس يرتدّون لا لأنّهم يقبلون الكلمة حالا ولأنّهم يفرحون بها. [47] إنّ متَّى العشار حالما سمع دعوة المُخلِّص قام في الحال وترك كل شيء وتبعه. فحالما تأتي كلمة اللّه إلى قلوبنا فاللّه يريدنا أن نقبلها ومن الصواب أننا نقبلها بفرح. « إِنَّهُ هكَذَا يَكُونُ فَرَحٌ فِي السَّمَاءِ بِخَاطِئٍ وَاحِدٍ يَتُوبُ » (لوقا ١٥: ٧). ويوجد فرح في النفس التي تؤمن بالمسيح. ولَكِنَّ النَاسَ المذكورين في المثل الذين يقال عنهم أنّهم يقبلون الكلمة حالا، لا يحسبون النفقة. ولا يتأملون فيما تطلبه كلمة اللّه منهم. وهم لا يأتون بها وجها لوجه أمام كل عادات حياتهم ولا يخضعون ذواتهم بالتمام لسلطانها.

إنّ جذور النبات تتعمّق في التربة. وإذ تكون مخفية عن العيون تُغذّي حياة النبات. وكذلك الحال مع المسيحي، فبواسطة الاتّحَاد غير المنظور بين نفسه والمسيح أي بالإيمان تتغذّى الحياة الروحية. ولكن السامعين ذوي القلوب المُحجرة يعتمدون على الذات بدل اتكالهم على المسيح. إنّهم يثقون بأعمالهم الصالحة وبواعثهم الطيبة وهم أقوياء ببرّهم. إنّهم ليسوا أقوياء بالرب وفي شدة قوته. إنسان مَن هذا النوع « لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ فِي ذَاتِهِ » (متى ١٣: ٢١) لأنّه غير مرتبط بالمسيح.

إنّ شمس الصيف الحارّة التي تقوّي الحنطة الناجحة وتنضجها تقتل ما لم تكن جذوره متعمّقة. وهكذا الذي « لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ فِي ذَاتِهِ » « هُوَ إِلَى حِينٍ» لأنه: « فَإِذَا حَدَثَ ضِيقٌ أَوِ اضْطِهَادٌ مِنْ أَجْلِ الْكَلِمَةِ فَحَالاً يَعْثُرُ » (متى ١٣: ٢١). إنّ كثيرين يقبلونَ الإنجيل كَوسيلَة للنجاة منَ الألم، بدلا من قبوله للخلاص من الخطية. وهم يفرحون إلى حين إذ يظنّون أنّ الدين سيحرّرهم من المشقّات والتجارب. وإذ تسير الحياة معهم هيّنة ليّنة يبدو وكأنّهم مسيحيون ثابتون. ولكنهم يخورون تحت ضغط امتحان التجربة المحرقة. إنّهم لا يستطيعون احتمال العار لأجل المسيح. وعندما تشير كلمة اللّه إلى خطية محبّبة أو تطلب منهم إنكار الذات أو التضحية يعثرون. [48] إن إجراء تغيير جوهري في حياتهم قد يكلّفهم مجهودا كبيرا. إنّهم ينظرون إلى التعب الحاضر والتجربة ولكنهم ينسون الحقائق الأبدية. فكالتلاميذ الذين تركوا يسوع هم موشكون أن يقولوا: « هَذَا الْكَلاَمَ صَعْبٌ! مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَسْمَعَهُ؟ » (يوحنا ٦: ٦٠).

يوجد أناس كثيرون جدّا مِمن يدّعون انّهم يخدمون اللّه ولكنهم لا يعرفونه معرفة اختبارية. إنّ شوقهم إلى عمل مشيئته مبني على ميلهم لا على إقناع الرُّوح الْقُدُس العميق. وتصرفهم ليس على وفاق مع شريعة اللّه. إنّهم يقرّون

بأنهم قبلوا المسيح مخلصا لهم إلاّ أنّهم لا يؤمنون بأنّه سيمنحهم القوة للانتصار على خطاياهم. فليست لهم صلة شخصية بالمُخَلِّص الحيّ، وصفاتهم تكشف عن نقائصهم الموروثة والتي ربّوها في قلوبهم.

إن قبول فاعلية الروح في القلب بوجه عام شيء، أمّا قبول عمله كمبكّت يدعو إلى التوبة فشيء آخر. إنّ كثيرين عندهم إحساس بالتباعد عن اللّه يدركون عبوديتَهم للذات والخطية ويبذلون جهودا للإصلاح ولكنهم لا يصلبون الذات. إنهم لا يسلمون ذواتهم بالتمام بين يدي المسيح طالبين القوة الإلهية لعمل مشيئته. وهم غير راغبين في أن يُصاغوا حسب صورته الإلهية. إنهم يعترفون بنقائصهم بكيفية عامة إلاّ أنهم لا يقلعون عن خطاياهم الخاصة. وبكلّ عمل خاطئ نجد أن طبيعتهم القديمة المحبة لذاتها تزداد قوة.

والرجاء الوحيد لهؤلاء الناس هو أن يتحققوا في نفوسهم صدق كلام المسيح لنيقوديموس إذ قال: « يَنْبَغِي أَنْ تُولَدُوا مِنْ فَوْقُ »، « إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللّه » (يوحنا ٣: ٧، ٣).

القَداسة الحقيقيَة هي خدمة اللّه الكامِلة. هذا هو شرط العيشة المسيحية الحقّة. إنّ المسيح يطلب [49] تكريسا في غير تحفظ وخدمة غير منقوصة. إنّه يطلب القلب والعقل والنفس والقدرة. وينبغي عدم تدليل الذات. فالذي يعيش لذاته ليس مسيحياً.

وينبغي أن تكون المحبة هي المبدأ الباعث على العمل. فالمحبة هي المبدأ الأساسي في حكم اللّه في السماء وعلى الأرض، وينبغي أنّها تكون أساس الخلق المسيحي. فهذا وحده يمكنه أن يحفظ المسيحي ثابتاً. وهذا وحده كفيل بان يقدّره على الصمود أمام المحن والتجارب.

والمحبة تظهر في التضحية. إنّ تدبير الفداء كان أساسه التضحية – التضحية التي هي واسعة وعميقة وعالية جدّا بحيث لا يمكن أن تقاس أبعادها هذه. لقد بذل المسيح كل شيء لأجلنا والذين يقبلون المسيح لابد أن يكونوا على أتمُ استعداد للتضحية بكلّ شيء في سبيل فاديهم، وانّ التفكير في كرامته ومجده يأتي قبل أيّ شيء آخر.

وإذا كنا نحب يسوع فسنرغب في أن نحيا له ونقدم له ذبائح الحمد ونخدمه. ونفس التعب لأجله سيكون هيّنا وخفيفا. فلأجله نتوق [50] إلى الألم والتعب والتضحية. وسنشعر معه في شوقه لأجل خلاص الناس. وسنحس بنفس الشوق الرقيق الذي يحسّ هو به نحو النفوس.

هذا هو دين المسيح. وكلّ ما يقصر دون ذلك هو خداع. إنّ مجرّد العلم النظري بالحق والاعتراف بالتلمذة له لا يمكن أن يخلص النفس. إنّنا لا يمكننا أن نكون خاصة المسيح ما لم نكن له بالتمام. لأنَّه بسبب فتور الهمة في الحياة المسيحية تضعف عزائم الناس وتتبدل أشواقهم. إنّ محاولة أيّ إنسان لأن يخدم الذات والمسيح معا تجعله سامعا شبيها بالأرض المحجرة ولن يصمد عندما يجوز في بوتقة الامتحان.

الْمَزْرُوعُ بَيْنَ الشَّوْك

« وَالْمَزْرُوعُ بَيْنَ الشَّوْك هُوَ الَّذي يَسْمَعُ الْكَلمَةَ، وَهَمُّ هذَا الْعَالَم وَغُرُورُ الْغنَى يَخْنُقَان الْكَلمَةَ فَيَصيرُ بلاَ ثَمَر » (متى ١٣: ٢٢).

إنّ بذار الإنجيل كثيرا ما يقَع بينَ الشوك والأعشاب المضرّة الوبيلة، فإذا لم يحدث تغيير أدبي في القلب البشري، وإذا لم يتخلّص الإنسان من العادات والأعمال القديمة والحياة الماضية حياة الخطية، وإذا لم تُطرد صفات الشيطان بعيدا عن النفس فإنّ الحنطة تختنق. وسيكون الشوك هو الحصاد وستقتلع الحنطة.

يمكن للنعمة أن تنمو وتترعرع فقط في القلب الذي هو مُعدّ على الدوام لقبول بذار الحق الثمين. إنّ أشواك الخطية تنمو في أيّة تربة، وهي في غير حاجة إلى فلاحة أو خدمة، أمّا النعمة فينبغي أن تُزرع بكل حرص وعناية. إنّ العوسج والأشواك لمستعدة أبدا لأن تنمو بسرعة، فينبغي لعمل التطهير أن يتقدم باستمرار. فإذا لم يُحفظ القلب تحت سلطان اللّه، وإذا لم يعمل الرُّوح الْقُدُس بلا انقطاع في تنقية الخلق والسمو به فإنّ العادات القديمة ستُظهر نفسها في الحياة. يمكن أن يعترف الناس بإيمانهم بالإنجيل ولكن ما لم يتقدسوا [51] بالإنجيل فإنّ اعترافهم يُمسي عديم الجدوى. وإذا لم يحرزوا الانتصار على الخطية فالخطية تنتصر عليهم. فالأشواك التي قطعت ولكنها لم تُستأصل تنمو بسرعة حتى لتغشى كل النفس.

لقد ذكر المسيح الأشياء التي هي خطرة على النفس. ذكر، كما جاء في مرقس، هموم العالم وغرور الغنى وشهوات سائر الأشياء، بينما لوقا يذكر هموم الحياة وغناها ولذّاتها. هذه هي التي تخنق الكلمة وتوقف نمو البذار الروحي. فإذ تكفّ النفس عن أن تستمد الغذاء من المسيح تموت الميول الروحية من القلب.

« هُمُومُ هذَا الْعَالَم ». لا توجد طبقة من الناس بعيدة عن متناول الهموم العالمية. فبالنسبة إلىَ الفقراء نجد أنّ التعب والحرمان والخوف من العوز تجلب عليهم الارتباكات والأعباء. أمّا الأغنياء فيأتيهم الخوف من الخسائر وكثير من الهموم الجزعة. إن كثيرين من اتباع المسيح ينسون الدرس الذي قصد الرب بأن نتعلمه من زنابق الحقل. فهم لا يركنون إلى رعايته الدائمة. إنّ المسيح لا يستطيع أن يحمل أعباءهم لأنهم لا يلقون همهم عليه. ولهذا فإنّ هموم الحياة التي كان يجب أن تدفعهم إلى المُخَلِّص في طلب العون والعزاء تفصلهم عنه.

إنّ كثيرين ممن كان يمكنهم أن يكونوا مثمرين في خدمة اللّٰه ينكبُّون على اقتناء الثروة. فكل قوى نشاطهم منصرفة إلى مشاريعَ تجارية ويحسون بأنهم مجبرون على إهمال الأمور الروحية. وهكذا هم يُبعدون أنفُسهم عن اللّٰه. إنّ الكتاب المُقَدَّس يوصينا بأن نكون: « غَيْرَ مُتَكَاسلينَ في الاجْتهَاد » (رومية ١٢: ١١). علينا أن نعمل حتى يمكننا أن نعطي مَنَ له احتياج. فعلَى المسيحيين أن يعملوا ويشتغلوا في أية حرفة ويمكنهم أن يفعلوا هذا دون أن يرتكبوا خطية. ولكنّ كثيرين يصيرون منهمكين في عملهم بحيث لا يجدون وقتا للصلاة ولا لدرس الكتاب ولا ليطلبوا اللّٰه ويخدموه. في بعض الأحيان تصبو أشواق النفس إلى القداسة والسماء، ولكن [52] لا وقت لديهم لينسحبوا بعيدا عن ضجيج العالم وضوضائه ليستمعوا إلى صوت روح اللّٰه المهيب الجازم. لقد صارت أمور الأبدية ثانوية، أما أمور العالم فلها الأولوية والأسبقية. وهكذا يغدو من المستحيل على بذار الكلمة أن يأتي بثمر، لأنّ حياة النفس منصرفة إلى تغذية أشواك محبة العالم.

وكثيرون ممن يعملون لغرض يخالف هذا كل المخالفة يسقطون في نفس الغلطة. إنهم يخدمون لخير الآخرين وواجباتهم تضغط عليهم ومسؤولياتهم كثيرة وهم يسمحون لعملهم أن يزحم تعبدهم. يهملون الشركة مع اللّٰه عن طريق الصلاة ودرس كلمته، وينسون أنّ المسيح قد قال: « لأَنَّكُمْ بدُونِي لاَ تَقْدرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئًا » (يوحنا ١٥: ٥). إنّهم يسيرون بعيداً عن المسيح، وحياتهم غير مشمولة بنعمته، وصفات الذات تظهر. وخدمتهم تشوّهها الرغبة في التفوق والتسامي وفي صفات الخشونة البشعة في القلب الجامح غير المخضع. هنا سرّ من أهم أسرار الفشل في الخدمة المسيحية. هذا هو السبب في أنّ نتائجها عقيمة في غالب الأحيان.

« غُرُورُ الْغِنَى » (متى ١٣: ٢٢). إنّ حب الْغِنَى له قوة ساحرة خادعة. ففي غالب الأحيانَ يحدث أنّ من يملكون ثروات عَالمية ينسون أنّ اللّه هو الذي يمنحهم قوة لاصطناع الثروة. إنهم يقولون: « قُوَّتِي وَقُدْرَةُ يَدِيَ اصْطَنَعَتْ لِي هذِهِ الثَّرْوَةَ » (تثنية ٨: ١٧). إنّ أموالهم بدلا من أن توقظ فيهم روح الشكر لِلّه تسوقهم إلى تمجيد ذواتهم. فشعورهم بالاعتماد على اللّه يزايلهم، وكذلك التزامهم تجاه بني جنسهم. وبدلا من كونهم يعتبرون الثروة وزنة تُستخدم لأجل مجد اللّه ورفع شأن البشرية ينظرون إليها على أنّها وسيلة بها يخدمون ذواتهم. وبدلا من أنّها تنمّي في الإنسان صفات اللّه فإذ تُستخدم بهذه الكيفية فهي تنمّي فيه صفات الشيطان. وبذار الكلمة يخنقه الشوك. [53]

« الْحَيَاة ... وَلَذَّاتِهَا » (لوقا ٨: ١٤). يوجد خطر في التسلية التي تُطلب لمجرد إرضاء الذات. فكل عادات الانغماس التي تُضعف قوى الجسم وتُظلم العقل وتخدّر الإحساس الروحي إن هي إلاّ « الشَّهَوَات الْجَسَدِيَّة الَّتِي تُحَارِبُ النَّفْسَ » (١بطرس ٢: ١١).

« وَشَهَوَاتُ سَائِرِ الأَشْيَاءِ » (مرقس ٤: ١٩). هذه ليست بالضرورة أشياء شريرة في ذاتها، ولَكَنّها شيء تعطي له الأولوية على ملكوت اللّه. فكل ما يجتذب العقل بعيداً عن اللّه، وكل ما يُبعد العواطف عن اللّه هو عدّو للنفس.

عندما يكون العقل في نضارته ونشاطه وتأثره السريع في النمو فهنالك تجربة عظيمة وهي أن يكون الإنسان طموحاً للذّات ليخدم الذّات. وعندما تكون المشاريع العالمية ناجحة يوجد في الإنسان الميل لمواصلة السير في الطريق الذي يميت الضمير ويمنع التقدير الصحيح لما يُعتبر بحقّ السمو الحقيقي للخلق. فعندما تكون الظروف مواتية لهذا التطور سيُرى النمو والانحياز إلى الاتجاه الذي تحرّمه كلمة اللّه.

إنّ مسؤولية الآباء عظيمة جداً في هذا الطور، طور النمو في حياة أولادهم. فعليهم أن يفكروا في إحاطة الشباب بالمؤثرات الصالحة التي تعطيهم آراء صحيحة عن الحياة والنجاح الحقيقي فيها. ولكن بدلا من هذا فما أكثر الوالدين الذين يجعلون هدفهم الأول أن يحرزوا النجاح العالمي لأولادهم. وهم يختارون كل عشرائهم بالإشارة إلى هذا الهدف. وكثيرون من الوالدين يقيمون لهم بيوتا في مدينة كبيرة ويقدمون أولادهم إلى المجتمع العصري. ويحيطونهم بمؤثرات تشجع على حب العالم والكبرياء. ففي هذا الجو يصغر

العقل والنفس ويتضاءلان. وتغيب عن الأنظار أهداف الحياة السامية النبيلة. ثم إنّ امتياز كونهم أبناء اللّٰه وورثة الأبدية يُستعاض عنه بأرباح العالم. [54]

إنّ كثيرا من الآباء يحاولون أن يزيدوا من سعادة أولادهم بإشباع حبهم للتسليات. فيسمحون لهم بالاشتراك في الألعاب وفي ولائم الفرح والمرح ويقدمون لهم المال لاستخدامه بسخاء في التظاهر والمفاخرة وإرضاء الذات. فعلى قدر ما يُسمح للرغبة بالانغماس في المسرات تزداد قوتها. وهكذا ينصرف اهتمام هؤلاء الشباب أكثر وأكثر إلى اللهو إلى حدّ انّهم يعتبرونه هدف الحياة العظيم فتنشأ فيهم عادات الكسل والخمول والانغماس في الملذات بحيث يكاد يبدو من المستحيل عليهم أن يصيروا مسيحيين ثابتين.

بل حتى الكنيسة التي ينبغي أن تكون عمود الحق وقاعدته، أحيانا تشجع الملذات. فعندما يُجمع المال لأجل أغراض دينية، فما هي الوسائل التي تلجأ إليها كثير من الكنائس؟ إنهم يلجأون إلى إقامة أسواق خيرية وحفلات عشاء وأوراق اليانصيب وما شاكل ذلك من الوسائل. وكثيرا ما يتنجس المكان المخصص لعبادة اللّٰه بالولائم وشرب الخمر والبيع والشراء والمرح. وهكذا تقل الكرامة اللائقة لبيت اللّٰه والتوقير اللائق بعبادته في عقول الشباب وتضعف حواجز ضبط النفس، وهكذا تشجع وتتقوى الأنانية والشهوات وحب التفاخر إذ ينغمس الناس فيها.

إن اتّباع الملذات واللهو يتركز أكثر في المدن. إن كثيرين من الوالدين الذين يختارون السكنى في بيت في المدينة لأجل أولادهم ظنا منهم أنهم بذلك يقدمون لهم ميزات أعظم يُمنون بالخيبة والفشل ثم يندبون غلطتهم ويندمون عليها بعد فوات الأوان. إن مدن اليوم تسرع في التشبه بسدوم وعمورة. فأيام العطلة الكثيرة تشجع على الكسل. ثم إنّ الألعاب المثيرة وأسباب اللهو – كالذهاب إلى المسارح وسباق الخيل والمقامرة وشرب الخمر والعربدة – تثير في النفوس كل شهوة إلى أقصى حدود نشاطها. وهكذا ينجرف الشباب مع التيار العام. والذين يتعلمون حب اللهو لأجل اللهو [55] يفتحون الباب أمام طوفان التجارب. إنّهم يستسلمون للحبور الاجتماعي والمرح الطائش. واختلاطهم بمحبي الملذات له على العقل تأثير مخدر، فينقادون من لون إلى آخر من ألوان الإسراف حتى ليفقدون الرغبة والقدرة على حياة النفع. ثم يبرد تلهفهم إلى الأمور الدينية وتظلم حياتهم الروحية. وكل قوى النفس النبيلة وكل ما يربط الإنسان بالعالم الروحي ينحط.

نعم إنّ البعض قد يكتشفون جهالتهم ويتوبون ويمكن أن يغفر لهم اللّه. ولكنهم قد جرحوا أنفسهم وجلبوا على ذواتهم خطرا يدوم مدى الحياة. فالقدرة على التمييز التي كان يجب أن تظل جادة دائما وحساسة للتمييز بين الصواب والخطأ تتلاشى إلى حد كبير. وهم يكونون متباطئين في تمييز صوت الرُّوح الْقُدُس الهادي واكتشاف مكايد الشيطان. وفي غالب الأحيان عندما يحدق بهم الخطر يسقطون تحت التجربة ويضلون بعيداً عن اللّه. إنّ عاقبة حياة حب اللهو واللذة هي دمارٌ في هذا العالم وفقدان في العالم الآتي.

إنّ الشيطان يستخدم الهموم والغنى والملذات في لعبة الحياة لنفس الإنسان. إنّ الرب يقدم لنا الإنذار القائل: « لاَ تُحِبُّوا الْعَالَمَ وَلاَ الأَشْيَاءَ الَّتي في الْعَالَمِ. إِنْ أَحَبَّ أَحَدٌ الْعَالَمَ فَلَيْسَتْ فيه مَحَبَّةُ الآب. لأَنَّ كُلَّ مَا فِي الْعَالَمِ: شَهْوَةَ الْجَسَد، وَشَهْوَةَ الْعُيُون، وَتَعَظُّمَ الْمَعِيشَة، لَيْسَ منَ الآب بَلْ منَ الْعَالَمِ » (١يوحنا ٢: ١٥، ١٦). فَذاك الذي يقرأ قلوب الناس كما لو كانت كتابا مفتوحا يقول: « احْتَرِزُوا لأَنْفُسِكُمْ لِئَلاَّ تَثْقُلَ قُلُوبُكُمْ في خُمَار وَسُكْر وَهُمُوم الْحَيَاة » (لوقا ٢١: ٣٤). والرسول بولس يكتب بالرُّوح الْقُدُس قائلاً: « وَأَمَّا الَّذينَ يُريدُونَ أَنْ يَكُونُوا أَغْنيَاءَ، فَيَسْقُطُونَ في تَجْرِبَة وَفَخٍّ وَشَهَوَات كَثيرَة غَبيَّة وَمُضرَّة، [56] تُغَرِّقُ النَّاسَ في الْعَطَب وَالْهَلاَك. لأَنَّ مَحَبَّةَ الْمَال أَصْلٌ لِكُلِّ الشُّرُور، الَّذي إِذ ابْتَغَاهُ قَوْمٌ ضَلُّوا عَنِ الإِيمَان، وَطَعَنُوا أَنْفُسَهُمْ بِأَوْجَاعٍ كَثيرَة » (١تيموثاوس ٦: ٩، ١٠).

إعداد التربة

في مثل الزارع من أوله إلى آخره يبيّن المسيح نتائج الزارع المختلفة على أنها تتوقف على التربة. ففي كل حالة نجد أن الزارع والزرع هما بذاتهما لم يتغيرا. وهكذا هو يعلمنا أنه إذا أخفقت كلمة اللّه في إتمام عملها في قلوبنا وحياتنا فالسبب هو فينا. ولكن النتيجة ليست فوق سلطاننا. نعم إننا عاجزون عن تغيير أنفسنا، ولكن لنا قوة الاختيار وعلينا نحن أن نقرر مصيرنا. فالذين يسمعون الكلمة وقلوبهم تشبه الطريق أو الأرض المحجرة أو الأرض التي كثرت فيها الأشواك لا حاجة بهم أن يظلوا هكذا. فروح اللّه يحاول دائماً أن يكسر سحر الافتتان الذي يبقي الناس منشغلين في الأمور العالمية ويوقظ في النفوس شوقاً إلى الكنز الذي لا يفنى. فالناس إذ يقاومون الروح

يصبحون غير منتبهين إلى كلمة اللّٰه أو يهملونها. فهم أنفسهم مسؤولون عن قساوة القلب التي تمنع البذار الجيد من أن يمد جذوره في القلب، ومسؤولون أيضا عن تكاثر الأعشاب الضارة التي توقف نموه.

فينبغي أن يُحرث بستان القلب وان تُشق التربة بالتوبة العميقة عن الخطية. كما ينبغي اقتلاع النباتات الشيطانية السامة. والتربة التي كانت تملأها الأشواك يمكن إصلاحها فقط بالجد والمثابرة على العمل. وهكذا يمكن الانتصار على الميول الشريرة في القلب الطبيعي ببذل الجهد الجدي باسم يسوع وقوته. إنّ الرب يأمرنا على لسان نبيه قائلا: « احْرُثُوا لأَنْفُسكُمْ حَرْثًا وَلاَ تَزْرَعُوا فِي الأَشْوَاكِ » كما يقول أيضا: « ازْرَعُوا لأَنْفُسكُمْ بِالْبِرِّ. اَحْصُدُوا بِحَسَبِ الصَّلاَحِ » (إرْمِيَا ٤: ٣؛ هوشع ١٠: ١٢). إنّه يريد أن يتمّمَ هذا العمل لَنا، إنّمَا هو يسألنا أنَ نتعاون معه. [57]

إنّ من يزرعون البذار لديهم عمل يعملونه في إعداد القلوب لقبول الإنجيل. ففي خدمة الكلمة تُقدّم العظات أكثر من اللازم ويقل جدا العمل الحقيقي من القلب إلى القلب. توجد حاجة إلى العمل الفردي لأجل نفوس الهالكين. فعلينا أن نقترب من الناس واحدا واحدا بعطف كعطف المسيح، وأن نحاول إثارة اهتمامهم بأمور الحياة الأبدية العظيمة. قد تكون قلوبهم قاسية كأرض الطريق وقد يبدو أن تقديم المُخَلِّص إليهم أمر لا جدوى منه، ولكن في حين قد يعجز المنطق عن إيقاظ النفس وتعجز الحجّة عن إقناعها فأن محبة المسيح الظاهرة في الخدمة الشخصية قد تذيب القلب الصخري بحيث يمكن لبذار الحق أن يمدّ فيه جذوره.

وهكذا يوجد لدى الزارعين عمل يعملونه حتى لا يختنق البذار بالأشواك أو يهلك لأنَّ التربة ليست عميقة. ففي مستهل الحياة المسيحية ينبغي لكل [58] مؤمن أن يتعلم مبادئها الأساسية. فينبغي له أن يتعلم أنه لا يكتفي بأن يخلص بذبيحة المسيح، بل عليه أن يجعل حياة المسيح حياته وصفات المسيح صفاته. وليتعلم الجميع أنّه عليهم أن يحملوا الأثقال وينكروا الميول الطبيعية. وليتعلموا بركة خدمة المسيح متمثلين به في إنكار الذات واحتمال المشقات كجنود صالحين. ليتعلموا أن يثقوا بمحبته ويلقوا عليه كل همومهم. وليذوقوا فرح ربح نفوس له. ففي محبتهم واهتمامهم بالهالكين ستغيب الذات عن أنظارهم. ولن يعود لملذات العالم سلطان يجتذبهم ولن تضعف أثقال قلوبهم. وسيعمل محراث الحق عمله فيشق الأرض المتروكة، ولن يقطع فقط أطراف الأشواك بل سيستأصلها بالتمام.

في الأرض الجيدة

إنّ الزارع لن تواجهه المفشلات على الدوام. فقد قال المُخَلِّص عن البذار الذي سقط على الأرض الجيدة: هذا « هُوَ الَّذي يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ وَيَفْهَمُ. وَهُوَ الَّذي يَأْتي بِثَمَر، فَيَصْنَعُ بَعْضٌ مِئَةً وَآخَرُ ستِّينَ وَآخَرُ ثَلاثِينَ » (متى ١٣: ٢٣). « وَالَّذي فِي الأَرْضِ الْجَيِّدَة، هُوَ الَّذينَ يَسْمَعُونَ الْكَلِمَةَ فَيَحْفَظُونَهَا فِي قَلْبٍ جَيِّدٍ صَالِحٍ، وَيُثْمِرُونَ بالصَّبْر » (لوقا ٨: ١٥).

إنّ القَلْب الجيد الصالح الذي يتحدث عنه المثل ليس قلباً خالياً من الخطية، لأن الإنجيل يكرز به للهالكين. وقد قال المسيح، « لَمْ آت لأَدْعُوَ أَبْرَارًا بَلْ خُطَاةً إِلَى التَّوْبَة » (مرقس ٢: ١٧). إنّ من يخضع لتبكيت الرُّوح الْقُدُس هو الذي له القلب الجيد الصالح. فهو يعترف بذنبه ويحسّ بحاجته إلى رحمة اللّٰه ومحبته. وله رغبة مخلصة في معرفة الحق حتى يطيعه. إنّ القلب الجيد هو القلب المؤمن [59] والذي له إيمان بكلمة اللّٰه. وبدون إيمان يستحيل على الإنسان أن يقبل الكلمة: « لأَنَّهُ يَجِبُ أَنَّ الَّذي يَأْتي إِلَى اللّٰه يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ مَوْجُودٌ، وَأَنَّهُ يُجَازي الَّذينَ يَطْلُبُونَهُ » (عبرانيين ١١: ٦).

هذا: « هُوَ الَّذي يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ وَيَفْهَمُ » (متى ١٣: ٢٣). إن الفريسيين في أيام المسيح أغمضوا عيونهم لئلا يبصروا وآذانهم لئلا يسمعوا، لذلك لم يمكن للحق أن يصل إلى قلوبهم. وكان عليهم أن يحتملوا العقاب عن جهلهم العنيد وعماهم الذي فرضوه على أنفسهم. ولكن المسيح علم تلاميذه أن يفتحوا أذهانهم للتعليم ويكونوا مستعدين لأن يؤمنوا. وقد نطق عليهم بالبركة لأنهم أبصروا وسمعوا بعيونهم وآذانهم التي آمنت.

إنّ السامع الذي يشبه الأرض الجيدة يقبل الكلمة: « لاَ ككَلِمَة أُنَاس، بَلْ كَمَا هيَ بالْحَقيقَة كَكَلِمَة اللّٰه » (١تسالونيكي ٢: ١٣). فالذي يقبل الكتاب على أنه صوت اللّٰه متحدثاً إليه هو وحده المتعلم الحقيقي الأمين. إنه يرتعد من الكلمة لأنها بالنسبة إليه حقيقة حيّة. وهو يفتح ذهنه وقلبه لقبولها. أمثال هؤلاء السامعين كان كرنيليوس وأصدقاؤه، إذ قال لبطرس الرسول: « وَالآنَ نَحْنُ جَميعًا حَاضِرُونَ أَمَامَ اللّٰه لِنَسْمَعَ جَميعَ مَا أَمَرَكَ بِهِ اللّٰهُ » (أعمال ١٠: ٣٣).

إنّ معرفة الحق لا تتوقف بالأكثر على قوة العقل بل على نقاوة القصد وبساطة الإيمان الغيور المستند على اللّٰه. فالذين في وداعة قلوبهم يطلبون

الإرشاد الإلهي يقترب منهم ملائكة اللّٰه. والرُّوح الْقُدُس يُعطى لهم ليكشف لهم عن كنوز الحق الغنية.

والسامعون الذين قلوبهم أرض جيدة إذ يسمعون الكلمة يحفظونها. فلا الشيطان ولا كلّ أعوانه الأشرار يستطيعون أن يختطفوها.

ولكن مجرّد سماع الكلمة أو قراءتها لا يكفي. فعلى من يرغب في الانتفاع بكلمة اللّٰه أن يتأمل [60] في الحق المقدم له. فعليه، بالانتباه الجاد الغيور والتفكير في روح الصلاة، أن يتفهّم معنى كلام الحق ويجرع بعمق من روح أقوال اللّٰه المقدسة.

إنّ اللّٰه يأمرنا بأن نملأ عقولنا بالأفكار العظيمة الطاهرة. ويريدنا أن نتأمل في محبته ورحمته وندرس عمله العجيب في تدبير الفداء العظيم. وحينئذ يصير إدراكنا للحق أوضح وأوضح، واشتياقُنا إلى طهارة القلب وصفاء الذهن أسمى وأقدس. وإذ تسكن النفس في الجو النقي، جو التفكير المقدس ستتغير بواسطة الشركة مع اللّٰه عن طريق درس كلمته.

« يأتي بثمر ». أولئك الذين إذ يسمعون الكلمة يحفظونها سيثمرون في الطاعة. فكلمة اللّٰه إذ تُقبل في النفس تظهر في الأعمال الصالحة. وستظهر نتائجها في أخلاق كأخلاق المسيح وحياة كحياته. لقد قال المسيح عن نفسه: « أَنْ أَفْعَلَ مَشيئَتَكَ يَا إلهي سُررْتُ، وَشَريعَتُكَ في وَسَط أَحْشَائي » (مزمور ٤٠: ٨). « لاَ أَطْلُبُ مَشيئَتي بَلْ مَشيئَةَ الآب الَّذي أَرْسَلَني » (يوحنا ٥: ٣٠). والكتاب يقول: « مَنْ قَالَ: إِنَّهُ ثَابتٌ فيه يَنْبَغي أَنَّهُ كَمَا سَلَكَ ذَاكَ هكَذَا يَسْلُكُ هُوَ أَيْضًا » (١يوحنا ٢: ٦).

وكثيرا ما تصطدم كلمة اللّٰه بأخلاق الإنسان الموروثة والتي كوَّنها في نفسه وعادات حياته. ولكنّ السامع الذي يشبه الأرض الجيدة إذ يسمع الكلمة يقبلها ويقبل كل شروطها ومطاليبها. فطباعه وعاداته وأعماله تُخضع لكلمة اللّٰه. وفي نظره تُعتبر أوامر الإنسان المحدود المخطئ تافهة بالمقارنة مع كلمة الإله السرمدي غير المحدود. وبقلب كامل وبعزم غير منقسم يطلب الحياة الأبدية وهو سيطيع الحق حتى لو كلفه ذلك الخسارة أو الاضطهاد أو الموت نفسه.

وهو يثمر « بالصَّبْر ». ليس واحد ممّن يقبلون كلمة اللّٰه معفى من الصعوبات والتجارب، ولكن [61] عندما تأتي التجربة فالمسيحي بالحقّ لا يصير ضجراً أو عديم الثقة أو بائساً. فمع أننا لا نستطيع أن نعرف أو نرى النتيجة

المحددة للأحداث ولا أن ندرك قصد اللّٰه في معاملات عنايته لنا فينبغي ألاّ نطرح عنا ثقتنا. فإذ نذكر مراحم الرب يجب أن نلقي همنا عليه وبالصبر نتوقع خلاصه.

الحياة الروحية تتقوّى بالجهاد. فإذ نحتمل المحن فذلك يزيد من رسوخ خُلُقنا ويزيد من فضائلنا الروحية الثمينة. إنّ ثمر الإيمان الكامل، بالوداعة والمحبة، غالبا ما ينضج بشكل أفضل في وسط عواصف السحب والظلام.

« هُوَذَا الْفَلاَحُ يَنْتَظِرُ ثَمَرَ الأَرْضِ الثَّمِينَ، مُتَأَنِّيًا عَلَيْهِ حَتَّى يَنَالَ الْمَطَرَ الْمُبَكِّرَ وَالْمُتَأَخِّرَ » (يعقوب ٥: ٧). وكذلك يجب على المسيحي أن يتوقع بالصبر أن تثمر كلمة اللّٰه في حياته. وغالبا عندما نصلي في طلب هبات الروح يعمل اللّٰه على إجابة صلواتنا بأن يضعنا في ظروف تنمّي هذه الثمار. ولكننا لا ندرك قصده فنندهش ونيأس. وليس أحد يمكنه أن يظهر هذه المواهب إلاّ عن طريق عملية النمو والإثمار. فعملنا هو أن نقبل كلمة اللّٰه ونتمسك بها خاضعين بالتمام لسلطانها وحينئذ يتمّ غرضها فينا.

قال المسيح: « إِنْ أَحَبَّنِي أَحَدٌ يَحْفَظْ كَلاَمِي، وَيُحِبُّهُ أَبِي، وَإِلَيْهِ نَأْتِي، وَعِنْدَهُ نَصْنَعُ مَنْزِلاً » (يوحنا ١٤: ٢٣). إنّ قوةً أسمى، قوة عقل كامل تحيط بنا لأنّ لنا اتصالاً حيّا بنبع القوة الباقية إلى الأبد. وفي حياتنا الإلهية سنُسبى ليسوع المسيح. ولن نعيش فيما بعد الحياة العادية حياة الأثرة ولكن المسيح يحيا فينا. وصفاته ستتكرر في طبيعتنا. وهكذا نثمر ثمر الرُّوح الْقُدُس – « وَاحِدٌ ثَلاَثِينَ وَآخَرُ سِتِّينَ وَآخَرُ مِئَةً » (مرقس ٤: ٢٠). [62]

٣

« أَوَّلاً نَبَاتًا، ثُمَّ سُنْبُلاً »

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في مرقس ٤: ٢٦-٢٩).

أثار مثل الزارع كثيرا من التساؤل. واستنتج بعض السامعين من المثل أنّ المسيح لن يقيم مملكة أرضية فاستغرب الكثيرون وشملهم الارتباك. فإذ رأى المسيح ارتباكهم استعمل أمثالا أخرى وهو لا يزال يسعى أن يحوّل تفكيرهم عن أمل إقامة مملكة أرضية إلى عمل نعمة اللّٰه في القلب.

« وَقَالَ: هكَذَا مَلَكُوتُ اللّٰه: كَأَنَّ إِنْسَانًا يُلْقِي الْبِذَارَ عَلَى الأَرْض، وَيَنَامُ وَيَقُومُ لَيْلاً وَنَهَارًا، وَالْبِذَارُ يَطْلُعُ وَيَنْمُو، وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ كَيْفَ، لأَنَّ الأَرْضَ مِنْ ذَاتِهَا تَأْتِي بِثَمَر. أَوَّلاً نَبَاتًا، ثُمَّ سُنْبُلاً، ثُمَّ قَمْحًا مَلآنَ فِي السُّنْبُل. وَأَمَّا مَتَى أَدْرَكَ الثَّمَرُ، فَلِلْوَقْت يُرْسِلُ الْمِنْجَلَ لأَنَّ الْحَصَادَ قَدْ حَضَرَ » (مرقس ٤: ٢٦-٢٩).

إنّ الزارع الذي « يُرْسِلُ الْمِنْجَلَ لأَنَّ الْحَصَادَ قَدْ حَضَرَ » (عدد ٢٩) لا يمكن أن يكون غير المسيح. إنّه [63] هو الذي في اليوم الأخير العظيم يحصد الأرض. أمّا الزارع الذي يزرع البذار فيمثّل من يخدمون عوضاً عن المسيح. قيل عن البذار أنّه: « يَطْلُعُ وَيَنْمُو، وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ كَيْفَ » (عدد ٢٧)، ولكن هذا الكلام لا يصدقُ على ابن اللّٰه. فالمسيح لا ينام أبداً على حراسته بل يحرس حراسته ليلاً ونهاراً. ثم هو لا يجهل كيف ينمو البذار.

إنّ مَثَل البذار يعلن أن اللّٰه يعمل في الطبيعة. فالبذرة لها في ذاتها مبدأ الإنبات، مبدأ غرسه اللّٰه بنفسه، ومع ذلك فلو أنّ البذرة تُترك لنفسها فلن تستطيع أن تنبت. والإنسان له دوره الذي يقوم به في المساعدة على نمو البذرة. فعليه أن يعدّ التربة ويخدمها ليزيد من خصوبتها ويلقي فيها البذار. وعليه أن يحرث الحقول. ولكن يوجد حدّ لا يمكن أن يتعداه ولا يستطيع أن يعمل شيئا بعده. فلا قوة الإنسان ولا حكمته تستطيع أن تخرج النبات الحي من البذرة. ولو بذل الإنسان قصاراه فعليه أن يعتمد على ذاك الذي قد ربط الزرع والحصاد بحلقات قدرته العجيبة القادرة على كل شيء.

توجد في البذرة حياة، وتوجد في التربة قوة، ولكن ما لم تعمل القوة غير المحدودة ليلاً ونهاراً فلن تأتي البذرة بأي ثمر. وينبغي أن تنزل سيول المطر لترطب وتروي الحقول الظامئة إلى الماء، ويجب أن تعطي الشمس حرارتها، وأن تتصل الكهرباء بالبذرة المدفونة، فالحياة التي قد أودعها الخالق يستطيع هو وحده أن يخرجها. فكل بذرة تطلع وكل نبتة تنمو بقوة اللّٰه.

« لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الأَرْضَ تُخْرِجُ نَبَاتَهَا، وَكَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ تُنْبِتُ مَزْرُوعَاتِهَا، هكَذَا السَّيِّدُ الرَّبُّ يُنْبِتُ بِرًّا وَتَسْبِيحًا » (إِشَعْيَاء ٦١: ١١). وكما في الزرع الطبيعي كذلك في الزرع الروحي يجب على معلم الحق أن يحاول تهيئة تربة القلب، وعليه أن يلقي البذار، أما القوة التي تستطيع وحدها أن توجد الحياة فهي من اللّٰه. يوجد حدّ لا يجدي بعده [64] أي مجهود بشري. ففي حين يجب علينا أن نكرز بالكلمة فإننا لا نستطيع أن نمنح القوة المحيية للنفس والتي تنبت البرّ والتسبيح. ففي الكرازة بالكلمة يجب أن تكون هناك قوة عاملة فوق القوة البشرية. فبواسطة روح اللّٰه وحده يمكن أن تكون الكلمة حية وفعالة لتجديد النفس للحياة الأبدية. هذا ما حاول المسيح أن يطبعه في أذهان تلاميذه. فقد علمهم أنه لا يوجد شيء يملكونه في أنفسهم بمقدوره أن ينجح أعمالهم وخدماتهم، إنما قوة اللّٰه الصانعة المعجزات هي وحدها التي تعطي لكلامه الفعالية.

إنّ عمل الزارع هو عمل الإيمان. إنّه لا يستطيع أن يدرك سرّ استنبات البذار ونموه. ولكن له ثقة في العوامل التي بها يجعل اللّٰه النباتات تطلع وتزدهر. إنّه إذ يلقي البذار في الأرض يبدو وكأنّه يبدّد الحبوب الثمينة التي

تحتاجها عائلته لإمدادها بالخبز. إلاّ [65] أنّه فقط يتخلى عن خير حاضر في انتظار حصاد أعظم. إنّه يلقي البذار بعيداً منتظرا أن يحصل على أضعاف كثيرة في حصاد وفير. وكذلك عل خدام المسيح أن يخدموا منتظرين حصاداً من البذار الذي يزرعونه.

وقد يظل البذار الجيد مدفونا في قلب بارد محب لذاته عالمي دون أن يلاحظه أحد، ودون أن يعطي أيّة دلالة على أنّ جذوره تمتد في الأرض، ولكن بعد ذلك حين يهب روح اللّه على النفس فإنّ البذار المدفون يطلع وأخيراً يثمر لمجد اللّه. وفي عمل حياتنا نحن لا نعلم أيهما سينجح هذا أو ذاك. إذ ليس لنا نحن أن نبتّ في الجواب. إنّما علينا أن نقوم بعملنا ونترك النتائج في يد اللّه: « فِي الصَّبَاحِ ازْرَعْ زَرْعَكَ، وَفِي الْمَسَاءِ لاَ تَرْخِ يَدَكَ » (جامعة ١١: ٦). إنّ ميثاق اللّه العظيم يعلن قائلاً: « مُدَّةَ كُلِّ أَيَّامِ الأَرْضِ: زَرْعٌ وَحَصَادٌ ... لاَ تَزَالُ » (تكوين ٨: ٢٢). وبالاستناد على هذا الوعد يحرث الفلاح ويزرع. وفي مجال الزرع الروحي علينا أن نخدم بثقة لا تقل عن ثقة الفلاح متكلين على كلام الرب وتأكيداته. « هكَذَا تَكُونُ كَلِمَتِي الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ فَمِي. لاَ تَرْجِعُ إِلَيَّ فَارِغَةً، بَلْ تَعْمَلُ مَا سُرِرْتُ بِهِ وَتَنْجَحُ فِي مَا أَرْسَلْتُهَا لَهُ » (إِشَعْيَاء ٥٥: ١١). « اَلذَّاهِبُ ذَهَابًا بِالْبُكَاءِ حَامِلاً مِبْذَرَ الزَّرْعِ، مَجِيئًا يَجِيءُ بِالتَّرَنُّمِ حَامِلاً حُزَمَهُ » (مزمور ١٢٦: ٦).

إنّ استنبات البذار يرمز إلى بدء الحياة الروحية. ونمو النبات هو رمز جميل للنمو المسيحي. فكما في الطبيعة كذلك في النعمة، فلا يمكن أن تكون هنالك حياة ما لم يكن نمو. فالنبات إمّا أن ينمو أو يذوي ويموت. وكما أنّ نموه ساكن ولا يُرى بالعين بل هو مستمر كذلك الحال في نمو الحياة المسيحية. وفي كل طور من أطوار النمو يمكن أن تكون حياتنا كاملة، ولكن إذا تم قصد اللّه من جهتنا فسيكون هناك نمو مطرد وتقدم مستمر. إنّ التقديس عمل يدوم مدى الحياة. فبقدر ما تتضاعف الفرص المقدمة لنا يتسع اختبارنا [66] وتزداد معرفتنا. وسنتشدد لحمل المسؤوليات وسيكون نضوجنا بنسبة امتيازنا.

إنّ النبات ينمو بواسطة إمداده بما قد أعده اللّه للإبقاء على حياته. فهو يعمّق جذوره في الأرض ويستقي من نور الشمس وحرارتها والندى والمطر. ويقتبل العناصر المانحة الحياة من الهواء. وكذلك [67] على المسيحي أن

ينمو بالتعاون مع العوامل الإلهية. فإذ نحس بعجزنا علينا أن نحسن استخدام الفرص الممنوحة لنا للحصول على اختبار أكمل. وكما يرسل النبات جذوره في الأرض كذلك علينا نحن أن نغرس أصولنا في المسيح. وكما يقبل النبات حرارة الشمس والندى والمطر كذلك علينا نحن أن نفتح قلوبنا للروح القدس. والعمل يُعمل: « لاَ بِالْقُدْرَةِ وَلاَ بِالْقُوَّةِ، بَلْ بِرُوحِي قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ » (زكريا ٤: ٦). فإذا كنا نثبت أفكارنا وعقولنا في المسيح فسيأتي إلينا: « كَالْمَطَرِ. كَمَطَرٍ مُتَأَخِّرٍ يَسْقِي الأَرْضَ » (هوشع ٦: ٣). وسيشرق علينا كشمس البر تشرق « وَالشِّفَاءُ فِي أَجْنِحَتِهَا » (ملاخي ٤: ٢). وحينئذ يقال عنا « يُزْهِرُ كَالسَّوْسَنِ » « يُحْيُونَ حِنْطَةً وَيُزْهِرُونَ كَجَفْنَةٍ » (هوشع ١٤: ٥، ٧). وإذ نعتمد على المسيح دائما كمخلصنا الشخصي ننمو فيه في كل شيء الذي هو رأسنا.

إن الحنطة تنمو وتتطور « أَوَّلاً نَبَاتًا، ثُمَّ سُنْبُلاً، ثُمَّ قَمْحًا مَلآنَ فِي السُّنْبُلِ» (مرقس ٤: ٢٨). إن غاية الفلاح من إلقاء بذاره والعناية بالنبات النامي هو محصول الحنطة. إنّه يبتغي الحصول على خبز للجياع وبذار للمحاصيل القادمة. وكذلك الزارع الإلهي ينتظر حصاداً جزاء له على تعبه وتضحيته. إنّ المسيح يسعى لكي يطبع صورته في قلوب الناس، وهو يفعل ذلك عن طريق من يؤمنون به. إنّ غاية الحياة المسيحية هي الإتيان بثمر – انطباع صفات المسيح في قلب المؤمن حتى تنطبع في قلوب الآخرين.

إنّ النبات لا ينبت ولا ينمو ولا يثمر لنفسه بل ليعطي « زَرْعًا لِلزَّارِعِ وَخُبْزًا لِلآكِلِ » (إِشَعْيَاء ٥٥: ١٠). كذلك ليس لإنسان أن يعيش لنفسه. فالمسيحي في العالم هو نائب عن المسيح لأجل خلاص نفوس الغير.

ولا يمكن أن يكون هنالك نمو أو إثمار في الحياة المتركزة في ذاتها. فإذا كنت قد قبلت المسيح كمخلصك الشخصي [68] فعليك أن تنسى ذاتك وتجتهد في مساعدة الآخرين. تحدَّث عن محبة المسيح وأخبر الناس عن جوده. وقم بكلّ واجب يعرض لك. تثقَّل بمسؤولية نفوس الناس وضعها على قلبك، وبكل وسيلة في مقدورك حاول أن تخلّص الهالكين. وإذ تحصل على روح المسيح – روح المحبة المنكرة لذاتها والعمل لأجل الآخرين فستنمو وتأتي بثمر. وستنضج هبات الروح في خلقك. وسيزيد

إيمانك وتتعمق اقتناعاتك وتتكمل محبتك. وستعكس صورة المسيح في نفسك في كل ما هو طاهر ونبيل وجميل.

« وَأَمَّا ثَمَرُ الرُّوحِ فَهُوَ: مَحَبَّةٌ فَرَحٌ سَلاَمٌ، طُولُ أَنَاةٍ [69] لُطْفٌ صَلاَحٌ، إِيمَانٌ وَدَاعَةٌ تَعَفُّفٌ » (غلاطية ٥: ٢٢، ٢٣). هذا الثمر لا يمكن أن يفنى بل لابد أن يثمر ثمراً كجنسه، حصاداً للحياة الأبدية.

« مَتَى أَدْرَكَ الثَّمَرُ، فَلِلْوَقْتِ يُرْسِلُ الْمِنْجَلَ لأَنَّ الْحَصَادَ قَدْ حَضَرَ » (مرقس ٤: ٢٩). إنّ المسيح ينتظر باشتياق أمنيته لإظهار ذاته في كنيسته. وعندما تنطبع صفات المسيح في شعبه تماما فحينئذ سيطالب بهم كخاصته.

إنّه امتياز لكل مسيحي ليس فقط أن ينتظر مجيء ربنا يسوع المسيح بل أيضاً أن يطلب سرعته (٢بطرس ٣: ١٢). فلو أن كل من يُدعون باسمه يثمرون لمجده فما كان أسرع ما يُزرع العالم كله ببذار الإنجيل. وكان الحصاد الأخير العظيم ينضج سريعا وكان المسيح يأتي ليجمع الثمر الثمين. [70]

٤

الـزَّوَان

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في متى ١٣: ٢٤-٣٠، ٣٧-٤٣).

« قَدَّمَ لَهُمْ مَثَلاً آخَرَ قائلاً: يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَات إِنْسَانًا زَرَعَ زَرْعًا جَيِّدًا في حَقْله. وَفيمَا النَّاسُ نِيَامٌ جَاءَ عَدُوُّهُ وَزَرَعَ زَوَانًا في وَسْط الْحِنْطَة وَمَضَى. فَلَمَّا طَلَعَ النَّبَاتُ وَصَنَعَ ثَمَرًا، حينَئذ ظَهَرَ الزَّوَانُ أَيْضًا » (متى ١٣: ٢٤-٢٦).

قال المسيح: « الْحَقْلُ هُوَ الْعَالَمُ » (عدد ٣٨). ولكن يجب أن نفهم هذا على أنه يشير إلى كنيسة المسيح في العالم. فالمثل هو وصف لما يختص بملكوت اللّٰه وعمله لخلاص الناس، وهذا العمل يتمّ عن طريق الكنيسة. نعم إنّ الرُّوح الْقُدُس قد خرج إلى كل العالم، وفي كل مكان يرف على قلوب الناس، إنّما في الكنيسة علينا أن ننمو وننضج لنوضع في مخزن اللّٰه.

« اَلزَّارِعُ الزَّرْعَ الْجَيِّدَ هُوَ ابْنُ الإِنْسَان ... وَالزَّرْعُ الْجَيِّدُ هُوَ بَنُو الْمَلَكُوت. وَالزَّوَانُ هُوَ بَنُو الشِّرِّير ». إنّ الزرع الجيدَ يمثل من قد ولدوا بكلمة [71] اللّٰه. كلمة الحق. والزوان يمثل جماعة هم ثمرة أو تجسم الضلال، والمبادئ الكاذبة. « وَالْعَدُوُّ الَّذي زَرَعَهُ هُوَ إِبْليسُ ». فلا اللّٰه ولا ملائكته زرعوا زرعاً يمكن أن يكون زواناً. إنّ الزوان هو ما يزرعه الشيطان دائما فهو عدو اللّٰه والإنسان.

في بلاد الشرق أحيانا كان إنسان ينتقم من عدوّ له بأن يبذر في حقوله المزروعة حديثاً بذار بعض الأعشاب الضارة. وإذ تطلع وتنمو تكون قريبة الشبه

بالحنطة. وإذ تكبر مع الحنطة تضرّ بالمحصول وتجلب على صاحب الحقل الاضطراب والخسارة. وهكذا الشيطان بسبب عداوته للمسيح يبذر بذاره الشرير الضارّ بين البذار الجيد. بذار الملكوت. وهو ينسب ثمار ما قد زرعه إلى ابن اللّٰه. فإذ يدس في الكنيسة أولئك الذين يحملون اسم المسيح في حين أنّهم يتنكرون لصفاته فإنّ الشرير يقصد أن يهين اللّٰه ويشوّه عمل الخلاص بتعريض النفوس للخطر.

وخدام المسيح يحزنون إذ يرون المؤمنين الأمناء والكذبة مختلطين معا في الكنيسة. وهم يتوقون إلى عمل شيء لتنقية الكنيسة. وكعبيد رب البيت هم مستعدون أن يقتلعوا الزوان. ولكن المسيح يقول: « لاَ! لئَلاَّ تَقْلَعُوا الْحِنْطَةَ مَعَ الزَّوَانِ وَأَنْتُمْ تَجْمَعُونَهُ. دَعُوهُمَا يَنْمِيَانِ كِلاَهُمَا مَعًا إِلَى الْحَصَادِ. »

لقَد علم المسيح بوضوح أنّ مَن يَصرون على ارتكاب خطيةَ علنية يجب أن يُفصلوا من الكنيسة، إلاّ أنّه لم يسند إلينا عمل الحكم على الأخلاق والبواعث. إنّه يعرف طبيعتنا جيدا بحيث لا يكلُ إلينا هذا العمل. فلو حاولنا أن نقتلع من الكنيسة من نظن أنهم مسيحيون مزَيَّفون فبالتأكيد سنخطئ. فنحن في غالب الأحيان قد نعتبر نفس الناس الذين يحاول المسيح أن يجتذبهم إليه أعضاء لا رجاء فيهم. فلو [72] تعاملنا مع هذه النفوس بموجب حكمنا الناقص فقد يطفئ ذلك آخر رجاء لهم. إنّ كثيرين ممن يظنون أنفسهم مسيحيين سيوجدون ناقصين في النهاية. وكثيرون سيكونون في السماء ممن ظن جيرانهم أنهم لن يدخلوها. إنّ الإنسان يحكم حسب الظاهر أما اللّٰه فيدين القلب. سينمو الزوان والحنطة معا إلى الحصاد والحصاد هو انتهاء زمن النعمة.

ثمّ إنّ لنا في أقوال المُخَلِّص درسا آخر، درسا في الصبر العجيب والمحبة المشفقة. فكما أنّ جذور الزوان متداخلة ومضفورة مع جذور الزرع الجيد كذلك يمكن أنّ الإخوة الكذبة في الكنيسة يكونون مرتبطين بالتلاميذ الأمناء. إنّ الخلق الحقيقي لهؤلاء الذين يتظاهرون بالإيمان لن يُعلن كاملا، فلو فُصلوا من الكنيسة فقد يتعثّر آخرون الذين لولا هذا الإجراء لظلّوا ثابتين.

إنّ تعليم هذا المثل يبيّن معاملات اللّٰه للناس والملائكة. إنّ الشيطان مخادع ومخاتل. فعندما أخطأ في السماء فحتى الملائكة الباقون على ولائهم للّٰه لم يعرفوا خُلقَه على حقيقته. وهذا هو السبب الذي لأجله لم يهلك اللّٰه الشيطان في الحال. فلو أهلكه حالا لما أدرك الملائكة القديسون عدالة اللّٰه ومحبته. والشك في صلاح اللّٰه كان يمكن أن يكون زرعا شريرا يثمر ثمرا

مرُا من الخطية والشقاء. ولذلك فقد أبقى اللّٰه على أصل الشرّ لكي يظهر أخلاقه بالتمام. فمدى أجيال طويلة أحتمل اللّٰه عذاب رؤية عمل الشر، وقدَّم هبة جلجثة السرمدية مفضِّلاً هذا على أن يرى أي إنسان مخدوعاً بتمويهات الشرير، إذ لم يكن من الممكن اقتلاع الزوان بدون أن يتعرض الزرع الجيد الثمين لخطر القلع. أفلا يجب علينا أن نكون صبورين على بني جنسنا كما يصبر رب السماء والأرض على الشيطان؟

لا حق للعالم في أن يشك في صدق المسيحية [73] لأنَّه يوجد في الكنيسة أعضاء غير مستأهلين، ولا ينبغي للمسيحيين أن تضعف قلوبهم بسبب هؤلاء الإخوة الكذبة. كيف كانت الحال في الكنيسة الأولى؟ لقد انضم حنانيا وسفيرة إلى جمهور التلاميذ. وسيمون الساحر اعتمد. وديماس الذي ترك بولس كان محسوباً مؤمناً. ويَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيَّ كان معدودا ضمن الرسل. إنّ الفادي لا يريد أن تهلك أو تضيع نفس واحدَة، وقد سُجل اختباره مع يهوذا ليظهر طول أناته وصبره على الطبيعة البشرية الفاسدة، وهو يأمرنا أن نحتملها كما سبق هو فاحتملها. لقد قال إنّ الإخوة الكذبة سيوجدون في الكنيسة إلى انقضاء الدهر. [74]

ولكن حاول الناس اقتلاع الزوان برغم إنذار المسيح. لقد لجأت الكنيسة إلى السلطات المدنية لمعاقبة من كان يُظنّ أنهم فاعلوا شرّ. والذين خرجوا على العقائد المقرّرة سُجنوا وعذُبوا وقُتلوا بتحريض الرجال الذين كانوا يدعون أنّهم إنّما يفعلون ما صادق عليه المسيح. ولكنّ الروح الذي يوحي بمثل هذه الأعمال ليس هو روح المسيح بل روح الشيطان. فهذه هي وسيلة الشيطان في إخضاع العالم لسلطانه. لقد أُسيء تمثيل اللّٰه بواسطة الكنيسة بهذه الوسيلة التي اتبعتها في معاملة من حسبتهم هراطقة.

إنّ المسيح في هذا المثل لا يعلِّم بوجوب محاكمة الآخرين وإدانتهم بل يعلمنا الوداعة وعدم الثقة بالذات. ليس كل ما يُزرع في الحقل هو زرع جيّد. إنّ وجود الناس في الكنيسة ليس برهاناً على كونهم مسيحيين.

كان الزوان قريب الشبه بالحنطة جداً عندما كان النبات أخضرَ، ولكن عندما ابيضّ الحقل للحصاد لم تكن هنالك مشابهة بين الأعشاب العديمة النفع والحنطة المحمّلة والمثقلة بالسنابل الممتلئة حنطة. والخطاة الذين يتظاهرون بالتقوى يندمجون إلى حين بين أتباع المسيح الأمناء ويُحسب أن مظهر المسيحية يخدع كثيرين. ولكن عند حصاد العالم لن يكون هنالك أي تشابه بين الخير والشر.

وحينئذ فالذين قد انضموا إلى الكنيسة دون أن يقبلوا المسيح سينكشفون.

إنّ الزوان يُسمح له بأن ينمو في وسط الحنطة وبأن يتمتع بكل امتيازات الشمس والأمطار، ولكن في وقت الحصاد « تَعُودُونَ وَتُمَيِّزُونَ بَيْنَ الصِّدِّيق وَالشِّرِّير، بَيْنَ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ وَمَنْ لاَ يَعْبُدُهُ » (ملاخي ٣: ١٨). والمسيح نفسه سيقرر من هم المستحقّون لأن يسكنوا مع أسرة السماء. وهو سيحكم على كل إنسان بحسب أقواله وأعماله. إنّ العقيدة أو الاعتراف لا يساوي شيئا في الميزان. ولكن الخلق هو الذي يقرر المصير. [75]

إنّ المُخَلِّص لا يشير إلى وقت في المستقبل فيه يستحيل كل الزوان إلى حنطة. فالحنطة والزوان ينميان معاً إلى الحصاد الذي هو انتهاء العالم. حينئذ يُحزم الزوان حزماً ليحرق، أمّا الحنطة فتُجمع إلى مخزن اللّه: « حينَئذ يُضيءُ الأبْرَارُ كَالشَّمْس في مَلَكُوت أبيهمْ » وإذ ذاك « يُرْسلُ ابْنُ الإنْسَانَ مَلاَئكَتَهُ فَيَجْمَعُونَ منْ مَلَكُوته جَميعَ الْمَعَاثر وَفَاعلي الإثْم، وَيَطْرَحُونَهُمْ في أتُون النَّار. هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصَريرُ الأَسْنَانَ » (متى ١٣: ٤١، ٤٢). [76]

٥

« مِـثْل حَـبّة خَـردل »

كان بين الجموع التي استمعت لتعليم المسيح كثيرون من الفريسيين. هؤلاء الناس لاحظوا بازدراء قلة عدد من اعترفوا به كمسيّا من بين سامعيه. وكانوا يسائلون أنفسهم كيف يمكن لهذا المعلّم الساذج أن يرفع شأن إسرائيل إلى ذروة السيادة الشاملة. فبدون غنى أو سلطان أو كرامة كيف يمكنهُ أن يوطّد دعائم الملكوت الجديد؟ وقد قرأ المسيح أفكارهم فأجابهم:

« بِمَاذَا نُشَبِّهُ مَلَكُوتَ اللّٰه؟ أَوْ بِأَيِّ مَثَل نُمَثِّلُهُ »؟ في حكومات الأرض لا يوجد ما يصلَح لأن يكون شبيهاً به. ولا يوَجد مجتمع مدني يمكن أن يتخذه السيد رمزاً له، فقال: « مِثْلُ حَبَّة خَرْدَل، مَتَى زُرِعَتْ فِي الأَرْض فَهِيَ أَصْغَرُ جَمِيعِ الْبُزُور الَّتِي عَلَى الأَرْض. وَلكِنْ مَتَى زُرِعَتْ تَطْلُعُ وَتَصِيرُ أَكْبَرَ جَمِيعِ الْبُقُول، وَتَصْنَعُ أَغْصَانًا كَبِيرَةً، حَتَّى تَسْتَطِيعَ طُيُورُ السَّمَاءِ أَنْ تَتَآوَى تَحْتَ ظِلِّهَا» (مرقس ٤: ٣٠-٣٢). [77]

إنّ الجرثومة التي في البذرة تنمو بتفتح مبدأ الحياة الذي قد غرسه اللّٰه فيها. ونموّها لا يتوقف على أية قوة بشرية. وكذلك الحال مع ملكوت المسيح. إنّه خليقة جديدة. ومبادئ نموه هي على نقيض المبادئ التي تحكم على ممالك هذا العالم. فالممالك الدنيوية تنتصر بالقوة والعنف وتحتفظ بأملاكها بالحروب. ولكن مؤسس الملكوت الجديد هو رئيس السلام. إنّ الرُّوح الْقُدُس يشبِّه ممالك العالم بالوحوش الضارية المفترسة، أما المسيح فهو « هُوَذَا حَمَلُ اللّٰهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ » (يوحنا ١: ٢٩). وفي تدبيره للحكم لا

يوجد استخدام للقوة الوحشية لإرغام الضمير. كان اليهود ينتظرون أن يتأسس ملكوت اللّه بنفس وسيلة تثبيت ممالك العالم. فلكي ينشروا البر لجأوا إلى إجراءات خارجية. وابتكروا وسائل وخططاً. ولكن المسيح يغرس مبدأ. فإذ يثبِّت الحق والبر يعرقل عمل الضلال والخطية.

فإذ نطق يسوع بهذا المثل كان يمكن رؤية شجرة الخردل من بُعد ومن قرب وقد ارتفعت فوق العشب والحنطة وكانت أغصانها تلوح في الهواء برشاقة. وكانت الطيور تنتقل من فرع إلى آخر وترسل أغاريدها من خلال أوراق الأغصان. ومع ذلك فإن البذرة التي منها نبتت هذه الشجرة العظيمة كانت من أصغر البذور كلها. في بادئ الآمر أخرجت غُصيناً صغيراً رقيقاً، ولكنه كان ذا حيوية قوية فنما وازدهر إلى أن وصل إلى حجمه الحالي العظيم. وكذلك ملكوت المسيح فقد ظهر في بدئه حقيراً لا يُعتد به. فلو قورن بممالك العالم لبدا أصغرهن جميعاً. لقد كان حكام هذا العالم يسخرون من تصريح المسيح بأنّه ملك. ومع ذلك ففي الحقائق العظيمة الجبارة المسلمة لتلاميذه كانت لملكوت الإنجيل قوة حياة إلهية. وما كان أسرع نموه وما كان أوسع مدى تأثيره! عندما نطق المسيح بهذا المثل لم يكن غير عدد قليل من فلاحي الجليل ليمثلوا الملكوت الجديد. [78]

إنّ فقرهم وقلة عددهم اعتبرا مرارا كثيرة سببا لأجله لا يليق بالناس أن ينضموا إلى هؤلاء الصيادين السذج الذين تبعوا يسوع. ولكن حبة الخردل كان عليها أن تنمو وتمد أغصانها في كل أنحاء العالم. وعندما تندثر وتزول ممالك الأرض التي ملأ مجدها قلوب الناس حينئذ فإن ملكوت المسيح سيبقى قوة جبارة تملأ الأرجاء.

وهكذا عمل النعمة في القلب هو صغير في مبدئه. فإذ تُقال كلمة ينسكب شعاع من النور في النفس وتُبذل قوة وتأثير هما بدء الحياة الجديدة، ومن ذا الذي يستطيع أن يقيس نتائجهما!

إنّ مثل حبة الخردل لا يشرح نمو ملكوت المسيح فقط بل في كل طور من أطوار النمو يتكرر الاختبار المشروح في المثل. لقد أعد اللّه لكنيسته في كل عصر وكل جيل حقّاً خاصاً وعملا خاصا. فالحق الذي قد أُخفي عن عقلاء هذا العالم وحكمائه أُعلن لمن هم كالأطفال والودعاء. إنّه يتطلب إنكار الذات والتضحية. ولديه معارك يخوضها ونصرات يحرزها. في البدء نجد أن مناصريه قليلون. فعظماء العالم والكنيسة المجارية للعالم يقاومونهم ويزدرونهم. انظروا يوحنا المعمدان سابق المسيح وهو واقف وحده موبخا كبرياء الأمة اليهودية

وتمسكها بالرسميات. وانظروا حاملي الإنجيل الأولين إلى أوروبا. وكم كانت رسالة بولس وسيلا، صانعي الخيام، تبدو مغمورة وبائسة حين أبحرا مع رفقائهما من ترواس إلى فيلبي. ثم انظروا « بُولُسَ الشَّيْخَ » السفير في سلاسل وهو يكرز بالمسيح في معقل القياصرة. ثم انظروا إلَى الجماعات الصغيرة من العبيد والفلاحين وهم في نضال مع وثنية روما الإمبراطورية. وانظروا كذلك إلى مارتن لوثر وهو يصمد أمام تلك الكنيسة العظيمة التي هي طُرفة الحكمة العالمية. انظروه وهو متشبث بكلمة اللّٰه ضد الإمبراطور والبابا وهو يقول « إنّي اتخذ موقفي هنا. ولا يمكنني أن افعل غير ذلك. وليكن اللّٰه في عوني ». ثم انظروا [79] جون وسلي وهو يكرز بالمسيح وبرّه في وسط التمسك بالطقوس والشهوانية والإلحاد. انظروا إنساناً مثقلاً بحمل ويلات العالم الوثني متوسلا في طلب امتياز حمل رسالة محبة المسيح إليهم. ثم اسمعوا بماذا أجابه رجال الإكليروس، فقد قالوا له: « اجلس أيها الشاب. إنّ اللّٰه حين يريد أن يهدي الوثنيين فهو سيفعل ذاك بدون مساعدتك أو مساعدتنا. »

إنّ قادة الفكر الديني العظام في هذا العصر يشيدون بمديح من قد زرعوا بذار الحق في القرون الماضية ويقيمون لهم الأنصاب. إلا يوجد كثيرون ممن ينحرفون عن هذا العمل ليطأوا بأقدامهم على النبات الطالع من نفس هذا البذار اليوم؟ إنّ الصرخة القديمة تتردّد من جديد قائلة: « نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ مُوسَى كَلَّمَهُ اللّٰهُ (أي المسيح في شخص الرسول الذي يرسله) وَأَمَّا هذَا فَمَا نَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ هُوَ » (يوحنا ٩: ٢٩). وكما في الأجيال القديمة نجد أن الحقائق الخاصة بهذا العصر لا توجد في سلطات رجال الدين بل مع الرجال والنساء الذين ليسوا أعلم ولا أحكم من أن يؤمنوا بكلمة اللّٰه.

« فَانْظُرُوا دَعْوَتَكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ، أَنْ لَيْسَ كَثِيرُونَ حُكَمَاءَ حَسَبَ الْجَسَدِ، لَيْسَ كَثِيرُونَ أَقْوِيَاءَ، لَيْسَ كَثِيرُونَ شُرَفَاءَ، بَلِ اخْتَارَ اللّٰهُ جُهَّالَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الْحُكَمَاءَ. وَاخْتَارَ اللّٰهُ ضُعَفَاءَ الْعَالَمِ لِيُخْزِيَ الأَقْوِيَاءَ. وَاخْتَارَ اللّٰهُ أَدْنِيَاءَ الْعَالَمِ وَالْمُزْدَرَى وَغَيْرَ الْمَوْجُودِ لِيُبْطِلَ الْمَوْجُودَ » (١كورنثوس ١: ٢٦-٢٨): « لِكَيْ لاَ يَكُونَ إِيمَانُكُمْ بِحِكْمَةِ النَّاسِ بَلْ بِقُوَّةِ اللّٰهِ » (١كورنثوس ٢: ٥).

وفي هذا العصر الأخير سيصل مثل حبة الخردل إلى إتمام ظافر وفريد. فالحبة الصغيرة ستصير شجرة. وآخر رسالة للإنذار والرحمة ستصل إلى « كُلَّ أُمَّةٍ وَقَبِيلَةٍ وَلِسَانٍ وَشَعْبٍ » (رؤيا ١٤: ٦-١٤) : « لِيَأْخُذَ مِنْهُمْ شَعْبًا عَلَى اسْمِهِ » (أعمال ١٥: ١٤) وستستنير الأَرْضُ مِنْ بَهَائِهِ (رؤيا ١٨: ١). [80]

٦

دُروس أخرى مِن إلقَاء البذار

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في متى ١٣: ٣١، ٣٢؛ مرقس ٤: ٣٠-٣٢؛ لوقا ١٣: ١٨، ١٩).

يمكننا أن نتعلم دروساً ثمينة في البيت وفي المدرسة من عمل إلقاء البذار ونمو النبات من البذرة. ليتعلم الأولاد والشباب أن يميزوا في الأشياء الطبيعية عمل العوامل الإلهية، وحينئذ يمكنهم أن يدركوا بالإيمان منافع غير منظورة. فإذ يفهمون عمل اللّٰه العجيب في تدبير احتياجات أسرته الكبيرة وكيف أنه يجب علينا أن نتعاون معه فسيزيد إيمانهم باللّٰه وسيتحققون أكثر من قدرته في حياتهم اليومية.

إنّ اللّٰه قد خلق البذرة كما خلق الأرض بكلمته. فبكلمته أعطاها القوة على النمو والتكاثر. قال: « لتُنْبِت الأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلاً يُبْزِرُ بِزْرًا، وَشَجَرًا ذَا ثَمَر يَعْمَلُ ثَمَرًا كَجِنْسه، بِزْرُهُ فِيهِ عَلَى الأَرْض. وَكَانَ كَذلِكَ ... وَرَأَى اللّٰهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ » (تكوين ١: ١١، ١٢). ونفس هذه الكلمة هي التي لا تزال تجعل البذار ينمو. فكل [81] بزرة تخرج أوراقها الخضراء لتستقبل الشمس تعلن عن

القدرة الصانعة المعجزات في تلك الكلمة التي نطق بها ذاك الذي: « قَالَ فَكَانَ. هُوَ أَمَرَ فَصَارَ » (مزمور ٣٣: ٩).

لقد علم المسيح تلاميذه أن يصلوا قائلين: « خُبْزَنَا كَفَافَنَا أَعْطِنَا الْيَوْمَ » (متى ٦: ١١). وإذ أشار إلى الأزهار قدم لهم هذا التأكيد: « فَإِنْ كَانَ عُشْبُ الْحَقْلِ ... يُلْبِسُهُ اللّٰهُ هكَذَا، أَفَلَيْسَ بالْحَرِيِّ جِدًّا يُلْبِسُكُمْ أَنْتُمْ؟ » (متى ٦: ٣٠). والمسيح لا يزال يعمل على إجابة هذه الطلبة وليثبت هذا التأكيد. توجد قوة غير منظورة تعمل على الدوام كخادم للإنسان يقدم له الطعام والكساء. إنّ الرب يستخدم عوامل كثيرة لجعل البذرة التي يبدو أنّها قد طرحت بعيداً، نبتة حية. وبهذه النسبة هو يعدّ كل ما يلزم لإكمال الحصاد. لنسمع الآن الأقوال الجميلة التي كتبها المرنم:

« تَعَهَّدْتَ الأَرْضَ وَجَعَلْتَهَا تَفيضُ. تُغْنيهَا جِدًّا. سَوَاقِي اللّٰه مَلآنَةٌ مَاءً. تُهَيِّئُ طَعَامَهُمْ لأَنَّكَ هكَذَا تُعِدُّهَا. أَرْوِ أَتْلاَمَهَا. مَهِّدْ أَخَادِيدَهَا. بِالْغُيُوث تُحَلِّلُهَا. تُبَارِكُ غَلَّتَهَا. كَلَّلْتَ السَّنَةَ بِجُودِكَ، وَآثَارُكَ تَقْطُرُ دَسَمًا » (مزمور ٦٥: ٩-١١).

إنّ العالم المادي هو تحت سلطان اللّٰه. والطبيعة تطيع نواميسها. فكل شيء يتحدث عن إرادة الخالق ويعمل بها. فالسحاب وإشراق الشمس والطلّ والمطر والرياح والعواصف، كل هذه تحت رقابة اللّٰه وتطيع أوامره طاعة كاملة ثابتة. فبالطاعة لشريعة اللّٰه تنبثق نبتة القمح من الأرض « أَوَّلاً نَبَاتًا، ثُمَّ سُنْبُلاً، ثُمَّ قَمْحًا مَلآنَ فِي السُّنْبُلِ » (مرقس ٤: ٢٨). فهذه ينمّيها الرب [82] في وقتها المناسب لأنّها لا تقاوم عمله. فهل يمكن أنّ الإنسان المجبول على صورة اللّٰه المزوّد بالعقل وقوة النطق هو وحده لا يقدّر هبات اللّٰه ويعصى إرادته؟ وهل الخلائق العاقلة وحدها هي التي تسبّب التشويش في عالمنا؟

في كل ما يعمل على إعالة الإنسان نرى اتفاقاً بين العمل الإلهي والمجهود البشري. لا يمكن أن يكون هناك حصاد ما لم تقم يدُ الإنسان بدورها في إلقاء البذار. ولكن بدون العوامل التي يقدمها اللّٰه في إرسال الشمس والأمطار والطل والسحاب لا يمكن أن يكون هناك حصاد. وهذا ينطبق على كل عمل أو حرفة وكل فروع الدرس والعلم. وكذلك الحال في الشؤون الروحية في تكوين الخُلُق وكل فروع العمل المسيحي. علينا دور يجب أن نحصل على القوة الإلهية لتتّحد معنا، وإلاّ فإنّ جهودنا تصير إلى العبث.

وكلما ينجز الإنسان عملاً سواء في الدائرة الروحية أو الزمنية عليه أن يذكر دائما أنّه إنّما يفعل ذلك بالتعاون مع خالقه. فمن اللازم لنا جداً أن

ندرك اعتمادنا على اللّٰه. إنّنا نجعل ثقتنا في الإنسان أكثر مما يلزم، ونعتمد على الاختراع البشري أكثر مما يجب. أمّا ثقتنا بالقدرة التي نجد اللّٰه على أتم استعداد لأن يمنحنا إياها فهي أقلّ بكثير مما يجب: « فَإِنَّنَا نَحْنُ عَامِلاَنِ مَعَ اللّٰه » (١كورنثوس ٣: ٩). إنّ الدور الذي يقوم به العامل البشري هو أقلَ بما لا يَقاس، أما إذا اقترن بألوهية المسيح فإنّه يستطيع كل شيء بالقوة التي يمنحه المسيح إياها.

إنّ النمو التدريجي للنبات من البذرة هو درس منظور في تربية الأولاد. إنّه يكون « أَوَّلاً نَبَاتًا، ثُمَّ سُنْبُلاً، ثُمَّ قَمْحًا مَلآنَ فِي السُّنْبُلِ ». إنّ ذاك الذي [83] قدّم هذا المثل خلق البذرة الصغيرة وأودع فيها خواصها الحيوية ورسم النواميس التي تحكم نموها. هذا، وأن الحقائق التي يعلمنا إياها هذا المثل صارت حقيقة حية في حياته. وفي كلتا طبيعتيه الجسدية والروحية اتبع النظام الإلهي في النمو ممثلاً في النبات كما يريد أن يفعل كل شاب. ومع أنه كان جلال السماء وملك المجد فقد صار طفلا في بيت لحم، وقد ظل وقتا يمثل الطفل القاصر تحت رعاية أمه. وفي صباه كان يعمل أعمال صبي مطيع. كان يتكلم ويعمل بحكمة الصبي لا بحكمة الرجل، مكرما أبويه ومنفذا رغباتهما في التعاون طبقاً لمقدرته كصبي. ولكن في كل دور من أدوار نموه كان كاملاً بجمال حياته البريئة الطبيعية البسيطة. أن السفر المقدس يقول عنه في طور الصبا: « وَكَانَ الصَّبِيُّ يَنْمُو وَيَتَقَوَّى بِالرُّوحِ، مُمْتَلِئًا حِكْمَةً، وَكَانَتْ نِعْمَةُ اللّٰه عَلَيْه ». أما عن شبابه فيقول الكتاب: « وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ يَتَقَدَّمُ فِي الْحِكْمَةِ وَالْقَامَةِ وَالنِّعْمَةِ، عِنْدَ اللّٰه وَالنَّاس » (لوقا ٢: ٤٠، ٥٢).

إنّ عمل الوالدين والمعلمين يُقترح هنا. فيجب عليهم أن يهدفوا إلى تهذيب ميول الشباب حتى في كل دور من أدوار حياتهم يمثلون ويصوّرون الجمال الطبيعي اللائق بذلك الدور إذ يتفتحون تفتحاً طبيعياً كما تفعل الأغراس في الحديقة.

إنّ الأولاد الطبيعيين غير المتصنعين هم أكثر الأولاد جاذبية. وليس من الحكمة أن نبدي نحوهم اهتماما خاصا، ولا أن نكرر أقوالهم الماهرة الدالة على الذكاء على مسمع منهم. فينبغي ألا نشجعهم على الغرور بالإشادة بجمالهم أو أقوالهم أو أعمالهم. كما لا ينبغي إلباسهم الملابس الغالية الثمن أو المزركشة. هذا يغذّي ويشجع الكبرياء فيهم ويوقظ الحسد في صدور أترابهم.

ينبغي أن يتهذب الصغار في بساطة كبساطة الصغار. [84] وينبغي تربيتهم على القناعة بالواجبات المعينة الصغيرة والمسرّات والاختبارات الطبيعية لمن

هم في مثل سنهم. والصبا يمثله النبات في المثل. وللنبات جماله الخاص به. فينبغي إلا يُرغم الأولاد على أن ينضجوا قبل الأوان، بل عليهم أن يحتفظوا أطول وقت ممكن بنضارة أيام الصبا وجمالها.

ويمكن للأولاد الصغار أن يكونوا مسيحيين وأن يكون لهم اختبار يتناسب وأعمارهم. وهذا هو كل ما ينتظره اللّه منهم. إنّهم بحاجة إلى أن يتهذبوا في الأمور الروحية، فعلى الوالدين أن يقدموا لهم كل ميزة حتى يمكنهم أن يكّونوا خلُقهم على صورة خلُق المسيح.

في نواميس اللّه في الطبيعة نجد أن النتيجة تتبع السبب بتأكيد لا يخطئ. إنّ الحصاد سيشهد عن نوع الزرع. والخادم الكسول تدينه أعماله. والحصاد يشهد عليه. وكذلك الحال في الروحيات، فأمانة كل خادم تقاس بنتائج خدمته. وصفة عمله سواء أكان مجتهداً أو كسولاً يظهرها الحصاد. وبهذه الكيفية يتقرر مصيره في الأبدية.

وكل بذرة تُزرع تنتج حصادا من نوعها. وهكذا في الحياة البشرية. فكلنا بحاجة إلى أن نزرع بذار الرحمة والعطف والحب لأننا سنحصد ما نزرعه. فكل صفة من صفات الأنانية وحب الذات والاعتداد بالذات، وكل عمل من أعمال الإفراط أو الانغماس سيثمر حصاداً من نوعه. فالذي يعيش لنفسه إنما يزرع للجسد ومن الجسد يحصد فساداً.

إنّ اللّه لا يهلك إنساناً. فالذي يهلَك هو الذي يُهلك نفسه. وكل من يخنق إنذارات الضمير إنما يزرع بذار عدم الإيمان وهذه لابد لها من حصاد. إنّ فرعون قديما إذ رفض [85] أول إنذار من اللّه بذر بذار العناد فحصد العناد. فاللّه لم يرغمه على عدم الإيمان. ولكن بذار عدم الإيمان الذي قد زرعه أنتج حصادا من نوعه، وهكذا استمرت مقاومته حتى نظر بأم عينه بلاده الخربة، وإلى جثّة بكره الفاقد الحياة وكل الأبكار في بيته وكل العائلات في أنحاء مملكته إلى أن غطت مياه البحر وغمرت كل فرسانه ومركباته ورجال حربه. إن تاريخه هو إيضاح مرعب لصدق هذا القول : « الذي يزرعه الإنسان إياه يحصد أيضا » (غلاطية ٦: ٧). فلو تحقق الناس من هذا لكانوا يتحذرون لأنفسهم عن أي البذار يزرعون.

وكما أن البذار الذي يُزرع ينتج حصادا وهذا بدوره يُزرع فإنّ الحصاد يتضاعف. وفي صلاتنا بالغير هذا القانون يثبت صدقه. فكل عمل وكل كَلمة هو بذرة لابد أن تؤتي ثمرها. وكل عمل من أعمال الشفقة والاهتمام، أو الطاعة، أو

إنكار الذات سينتج عملا مثله في الآخرين، وعن طريق هؤلاء في آخرين غيرهم. وكذلك كل عمل من أعمال الحسد أو الخبث أو الشقاق هو بذرة ستطلع في « أَصْل مَرَارَة » (عبرانيين ١٢: ١٥) يتنجس به كثيرون. وكم وكم يزيد عدد من يُسمِّمه هؤلاء « الكثيرون ». وهكذا زرع الشر يدوم مدى الحياة ومدى الأبدية.

إنّ السخاء في الأمور الزمنية والروحية هو درس نتعلمه من إلقاء البذار. إنّ الرب يقول : « طُوبَاكُمْ أَيُّهَا الزَّارِعُونَ عَلَى كُلِّ الْمِيَاه » (إِشَعْيَاء ٣٢: ٢). « هذَا وَإِنَّ مَنْ يَزْرَعُ بِالشُّحِّ فَبِالشُّحِّ أَيْضًا يَحْصُدُ، وَمَنْ يَزْرَعُ بِالْبَرَكَات فَبِالْبَرَكَات أَيْضًا يَحْصُدُ » (٢كورنثوس ٩: ٦). إنّ الزارع على كل المياه معناه التوزيع المستمر لهبات اللّٰه ومعناه العطاء كلما تطلّب عمل اللّٰه أو حاجات البشرية [86] مساعدتنا. وهذا السخاء لا ينتهي إلى الفقر لأن « مَنْ يَزْرَعُ بِالْبَرَكَات فَبِالْبَرَكَات أَيْضًا يَحْصُدُ ». إنّ الزارع يزيد من حنطته حين يلقيها في الأرض. وهكذا الحال مع من هم أمناء في توزيع هبات اللّٰه. فبالتوزيع يزيدون من بركاتهم. واللّٰه قد وعدهم بالكفاية حتى يداوموا على العطاء: « أَعْطُوا تُعْطَوْا، كَيْلاً جَيِّدًا مُلَبَّدًا مَهْزُوزًا فَائِضًا يُعْطُونَ فِي أَحْضَانِكُمْ » (لوقا ٦: ٣٨).

وهنالك معنى آخر ينطوي عليه مثل الزرع والحصاد. فإذ نوزع على الناس هبات اللّٰه الزمنية وبركاته فإن البرهان على حبنا وعطفنا يوقظ في نفوس من يتناولون عطايانا روح الشكر والحمد للّٰه. وتكون تربة القلب مهيأة لقبول بذار الحق الروحي. والذي يقدم البذار للزرع سيجعل البذار ينبت ويحيا ويثمر للحياة الأبدية.

إنّ المسيح بواسطة إلقاء البذار في الأرض يصور لنا ذبيحة نفسه لفدائنا فقد قال: « إِنْ لَمْ تَقَعْ حَبَّةُ الْحِنْطَةِ فِي الأَرْضِ وَتَمُتْ فَهِيَ تَبْقَى وَحْدَهَا. وَلكِنْ إِنْ مَاتَتْ تَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ » (يوحنا ١٢: ٢٤). وهكذا موت المسيح سينتج ثمراً لملكوت اللّٰه. وطبقاً لناموس المملكة النباتية سينتج عن موته حياة.

وكل الذين يريدون أن يأتوا بثمر كعاملين مع المسيح ينبغي لهم أولا أن يقعوا في الأرض ويموتوا. فيجب أن تلقى الحياة في أتلام حاجة العالم. ينبغي القضاء على حب الذات واهتمامات الذات. ولكنّ ناموس التضحية هو ناموس حفظ النفس.إنّ البذرة إذ تُدفن في الأرض تأتي بثمر، وهذا بدوره يزرع أيضاً. وهكذا يتضاعف الحصاد. فالزارع يحفظ حنطته عندما يُلقي بها في التربة. وهكذا في حياة الإنسان [87] فالعطاء هو الحياة. فالحياة التي ستدوم هي الحياة التي تُبذل بكل سخاء في خدمة اللّٰه والناس. فالذين يضحون بحياتهم في هذا العالم لأجل المسيح سيحفظونها للحياة الأبدية.

إنّ البذرة تموت لكي تطلع لحياة جديدة. في هذا لنا درس نتعلمه عن القيامة. فكل من يحبون اللّه سيحيون ثانية في جنة عدن السماوية. لقد قال اللّه عن الجسد الذي يُدفن ليتعفن في القبر: « يُزْرَعُ فِي فَسَاد وَيُقَامُ فِي عَدَم فَسَاد. يُزْرَعُ فِي هَوَان وَيُقَامُ فِي مَجْد. يُزْرَعُ فِي ضَعْف وَيُقَامُ فِي قُوَّة » (١كورنثوس ١٥: ٤٢، ٤٣).

هذا قليل من الدروس الكثيرة التي يعلمها مثل الطبيعة الحي عن الزارع والبذار. فإذ يحاول الوالدون والمعلمون أن يعلّموا هذه الدروس يجب أن يكون ذلك بطريقة عملية. فليعدّ الأولاد التربة بأنفسهم ويزرعوا البذار. وإذ يدأبون في عملهم يمكن للأب أو الأم أو المعلم أن يوضح حديقة القلب بالبذار الجيد أو الرديء المزروع هناك، وأنه كما يجب إعداد الحديقة ليُلقى فيها بذار الحق. وبما أن البذار يلقى في جوف الأرض فهو يعلمنا درساً عن موت المسيح، وإذ ينبثق النبات يمكن استمرار المطابقة بين الزرع الطبيعي والزرع الروحي.

ويجب تعليم الشباب على هذا المنوال. فيجب أن يتعلموا أن يحرثوا الأرض. وقد يكون من المستحسن لو تكون حول كل مدرسة أرض زراعية مُلحقة بها، مثل هذه الأرض يجب اعتبارها على أنها الفصل المدرسي الذي يملكه اللّه. وأشياء الطبيعة يجب أن يُنظر إليها على أنها [88] كتاب الدرس الإلهي الذي يجب على أولاده أن يدرسوه، ومنه يمكنهم أن يحصلوا على المعرفة الخاصة بتهذيب النفس.

وعند حرث الأرض، وتهذيبها وإخضاعها يمكن تعلم دروس باستمرار. إنّه لا يوجد من يفكر في الإقامة في قطعة أرض خام منتظراً أنها تنضج له ثمراً في الحال. ولكن يجب عليه أن يبذل الاجتهاد والمثابرة على العمل في معالجة التربة تمهيدا لإلقاء البذار. وهذا يصدق على العمل الروحي في القلب البشري. والذين يرغبون في الاستفادة من حرث الأرض ينبغي لهم أن يخرجوا وقلوبهم عامرة بكلمة اللّه. وسيجدون أن الأرض المتروكة في القلب قد شُقت وكُسرت بتأثير الرُّوح الْقُدُس اللطيف المخضع. وما لم يُبذل مجهودٌ متعبٌ ومضنٍ في الأرض فلن تنتج حصاداً. وكذلك الحال مع تربة القلب إذ ينبغي أن يعملَ روح اللّه فيه لينقيه ويهذبه قبلما يمكنه أن يثمر لمجد اللّه.

والأرض لا تعطي غناها متى عمل فيها الناس باندفاع متقطِّع. فهي بحاجة إلى اهتمام وتفكير كل يوم. فينبغي حرثها مراراً كثيرة حرثاً عميقاً، مع الاهتمام باقتلاع الأعشاب الغريبة التي تتغذى من البذار الجيد المزروع. وهكذا فالذين

يحرثون ويزرعون يستعدون للحصاد. ولا حاجة بأحدٍ منهم أن يقف في الحقل في وسط حطام آمالهم المنهارة.

إنّ بركة الرب تحل على الذين يشتغلون في الأرض هكذا والذين يتعلمون دروسا روحية من الطبيعة. إنّ العامل إذ يزرع الأرض لا يعرف إلا القليل عن الكنوز التي تُفتح له. وفي حين ينبغي له ألاّ يحتقر التعليم الذي يحصل عليه من العقول التي كان لها الاختبار ومن المعلومات التي يمكن لذوي العقول الفطنة أن يقدّموها فعليه أن يجمع دروسا لنفسه وهذا جزء من تدريبه. وفلاحة التربة ستبرهن على أنّها تهذيب للنفس. [89]

إنّ ذاك الذي يجعل البذار يطلع والذي يحرسه نهاراً أو ليلاً والذي يمنحه القوة على النمو هو علّة وجودنا وملك السماء وهو لا يزال يبذل رعاية واهتماما أعظم لأجل أولاده. وفي حين يزرع الزارع البشري البذار لإعالة وإسناد حياتنا الأرضية، فإنّ الزارع السماوي الإلهي يغرس في النفس البذار الذي سيثمر للحياة الأبدية. [95]

٧

يُشْبه خَميرة

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في متى ١٣: ٣٣؛ لوقا ١٣: ٢٠، ٢١).

لقد جاء كثيرون من الرجال المتعلمين ذوي النفوذ ليسمعوا تعاليم نبي الجليل. فبعض من هؤلاء نظروا باهتمام مستفهم إلى الجمع الذي اجتمع حول المسيح وهو يعلم بجانب البحر. وفي هذا الجمع العظيم مُثلت كل طبقات المجتمع. كان هناك الفقراء والأميّون والمستعطي الرث الثياب واللص المطبوع بطابع الإجرام على وجهه والكسيح والداعر المنغمس في الشهوات والتاجر والرجل المتعطل عن العمل والعال والدون والأغنياء والفقراء، الجميع تزاحموا على بعضهم البعض طلبا لموضع لأقدامهم ليقفوا ويستمعوا لأقوال المسيح. فإذ نظر هؤلاء المثقفون إلى هذا الجمع الغريب جعلوا يسائلون أنفسهم قائلين: هل ملكوت اللّه مكون من مثل هؤلاء الناس؟ ومرة أخرى أجاب المسيح على تساؤلهم بمثل:

« يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ خَمِيرَةً أَخَذَتْهَا امْرَأَةٌ وَخَبَّأَتْهَا فِي ثَلاَثَةِ أَكْيَالِ دَقِيقٍ حَتَّى اخْتَمَرَ الْجَمِيعُ » (متى ١٣: ٣٣).

كان اليهود يعتبرون الخميرة أحياناً رمزا للخطية. وقد أُوصيَ الشعب أنه عند حلول عيد الفصح [96] ينزعون كل الخمر من بيوتهم كما كان عليهم أن ينزعوا الخطية من قلوبهم. وقد حذر المسيح تلاميذه قائلا: « تَحَرَّزُوا لأَنْفُسِكُمْ

مِنْ خَمِير الْفَرِّيسِيِّينَ الَّذِي هُوَ الرِّيَاءُ » (لوقا ١٢: ١). والرسول بولس يتكلم عَن « خَمِيرَة الشَّرِّ وَالْخُبْثِ » (١كورنثوس ٥:٨). ولكن في المثل الذي أورده المُخَلِّص استخدمت الخميرة رمزاً لملكوت السَّمَاوَات. فهي تشرح قوة نعمة اللّٰه المحيية المشكِّلة.

ليس أحد نجساً أو فاسداً أو قد انحط إلى درجة تجعله بعيداً عن متناول فاعلية هذه القوة. وكل من يخضعون ذواتهم للروح القدس يُغرس في نفوسهم مبدأ حياة جديدة، وصورة اللّٰه الضائعة ستُعاد إلى البشرية.

إلاّ أنّ الإنسان لا يستطيع أن يغير نفسه باستخدام إرادته. فهو لا يملك قوة بها يمكن إحداث هذا التغيير. فالخميرة – التي هي شيء يأتي من الخارج بالكلية ينبغي وضعها في الدقيق قبلما يتم التغيير المطلوب. وهكذا ينبغي للخاطئ أن يقبل نعمة اللّٰه قبلما يصير مؤهلا لملكوت المجد. فكل الثقافة والتهذيب اللذين يستطيع العالم أن يقدمهما يخفقان في جعل إنسان منحطّ من أبناء الخطية ابناً للسماء. فينبغي أن تأتي القوة المجددة من اللّٰه. والتغيير يمكن حدوثه بواسطة [97] الرُّوح الْقُدُس وحده. وكل من يريدون أن يخلصوا، من العال كانوا أم من الدون، أغنياء أم فقراء، ينبغي لهم أن يخضعوا لعمل هذه القوة.

وكما أنّ الخميرة إذ تختلط بالدقيق تعمل عملها من الداخل إلى الخارج، هكذا بتجديد القلب تعمل نعمة اللّٰه في تغيير الحياة. فمجرد التغيير الخارجي لا يكفي لجعلنا نصير في حالة وفاق مع اللّٰه. يوجد كثيرون ممن يحاولون الإصلاح بإصلاح هذه العادة الشريرة أو تلك، ويرجون بهذه الوسيلة أن يصيروا مسيحيين، لكن موضع ابتدائهم هو خاطئ، فأول عمل علينا أن نعمله هو في القلب.

إنّ الإقرار بالإيمان وامتلاك الحق في النفس هما أمران متباينان. فمجرد معرفة الحق لا يكفي. يمكننا أن نملك هذا ولكن طبيعة الأفكار قد لا تتغير. فيجب تجديد القلب وتقديسه.

إنّ الإنسان الذي يحاول حفظ وصايا اللّٰه لمجرد شعوره بأنّه ملزم بذلك – ولأنه يُطلب منه أن يفعل ذلك – لن يحصل أبداً على فرح الطاعة. فهو لا يطيع. فعندما تعتبر مطاليب اللّٰه عبئاً لأنها تقطع عنا رغائبنا وميولنا فيمكننا أن نعلم أنّ مثل هذه الحياة ليست حياة مسيحية. إنّ الطاعة الحقة هي تفاعل يبدأ في الداخل. وهي تنبثق من محبة البر ومحبة شريعة اللّٰه. إنّ جوهر كل برّ [98] هو ولاؤنا لفادينا. فهذا يجعلنا نفعل الحق لأنَّه حق – لأنَّه عمل الحق يرضي اللّٰه.

إنّ الحق العظيم حق تجديد القلب بعمل الرُّوح الْقُدُس يقدّم في حديث المسيح مع نيقوديموس حين قال له: « الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللّٰه ... اَلْمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ، وَالْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ. لاَ تَتَعَجَّبْ أَنِّي قُلْتُ لَكَ: يَنْبَغِي أَنْ تُولَدُوا مِنْ فَوْقُ. اَلرِّيحُ تَهُبُّ حَيْثُ تَشَاءُ، وَتَسْمَعُ صَوْتَهَا، لكِنَّكَ لاَ تَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تَأْتِي وَلاَ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ. هكَذَا كُلُّ مَنْ وُلِدَ مِنَ الرُّوحِ » (يوحنا ٣: ٣-٨).

والرسول بولس إذ يكتب مسوقا من الرُّوحِ الْقُدُس يقول: « اللّٰهُ الَّذي هُوَ غَنيٌّ في الرَّحْمَة، مِنْ أَجْل مَحَبَّته الْكَثيرَة الَّتي أَحَبَّنَا بهَا، وَنَحْنُ أَمْوَاتٌ بالْخَطَايَا أَحْيَانَا مَعَ الْمَسيحِ. (بالنِّعْمَة أَنْتُمْ مُخَلَّصُونَ). وَأَقَامَنَا مَعَهُ، وَأَجْلَسَنَا مَعَهُ في السَّمَاوِيَّات في الْمَسيح يَسُوعَ، ليُظْهرَ في الدُّهُور الآتيَة غنَى نعْمَته الْفَائقَ، باللُّطْف عَلَيْنَا في الْمَسيح يَسُوعَ. لأَنَّكُمْ بالنِّعْمَة مُخَلَّصُونَ، بالإِيمَانَ، وَذلكَ لَيْسَ مِنْكُمْ. هُوَ عَطيَّةُ اللّٰه » (أفسُس ٢: ٤-٨).

إنّ الخميرة المخبأة في الدقيق تعمل عملها الغير المنظور في تخمير الكمية كلها، هكذا خميرة الحق تعمل خفية في سكون وبثبات في تغيير النفس. فالميول الطبيعية تلّين وتخضع وتغرس في النفس أفكار ومشاعر وبواعث جديدة. [99] ويوضع للإنسان مقياس جديد للخلق – حياة المسيح. والعقل يتغير، وقواه توقظ لتعمل في نواح جديدة. إنّ الإنسان لا تعطى له قوى جديدة ولكن القوى العقلية التي له تتقدس. والضمير يستيقظ. إننا نُزود بصفات وأخلاق تساعدنا على خدمة اللّٰه.

وكثيرا ما يثار السؤال: إذا لماذا يوجد أناس كثيرون جدا يَّدعون أنهم يؤمنون بكلمة اللّٰه ولكن لا يُرى فيهم أي إصلاح لا في الكلام ولا في الروح ولا في الخلق؟ ولماذا يوجد كثيرون جدا ممن لا يستطيعون أن يحتملوا أية مقاومة لأغراضهم وخططهم ومن يظهرون طبعا غير مقدس وأقوالهم فظة قاسية ومتغطرسة غضوبة؟ ففي حياتهم ترى نفس محبة الذات ونفس الانغماس الأناني ونفس الطبع والتسرع في الكلام الذي يُرى في حياة أهل العالم. ففي حياتهم توجد نفس الكبرياء السريعة التأثر، ونفس الخضوع للميول الطبيعية، ونفس فساد الخلق وانحرافه، كما لو كان الحق مجهولا لديهم تماما. السبب هو أنهم غير متجددين. فهم لم يخبئوا خميرة الحق في القلب – تلك التي لم يُعط لها المجال أو الفرصة لتعمل عملها. إنّ ميولهم الطبيعية التي ربوها

في أنفسهم لعمل الشر لم تخضع [100] لقوة الحق المغيّرة. وحياتهم تعلن عن عدم وجود نعمة المسيح فيهم وعن عدم الإيمان بقدرته على تغيير الخلق.

« الإِيمَانُ بِالْخَبَرِ، وَالْخَبَرُ بِكَلِمَةِ اللّٰهِ » (رومية ١٠: ١٧). إنّ الكلمة الإلهية هي العامل العظيم في تغيير الخلق. لقد صلى المسيح قائلا: « قَدِّسْهُمْ فِي حَقِّكَ. كَلاَمُكَ هُوَ حَقٌّ » (يوحنا ١٧: ١٧). إنّ كلمة اللّٰه لو درسها الإنسان وأطاعها فإنها تعمل في القلب مخضعة كل صفة غير مقدسة. إنّ الرُّوح الْقُدُس يأتي ليبكّت على خطية، والإيمان الذي ينبثق في القلب يعمل بالمحبة للمسيح فيجعلنا مشابهين لصورته في الجسد والنفس والروح. وحينئذ يمكن أن يستخدمنا اللّٰه لعمل مشيئته. والقوة المعطاة لنا تعمل عملها من الداخل إلى الخارج فتجعلنا نبلغ إلى الآخرين الحق الذي قد تسلمناه.

إن حقائق كلمة اللّٰه تسد حاجة الإنسان العظمى – ألا وهي تجديد النفس بالإيمان. وينبغي ألاّ نظنّ أنّ هذه الحقائق السامية أطهر أو أقدس من أن تتدخل في الحياة اليومية. إنّها حقائق تصل إلى السماء وتحتضن الأبدية، ومع ذلك فإنّ تأثيرها الحيوي ينبغي أن يتدخل ويُنسج في اختبار الناس. فيجب [101] أنها تتغلغل في عظائم الأمور وصغائرها في الحياة.

فإذ تُقبل خميرة الحق في القلب فهي تنظم الرغائب وتطهر الأفكار وتجمل المزاج. وهي تحيي قوى العقل وقوى نشاط النفس، وترحّب قدرة الإنسان على الإحساس والحب.

إنّ العالم يعتبر الإنسان المُشبع القلب بهذا المبدأ لغزا. فالإنسان الأناني محبّ المال يعيش لكي يحرز لنفسه غنى هذا العالم وكراماته وملذاته. وهو يُسقط رجاء عالم الأبد من حسابه. أمّا بالنسبة إلى تلميذ المسيح فهذه الأشياء لن تستوعب كل قوى تفكيره. ولكنّه لأجل المسيح يجدّ وينكر ذاته حتى يمكنه المساهمة في العمل العظيم، عمل خلاص النفوس التي هي بلا مسيح وبلا رجاء في العالم. مثل هذا الإنسان لا يستطيع العالم أن يفهمه، لأنّه يجعل الحقائق الأبدية نصب عينيه دائما. لقد دخلت محبة المسيح بقوتها الفادية إلى القلب. وهذه المحبة تسيطر على كل عاطفة أخرى وترفع من يتمتع بها فوق قوة العالم المفسدة.

ويجب أن يكون لكلمة اللّٰه تأثير مقدِّس على عشرتنا – لكل فرد من أفراد الأسرة البشرية. إنّ خميرة الحق لن تنتج في النفس روح التنافس أو حب الطموح أو الرغبة في أن يكون الإنسان أوّلاً. نعم فإنّ المحبة التي هي ابنة

السماء ليست محبة لذاتها ولا هي متقلّبة. ولا تستند إلى مديح الناس. إنّ قلب من يقبل نعمة [102] اللّٰه يفيض بالمحبة للّٰه ولمن قد مات المسيح لأجلهم. والذات لا تحارب لأجل الشهرة. وهو لا يحب الآخرين لكونهم يحبّونه أو يرضونه أو يقدرون أفضاله بل لأنهم مقتنى المسيح. فإذا أسيء فهم بواعثه أو أقواله أو أعماله أو حُرفت هذه فهو لا يغضب بل يسير في مجرى حياته الهادئ. إنّه شفوق وكثير الاهتمام وهو متواضع في رأيه عن نفسه، ومع ذلك فهو ممتلئ النفس بالرجاء، واثق أبداً برحمة اللّٰه ومحبته.

إنّ الرسول يوصينا قائلا: « نَظيرَ الْقُدُّوس الَّذي دَعَاكُمْ، كُونُوا أَنْتُمْ أَيْضًا قدِّيسينَ فِي كُلِّ سيرَة. لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: كُونُوا قدِّيسينَ لأَنِّي أَنَا قُدُّوسٌ » (١بطرس ١: ١٥، ١٦). فَينبغي أن تسيطر نعمة المسيح على الطبع والصوت. وإنّ عملها يُرى في الأدب وفي التقدير الذي يبديه الأخ لأخيه، وفي كلام الشفقة والتشجيع. فيوجد في البيت حضور ملائكي. والحياة يفوح منها شذا عطر يصعد إلى اللّٰه كبخور مقدس. والمحبة تتجلّى في الرفق واللطف والصبر والاحتمال.

المحيّا يتغير. فإذ يسكن المسيح في القلب فنوره يتلألأ في وجوه من يحبونه ويحفظون وصاياه. والحق يُكتب في ملامحهم. وسلام السماء العذب يتجلّى. وهم يظهرون الرقة الطبيعية، محبة أكثر من المحبة البشرية.

إنّ خميرة الحق تُحدث تغييرا في الإنسان كله فالخشن يصير مهذّبا والفظّ يصبح لطيفاً والأناني كريماً. وبواسطتها يتطهر النجسون ويغتسلون في دم الحمل وقوتها المانحة الحياة تجعل توافقا بين العقل والنفس والقوة وبين الحياة الإلهية. والمسيح يتمجد في سمو الخلق وكماله. فإذ تتمّ هذه التغييرات كلها يهتف الملائكة ويسبحون تسابيح الفرح العظيم ويبتهج اللّٰه والمسيح بالنفوس التي تشكلت حسب المثال الإلهي. [103]

الكَنز المُخْفى

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في متى ١٣: ٤٤).

« أَيْضًا يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَات كَنْزًا مُخْفىً فِي حَقْل، وَجَدَهُ إِنْسَانٌ فَأَخْفَاهُ. وَمِنْ فَرَحه مَضَى وَبَاعَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ وَاشْتَرَى ذلكَ الْحَقْلَ » (متى ١٣: ٤٤).

في العصور القديمة اعتاد الناس أن يخفوا كنوزهم في الأرض. فقد كانت حوادث السرقة والسطو كثيرة الوقوع. وكلما حدث تغيير في الحكام فالذين كانوا يملكون ثروات عظيمة باتوا معرضين لأن تفرض عليهم ضرائب فادحة. وفضلا عن هذا فإنّ البلاد كانت في خطر دائم من غزو يأتيها من جيوش مغيرة، ونتيجة لذلك، كان الأغنياء يحاولون الاحتفاظ بثروتهم بإخفائها، وكانوا ينظرون إلى الأرض كأنها مخبأٌ أمينٌ. ولكن في أحيان كثيرة كانوا ينسون المكان الذي أخفوا فيه كنوزهم، وقد يموت صاحب الكنز أو قد يفصل النفي أو السجن بينه وبين كنزه. فكانت الثروة التي قد تعب في جمعها تترك لمن يسعده الحظ بالعثور عليها. وفي عهد المسيح لم يكن أمرا غير مألوف اكتشاف عملات قديمة وحليّ من الذهب والفضة في أرض مهملة مهجورة.

إنّ رجلا يستأجر قطعة أرض ليزرعها، ففيما الثيران تحرث الأرض يكتشف الرجل كنزا مُخفى. فإذ يكتشف الرجل [104] هذا الكنز يرى أنّ ثروةً صارت في متناول يده. فبعدما يعيد الذهب إلى مخبئه يعود إلى بيته ويبيع كل ما له لكي

يشتري الحقل الذي فيه الكنز. ولكن عائلته وأقرباءه يظنون أنه يتصرف تصرف المجانين. فإذ ينظرون إلى الحقل لا يرون لتلك الأرض المهملة أية قيمة. ولكن الرجل يعلم ما هو فاعل، وعندما تصير الأرض ملكا له ينقب كل شبر في ذلك الحقل بحثا عن الكنز الذي قد أحرزه.

هذا المثل يشرح لنا قيمة الكنز السماوي والجهد الذي يجب أن يُبذل في سبيل الحصول عليه. إنّ الرجل الذي وجد الكنز في الحقل كان مستعداً للتخلي عن كل ما يملك ولبذل جهد لا يكلّ لكي يحرز تلك الثروة المخفية. وهكذا من يجد الكنز السماوي لا يعتبر أي تعب أعظم ولا أية تضحية أغلى من أن تبذل في سبيل الحصول على كنوز الحق.

إنّ الحقل الذي كان فيه الكنز المذكور في المثل يرمز إلى الكتب المقدسة. والإنجيل هو الكنز. إنّ الأرض نفسها ليست مضفورة بعروق الذهب وممتلئة بالأشياء الثمينة مثل كلمة اللّه.

كيف أُخْفِي

يُقال عن كنوز الإنجيل أنها مخفية. إنّ من هم حكماء في أعين أنفسهم المنتفخين بتعليم الفلسفة الباطلة لا يفهمون جمال تدبير الفداء وسرّه وقوته. كثيرون لهم عيون ولا يبصرون ولهم آذان ولا يسمعون ولهم عقول ولكنهم لا يفطنون إلى الكنز المخفي.

ربما مرّ إنسان بالمكان الذي كان الكنز مخفيّا تحته. وربما جلس ليستريح تحت شجرة وهو في فقره المدقع دون أن يدري شيئا عن الثروة المخبوءة [105] في جذورها. كذلك كانت الحال مع اليهود. فالحق أودع بين أيدي الشعب العبراني ككنز من الذهب. إنّ التدبير اليهودي الذي كان يحمل طابع السماء، كان المسيح قد رسمه بنفسه. كانت حقائق الفداء العظيمة محجوبة بالرموز والأمثلة، ومع ذلك فعندما جاء المسيح لم يعرف اليهود ذاك الذي كانت كل الرموز تشير إليه. كانت كلمة اللّه بين أيديهم، ولكنّ التقاليد التي سُلمت من جيل إلى جيل والتفاسير البشرية للكتاب أخفت عنهم الحق كما هو في يسوع. وقد ضاع المعنى الروحي للكتب المقدسة. لقد كانت خزانة كل معرفة مفتوحة أمامهم ولكنّهم لم يعرفوها.

إنّ اللّه لا يخفي حقه عن الناس. ولكنهم بتصرفهم يجعلونه غامضا على أنفسهم. لقد أعطى المسيح للشعب اليهودي البراهين الوافرة على أنّه مسيّا،

ولكن تعليمه كان يتطلب تغييرا حاسما في حياتهم. وقد رأوا أَنَّهُمْ لو قبلوا المسيح فلابد لهم من أن يتخلّوا عن مبادئهم المحبوبة وتقاليدهم وأعمالهم الأنانية الشريرة. إنّ قبول الحق الأبدي الثابت يتطلب تضحية. لذلك رفضوا الاعتراف بأعظم البراهين القاطعة التي قدمها اللّه لتوطيد الإيمان بالمسيح. لقد اقرّوا بأنهم يؤمنون بأسفار العهد القديم ومع ذلك فقد رفضوا الشهادة المتضمنة فيها عن حياة المسيح وصفاته. كانوا يخافون من الاقتناع لئلا يتجددوا ويضطروا للتخلي عن آرائهم السابقة. كان بينهم كنز الإنجيل، الطريق والحق والحياة ولكنهم رفضوا أعظم عطية يمكن أن تهبها السماء.

« وَلكنْ مَعَ ذلكَ آمَنَ بِه كَثيرُونَ منَ الرُّؤَسَاء أَيْضًا، غَيْرَ أَنَّهُمْ لسَبَب الْفَرِّيسيِّينَ لَمْ يَعْتَرفُوا [106] بِهَ، لئَلاَّ يَصيرُوا خَارجَ الْمَجْمَع » (يوحنا ١٢: ٤٢). هذا ما يقوله الكتاب. لقد اقتَنعوا، وآمنوا بأن يسوع هو ابنَ اللّه، ولكنّ الاعتراف به لم يكن متوافقا مع رغائبهم وطموحهم. فلم يكن عندهم الإيمان الذي كان يمكن أن يضمن لهم الكنز السماوي. فقد كانوا يطلبون كنزاً أرضياً.

والناس اليوم يطلبون كنوز الأرض بكل اجتهاد وشوق. وعقولهم مشحونة بأفكار الأنانية والطموح. ففي سبيل الحصول على الغنى الأرضي أو الكرامة أو السلطان يضعون مبادئ الناس وتقاليدهم ومطاليبهم فوق مطاليب اللّه ولذلك تخفى عليهم كنوز كلمته.

« وَلكنَّ الإنْسَانَ الطَّبيعيَّ لاَ يَقْبَلُ مَا لرُوح اللّه لأَنَّهُ عنْدَهُ جَهَالَةٌ، وَلاَ يَقْدرُ أَنْ يَعْرفَهُ لأَنَّهُ إنَّمَا يُحْكَمُ فيه رُوحيًّا » (١كورنثوس ٢: ١٤).

« وَلكنْ إنْ كَانَ إنْجيلُنَا مَكْتُومًا، فَإنَّمَا هُوَ مَكْتُومٌ في الْهَالكينَ، الَّذينَ فيهمْ إلهُ هذَا الدَّهْر قَدْ أَعْمَى أَذْهَانَ غَيْر الْمُؤْمنينَ، لئَلاَّ تُضيءَ لَهُمْ إنَارَةُ إنْجيل مَجْد الْمَسيح، الَّذي هُوَ صُورَةُ اللّه » (٢كورنثوس ٤: ٣، ٤).

قيمة الكنز

رأى المُخَلِّص الناس وإذا هم مشغولون في جمع المال، وقد غابت عن أنظارهم الحقائق الأبدية، ولذلك أخذ على نفسه أمر معالجة هذا الشرّ. حاول أن يحطّم السحر الذي خلب عقولهم وأصاب أرواحهم بالشلل. فرفع صوته وصرخ قائلا: « مَاذَا يَنْتَفعُ الإنْسَانُ لَوْ رَبحَ الْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسرَ نَفْسَهُ؟ أَوْ مَاذَا يُعْطي الإنْسَانُ فدَاءً عَنْ نَفْسه؟ » (متى ١٦: ٢٦). وهو يضع أمام البشرية الساقطة العالم الأنبل الذي قَدَ غاب عن أنظارهم حتى يروا الحقائق الأبدية.

وهو يوقفهم على أعتاب عالم الأبد الذي يشع منه مجد اللّٰه الذي لا يوصف ويريهم الكنز الذي هناك. [107]

إنّ قيمة هذا الكنز تفوق قيمة الذهب والفضة. وغنى كل مناجم الأرض لا يعادله.

« اَلْغَمْرُ يَقُولُ: لَيْسَتْ هِيَ فِيَّ، وَالْبَحْرُ يَقُولُ: لَيْسَتْ هِيَ عِنْدِي. لاَ يُعْطَى ذَهَبٌ خَالِصٌ بَدَلَهَا، وَلاَ تُوزَنُ فِضَّةٌ ثَمَنًا لَهَا. لاَ تُوزَنُ بِذَهَبِ أُوفِيرَ أَوْ بِالْجَزْعِ الْكَرِيمِ أَوِ الْيَاقُوتِ الأَزْرَقِ. لاَ يُعَادِلُهَا الذَّهَبُ وَلاَ الزُّجَاجُ، وَلاَ تُبْدَلُ بِإِنَاءِ ذَهَبَ إِبْرِيزَ. لاَ يُذْكَرُ الْمَرْجَانُ أَوِ الْبَلُّوْرُ، وَتَحْصِيلُ الْحِكْمَةِ خَيْرٌ مِنَ اللآلِئِ » (أيوب ٢٨: ١٤-١٨).

هَذا هو الكنز الذي يوجد في كتاب اللّٰه. فالكتاب المُقَدَّس هو كتاب درس اللّٰه الفسيح والمهذب العظيم. أساس كل علم حقيقي مشتمل في الكتاب. ويمكن العثور على كل فرع من فروع المعرفة بواسطة تفتيش كلمة اللّٰه. وفوق كل كتاب آخر هو يشتمل على علم كل العلوم أي علم الخلاص. فالكتاب المُقَدَّس هو المنجم الذي فيه غنى المسيح الذي لا يُستقصى.

إنّ التهذيب الحقيقي الأسمى يُنال بواسطة درس كلمة اللّٰه وإطاعتها. ولكن متى أُلقيت كلمة اللّٰه جانبا واستعيض عنها بكتب لا تُرشد النفس إلى اللّٰه أو إلى ملكوت السَّمَاوَات فإنّ التعليم الذي يحصل عليه الإنسان هو تزييف لاسم التعليم.

توجد في الطبيعة حقائق عجيبة ومدهشة. فالأرض والبحر والسماء ملأى بالحق. وكلها تعلّمنا. والطبيعة تنطق بصوتها في دروس الحكمة السماوية والحق الأبدي. ولكنّ الإنسان الساقط لا يريد أن يفهم. لقد أظلمت الخطية بصره وهو لا يستطيع من نفسه أن يفسّر الطبيعة بدون أن يضعها فوق اللّٰه. ولا يمكن للدروس الصحيحة أن تؤثّر في عقول من يرفضون كلمة اللّٰه. وهم يحرفون تعليم الطبيعة بحيث يبعدهم عن الخالق.

إنّ كثيرين يظنون أنّ حكمة الإنسان أسمى من حكمة المعلم الإلهي، وينظرون إلى كتاب درس اللّٰه على أنه [108] طراز قديم وكتاب مبتذل لا لذّة فيه. أما الذين قد أنعشهم الرُّوح الْقُدُس فلا ينظرون إليه هكذا، فهم يرون فيه كنزاً لا يُقدّر بثمن، وهم يريدون أن يبيعوا كل شيء ويشتروا الحقل الذي فيه الكنز. وبدلا من أن يقتنوا الكتب المشتملة على افتراضات الكتَّاب المشهورين فإنّهم يختارون كلمة ذاك الذي هو أعظم كاتب وأعظم معلم عرفه العالم والذي بذل حياته لأجلنا لكي تكون لنا به الحياة الأبدية.

نتائج إهمال الكنز

إنّ الشيطان يعمل في عقول الناس فيقنعهم بأنّه يوجد علم عجيب ومدهش يمكن الحصول عليه بعيداً عن اللّٰه. إنّه بسبب محاجته الخادعة ساق آدم وحواء إلى الشك في كلمة اللّٰه وملأ مكانها بنظرية أدّت إلى العصيان. وإنّ مغالطته تعمل اليوم نفس ما عملته في جنة عدن. فالمعلمون الذين يخلطون آراء الكتّاب الملحدين بالتهذيب الذي يقدمونه إنمّا يغرسون في أذهان الشباب أفكاراً تقود إلى الشك في اللّٰه وعصيان شريعته. وقلّما يعرفون ما هم صانعون. وقلّما يتحققون من مغبّة عملهم.

قد يتقدم أيّ شاب ويحصل على كل الدرجات العلمية في مدارس اليوم وكلياته، وقد يكرّس كل قواه لاجتناء المعرفة، ولكن ما لم يعرف اللّٰه، وما لم يطع الشرائع التي تحكم على كيانه فسيُهلك نفسَه. فبسبب العادات الخاطئة يفقد القوة على تقدير نفسه ويفقد قوة ضبط النفس. ولا يستطيع أن يتناقش مناقشةً صحيحةً في الأمور التي تمسّه من أقرب قرب. إنّه طائش وغير واقعي في معالجة عقله وجسده. فبسبب عاداته الخاطئة يجعل من نفسه حطاما خربا. ولا يستطيع أن يجد السعادة لأنّ إهماله في غرس المبادئ الصحية الطاهرة يجعله تحت سيطرة العادات التي تدمر سلامه. وسنو [109] دراسته المضنية تضيع لأنَّه قد أهلك نفسه. لقد أساء استخدام قوى جسمه وعقله وقد صار هيكل جسمه خرابا. لقد أصاب الدمارُ حياتَه الحاضرة والعتيدة. كان يظنّ أنّه إذ طرَح كتابَه المقدس جانبا فقد ضحّى بكنزٍ يساوي كل شيء آخر.

البحث عن الكنز

ينبغي أن تكون كلمة اللّٰه موضوع دراستنا. وعلينا أن نعلّم أولادنا الحقائق المدونة فيها. إنّها كنز لا ينفد ولكن الناس يخفقون في العثور على هذا الكنز لأنهم لا يفتشون حتى يصير في حوزتهم. إنّ كثيرين جداً يقنعون بالظنّ والافتراض في أمر الحق. يقنعون بدرسٍ سطحي إذ يحسبونه أمرا مسلّما به أنّهم قد حصلوا على كل ما هو جوهريٍ. فهم يعتبرون [110] أقوال الآخرين أنّها الحق إذ أنَّهُمْ متكاسلون جدا عن أن يشرعوا بأنفسهم بجد وغيرة في العمل المرموز إليه في الكتاب بالحفر بحثا عن الكنز المخفي. ولكنَّ اختراعات الناس فضلا عن أنها لا يُعتمد عليها فهي خطرة لأنها تضع الإنسان حيث يَجب أن يكون اللّٰه. وهي تضع أقوال الناس حيث يجب أن يكون « هكَذَا قَالَ الرَّبُّ ».

إنّ المسيح هو الحق. وأقواله حق ولها معنى أعمق مما يبدو حسب الظاهر. إنّ كل أقوال المسيح لها قيمة أعظم مما تبدو على بساطتها. والعقول التي قد أحياها الرُّوح الْقُدُس تميّز قيمة هذه الأقوال. سيكتشفون جواهر الحق الثمينة مع أنّ هذه قد تكون كنوزاً مخفية.

إنّ النظريات والأفكار البشرية لن تقود إنسانا لفهم كلمة اللّٰه. وإنّ الذين يظنون أَنَّهُمْ يفهمون الفلسفة يحسبون أنّ شروحهم لازمة للكشف عن كنوز المعرفة ومنع الضلالات داخل الكنيسة. ولكنّ هذه الشروح بعينها هي التي أدخلت النظريات الكاذبة والهرطقات. لقد بذل الناس جهودا يائسة في شرح ما ظنّوه فصولا معقدة من الكتاب. ولكنّ في غالب الأحيان لم تعمل جهودهم هذه إلاّ على زيادة غموض ما قد حاولوا إيضاحه.

لقد ظن الكهنة والفريسيون أنّهم كانوا يعملون أعمالا عظيمة كمعلمين بتقديم تفسيرهم لكلمة اللّٰه، ولكن المسيح قال عنهم: « لا تعرفون الكتب ولا قوة اللّٰه » (مرقس ١٢: ٢٤). وقد اتّهمهم المسيح بذنب كونهم: « يُعَلِّمُونَ تَعَالِيمَ هِيَ وَصَايَا النَّاس » (مرقس ٧: ٧). فمع أنّهم كانوا معلمي أقوال اللّٰه، ومع أنه كان مفروضا أَنَّهُمْ يفهمون كلمته فإنّهم لم يكونوا عاملين بالكلمة. لقد أعمى الشيطان عيونهم حتى لا يروا معناها الحقيقي.

وهذا ما يعمله كثيرون في يومنا هذا، إذ توجد كنائس كثيرة مذنبة بهذه الخطية. فهناك خطر عظيم من أنّ حكماء العالم المزعومين اليوم يفعلون نفس ما فعله [111] معلّمو اليهود. إنّهم يفسرون أقوال اللّٰه كذبا فيحيق الارتباك بالنفوس وتكتنفهم الظلمة بسبب عدم إدراكهم للحق الإلهي.

لا حاجة لقراءة الكتب المقدسة على نور التقليد المظلم أو الآراء البشرية. إنّ شرح الكتب المقدسة بالتقاليد أو التصورات البشرية هو كمحاولتنا أن ننير الشمس بمشعل. إنّ كلمة اللّٰه المقدسة هي في غير حاجة إلى ضوء المشاعل الأرضية لكي يُرى مجدُ لمعانها واضحا وجليا. إنّها نور في ذاتها – مجد اللّٰه المُعلن وبدونها يبدو كل نور ظلاما.

إنّما ينبغي أن تكون هنالك دراسةٌ جادّة غيورة وتنقيبٌ دقيق. إنّ الإدراك القاطع الواضح للحق لا يمكن أن يكون جزاء الكسل أو الخمول. لا توجد بركة أرضية ينالها الإنسان دون أن يبذلَ جهدا جادا صبورا مثابرا. فإذا كان الناس يظفرون بالنجاح في عملهم أو تجارتهم فينبغي أن تكون لهم إرادة ليفعلوا

وإيمان به ينتظرون النتيجة. ونحن لا يمكننا أن ننتظر الحصول على المعرفة الروحية بدون تعب وحماسة. والذين يرغبون في العثور على كنوز الحق يجب أن ينقبوا عنها كما يحفر المعَّدن بحثاً عن الكنز المخفي في الأرض. إنّ العمل بفتور وفي غير اكتراث لن يجدي نفعاً. ومن اللازم جدا للكبار والصغار لا أن يقرأوا كلمة اللّٰه فقط بل أيضا أن يدرسوها بغيرة قلبية صادقة مصلين وباحثين عن الحق كمن يبحث عن كنز مخفي. والذين يفعلون هذا يجازون خيراً لأن المسيح يحيي الفهم وينعشه.

إنّ خلاصنا موقوف على معرفة الحق المتضمن في الكتب المقدسة. واللّٰه يريدنا أن نمتلك هذا الحق. إذن فتشوا، نعم فتشوا الكتاب المُقَدَّس الثمين بقلوب جائعة. وافحصوا كلمة اللّٰه كما يفحص صاحب المنجم الأرض ليجد عروق الذهب. ولا تكفّوا أبداً عن البحث حتى تتأكدوا من صلتكم باللّٰه وإرادته الخاصة بكم. قال المسيح: « وَمَهْمَا سَأَلْتُمْ بِاسْمِي فَذلِكَ أَفْعَلُهُ لِيَتَمَجَّدَ الآبُ بِالابْنِ. إِنْ سَأَلْتُمْ شَيْئًا بِاسْمِي فَإِنِّي أَفْعَلُهُ » (يوحنا ١٤: ١٣، ١٤). [112]

إنّ الناس الأتقياء الموهوبين يرون لمحات من الحقائق الأبدية، ولكنهم في غالب الأحيان يقصرون عن الإدراك لأنّ الأشياء المنظورة تحجب مجد غير المنظور. والذي يريد أن يفتّش باجتهاد عن الكنز المخفي عليه أن يرتفع إلى مطالب أسمى من أمور هذا العالم. فينبغي أن تكرس عواطفه وكل إمكانياته لهذا البحث.

لقد أوصد العصيان الباب على قدر عظيم من المعرفة التي كان يمكن اجتناؤها من الكتب المقدسة. إنّ الإدراك معناه الطاعة لأوامر اللّٰه. وإنّ الكتب المقدسة ينبغي ألاّ تطبق بحيث توافق تعصب الناس وحسدهم. ولكن لا يمكن أن يفهمها إلاّ من يفتشون بتواضع عن معرفة الحق حتى يمكنهم أن يطيعوه.

أتتساءل قائلا: « مَاذَا يَنْبَغِي أَنْ أَفْعَلَ لِكَيْ أَخْلُصَ؟ » ينبغي أن تضع كل الآراء التي سبق لك أن عرفتها وآراءك الموروثة والمكتسبة أمام باب البحث والتنقيب. أمّا إذا كنت تفتش الكتب لكي تبرّر آراءك فلن تصل إلى الحق. فتش لتعرف ماذا يقول الرب. وفيما أنت تفتش إذا كان يأتيك الاقتناع ورأيت أنّ آراءك المحبوبة ليست متوافقة مع الحق، فلا تحرّف الحق ليتفق ومعتقدك بل اقبل النور المعطى لك. إفتح عقلك وقلبك حتى يمكنك أن ترى عجائب من كلمة اللّٰه.

إنّ الإيمان بالمسيح كفادي العالم يتطلب اعتراف الذهن المستنير الذي يتسلط عليه القلب الذي يميز ويقِّدر الكنز السماوي. هذا الإيمان غير منفصل

عن التوبة وتغيير الخلق. فالحصول على الإيمان معناه العثور على كنز الإنجيل وقبوله مع كل الالتزامات التي يفرضها.

« إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت اللّٰه » (يوحنا ٣: ٣). قد يخمّن ويتصوّر ولكن ما لم تكن له عين الإيمان فهو لا يستطيع أن يرى الكنز. لقد بذل المسيح نفسه ليضمن حصولنا على هذا الكنز الذي لا يقدر بثمن، [113] ولكن بدون التجديد بالإيمان بدمه لا غفران للخطايا ولا كنز لأية نفس هالكة.

إنّنا بحاجة إلى إنارة الرُّوح الْقُدُس حتى نعرف ونكتشف الحقائق التي في كلمة اللّٰه. إنّ الأشياء الجميلة التي في العالم الطبيعي لا يمكن رؤيتها إلاّ بعدما تشرق الشمس وتغمر العالم بنورها مبدّدة الظلمة. وهكذا لا يمكن لأحد أن يقدر كنوز كلمة اللّٰه حتى تكتشف عنها أشعة نور شمس البر المتألقة.

إنّ الرُّوح الْقُدُس المرسل من السماء بأريحية المحبة السرمدية يأخذ ممّا للّٰه ويعلنه لكل نفس عندها إيمان ثابت في المسيح. فبقوة الرُّوح الْقُدُس تنطبع على العقل الحقائق الحيوية التي عليها يتوقف خلاص النفس، ويتضح طريق الحياة حتى لا يضل فيها أي إنسان. ففيما نحن ندرس الكتاب المُقَدَّس ينبغي لنا أن نصلّي حتى يشرق نور الرُّوح الْقُدُس على الكلمة فنرى الكنوز ونقدرها.

مكافأة البحث والتنقيب

لا يظنَّن أحد أنه لم تبق بعد له معرفة يكتسبها. يمكن قياس عمق العقل البشري. وأعمال الكتَّاب البشريين يمكن قياسها. أما أسمى وأعمق وأوسع تحليق للخيال والفكر فلا يمكنه معرفة اللّٰه. توجد سرمدية أسمى من كل ما يمكننا إدراكه. لقد رأينا بصيصا من المجد الإلهي والمعرفة والحكمة اللامحدودتين لا أكثر، لقد كنا نشتغل على ظاهر المنجم على ما يبدو، بينما جوهر الذهب الغني هو تحت السطح وهو سيكون مكافأة لمن يحفر في طلبه. ينبغي تعميق المدخل فبواسطة الإيمان الصادق الصحيح يحصل الإنسان على المعرفة الإلهية. [114]

ولا يمكن أنّ أحدا يفتش الكتب بروح المسيح دون أن يكافأ. فعندما يكون إنسان راغباً في التعلّم كولد صغير ويخضع بالتمام للّٰه فسيجد الحق في كلمته. وإذا كان الناس يطيعون فسيدركون تدبير اللّٰه في حكمه. والعالم السماوي يفتح مقاصير نعمته ومجده لمن يكتشفه. والخلائق البشرية تختلف تماما عما هي الآن لأنَّه بواسطة اكتشاف مناجم الحق يصير الناس

أسمى وأنبل. وسرّ الفداء وتجسد المسيح وذبيحته الكفارية لن تكون غامضة في عقولنا كما هي الآن فإنّه فضلا عن فهمنا إياها فهما أفضل فإنها ستظفر منا بتقدير أعظم.

إنّ المسيح في صلاته إلى الآب قدم للعالم درساً ينبغي أن ينقش على العقل والنفس. فقد قال: « وَهذه هيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ » (يوحنا ١٧: ٣). هذا هو التهذيب الحقيقي. فهو يمنح القوة. فالمعرفة الاختبارية للّه وليسوع المسيح الذي قد أرسله تغيّر الإنسان بحيث يصير على صورة اللّه. وهي تعطي الإنسان قوة للسيطرة على نفسه جاعلا كل وازع وعاطفة في الطبيعة الدنيا تحت سيطرة القوى الأسمى في العقل. وهي تجعل من يملكها ابناً للّه ووارثاً للسماء. وهي تأتي بالإنسان إلى الشركة مع الفكر الإلهي غير المحدود وتفتح له كنوز الكون الغنية.

هذه هي المعرفة التي تُنال عندما تُفتَّش كلمةُ اللّه. وهذا الكنز يمكن أن يجده كلُّ إنسان يترك كلَّ شيء لينالَه.

« إِنْ دَعَوْتَ الْمَعْرِفَةَ، وَرَفَعْتَ صَوْتَكَ إِلَى الْفَهْمِ، إِنْ طَلَبْتَهَا كَالْفِضَّةِ، وَبَحَثْتَ عَنْهَا كَالْكُنُوزِ، فَحِينَئِذٍ تَفْهَمُ مَخَافَةَ الرَّبِّ، وَتَجِدُ مَعْرِفَةَ اللّهِ » (أمثال ٢: ٣-٥). [115]

٩

اللـؤلـؤة

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في متى ١٣: ٤٥، ٤٦).

شبّه المُخَلِّص بركات المحبة الفادية بلؤلؤة كثيرة الثمن. وأوضح تعليمه بمثل التاجر الذي خرج يطلب لآلئ حسنة: « فَلَمَّا وَجَدَ لُؤْلُؤَةً وَاحِدَةً كَثِيرَةَ الثَّمَنِ، مَضَى وَبَاعَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ وَاشْتَرَاهَا » (متى ١٣: ٤٦). إنّ المسيح نفسه هو اللؤلؤة الكثيرة الثمن. ففيه تجمّع كلّ مجد الآب وملء اللاهوت. إنّه بهاء مجد الآب ورسم جوهره. ومجد صفات اللّٰه موضح وظاهر في صفاته. وكلّ صفحة من صفحات الكتاب المُقَدَّس تتلألأ بنوره. إنّ برّ المسيح هو كلؤلؤة نقيّة بيضاء لا نقص فيها ولا شائبة. ولا يمكن أن أي عمل من أعمال الإنسان يُضفي تحسينا على عطية اللّٰه العظيمة الغالية الثمن. إنّها بلا عيب. ففي المسيح مذخر« جَمِيعُ كُنُوزِ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ » (كُولُوسِّي ٢: ٣). وقد « صَارَ لَنَا حِكْمَةً مِنَ اللّٰهِ وَبِرًّا وَقَدَاسَةً وَفِدَاءً » (١كورنثوس ١: ٣٠). فكل ما يمكن أن يسد حاجات النفس البشرية وأشواقها في هذا العالم وفى العالم الآتي موجود في المسيح. إنّ فادينا هو اللؤلؤة الغالية الثمن جدا بحيث أن كل الأشياء الأخرى تحسب خسارة إذا قورنت بها. [116]

إنّ المسيح « إِلَى خَاصَّتِه جَاءَ، وَخَاصَّتُهُ لَمْ تَقْبَلْهُ » (يوحنا ١: ١١). لقد أشرق نور اللّٰه في ظلمة العَالَم « وَالظُّلْمَةُ لَمْ تُدْرِكْهُ » (يوحنا ١: ٥). ولكن

لم يكن الجميع عديمي الاكتراث لعطية السماء. فالتاجر المذكور في المثل يرمز إلى جماعة اشتهوا الحق بكل إخلاص. ففي أمم العالم المختلفة وجد أناس غيورون ومفكرون جعلوا يفتشون في آداب العالم الوثني وعلومه وديانته عما كان يمكنهم أن يقبلوه على أنه كنز النفس. وقد وجد بين اليهود قوم كانوا يطلبون ما كانوا مفتقرين إليه. فإذ لم تشبع نفوسهم من الديانة الطقسّية تاقوا إلى الأمور الروحية التي تسمو بالنفس. وقد كان التلاميذ الذين اختارهم المسيح ضمن هذه الطائفة الأخيرة، بينما كان كرنيليوس والخصي الحبشي ينتميان إلى الطائفة الأولى. لقد كانوا يشتاقون ويصلون في طلب نور من السماء، وعندما أعلن المسيح لهم قبلوه بفرح.

واللؤلؤة في المثل لا تُصوّر على أنّها هبة. فلقد اشتراها التاجر بكل ما كان له. وكثيرون يتساءلون عن معنى هذا حيث أنّ المسيح مُقدَّم من الكتاب على أنّه هبة. نعم إنّه هبة ولكن فقط لمن يسلّمون له ذواتهم نفسا (جسداً وروحاً) بدون تحفظ. فعلينا أن نسلّم ذواتنا للمسيح ونحيا حياة الطاعة القلبية الخالصة لكل مطالبيه. إنّ كل كياننا وكل المواهب والإمكانيات التي لنا هي ملك للرب ويجب أن تُكرَّس للخدمة. فحين نسلم ذواتنا هكذا بالتمام للمسيح فهو يهبنا ذاته ومعه كل كنوز السماء. وهكذا نحصل على اللؤلؤة الكثيرة الثمن.

إن الخلاص هبة مجانية ومع ذلك فهو يشترى ويباع. ففي السوق الذي تتولى الرحمة الإلهية أمر إدارته يرمز إلى اللؤلؤة الثمينة على أنها لا تشترى بفضة أو ثمن. وفى هذا السوق يمكن للجميع [117] أن يحصلوا على عطايا السماء. إنّ خزانة لآليء الحق مفتوحة للجميع، فالرب يقول: « هَنَذَا قَدْ جَعَلْتُ أَمَامَكَ بَابًا مَفْتُوحًا وَلاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُغْلِقَهُ » . فلا يوجد سيف يحرس طريق الدخول من هذا الباب. وهناك أصوات تأتى من الداخل ومن عند الباب قائلة: تعال. وصوت المُخَلِّص يدعونا بكل غيرة ومحبة قائلا لنا: « أُشِيرُ عَلَيْكَ أَنْ تَشْتَرِيَ مِنِّي ذَهَبًا مُصَفًّى بِالنَّارِ لِكَيْ تَسْتَغْنِيَ » (رؤيا ٣: ٨، ١٨).

إن إنجيل المسيح بركَة يمكن للجميع الحصول عليها. ويمكن لأفقر الفقراء كما لأغنى الأغنياء أن يشتروا الخلاص لأنّه لا يمكن لأي ثروة أرضية مهما بلغت قيمتها أن تستحوذ عليه. إنّما يمكن الحصول عليه بالطاعة القلبية وبتسليم ذواتنا للمسيح كمقتناه. والتهذيب حتى في أسمى درجاته لا يمكنه من ذاته أن يقرّب الإنسان إلى اللّه. لقد أنعم على الفريسيين بكل الامتيازات الزمنية والروحية وقال كل منهم بكبرياء وتفاخر « أَنَا غَنِيٌّ وَقَدِ اسْتَغْنَيْتُ، وَلاَ حَاجَةَ لِي إِلَى شَيْءٍ » ومع

ذلك فقد كان كل منهم هو « الشَّقِيُّ وَالْبَئِسُ وَفَقِيرٌ وَأَعْمَى وَعُرْيَانٌ » (رؤيا ٣: ١٧). وقد قدم لهم المسيح اللؤلؤة الكثيرة الثمن ولكنهم ازدروا بها ولم يقبلوها فقال لهم: « إِنَّ الْعَشَّارِينَ وَالزَّوَانِيَ يَسْبِقُونَكُمْ إِلَى مَلَكُوتِ اللّٰهِ » (متى ٢١: ٣١).

ليس في مقدورنا أن نحصل على الخلاص باستحقاقنا ولكن علينا أن نطلبه بنفس الاهتمام والمثابرة كما لو أننا نترك كل ما في العالم في طلبه.

علينا أن نبحث عن اللؤلؤة الكثيرة الثمن ولكن لا في أسواق العالم ولا بالوسائل العالمية. والثمن الذي يُطلَب منّا دفعُه ليس ذهبٌ أو فضة لأن هذه تخص اللّٰه. أهجر فكرة كون أيّ امتياز زمني أو روحي يحقق لك الحصول على الخلاص. فاللّٰه يطلب منك الطاعة القلبية، ويسألك أن تترك خطاياك. والمسيح يقول: « مَنْ يَغْلِبُ فَسَأُعْطِيهِ أَنْ يَجْلِسَ مَعِي فِي عَرْشِي، كَمَا غَلَبْتُ أَنَا أَيْضًا وَجَلَسْتُ مَعَ أَبِي فِي عَرْشِهِ » (رؤيا ٣: ٢١). [118]

يوجد بعض من يبدو وكأنهم منصرفون إلى البحث عن اللؤلؤة السماوية، ولكنهم لا يتنازلون عن عاداتهم الخاطئة تنازلا كاملاً. ولا يموتون عن الذات ليحيا المسيح فيهم ولأجل هذا لا يعثرون على اللؤلؤة الغالية. إنّهم لم ينتصروا على الطموح النجس والافتتان بالجواذب العالمية. وهم لا يحملون الصليب ويتبعون المسيح في طريق إنكار الذات والتضحية. ومع أنهم يكادون يكونون مسيحيين فإنهم ليسوا مسيحيين بالتمام، ويبدو أنّهم قريبون من ملكوت السَّمَاوَات ولكنّهم لا يستطيعون دخوله. فكونهم مخلّصين خلاصا كاملا معناه أَنَّهُمْ ليسوا هالكين تقريبا بل هم هالكون هلاكاً كاملاً.

إن مثل التاجر الذي خرج يطلب لآلئ حسنة له معنى مزدوج. فهو لا ينطبق فقط على الناس كمن يطلبون ملكوت السَّمَاوَات بل ينطبق أيضا على المسيح كمن يطلب ميراثه الضائع. إنّ المسيح التاجر السماوي الذي يطلب لآلئ حسنة رأى في الإنسانية الهالكة اللؤلؤة الكثيرة الثمن. فقد رأى في الإنسان النجس والهالك بفعل الخطية إمكانيات الفداء. فالقلوب التي كانت ميدان الصراع مع الشيطان وخلصت بقوة المحبة هي أثمن في اعتبار الفادي من تلك التي لم تسقط أبدا. لقد نظر اللّٰه إلى البشرية لا كأنها دنيئة ولا قيمة لها، ولكنه نظر إليها في المسيح ورآها كما يمكن أن تصير إليه بواسطة المحبة الفادية. لقد جمع كل غنى الكون ووضعه لكي يشتري اللؤلؤة. وإذ وجدها يسوع أعادها إلى إكليله. « كَحَجَارَةِ التَّاجِ مَرْفُوعَةً عَلَى أَرْضِهِ » (زكريا ٩: ١٦). « وَيَكُونُونَ لِي، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ، فِي الْيَوْمِ الَّذِي أَنَا صَانِعٌ خَاصَّةً (جواهري) » (ملاخي ٣: ١٧).

ولكن المسيح كاللؤلؤة الغالية الثمن وامتيازنا في امتلاك هذا الكنز السماوي هو الموضوع الذي نحن في أشد حاجة للتأمل فيه. إنّ الرُّوح الْقُدُس هو الذي يكشف للناس عن القيمة العظيمة للؤلؤة الحسنة. إنّ زمن [119] قوة الرُّوح الْقُدُس بمعنى خاص هو الوقت الذي فيه يطلب الناس عطية السماء ويجدونها. كثيرون من الناس سمعوا الإنجيل في أيام المسيح، إلاّ أنّ أذهانهم كانت قد أظلمتها التعاليم الكاذبة فلم يتحققوا من أن [120] المعلم الجليلي الوضيع هو ابن اللّٰه. ولكن بعد صعود المسيح تميز جلوسه على عرش الملكوت كوسيط بانسكاب الرُّوح الْقُدُس. ففي يوم الخمسين أعطى الرُّوح الْقُدُس. وقد أعلن شهود المسيح قوة المُخَلِّص المُقَام. واخترق نور السماء تلك العقول المظلمة، عقول الناس الذين خدعهم وأضلّهم أعداء المسيح. فقد رأوه الآن ممجّدا ليكون « رَئِيسًا وَمُخَلِّصًا، لِيُعْطِيَ إِسْرَائِيلَ التَّوْبَةَ وَغُفْرَانَ الْخَطَايَا » (أعمال ٥: ٣١). رأوه محاطا بمجد السَماء وفى يديه كنوز لا تنفد ليمنحها لكل من يرجعون عن عصيانهم. وإذا تبين للرسل مجد وحيد الأب اعترف ثلاثة آلاف نفس بذنوبهم. وقد أمكن جعلهم يرون أنفسهم كما هي خاطئة ومنجسة، فرأوا المسيح كصديقهم وفاديهم. لقد ارتفع المسيح وتمجّد بواسطة قوة الرُّوح الْقُدُس التي حلت على الناس. هؤلاء المؤمنون رأوا بالإيمان كمن قد احتمل الإذلال والآلام والموت لكي لا يهلكوا بل تكون لهم الحياة الأبدية. إنّ إعلان المسيح بواسطة الرُّوح الْقُدُس جلب إليهم إحساسا بالتأكد من قدرته وجلاله فمدوا أيديهم إليه بإيمان قائلين: « أومن ».

حينئذ انتشرت بشرى المُخَلِّص المُقَام إلى أقصى أرجاء المسكونة. ورأت الكنيسة المهتدين يتقاطرون عليها من كل مكان. لقد اهتدى المؤمنون من جديد. وانضم الخطاة إلى المسيحيين في البحث عن اللؤلؤة الكثيرة الثمن. وتمت النبوة القائلة إن العاثر في ذلك اليوم يكون « مِثْلَ دَاوُدَ » ويكون بيت داود « مِثْلَ مَلاَكِ الرَّبِّ » (زكريا ١٢: ٨). فقد رأى كل مَسيحي في أخيه صورة إحسان اَللّٰه ومحبته لقد شمل الجميع اهتمام واحد. وهدف واحد ابتلع كل ما عداه. واختلجت كل القلوب في انسجام وتوافق. وكان مطمح المؤمنين الوحيد هو أن يعلنوا صورة [121] صفات المسيح و يخدموا لأجل امتداد الملكوت. « وَكَانَ لِجُمْهُورِ الَّذِينَ آمَنُوا قَلْبٌ وَاحِدٌ وَنَفْسٌ وَاحِدَةٌ ... وَبِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ كَانَ الرُّسُلُ يُؤَدُّونَ اَلشَّهَادَةَ بِقِيَامَةِ الرَّبِّ يَسُوعَ، وَنِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ كَانَتْ عَلَى جَمِيعِهِمْ » (أعمال ٤: ٣٢، ٣٣) « وَكَانَ الرَّبُّ كُلَّ يَوْمٍ يَضُمُّ إِلَى الْكَنِيسَةِ

الَّذِينَ يَخْلُصُونَ» (أعمال ٢: ٤٧). لقد أحيا روح المسيح كل ذلك الجمهور وأنعشهم، لأنّهم وجدوا اللؤلؤة الكثيرة الثمن.

وستتكرر هذه المشاهد بقوة أعظم. لقد كان انسكاب الرُّوح الْقُدُس في يوم الخمسين هو المطر المبكر. ولكن المطر المتأخر سيكون أغزر بكثير والروح ينتظر منا الطلب والتأهب لقبول البركة. وسيعلن المسيح ثانية في ملئه بقوة الرُّوح الْقُدُس. وسيدرك الناس قيمة اللؤلؤة الغالية فيقولون مع بولس الرسول: « مَا كَانَ لِي رِبْحًا، فَهذَا قَدْ حَسِبْتُهُ مِنْ أَجْلِ الْمَسِيحِ خَسَارَةً. بَلْ إِنِّي أَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ أَيْضًا خَسَارَةً مِنْ أَجْلِ فَضْلِ مَعْرِفَةِ الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّي » (فيلبي ٣: ٧، ٨). [122]

١٠

الشَّبَكَة

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في متى ١٣: ٤٧-٥٠).

« أَيْضًا يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ شَبَكَةً مَطْرُوحَةً فِي الْبَحْرِ، وَجَامِعَةً مِنْ كُلِّ نَوْعٍ. فَلَمَّا امْتَلأَتْ أَصْعَدُوهَا عَلَى الشَّاطِئِ، وَجَلَسُوا وَجَمَعُوا الْجِيَادَ إِلَى أَوْعِيَةٍ، وَأَمَّا الأَرْدِيَاءُ فَطَرَحُوهَا خَارِجًا. هكَذَا يَكُونُ فِي انْقِضَاءِ الْعَالَمِ: يَخْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَيُفْرِزُونَ الأَشْرَارَ مِنْ بَيْنِ الأَبْرَارِ، وَيَطْرَحُونَهُمْ فِي أَتُونِ النَّارِ. هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصَرِيرُ الأَسْنَانِ » (متى ١٣: ٤٧-٥٠).

إنّ طرح الشبكة هو الكرازة بالإنجيل. فهذا يجمع الأخيار والأشرار إلى الكنيسة. وحين تكمل رسالة الإنجيل فالدينونة تتمّم عملية الفرز. لقد رأى المسيح كيف أنّ وجود الأخوة الكذبة في الكنيسة سيجلب الذّم على طريق الحق. والعالم سيعيب الإنجيل بسبب حياة التناقض التي يحياها المعترفون الكذبة بالمسيحية. بل حتى المسيحيون قد يتعثرون حين يرون أنّ كثيرين ممن يحملون اسم المسيح لا يخضعون لسلطان روحه. فلأن هؤلاء الخطاة في الكنيسة فالناس سيتعرضون لخطر الظن بأنّ الله [١٢٢] يتغاضى عن خطاياهم. ولذلك فها المسيح يرفع الستار عن المستقبل ويأمر الجميع بأن يروا أنّ الخلق وليس المركز هو الذي يقرر مصير الإنسان.

إنّ مثل الزوان والشبكة كليهما يعلّماننا أنّه لن يوجد الوقت الذي فيه يرجع كل الأشرار إلى اللّه. إنّ الحنطة والزوان ينميان كلاهما معا إلى وقت الحصاد. والسمك الجيد والرديء يسبحان معا إلى الشاطئ لأجل الفرز النهائي.

ثم إنّ هذين المثلين يعلماننا أيضا أنّه لن تكون هنالك فرصة إمهال بعد الدينونة وعندما يكمل عمل الإنجيل يتبع ذلك مباشرة فرز الصالحين من الأشرار وتُقرّر إلى الأبد مصيرُ كلٍّ من الفريقين.

إنّ اللّه لا يسرّ بهلاك أحد، « حَيٌّ أَنَا، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، إِنِّي لاَ أُسَرُّ بِمَوْتِ الشِّرِّيرِ، بَلْ بِأَنْ يَرْجِعَ الشِّرِّيرُ عَنْ طَرِيقِهِ وَيَحْيَا. ارْجِعُوا، ارْجِعُوا عَنْ طُرُقِكُمُ الرَّدِيئَةِ! فَلِمَاذَا تَمُوتُونَ؟ » (حِزْقِيَال ٣٣: ١١). إنّ روح اللّه القدوس يتوسّل إلى الناس إلى مدى زمن النعمة لعلَّهم يقبلون هبة الحياة. فالذين يرفضون توسّلاته هم وحدهم الذين يُتركون ليهلكوا. لقد أعلن اللّه أنّ الخطية لابد أن تتلاشى كشرّ مدمّر للمسكونة. فالذين يتشبثون بالخطية سيهلكون في هلاكها. [124]

١١

جُدد وَعُتـقَـاء

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في متى ١٣: ٥١-٥٢).

فيما كان المسيح يعلم الشعب كان في نفس الوقت يدرب تلاميذه للقيام بعملهم المقبل. ففي كل تعاليمه كانت دروس لأجلهم. فبعدما قدم مثل الشبكة سألهم قائلا: « أَفَهِمْتُمْ هذَا كُلَّهُ؟ » فأجابوه بقولهم: « نَعَمْ، يَا سَيِّدُ» . ثم في مثل آخر وضع أمامهم مسئوليتهم فيما يتعلق بالحقائق التي قد تسلموها قائلا: « منْ أَجْل ذلكَ كُلُّ كَاتب مُتَعَلِّم فِي مَلَكُوت السَّمَاوَات يُشْبهُ رَجُلاً رَبَّ بَيْت يُخْرِجُ منْ كَنْزِه جُدُدًا وَعُتَقَاءَ » (متى ١٣: ٥١، ٥٢).

إنّ الكنز الذي يحصل عليه رب البيت لا يَّدخره، ولكنه يخرجه ليسلمه لآخرين. وإذ يستعمل هذا الكنز فهو يزيد. إنّ ربّ البيت لديه أشياء ثمينة جدد وعتقاء. وهكذا المسيح يعلمنا أنّ الحق المسلّم لتلاميذه يجب تبليغه للعالم وإذ تُذاع معرفة الحقَ بين الناس فهي تربو وتزيد. [125] كل من يقبلون رسالة الإنجيل في قلوبهم يتوقون لنشرها. إنّ محبّة المسيح التي هي وليدة السماء ينبغي أن تجد تعبيرا. والذين لبسوا المسيح يقصّون اختبارهم راسمين، خطوة فخطوة، قيادة الرُّوح الْقُدُس لهم وجوعهم وعطشهم إلى معرفة اللّه ويسوع المسيح الذي أرسله، ونتائج تفتيشهم للكتاب، وصلواتهم وآلامهم النفسية وقول المسيح لهم: « مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ ». إنّه من غير الطبيعي أن يحتفظ

أيّ إنسان لنفسه بهذه الأمور، والذين غمرتهم محبة المسيح لن يفعلوا هكذا. فبنسبة ما جعلهم الرب مستودعات للحق المقدس – بقدر ذلك يشتاق إلى أن يحصل الغير على نفس البركة. وإذ يطلعون الناس على كنوز نعمة اللّه الغنية فإنّ فيضاً متزايدا من نعمة المسيح يُغدَق عليهم. وسيكون لهم قلب الولد الصغير، في بساطته وطاعته في غير تحفّظ. وستتلّهف نفوسهم إلى القداسة وسيعلن لهم المزيد من كنوز الحق والنعمة ليقدّموه للعالم خزانة الحق العظيمة هي كلمة اللّه – الكلمة المكتوبة وسفر الطبيعة وسفر الاختبار في معاملة اللّه للحياة البشرية. هنا توجد الكنوز التي يجب على خدام المسيح أن يغترفوا منها. ففي بحثهم عن الحق عليهم أن يعتمدوا على اللّه لا على العقل البشري أو العظماء الذين حكمتهم جهالة في نظر اللّه. إنّ الرب يهب معرفة عن ذاته لكل طالبيها عن طريق القنوات التي قد أعدّها بنفسه.

إذا كان خادم المسيح يؤمن بكلمته ويعمل بها فلا يوجد علم في العالم الطبيعي يعجز هو عن فهمه وتقديره. ولا يوجد إلا ما يمده بالوسائل لتقديم الحق للآخرين. إنّ العلم الطبيعي هو خزانة المعرفة التي يمكن لكل تلميذ في مدرسة المسيح أن يغترف منها. [126] فإذ نتأمل في جمال الطبيعة وندرس الدروس الخاصة بزرع الأرض ونموّ الأشجار وكل عجائب الأرض والبحر والجو نحصل على إدراك جديد للحق. والأسرار المتصلة بمعاملات اللّه مع الناس، وأعماق حكمته وعدله كما تُرى في الحياة البشرية – هذه نجدها خزائن غنية بالكنوز.

ولكنّ معرفة اللّه تُعلَن بأكمل وضوح للإنسان الساقط في الكلمة المكتوبة. هذه هي خزانة غنى المسيح الذي لا يُستقصي.

إن كلمة اللّه متضمنة في أسفار العهد القديم كما في أسفار العهد الجديد. فلا يكمل أحدهما بدون الآخر. لقد أعلن المسيح أنّ حقائق العهد القديم غالية وثمينة كحقائق العهد الجديد. والمسيح كان فادي الإنسان عند بدء الخليقة كما هو اليوم تماما. وقبلما تسربلت الألوهية برداء البشرية وأتت إلى عالمنا أُعطيت رسالة الإنجيل لآدم وشيث وأَخْنُوخ ومتوشالح ونوح. فإِبْرَاهيم في كنعان ولوط في سدوم حملا الرسالة، ومن جيل إلى جيل أعلن الرُسلَ الأمناء عن مجيء السيد الآتي. إنّ المسيح نفسه هو الذي سنّ طقوس النظام اليهودي. لقد كان هو أساس نظامهم في الذبائح الكفارية والمرموز إليه في كل خدمتهم الدينية. والدم الذي سفك عند تقديم الذبائح كان يشير إلى ذبيحة حمل اللّه. فكل الذبائح الرمزية تمت فيه والمسيح كما قد أُعلن للآباء،

وكما رُمز إليه في الخدمة الكفارية، وكما هو مصور في الناموس، وكما هو معلن بواسطة الأنبياء هو غنى أسفار العهد القديم. والمسيح في حياته وموته وقيامته، والمسيح كما أعلنه الرُّوح الْقُدُس هو كنز العهد الجديد. إنّ مخلصنا الذي هو بهاء مجد اللّه هو القديم والجديد معا. [127]

كان على الرسل أن يخرجوا كشهود لحياة المسيح وموته وشفاعته التي سبق الأنبياء فأنبأوا بها. والمسيح في اتضاعه وطهارته وقداسته ومحبته التي لا تُبارى كان يجب أن تكون موضوع شهادتهم. فلكي يكرزوا بالإنجيل في ملئه وجب عليهم أن يقدموا المُخَلِّص ليس فقط كما هو معلن في حياته وتعاليمه بل كما أنبأ عنه الأنبياء في العهد القديم وكما رمزت إليه الخدمة الكفارية.

والمسيح في تعليمه قدم الحقائق القديمة التي كان هو نفسه مصدرها، قدم الحقائق التي قد كان نطق بها على أفواه الآباء والأنبياء، ولكنه الآن قد أراق عليها نورا جديدا. وكم بدا معناها مختلفا. لقد أُدخل عليها فيضٌ من النور والصبغة الروحية بواسطة شرحه. وقد وعد بأن الرُّوح الْقُدُس سينير التلاميذ حتى تنكشف لهم كلمة اللّه. وسيكونون قادرين على تقديم حقائقها في جمال جديد.

منذ قُدِّم وعد الفداء الأول في عدن كانت حياة المسيح وصفاته وعمله كوسيط موضوع دراسة عقول بنى الإنسان. ومع ذلك فكل عقل عمل فيه وبواسطته الرُّوح الْقُدُس قدم هذه الموضوعات في نور منعش وجديد. إنّ حقائق الفداء قادرة على التطوّر والتوسّع المستمرّ. ومع أنّها قديمة فهي أبدا جديدة، وهى على الدوام تعلن لطالب الحقّ مجدا أبهى وقوّة أعظم.

في كل عصر يوجد نمو وتطوّر جديد للحق – رسالة من اللّه لأهل ذلك العصر. فكل الحقائق القديمة لازمة وجوهرية، والحق الجديد ليس مستقلاّ على القديم ولكنه كشْفٌ وإيضاح له. وعلى قدر ما نفهم الحقائق القديمة نستطيع إدراك الحقائق الجديدة، فعندما أراد المسيح أن يطلع تلميذيه على حقيقة قيامته « ابْتَدَأَ مِنْ مُوسَى وَمِنْ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ [128] يُفَسِّرُ لَهُمَا الأُمُورَ الْمُخْتَصَّةَ بِهِ فِي جَمِيعِ الْكُتُبِ » (لوقا ٢٤: ٢٧). ولكن النور الذي يضيء من الشرح الجديد للحق هو الذي يمجد الحق القديم. فالذي يرفض الجديد أو يهمله لا يمتلك الحق القديم في الحقيقة. فبالنسبة إليه يفقد الحق القديم قوته وسلطانه ويمسي أمرا شكليا لا حياة فيه.

هناك بعض من يعترفون بأنهم يؤمنون بحقائق العهد القديم ويعلّمون بها في حين أنهم يرفضون ما جاء في العهد الجديد. ولكنهم إذ يرفضون قبول تعاليم

المسيح يبرهنون على أنهم لا يؤمنون بما قد تكلم به الآباء و الأنبياء. قال المسيح: « لَوْ كُنْتُمْ تُصَدِّقُونَ مُوسَى لَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي، لأَنَّهُ هُوَ كَتَبَ عَنِّي » (يوحنا ٥: ٤٦). لذلك لا توجد في تعاليمهم قوة حقيقية حتى من كتب العهد القديم.

وكثيرون ممن يدّعون أنهم يؤمنون بالإنجيل ويعلّمون به يخطئون نفس الخطأ. إنّهم يلقون جانبا أسفار العهد القديم التي أعلن المسيح قائلا عنها: « هِيَ الَّتِي تَشْهَدُ لِي » (يوحنا ٥: ٣٩). فإذ يرفضون القديم إنّما هم في الواقع يرفضون الجديد لأنّ كلّا منهما هو جزء من كل لا ينفصل. لا يمكن لإنسان أن يقدّم شريعة اللّٰه بالحق بدون الإنجيل، ولا الإنجيل بدون الشريعة. فالشريعة هي الإنجيل مجسّما، والإنجيل هو الشريعة مفسّرة وموضحة. الشريعة هي الجذر والإنجيل هو الزهور العطرة والثمرة التي تحملها.

إن العهد القديم يريق نورا على العهد الجديد كما أنّ الجديد يريق نورا على القديم. وكل منهما هو إعلان مجد اللّٰه في المسيح. وكلاهما يقدمان الحقائق التي تعلن على الدوام أعماقا جديدة للمعاني لكل باحث غيور.

إنّ الحق في المسيح وعن طريقه يُقاس. وتلميذ الكتاب ينظر كما إلى ينبوع يتعمق ويّتسع إذ يشخص إلى أعماقه. لا يمكننا في هذه الحياة أن ندرك سر محبة اللّٰه في بذله ابنه ليكون كفارة لخطايانا. إنّ عمل فادينا على هذه الأرض هو الآن وسيظل [129] موضوعا يسترعى أعظم قوى تفكيرنا. قد يجهد الإنسان كل قوى عقله في محاولة سبر غور هذا السرّ ولكنّ عقله لابد أن يكل ويتعب. إنّ أكثر الباحثين اجتهادا سيرى أمامه بحرا لا شواطئ له ولا حدود.

إنّ الحق كما هو في يسوع يمكن للإنسان أن يختبره، ولكنه لا يستطيع أبدا أن يفسّره. إنّ علّوه وعرضَه وعمقَه يفوق كل معرفة. فيمكننا أن نجهد عقولنا إلى أبعد الحدود وحينئذ لا نرى إلاّ شيئا ضئيلا من حدود تلك المحبة التي لا توصف، تلك المحبة العالية كالسماء ومع ذلك فقد انحنت إلى الأرض لكي تطبع صورة اللّٰه على قلوب بنى الإنسان جميعا.

ومع ذلك فيمكننا أن نرى كل ما نستطيع احتماله من الحنان الإلهي. هذا يعلن للنفس المتواضعة المنسحقة. ونحن سندرك رأفة اللّٰه وحنانه بنسبة ما تُقدّر تضحيته لأجلنا. وإذ نفتّش كلمة اللّٰه في وداعة القلب فإنّ موضوع الفداء العظيم سينكشف في بحثنا وسيزداد جمالا وتألقا حين نراه ونطوق إلى إدراكه، وسيزيد في سموّه وعمقه.

إنّ حياتنا ينبغي أن ترتبط بحياة المسيح، وعلينا أن نتناول منه باستمرار ونأخذ منه الخبز الحيّ النازل من السماء وأن نستقي من الينبوع الذي هو عذب دائما والذي دائما يفيض بالكنز الغزير. إننا إذا كنا نجعل الرب أمامنا في كل حين ونسكب قلوبنا في الحمد والشكر له فسيكون أسلوب الحديث مع اللّٰه كما لو كنا نحادث صديقا وسيحادثنا بأسراره شخصيا. وكثيرا ما سيخامرنا إحساس عذب ومفرح بحضور يسوع. وكثيرا ما تلتهب قلوبنا فينا عندما يدنو منا ليحادثنا كما فعل مع أَخْنُوخ. وعندما يكون هذا [130] هو اختبار المسيحي حقا فسترى في حياته البساطة والوداعة والرقة واتضاع القلب التي تبرهن لكل من يعاشرهم على أنه كان مع يسوع وقد تعلم منه.

إنّ دين المسيح سيُظهر نفسه في كل من يعتنقونه بأنّه مبدأٌ محي متغلغل في النفس، وقوة حية عاملة وروحية. وستظهر نضارة الشباب الدائم وقوته وفرحه. إنّ القلب الذي يقبل كلمة اللّٰه ليس هو كالبركة التي تتبخر مياهها، ولا كالآبار المشققة التي تفقد كنزها، ولكنه يشبه الجَدول المنحدر من الجبل الذي يستمد ماءه من ينابيع لا تنضب والذي تثب مياهه الباردة المتلألئة من صخرة إلى صخرة منعشة الإنسان المتعب والظامئ والثقيل الحمل.

هذا الاختبار يمنح كل معلم للحق المؤهلات التي تجعله ممثلا للمسيح. إنّ روح تعليم المسيح يضفي على تعاليمه وصلواته قوة واستقامة. ولن تكون شهادته للمسيح شهادة ضيقة عديمة الحياة. بل سيكون ذهنه متفتحا لإنارة الرُّوح الْقُدُس.

قال المسيح: « مَنْ يَأْكُلُ جَسَدي وَيَشْرَبُ دَمي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ ... كَمَا أَرْسَلَني الآبُ الْحَيُّ، وَأَنَا حَيٌّ بِالآبِ، فَمَنْ يَأْكُلْني فَهُوَ يَحْيَا بي ... اَلرُّوحُ هُوَ الَّذي يُحْيي ... اَلْكَلاَمُ الَّذي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ هُوَ رُوحٌ وَحَيَاةٌ » (يوحنا ٦: ٥٤-٦٣).

عندما نأكل جسد المسيح ونشرب دمه فإن عنصر الحياة الأبدية يوجد في الخدمة. فلن تكون هناك ذخيرة من الآراء الممتهنة التي كثر ترديدها. ولن تُلقى العظات الباردة في روح التذلل والجبن. وستقدم الحقائق القديمة ولكنّها سترى في نور جديد. وسيكون هنالك إدراك جديد للحق، ووضوح وقوة [131] يشاهدها الجميع. والذين يتمتعون بامتياز الاستماع لهذه الخدمة، وان كانوا يحسون بتأثير الرُّوح الْقُدُس، يشعرون بالقوة النشطة والمنعشة للحياة الجديدة. وستضطرم في أعماقهم نار محبة اللّٰه. وستنتعش وتستيقظ قوى إدراكهم ليشاهدوا جمال الحق وجلاله.

إنّ رب البيت الأمين يصوّر لنا ما يجب أن يكون عليه كل معلم للأولاد والشباب. فإذا كان يجعل كلمة اللّٰه كنزه فسيستخرج منها على الدوام جمالا جديدا وحقا جديدا. وعندما يعتمد المعلم على اللّٰه في الصلاة فسيحلّ عليه روح المسيح، واللّٰه سيعمل بواسطته بالرُّوح الْقُدُس ليؤثر في عقول الآخرين. والرُّوح الْقُدُس يملأ العقل والقلب [132] بالرجاء العذب الجميل والشجاعة والصور الكتابية، وهو سيخبر الشباب الذين يعلمهم بهذا كله.

إن ينابيع السلام والفرح السماويّين الحالّة على روح المعلم من كلام الوحي ستصير نهرا قويا من التأثير ليبارك كل من يحتكّون به. ولن يكون الكتاب المُقَدَّس كتابا مملاّ في نظر التلميذ. فتحْتَ إشراف المعلم الحكيم تصير الكلمة مشوّقة أكثر وأكثر، كخبز الحياة ولن تعتق أبدا. وستجذب انتباه الأولاد والشباب وتسبي قلوبهم بنضارتها وجمالها. وهي تشبه الشمس إذ تشرق على الأرض إذ إنها على الدوام توزع على الناس من نورها وحرارتها ومع ذلك فهي لا تُستهلَك أبدا.

إنّ روح اللّٰه القدوس المعلّم هو في كلمته. وإنّ نورا جديدا وثمينا يضيء من كل صفحة من صفحات الكتاب. ففيه يعلن الحق، وأقواله وعبارته تصير لامعة وباهرة ومطابقة لكل ظرف كصوت اللّٰه مخاطبا النفس.

يحب الرُّوح الْقُدُس أن يخاطب الشباب ويكشف لهم عن كنوز كلمة اللّٰه وما فيها من ألوان الجمال. فالمواعيد التي نطق بها المعلم الأعظم تأسر الحواس وتنعش النفس بقوة روحيّة إلهية. وفى العقل الخصب تنمو ألفة مع الأمور السماوية تصير كمتراس ضد التجربة.

وسيزيد كلام الحق في أهميته وسيتخذ رحابة واتساعا وملئا في المعنى لم نكن نحلم به من قبل. إنّ جمال الكلمة وغناها لهما قوة مغيّرة في العقل والخلق وسينزل نور المحبة السماوية على القلب كالإلهام.

إنّ تقديرنا للكتاب المقدس ينمو كلّما درسناه. ففي أي طريق يتجه تلميذ الكتاب فهو سيجد حكمة اللّٰه ومحبته السرمديتين. [133]

إنّ أهمية النظام العبري لم يدركها أحد بعد إدراكا كاملا. فإنّه توجد حقائق واسعة جدا وعظيمة مرموز إليها في طقوسها ورموزها. والإنجيل هو المفتاح الذي يفتح تلك الأسرار الغامضة. ومتى عرفنا تدبير الفداء فإنّ تلك الأسرار تنكشف إلى أذهاننا. إنّه امتياز عظيم لنا أن نزداد إدراكا لهذه المباحث العجيبة. علينا أن نفهم أمور اللّٰه العميقة. إنّ الملائكة يشتهون أن يطلعوا على الحقائق التي تعلن على الناس الذين يفتشون كلمة اللّٰه بقلوب منسحقة،

والذين يصلّون في طلب بلوغ أبعاد أعظم في الطول والعرض والعمق والعلو للمعرفة التي لا يمنحها سوى الرب.

وعندما نقترب من نهاية تاريخ هذا العالم فان النبوات المتصلة بالأيام الأخيرة تتطلب منا دراسة خاصة. إنّ آخر سفر من أسفار العهد الجديد مليء بالحق الذي نحن بحاجة إلى فهمه. إنّ الشيطان قد أعمى أذهان الكثيرين بحيث أنّهم يُسرّون لو وجدوا عذرا يتذرّعون به حتى لا يدرسوا سفر الرؤيا. ولكنّ المسيح أعلن لنا على لسان خادمه يوحنا عمّا سيحدث في الأيام الأخيرة. وهو يقول: « طُوبَى لِلَّذِي يَقْرَأُ وَلِلَّذِينَ يَسْمَعُونَ أَقْوَالَ النُّبُوَّةِ، وَيَحْفَظُونَ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِيهَا » (رؤيا ١: ٣).

لقد قال المسيح: « هذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ » (يوحنا ١٧: ٣). لماذا لا ندرك قيمة هذه المعرفة ؟ ولماذا لا تتألق هذه الحقائق في قلوبنا ولا تهتف بها شفاهنا ولا تتغلغل في كل كياننا؟

إنّ اللّه إذ أعطى لنا كلمته جعل في حوزتنا كل الحق الجوهري لأجل خلاصنا. إنّ آلافا من الناس استقوا ماء من ينابيع الحياة هذه، ومع ذلك فإنّ كمية المياه لم تنقص. وآلاف من الناس جعلوا الرب أمامهم، وإذ رأوه تغيّروا إلى [134] تلك الصورة عينها. وروحهم تُضرم في داخلهم عندما يتحدثون عن صفاته ويخبرون عمّا هو المسيح لهم وما هم للمسيح. ولكنّ هؤلاء الباحثين لم يستنفدوا هذه البحوث العظيمة المقدسة. ويمكن لآلاف أكثر أن يشغلوا أنفسهم في عملية البحث واستقصاء أسرار الخلاص. وإذ يفكرون في حياة المسيح وطبيعة رسالته فإنّ أشعة من النور تضيء بأكثر وضوح لدى كل محاولة لاكتشاف الحق. وكل بحث جديد سيكشف عن شيء أكثر تشويقا ممّا قد أكتشف من قبل. فالموضوع لا يمكن أن يُستنفد، إنّ دراسة تجسّد المسيح وذبيحته الكفارية وعمله كوسيط يشغل عقل التلميذ المجد مدى الوقت، وإذ يشخص إلى السماء وسنيّها التي لا تحصى يهتف قائلا: « عَظِيمٌ هُوَ سِرُّ التَّقْوَى » (١تيموثاوس ٣: ١٦).

وفى الأبدية سنتعلّم ذلك الذي لو حصلنا على الاستنارة التي كان في إمكاننا الحصول عليها في هذا العالم لكان قد فتح أذهاننا. إنّ مواضيع الفداء ستشغل قلوب المفديين وأذهانهم وألسنتهم مدى أجيال الأبد. وسيدركون الحقائق التي كان المسيح يتوق لأن يطلع تلاميذه عليها ولكن لم يكن عندهم إيمان ليدركوها. وإلى أبد الآباد ستظهر آراء جديدة عن كمال المسيح ومجده. ومدى الأجيال الأزلية سيُخرج رب البيت الأمين من كنزه جددا وعتقاء. [139]

١٢

اطلبوا لِتُعطوا

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في لوقا ١١: ١-١٣).

لقد كان المسيح على الدوام يتناول من الآب حتى يمكنه أن يوصّل إلينا. فلقد قال: « الْكَلاَمُ الَّذي تَسْمَعُونَهُ لَيْسَ لي بَلْ للآب الَّذي أَرْسَلَني » (يوحنا ١٤: ٢٤). « ابْنَ الإِنْسَانَ لَمْ يَأْت لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ » (متى ٢٠: ٢٨). لقد عاش وفكر وصلى لا لأجلَ نفسه بَل لأجل الآخرين. فمن الساعات التي قضاها مع اللّٰه الآب خرج من صباح إلى صباح ليجيء بنور السماء إلى الناس. وفى كل يوم كان يحصل على معمودية الرُّوح الْقُدُس من جديد. ففي بكور ساعات اليوم الجديد أيقظه الرب من نومه، وقد مسحت نفسه وشفتاه بالنعمة حتى يمكنه أن يوزع على الآخرين. لقد أُعطيَ له الكلام سائغا وجديدا من المواطن السماوية، الكلام الذي كان يمكنه أن ينطق به في وقته للمُعَيين والمظلومين. فقد قال: « أَعْطَاني السَّيِّدُ الرَّبُّ لِسَانَ الْمُتَعَلِّمينَ لأَعْرِفَ أَنْ أُغيثَ الْمُعْيِيَ بِكَلِمَة. يُوقِظُ كُلَّ صَبَاحٍ لِي أُذُنًا، لأَسْمَعَ كَالْمُتَعَلِّمينَ » (إِشَعْيَاء ٥٠: ٤). [140]

تأثر تلاميذ المسيح بصلاته وبشركته مع اللّٰه التي كان قد اعتادها. وفى أحد الأيام بعدما غابوا غيبة قصيرة عن سيدهم وجدوه منهمكا في الصلاة والابتهال. وإذ بدا وكأنه غير شاعر بوجودهم ظل يصلي بصوت عال. تأثّرت

قلوب التلاميذ تأثّرا عميقا، فلما انتهى من الصلاة صاحوا قائلين: « يَا رَبُّ، عَلِّمْنَا أَنْ نُصَلِّيَ » (لوقا ١١: ١).

وجوابا على سؤالهم كرّر لهم المسيح الصلاة الربانية كما نطق بها في موعظته على الجبل. ثم شرح لهم الدرس الذي أراد أن يعلمهم إيّاه بمثل فقال: « مَنْ مِنْكُمْ يَكُونُ لَهُ صَدِيقٌ، وَيَمْضِي إِلَيْهِ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُولُ لَهُ يَاصَدِيقُ، أَقْرِضْنِي ثَلاَثَةَ أَرْغِفَةٍ، لأَنَّ صَدِيقاً لِي جَاءَنِي مِنْ سَفَرٍ، وَلَيْسَ لِي مَا أُقَدِّمُ لَهُ. فَيُجِيبَ ذلكَ مِنْ دَاخِلٍ وَيَقُولَ: لاَ تُزْعِجْنِي! اَلْبَابُ مُغْلَقٌ الآنَ، وَأَوْلاَدِي مَعِي فِي الْفِرَاشِ. لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَقُومَ وَأُعْطِيَكَ. أَقُولُ لَكُمْ: وَإِنْ كَانَ لاَ يَقُومُ وَيُعْطِيهِ لِكَوْنِهِ صَدِيقَهُ، فَإِنَّهُ مِنْ أَجْلِ لَجَاجَتِهِ يَقُومُ وَيُعْطِيهِ قَدْرَ مَا يَحْتَاجُ» (لوقا ١١: ٥-٨).

إنّ المسيح هنا يصور المصلّي كمن يسأل ليُعطي آخر بدوره. ينبغي له أن يحصل على الخبز، وإلاّ فلا يستطيع أن يقدم للمسافر المُتعب المتأخر احتياجاته. ومع أنّ قريبه لا يريد أي إزعاج فإنه لن يصد صديقه المتوسل بل لابد من أن يسعف ذلك الصديق، وأخيرا تُكافأ لجاجته وتُسدّ احتياجاته.

بمثل هذه الكيفية كان يجب على التلاميذ أن يطلبوا البركات من اللّه. فعند إشباع الجموع، وعندما ألقى عظته عن الخبز النازل من السماء كشف لهم المسيح عن عملهم كنواب عنه. فقد كان عليهم أن يقدموا للناس خبز الحياة. فذاك الذي عين لهم عملهم رأى كم مرّة سيُجرّب إيمانهم. وكثيرا ما سيقعون في مواقف غير منتظرة ويدركون [141] عدم كفايتهم كبشر. والنفوس الجائعة إلى خبز الحياة كانت ستأتي إليهم وسيحسّون هم أنهم في حال الفقر والعجز. فعليهم أن يحصلوا على الخبز الروحي وإلاّ فلن يكون لديهم ما يقدمونه للغير. ولكن لم يكن لهم أن يصرفوا نفسا جائعة. فالمسيح يرشدهم إلى مصدر المؤونة. إنّ الرجل الذي أتاه صديقه ليضيفه مع أنه قد جاءه في نصف الليل وهو وقت غير مناسب، لم يطرده. لم يكن عنده ما يقدمه له ولكنّه ذهب إلى آخر كان يوجد عنده طعام وألحّ عليه بطلبه حتى أعطاه ذلك القريب حاجتهم. فهل اللّه الذي قد أرسل خدامه ليطعموا الجياع يكف عن إمدادهم بحاجتهم لأجل عمله؟

ولكن ذلك القريب الأناني المذكور في المثل لا يمثّل صفات اللّه. والدرس مُستخلص لا بالمقارنة بل بالمفارقة. إنّ رجلا أنانيا يمنح طالبا لجوجا طلبه لكي يتخلص من ذلك الإنسان الذي يزعج راحته. ولكنّ اللّه يسر بأن يُعطي. إنّ قلبه

عامر بالرأفة والحنان وهو يتوق لإجابة طلبات من يأتون إليه بإيمان. إنّه يعطينا حتى نخدم حاجات الآخرين وهكذا نتشبه به.

والمسيح يعلن قائلا: « اسْأَلُوا تُعْطَوْا. اُطْلُبُوا تَجِدُوا. اقْرَعُوا يُفْتَحْ لَكُمْ. لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَسْأَلُ يَأْخُذُ، وَمَنْ يَطْلُبُ يَجِدُ، وَمَنْ يَقْرَعُ يُفْتَحُ لَهُ » (العددان ٩، ١٠).

ثم يستطرد المُخَلِّص قائلا: « فَمَنْ مِنْكُمْ، وَهُوَ أَبٌ، يَسْأَلُهُ ابْنُهُ خُبْزًا، أَفَيُعْطِيهِ حَجَرًا؟ أَوْ سَمَكَةً، أَفَيُعْطِيهِ حَيَّةً بَدَلَ السَّمَكَةِ؟ أَوْ إِذَا سَأَلَهُ بَيْضَةً، أَفَيُعْطِيهِ عَقْرَبًا؟ فَإِنْ كُنْتُمْ وَأَنْتُمْ أَشْرَارٌ تَعْرِفُونَ أَنْ تُعْطُوا أَوْلاَدَكُمْ عَطَايَا جَيِّدَةً، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ الآبُ الَّذِي مِنَ السَّمَاءِ، يُعْطِي الرُّوحَ الْقُدُسَ لِلَّذِينَ يَسْأَلُونَهُ » (الأعداد ١١-١٣).

إنّ المسيح لكي يقوّي ثقتنا في اللّه يعلمنا أن نخاطبه باسم جديد، اسم مرتبط [142] بأعزّ صلات القلب البشري. إنّه يعطينا امتياز مخاطبة الإله السرمدي بالقول: أبانا. هذا الاسم إذ يُنادى به أو يُطلق عليه هو رمز محبّتنا له وثقتنا به وضمان لاهتمامه وصلته بنا. فإذ ننطق بهذا الاسم عندما نطلب رضاه أو بركته فإنّه يقع على أذنيه وقع الموسيقى. وحتى لا نظنّ أنها غطرسة منا إذ نناديه بهذا الاسم فقد ردده مرارا وتكرارا. وهو يريد أن يكون هذا الاسم مألوفا لدينا.

إنّ اللّه يعتبرنا أولادا له. لقد افتدانا من بين العالم العديم الاكتراث واختارنا لنصير أعضاء في الأسرة الملكية، أبناء وبنات ملك السماء. وهو يدعونا لأن نثق به ثقة أعمق وأقوى من ثقة الابن بأبيه الأرضي. الوالدون يحبون أولادهم، ولكن محبة اللّه أرحب وأعرض وأعمق مما يمكن أن تصل إليه المحبة البشرية. إنّها لا تقاس. إذاً فإذا كان الوالدون الأرضيون يعرفون أن يعطوا أولادهم عطايا جيدة فكم بالحري الآب الذي من السماء يعطي الرُّوح الْقُدُس للذين يسألونه؟

ينبغي لنا أن نتأمل بكل اهتمام في التعاليم التي يقدمها المسيح عن الصلاة. إنّ في الصلاة علماً إلهيّا، وشرحه يضع أمام أنظارنا المبادئ التي يحتاج الجميع إلى فهمها. فهو يرينا ما هي الروح الحقيقية للصلاة، ويعلمنا لزوم المثابرة في تقديم طلباتنا إلى اللّه ويؤكد لنا استعداده وشوقه إلى أن يسمع الصلاة ويجيبها.

صلواتنا ينبغي ألا تكون صلوات أنانية، فلا نطلب فقط ما يؤول إلى فائدتنا الذاتية، بل علينا أن نطلب لنُعطي. فمبدأ حياة المسيح ينبغي أن يكون مبدأ حياتنا. إنّ السيد وهو يتحدث عن تلاميذه صلى قائلا: « لأَجْلِهِمْ أُقَدِّسُ أَنَا ذَاتِي، لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضًا مُقَدَّسِينَ » (يوحنا ١٧: ١٩). ونفس التكريس ونفس

التضحية ونفس التسليم لمطاليب كلمة اللّٰه التي ظهرت في حياة المسيح ينبغي أن تُرى في خدامه. إنّ رسالتنا إلى العالم ليس القصد منها أن نخدم أو نرضي ذواتنا بل علينا [143] أن نمجد اللّٰه بالتعاون معه على تخليص الخطاة. علينا أن نسأل البركات من اللّٰه حتى نقدمها للآخرين. إنّ المقدرة على الأخذ تحفظ فقط إذ نوزع على الآخرين. إنّنا لا نستطيع المداومة على تلقي كنوز السماء ما لم نوزعها على من حولنا.

إنّ ذلك الرجل السائل في المثل قد صُدّ مرارا وتكرارا لكنّه لم ينثن عن عزمه، وهكذا صلواتنا لا يبدو دائما أننا نتلقّى عنها إجابة سريعة، ولكن المَسيح يعلّمنا ألاّ نكفّ عن الصلاة. ليس القصد من الصلاة أن تحدث أي تغيير في اللّٰه، بل لتجعلنا في حالة توافق وانسجام معه تعالى. فعندما نتقدم أليه بطلب، قد يرى هو أن من اللازم لنا أن نفحص قلوبنا ونتوب عن الخطية، فلهذا يجيزنا في المحن والتجارب ويجيزنا في وادي الاتضاع لكي نرى العوائق التي تعطل عمل الرُّوح الْقُدُس بواسطتنا.

توجد شروط لإتمام مواعيد اللّٰه، والصلاة لا يمكن أن تحل في مكان الواجب. لقد قال المسيح: « إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ » « اَلَّذِي عِنْدَهُ وَصَايَايَ وَيَحْفَظُهَا فَهُوَ الَّذِي يُحِبُّنِي، وَالَّذِي يُحِبُّنِي يُحِبُّهُ أَبِي، وَأَنَا أُحِبُّهُ، وَأُظْهِرُ لَهُ ذَاتِي » (يوحنا ١٤: ١٥، ٢١). فالذين يقدمون توسلاتهم إلى اللّٰه ويطالبونه بوعده في حين أنهم لا يتممون الشروط يهينون الرب. إنّهم يذكرون اسم المسيح كسند لإتمام الوعد، ولكنّهم لا يعملون الأعمال التي تظهر إيمانهم بالمسيح ومحبتهم له.

كثيرون يزيفون شروط القبول لدى الآب. إننا بحاجة إلى فحص صكّ ثقتنا بكل دقة، ذلك الصكّ الذي بموجبه ندنو من اللّٰه. فإذا كنا عصاة فإننا نقدم للرب كمبيالة لصرفها في حين أننا لم نتمم الشروط التي بموجبها تكون مستحقة الدفع لنا. فنحن نقدم للّٰه مواعيده ونسأله أن يتمّمها في حين أنّه لو فعل ذلك لأهان اسمه. [144]

الوعد هو هذا: « إِنْ ثَبَتُّمْ فِيَّ وَثَبَتَ كَلاَمِي فِيكُمْ تَطْلُبُونَ مَا تُرِيدُونَ فَيَكُونُ لَكُمْ » (يوحنا ١٥: ٧). ويوحنا يعلن قائلا: « وَبِهذَا نَعْرِفُ أَنَّنَا قَدْ عَرَفْنَاهُ: إِنْ حَفِظْنَا وَصَايَاهُ. مَنْ قَالَ: قَدْ عَرَفْتُهُ وَهُوَ لاَ يَحْفَظُ وَصَايَاهُ، فَهُوَ كَاذِبٌ وَلَيْسَ اَلْحَقُّ فيه. وَأَمَّا مَنْ حَفِظَ كَلِمَتَهُ، فَحَقًّا فِي هذَا قَدْ تَكَمَّلَتْ مَحَبَّةُ اللّٰهِ » (١يوحنا ٢: ٣-٥).

من بين أوامر المسيح الأخيرة لتلاميذه قوله « أَنْ تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ » (يوحنا ١٣: ٣٤). فهل نحن مطيعون لهذا الأمر أم أننا منغمسون في أخلاق جارحة لا تمتّ إلى المسيحية بصلة؟ فإذا كنا قد أحزنا الآخرين أو جرحنا مشاعرهم بأيّة كيفية فواجبنا يقتضينا أن نعترف بخطئنا ونلتمس المصالحة. هذا استعداد جوهري حتى يمكننا أن نقترب إلى اللّٰه بالإيمان لنسأل بركته.

وهنالك أمر آخر مهمل ومتروك في غالب الأحيان ممن يطلبون الرب في الصلاة. فهل أنتم أمناء مع اللّٰه؟ إنّ الرب يعلن على لسان ملاخي النبي قائلا: « مِنْ أَيَّامِ آبَائِكُمْ حِدْتُمْ عَنْ فَرَائِضِي وَلَمْ تَحْفَظُوهَا. ارْجِعُوا إِلَيَّ أَرْجِعْ إِلَيْكُمْ، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ. فَقُلْتُمْ: بِمَاذَا نَرْجِعُ؟ أَيَسْلُبُ الإِنْسَانُ اللّٰهَ؟ فَإِنَّكُمْ سَلَبْتُمُونِي. فَقُلْتُمْ: بِمَ سَلَبْنَاكَ؟ فِي الْعُشُورِ وَالتَّقْدِمَةِ » (ملاخي ٣: ٧، ٨).

إنّ اللّٰه، معطي كل بركة. يطالبنا بجزء من كلّ ما نملكه. هذه هي المؤونة التي تموّل الكرازة بالإنجيل. وإذ نقدم للرب هذا الإيراد نظهر أننا نقدّر عطاياه. أما إذا كنا نضنّ عليه بما هو من حقه فكيف يمكننا أن نطلب بركته؟ إذا لم نكن وكلاء أمناء على الأشياء الأرضية فكيف ننتظر منه أن يأتمننا على الأمور السماوية؟ قد يكون هذا هو السبب في عدم استجابة صلاتنا.

ولكنّ الرب في رحمته الكثيرة مستعدّ لأن يغفر، فيقول: « هَاتُوا جَمِيعَ الْعُشُورِ إِلَى الْخَزْنَةِ [145] لِيَكُونَ فِي بَيْتِي طَعَامٌ، وَجَرِّبُونِي بِهذَا ... إِنْ كُنْتُ لاَ أَفْتَحُ لَكُمْ كُوَى السَّمَاوَاتِ، وَأُفِيضُ عَلَيْكُمْ بَرَكَةً حَتَّى لاَ تُوسَعَ. وَأَنْتَهِرُ مِنْ أَجْلِكُمُ الآكِلَ فَلاَ يُفْسِدُ لَكُمْ ثَمَرَ الأَرْضِ، وَلاَ يُعْقِرُ لَكُمُ الْكَرْمُ فِي الْحَقْلِ ... وَيُطَوِّبُكُمْ كُلُّ الأُمَمِ، لأَنَّكُمْ تَكُونُونَ أَرْضَ مَسَرَّةٍ، قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ » (ملاخي ٣: ١٠-١٢).

وكذلك الحال بالنسبة إلى كل مطاليب اللّٰه الأخرى. فكل عطاياه قد وعد بأن يعطيها لمن يتممون شرط الطاعة. إنّ عند اللّٰه سماء ملأى بالبركات لمن يتعاونون معه . وكل من يطيعونه يمكنهم بكل ثقة أن يطالبوه بإتمام مواعيده.

ولكن علينا أن نبرهن على ثقة في اللّٰه ثابتة غير منحرفة. ففي كثير من الأحيان يؤخر الإجابة ليمتحن إيماننا أو ليختبر خلوص رغائبنا. فإذ نسأله طبقا لكلمته علينا أن نؤمن بوعده ونلحّ في توسلاتنا بعزيمة تأبى الرفض.

إنّ اللّٰه لا يقول: اسألوا مرة واحدة تعطوا. ولكنه يأمرنا بأن نسأل. فثابروا على الصلاة في غير تعب أو ملل. إنّ المداومة على السؤال تضع الطالب في حالة أكثر جدّية. وتعطيه رغبة متزايدة في الحصول على الأشياء التي يسألها. لقد قال المسيح لمرثا عند قبر لعازر: « إن آمنتِ ترين مجد اللّٰه » (يوحنا ١١: ٤٠).

ولكنّ كثيرين يعوزهم الإيمان الحي. هذا هو السبب الذي يجعلهم لا يرون مزيدا من قوة اللّه. إنّ ضعفهم سببه عدم إيمانهم. فإنّ إيمانهم بعملهم هو أكثر من إيمانهم بعمل اللّه لأجلهم. إنهم يجعلون أنفسهم تحت حراستهم هم. يرسمون الخطط ويدبرون، ولكنّهم قلّ ما يصلون وثقتهم الحقيقية في اللّه قليلة. إنهم يظنّون أنّ عندهم إيمانا ولكنه فقط وازع وقتي. فإذ هم لا يدركون حاجتهم أو استعداد اللّه [146] للاستجابة لا يواظبون على عرض طلباتهم أمام اللّه.

إنّ صلواتنا ينبغي أن تكون حارة وملحّة كما كان توسل الصديق المحتاج الذي طلب أرغفة الخبز في نصف الليل. فكلما سألنا بغيرة وثبات ازداد اتحادنا الروحي بالمسيح وثوقا. وحصلنا على بركات أكثر لأن إيماننا عظيم.

إنّ الدور الذي علينا أن نقوم به هو أن نصلّي ونؤمن. اسهروا وصلوا. اسهروا وتعاونوا مع اللّه سامع الصلاة. واذكروا دائما « إِنَّنَا نَحْنُ عَامِلاَنَ مَعَ اللّه » (١كورونثوس ٣: ٩). كما يجب أن تتحدثوا وتتصرفوا بما يتوافقَ مع صلَواتكم. إنّه مما يجعل فرقا عظيما بالنسبة إليكم ما إذا كان الامتحان يبرهن على صدق إيمانكم، أو يبرهن على أن صلواتكم ليست أكثر من مظهر.

وعندما تظهر الارتباكات وتواجهكم الصعوبات، فلا تنتظروا عونا من إنسان. بل ثقوا باللّه في كل شيء. إنّ عادة التحدث مع الآخرين عن مشاكلنا أنها تضعفنا ولا تمنح الآخرين قوّة. وهي تلقى على كواهلهم عبء ضعفاتنا الروحية التي لا يمكنهم يريحونا منها. أننا نطلب القوة من الإنسان المخطئ المحدود في حين يمكننا الحصول على القوة من اللّه السرمدي الذي لا يخطئ.

ولا حاجة بكم للذهاب إلى أقصى الأرض في طلب الحكمة لأن اللّه قريب. إنّ الذي يمنحكم النجاح ليس هو الإمكانيات التي لديكم الآن أو التي ستكون لكم ولكن ذلك هو ما يستطيع الرب أن يصنعه لأجلكم. إننا نحتاج إلى أن نقلل من ثقتنا بما يمكن للإنسان أن يفعله ونزيد من ثقتنا بما يستطيع اللّه أن يفعله لكلّ نفس مؤمنة. إنه يشتاق إلى أن تسعوا إليه بالإيمان. ويتوق إلى أن يراكم تنتظرون منه العظائم. ويتوق إلى أن يمنحكم فهما وإدراكا في الأمور الزمنية كما في الأمور الروحية. إنّه يستطيع أن يشحذ الذكاء. ويستطيع أن يمنح اللباقة والحذق. شغّلوا وزناتكم واسألوا الحكمة من اللّه فتعطى لكم.

اتخذوا كلمة المسيح مستندا لكم. [147] ألم يدعوكم لتُقبلوا إليه. لا تسمح لنفسك أبدا بان تتحدث بكيفية يائسة وبقنوط. فلو فعلت ذلك فستخسر الكثير. إنّك إذ تنظر إلى ظواهر الأمور وتشكو عندما تهجم عليك الصعوبات

والضغط الشديد فإنك بذلك تبرهن على أنّ إيمانك ضعيف وسقيم. بل عليك أن تتحدث وتتصرف كما لو أنّ إيمانك لا يُقهر. إنّ الرب غنيّ في موارده وله العالم بما فيه. فانظر إلى السماء بإيمان، انظر إلى من عنده النور والقوة والكفاية. إنّ في الإيمان الحقيقي نشاطا وثباتا في المبدإ وثباتا في العزم لا يمكن للزمن أو التعب أن يضعفه. « اَلْغِلْمَانُ يُعْيُونَ وَيَتْعَبُونَ، وَالْفتْيَانُ يَتَعَثَّرُونَ تَعَثُّرًا. وَأَمَّا مُنْتَظِرُو الرَّبِّ فَيُجَدِّدُونَ قُوَّةً. يَرْفَعُونَ أَجْنِحَةً كَالنُّسُورِ. يَرْكُضُونَ وَلاَ يَتْعَبُونَ. يَمْشُونَ وَلاَ يُعْيُونَ » (إِشَعْيَاء ٤٠: ٣٠، ٣١).

يوجد كثيرون ممن يتوقون لمساعدة الآخرين، ولكنهم يحسون بأنّه ليست لديهم القوة الروحية أو النور ليعطوه لهم. ليقدم هؤلاء طلباتهم أمام عرش النعمة. توسلوا في طلب الرُّوح الْقُدُس. إنّ اللّه يسند كل وعد قدمه. فأذ تضع كتابك المقدس بين يديك قل: إنّي قد فعلت كما قلت. وها أنا أتقدم إليك بوعدك القائل: « اِسْأَلُوا تُعْطَوْا. اُطْلُبُوا تَجِدُوا. اِقْرَعُوا يُفْتَحْ لَكُمْ » (لوقا ١١: ٩).

وينبغي ألاّ نصلّي فقط باسم المسيح بل علينا أن نصلي أيضا بإلهام الرُّوح الْقُدُس. هذا يوضح المقصود بما قيل عن أن الروح « يَشْفَعُ فِينَا بِأَنَّات لاَ يُنْطَقُ بِهَا » (رومية ٨: ٢٦). مثل هذه الصلاة يسر اللّه بان يجيبها. فَعندما نقدم صلاة باسم المسيح بغيرة وقوة فيوجد في تلك القوة نفسها الضمان من اللّه على أنه سيجيب صلاتنا « أَكْثَرَ جِدًّا مِمَّا نَطْلُبُ أَوْ نَفْتَكِرُ » (أَفَسُس ٣: ٢٠).

لقد قال المسيح: « كُلُّ مَا تَطْلُبُونَهُ حِينَمَا تُصَلُّونَ، فَآمِنُوا أَنْ تَنَالُوهُ، فَيَكُونَ لَكُمْ » (مرقس ١١: ٢٤). [148] « مَهْمَا سَأَلْتُمْ بِاسْمِي فَذلِكَ أَفْعَلُهُ لِيَتَمَجَّدَ الآبُ بِالابْنِ » (يوحنا ١٤: ١٣). وها هو يوحنا الحبيب يتكلم بوحي الرُّوح الْقُدُس بصراحة ويقين عظيمين فيقول: « إِنْ طَلَبْنَا شَيْئًا حَسَبَ مَشِيئَتِهِ يَسْمَعُ لَنَا. وَإِنْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ مَهْمَا طَلَبْنَا يَسْمَعُ لَنَا، نَعْلَمُ أَنَّ لَنَا الطِّلِبَاتِ الَّتِي طَلَبْنَاهَا مِنْهُ» (١ يوحنا ٥: ١٤، ١٥). إذا يجب أن تلح على الآب بطلبتك باسم يسوع. واللّه لابدّ أن يكرم ذلك الاسم.

إنّ قوس قزح المحيطة بالعرش هي التأكيد بأنّ اللّه أمين، وان ليس عنده تغيير ولا ظلّ دوران. لقد أخطأنا إليه ولا نستحق رضاه، ومع ذلك فهو نفسه الذي وضع في أفواهنا أعجب حجة: « لاَ تَرْفُضْ لأَجْل اسْمِكَ. لاَ تَهِنْ كُرْسِيَّ مَجْدِكَ. اُذْكُرْ. لاَ تَنْقُضْ عَهْدَكَ مَعَنَا » (إِرْمِيَا ١٤: ٢١). فعندما نأتي إليه مقرين بعدم استحقاقنا وخطيتنا فقد تعهد أن يلتفت إلى صراخنا. إنّ كرامة عرشه مرهونة بإتمام وعده لنا.

إنّ مخلِّصنا، كهرون الذي كان يرمز إليه، يحمل كل أسماء شعبه على قلبه في القُدْس. فرئيس كهنتنا العظيم يذكر كلّ الأقوال التي بها شجعنا على أن نثق به. إنّه يذكر عهده على الدوام.

وكل من يطلبون منه يجدون وكل من يقرعون يفتح لهم. ولن يقدم هذا الاعتذار: لا تزعجني. الباب مغلق ولا أريد أن أفتحه. ولن يقال لأي واحد: لا يمكنني مساعدتك. فالذين يستطيعون في نصف الليل في طلب أرغفة لإشباع النفوس الجائعة لا بد أن ينجحوا.

نعلم من المثل أن من يسأل خبزا لأجل رجل غريب يأخذ « قدر ما يحتاج ». وبأي كيل يوزع اللّٰه علينا لنوزع على الآخرين؟ [149] « حَسَبَ قِيَاسِ هِبَةِ الْمَسِيحِ» (أَفَسُس ٤: ٧). إنّ الملائكة يراقبون باهتمام عظيم ليروا كَيفَ يتعَامَل الإِنسَان مع بني جنسه. فعندما يرون أحداً يبدي عطفا كعطف المسيح نحو المخطئين فإنّهم يتزاحمون إلى جانبه ويذكرونه بكلام يقوله الذي سيكون كخبز الحياة للنفس. وهكذا « يَمْلأُ إِلهِي كُلَّ احْتِيَاجِكُمْ بِحَسَبِ غِنَاهُ فِي الْمَجْدِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ » (فيلبي ٤: ١٩). إنّه سيجعَل شَهادتكَ فِي صَراحتها الخَالصة وحَقِيقتها قوية بقوة الحياة العتيدة. وستكون كلمة الرب في فمك كلمة الحق والبر.

إنّ المسعى الفردي لأجل الآخرين ينبغي أن تسبقه صلوات سرية كثيرة، لأنّ إدراك علم تخليص النفوس يتطلب حكمة عظيمة. فقبل التحدث مع الناس عليك بالتحدث مع المسيح. فأمام عرش نعمة السماء يجب أن تحصل على إعداد لخدمة الشعب.

لينسحق قلبك اشتياقا إلى اللّٰه إلى الإله الحي. لقد برهنت حياة المسيح على ما يمكن للبشرية أن تفعله بصيرورتها شريكة في الطبيعة الإلهية. فكل ما أخذه المسيح من اللّٰه يمكننا نحن أيضا أن نحصل عليه. إذا فاسألوا وخذوا. فبإيمان يعقوب المثابر وبإصرار إيليا الذي لا ينثني اطلب من اللّٰه أن يعطيك كل ما قد وعد به.

ولتسيطر على عقلك كل الأفكار المجيدة عن اللّٰه. ولترتبط حياتك بحياة يسوع بربط خفية. إنّ ذاك الذي أمر بان يشرق نور من ظلمة يريد أن يشرق في قلبك ويمنحك نور معرفة مجد اللّٰه في وجه يسوع المسيح. والرُّوح الْقُدُس سيأخذ الأمور الإلهية ويظهرها لك إذ ينقلها كقوة حيّة إلى القلب المطيع. وسيقودك المسيح إلى أعتاب الأبدية حيث اللّٰه السرمدي. ويمكنك مشاهدة المجد من خلف الحجاب، ويعلن للناس كفاية ذاك الذي هو حّي إلى الأبد ليشفع فينا. [150]

١٣

رَجُلان يُصَلّيان

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في لوقا ١٨: ٩-١٤).

نطق المسيح بمثل الفريسي والعشار في مسامع « قَوْمٍ وَاثِقِينَ بِأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ أَبْرَارٌ، وَيَحْتَقِرُونَ الآخَرِينَ » (لوقا ١٨: ٩). الفريسي يصعد إلى الهيكل ليصلي لا لأنّه يشعر بأنّه خاطئ يحتاج إلى الغفران، بل لأنّه يظن نفسه بارا ويرجو بأن يظفر بالمديح. وهو يعتبر عبادته كعمل يستحق أجرا ويعطيه حظوة لدى اللّٰه. وهي في نفس الوقت تعطي للناس فكرة سامية عن تقواه. وهو يرجو أن يظفر برضى اللّٰه والإنسان معا. فالدافع الذي دفعه للصلاة هو مصلحته الذاتية.

إنّه مفعم القلب بمديح النفس؟ فنظراته ومشيته وصلاته تدل على ذلك. وإذ ينتحي ناحية بعيدا عن غيره. كأنما ليقول لكل منهم: « لاَ تَدْنُ مِنِّي لأَنِّي أَقْدَسُ مِنْكَ » (إِشَعْيَاء ٦٥: ٥) يقف ليصلي « فِي نَفْسِه » (لوقا ١٨: ١١). فإذ هو راض عن نفسه كل الرضى يظن أن اللّٰه والناس سيقدّرونه بنفس ذلك الرضى.

وها هو يقول: « اَللّٰهُمَّ أَنَا أَشْكُرُكَ أَنِّي لَسْتُ مِثْلَ بَاقِي النَّاسِ الْخَاطِفِينَ الظَّالِمِينَ الزُّنَاة، وَلاَ مِثْلَ هذَا [151] الْعَشَّار ». وهو يحكم على أخلاقه لا على صفات اللّٰه القدوس، بل على أخلاق باقي الناس. عقله منصرف بعيدا عن اللّٰه إلى بني الإنسان. هذا هو السرّ في رضاه عن نفسه.

ثم يأخذ يعدّ حسناته فيقول: « أَصُومُ مَرَّتَيْن فِي الأُسْبُوعِ، وَأُعَشِّرُ كُلَّ مَا أَقْتَنِيه » إنّ ديانة الفريسي لا تمس النفس. إنّه لا يطلب التشبّه باللّه في صفاته، ولا القلب العامر بالمحبة والرحمة. فهو قانع بديانة لها علاقة بالحياة الخارجية وحدها. فبره له وهو ثمر أعماله ويحكم عليه بمقياس بشري.

إنّ أيّ إنسان يثق، في نفسه، بأنه بار لابد أن يحتقر الآخرين. وكما أنّ الفريسي يحكم على نفسه بالقياس على باقي الناس، كذلك هو يحكم على باقي الناس بالقياس على نفسه. إنّ برّه يُقدّر ببرّ الناس، وكلما زاد شرهم كلما بدا هو باراً جدا بالمقارنة بهم. وبرّه الذاتي يقوده ليدين « بَاقِي النَّاس » على أنهم متعدّون شريعة اللّه. وهكذا هو يكشف عن نفس روح الشيطان المشتكي على الأخوة. وبهذه الروح يستحيل عليه أن يكون في شركة مع اللّه. إنّه ينزل إلى بيته محروما من بركة اللّه.

أمّا العشار فقد ذهب إلى الهيكل مع باقي المصلين، ولكنه سرعان ما اعتزل عنهم إذ حسب نفسه غير أهل لأن يشترك معهم في عبادتهم. وإذ وقف من بعيد لم « يَشَاءُ أَنْ يَرْفَعَ عَيْنَيْه نَحْوَ السَّمَاءِ، بَلْ قَرَعَ عَلَى صَدْرِه » في حزن مرير واشمئزاز من نفسه. لقد أحسّ بأنّه قد عصى اللّه وأنه خاطئ ونجس. ولم يمكنه أن ينتظر حتى الشفقة ممن حوله لأنهم كانوا ينظرون إليه في ازدراء. وقد عرف أنه لا استحقاق فيه يعطيه الحظوة لدى اللّه، ففي يأسه الشديد من نفسه صرخ قائلا: « اللّهُمَّ ارْحَمْنِي، أَنَا الْخَاطِئَ ». إنّه لم يقارن نفسه بالآخرين. [152] فإذ غمره الشعور بذنبه وقف كمن هو وحده في حضرة اللّه. وكان مطلبه الوحيد أن يحصل على الغفران والسلام، وكانت حجته الوحيدة رحمة اللّه. وقد حصل على البركة. فقد قال المسيح: « أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ هذَا نَزَلَ إِلَى بَيْتِه مُبَرَّرًا دُونَ ذَاكَ ».

إنّ الفريسي والعشار يمثلان فريقين عظيمين من الناس ينقسم إليهما من يأتون ليعبدوا اللّه. والممثلان الأولان لهما هما الابنان الأولان اللذان ولدا في العالم. فلقد ظن قَايين أنه بارٌّ وقدم إلى اللّه تقدمة شكر فقط. لم يعترف بخطية ولا أعترف بحاجته إلى الرحمة. أما هَابيل فقدّم الدم الذي يشير إلى حمل اللّه. لقد أتى كخاطئ مقرّا بأنّه هالك، وكان رجاؤه الوحيد هو محبة اللّه التي لا يستحقها. لقد نظر الرب إلى قربانه أما إلى قَايين وقربانه فلم ينظر. إنّ

الإحساس بالحاجة والاعتراف بفقرنا وخطيتنا هما نفس الشرط الأول لقبولنا لدى اللّه، « طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ، لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ » (متى ٥: ٣).

ولكل من الفريقين الذين يرمز إليهما الفريسي والعشار يوجد درس في تاريخ بطرس الرسول. إنّ بطرس في بدء تلمذته ظن نفسه قويّا. ففي تقديره لنفسه كان كالفريسي « ليس كباقي الناس » وعندما أنذر المسيح تلاميذه في ليلة تسليمه قائلا: « كُلُّكُمْ تَشُكُّونَ فِيَّ فِي هذِهِ اللَّيْلَةِ » أعلن بطرس قائلا بكل ثقة : « وَإِنْ شَكَّ فِيكَ الْجَمِيعُ فَأَنَا لاَ أَشُكُّ أَبَدًا » (مرقس ١٤: ٢٧، ٢٩). لم يكن بطرس عالما بخطره. لقد أضلته ثقته بنفسه. فقد ظن نفسه قادرا على الصمود للتجربة، ولكن في ساعات قليلة قصيرة جاء الامتحان فأنكر سيده بلعن وقسم.

وعندما ذكّره صياح الديك بكلام المسيح، وإذ فوجئ وصُدم من هول ما قد فعل [154] التفت ناظرا إلى سيده. وفى تلك اللحظة التفت الرب إلى بطرس، وأمام تلك النظرة الحزينة التي امتزج فيها الحنان والحب له عرف بطرس نفسه. فخرج إلى خارج وبكى بكاء مرّا. فتلك النظرة التي وجهها المسيح إليه سحقت قلبه. لقد أتى بطرس إلى نقطة التحوّل وتغيير الاتجاه فتاب عن خطيته توبة مُرّة. كان كالعشار في انسحاقه وتوبته فوجد الرحمة كالعشار. إنّ نظرة المسيح قد أكّدت له الغفران. أما الآن فقد تركته ثقته بنفسه. وما عاد يكرر ادعاءاته المتفاخرة الأولى.

والمسيح بعدما قام امتحن بطرس ثلاث مرات قائلا: « يَا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا، أَتُحِبُّنِي أَكْثَرَ مِنْ هؤُلاَءِ؟ » لم يمجد بطرس نفسه فوق إخوته. بل لجأ إلى ذاك الذي يعرف خفيات القلوب قائلا: « يَا رَبُّ، أَنْتَ تَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ. أَنْتَ تَعْرِفُ أَنِّي أُحِبُّكَ » (يوحنا ٢١: ١٥، ١٧).

وحينئذ تلقى منه التفويض. فقد تعين عليه عمل أوسع وأدق من كل ما كُلّف به من قبل. فلقد أمره المسيح بأن يرعى الغنم والخراف. إنّ المسيح إذ اسند إلى وكالته النفوس التي لأجلها وضع المُخلِّص حياتَه فقد قدم لبطرس أنصع برهان للثقة بتجديده. فذلك التلميذ الذي كان قبلا قلقا وفخورا وواثقا من نفسه صار الآن خاضعا ومنسحقا. ومن ذلك الحين تبع سيده في طريق إنكار الذات والتضحية. لقد صار شريكا للمسيح في آلامه، وعندما يجلس المسيح على عرش مجده سيكون بطرس شريكا له في أمجاده.

إنّ الشرّ الذي أدى إلى سقوط بطرس والذي منع الفريسي من الشركة مع اللّه هو السبب في تدمير حياة آلاف من الناس في هذه الأيام. لا شيء كريه في نظر اللّه أو خطر على نفس الإنسان كالكبرياء والاكتفاء بالذات. هذه هي أعظم الخطايا الجالبة لليأس والتي لا أمل في الشفاء منها . [155]

إنّ سقوط بطرس لم يكن أمرا فجائيا بل تدريجيا. وإنّ ثقته بنفسه قادته إلى الاعتقاد أنه مُخلّص ثم انحدر خطوة فخطوة في طريق السقوط حتى أنكر سيده. لا يمكننا أبدا أن نأمن على نفوسنا حين نثق بذواتنا أو نحسّ ونحن في هذا العالم بأننا بمأمن من التجربة. أولئك الذين يقبلون المُخَلِّص مهما يكونوا مخلصين في تجديدهم ينبغي أن لا يتعلموا أن يقولوا ويحسوا بأنهم مخلصون. فهذا تضليل. ينبغي لكل واحد أن يتعلم أن يحتضن الرجاء والإيمان، ولكن حتى عندما نسلم ذواتنا للمسيح ونعلم بأنّه قد قبلنا فإننا لا نكون بعيدين عن متناول التجربة. إنّ كلمة اللّه تعلن قائلة: « كَثِيرُونَ يَتَطَهَّرُونَ وَيُبَيَّضُونَ وَيُمَحَّصُونَ » (دانيال ١٢: ١٠) ولكن فقط الذي يتحمل التجربة ينال إكليل الحياة. (يعقوب ١: ١٢).

إنّ من يقبلون المسيح وعند بدء ثقتهم يقولون: « أنا مُخلَّص » هم في خطر من أن يثقوا بذواتهم. فيغيب عن أنظارهم ضعفهم وحاجتهم المستمرة للقوة الإلهية. إنّهم غير متأهبين لمواجهة مكايد الشيطان، وتحت ضغط التجربة كثيرون يسقطون إلى أعماق الخطية كبطرس. إنّ الرب ينذرنا قائلا: « مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ قَائِمٌ، فَلْيَنْظُرْ أَنْ لاَ يَسْقُطَ » (١كورنثوس ١٠: ١٢). إنّ سلامتنا الوحيدة هي في عدم الإركان الدائم إلى الذات، بل الاعتماد على المسيح.

كان من اللازم لبطرس أن يتعلم عن النقائص التي في خلقه وحاجته إلى قوة المسيح ونعمته. لم يمكن للرب أن ينقذه من التجربة، ولكنه كان يستطيع أن ينقذه من الهزيمة. ولو كان بطرس مستعدا لقبول إنذار المسيح لكان يسهر ويصلي. ولكان يسلك بخوف ورعدة لئلا تعثر قدماه. وكان يمكنه أن يحصل على العون الإلهي بحيث ما كان يمكن للشيطان أن ينتصر عليه.

لقد سقط بطرس بسبب اكتفائه الذاتي، وعن طريق التوبة والاتضاع تثّبتت قدماه ثانية. وفى تاريخ اختبار بطرس يمكن لكل تائب أن يتشجع. ومع أنّ بطرس [156] أخطأ خطية شنيعة فإن الرب لم يتخلَّ عنه. لقد نقشت أقوال

المسيح في أعماق نفسه حين قال له: « لكنِّي طَلَبْتُ مِنْ أَجْلِكَ لِكَيْ لاَ يَفْنَى إِيمَانُكَ » (لوقا ٢٢: ٣٢). ففي حزنه وندامته المريرة منحته هذه الصلاة وذكرى نظرة المحبة والإشفاق التي وجهها إليه المسيح، رجاءً. هذا، والمسيح بعد قيامته ذكر بطرس وأعطى للملاك رسالة ليبلغها للنساء قائلا: « اذْهَبْنَ وَقُلْنَ لِتَلاَمِيذِهِ وَلِبُطْرُسَ: إِنَّهُ يَسْبِقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ. هُنَاكَ تَرَوْنَهُ » (مرقس ١٦: ٧). لقد قَبِلَ المُخَلِّص غافر الخطايا توبة بطرس.

ونفس ذلك الحنان الذي تطاول لإنقاذ بطرس يمتدّ لكل نفس سقطت تحت التجربة. إنّ الشيطان يستخدم مكيدته الخاصة في تضليل الإنسان ليسقط في الخطية ومن ثَمّ يتركه عاجزا ومرتعبا وهو يخشى من أن يطلب الغفران. ولكن لماذا نخاف في حين أنّ الرب قد قال: « يَتَمَسَّكُ بِحِصْنِي فَيَصْنَعُ صُلْحًا مَعِي. صُلْحًا يَصْنَعُ مَعِي؟ » (إِشَعْيَاء ٢٧: ٥). لقد أُعِدَّت كَل العدة لمواجهة كَل ضعفاتنا، وكل تشجيع مقدم لنا لنقبل إلى المسيح.

قدم المسيح جسده المكسور ليفتدي ميراث الرب ليقدم للإنسان فرصة أخرى « فَمِنْ ثَمَّ يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَ أَيْضًا إِلَى التَّمَامِ الَّذِينَ يَتَقَدَّمُونَ بِهِ إِلَى اللّٰهِ، إِذْ هُوَ حَيٌّ فِي كُلِّ حِينٍ لِيَشْفَعَ فِيهِمْ » (عبرانيين ٧: ٢٥). إنّ المسيح بحياته التي بلا عيب وطاعته وموته على صليب الجلجثة توسّط لأجل جنسنا الساقط. والآن فإنّ رئيس خلاصنا لا يتوسط لأجلنا كمن يلتمس العفو بل كغالب يطالب بانتصاره. إنّ ذبيحته كاملة وكوسيط لأجلنا ينفّذ عمله الذي قد عينه لنفسه مقدما أمام اللّٰه المجمرة وبها استحقاقاته النقية وصلوات شعبه واعترافاتهم وتشكراتهم. فهذه إذ تكون معطرة بعطر برّه تصعد إلى اللّٰه كرائحة زكية. والذبيحة تُقبَل قبولا كاملا فيعطي الغفران لكلّ معصية. [157]

لقد قدم المسيح نفسه بديلا عنا وضامنا لنا. وهو لا يهمل أحدا. فذاك الذي لم يحتمل أن يرى بني الإنسان مهددين بالهلاك الأبدي دون أن يسكب للموت نفسه لأجلهم، ينظر بالرأفة والرحمة إلى كل إنسان يدرك عجزه عن تخليص نفسه.

وهو لا ينظر إلى أي متوسل مرتعد دون أن يقيمه. فذاك الذي بواسطة كفّارته اعدّ للإنسان ذخيرة لا تنفد من القوة الأدبية لا يخفق في استخدام هذه القوة لصالحنا. فيمكننا أن نأتي بخطايانا وأحزاننا ونطرحها عند قدميه لأنَّه يحبنا. فكل نظرة من نظراته وكل كلمة من كلامه تدعونا لأن نثق به. وهو سيشكل أخلاقنا ويصوغها حسب إرادته.

إنّ كل قوى الشيطان لا تستطيع أن تنتصر على نفس واحدة تلقي بذاتها على المسيح في ثقة خالصة. « يُعْطِي الْمُعْيِيَ قُدْرَةً، وَلِعَدِيمِ الْقُوَّةِ يُكَثِّرُ شِدَّةً» (إِشَعْيَاء ٤٠: ٢٩). [158]

« إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتي يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل إثم ». والرب يقول « اعْرِفِي فَقَطْ إِثْمَكِ أَنَّكِ إِلَى الرَّبِّ إِلهكِ أَذْنَبْتِ » « وَأَرُشُّ عَلَيْكُمْ مَاءً طَاهِرًا فَتُطَهَّرُونَ. مِنْ كُلِّ نَجَاسَتِكُمْ وَمِنْ كُلِّ أَصْنَامِكُمْ أُطَهِّرُكُمْ » (١يوحنا١: ٩، إِرْمِيَا ٣: ١٣، حِزْقِيَال ٣٦: ٢٥).

ولكن ينبغي أن تكون لَنا معرفة بذواتنا، معرفة ينتج عنها الانسحاق قبلما يمكننا الحصول على الغفران والسلام. إنّ الفريسي لم يحسّ بتبكيت على الخطية. ولم يستطع الرُّوح الْقُدُس أن يعمل معه. فلقد كانت نفسه محصنة في سلاح البرّ الذاتي فلم يمكن لسهام اللّه المسنونة والمصوبة تصويبا حسنا بيد الملاك أن تخترقه. إنّ المسيح لا يخلّص إلا الإنسان الذي يعرف نفسه أنّه خاطئ. قال: أتيت « لأشفي المنكسري القلوب لأنادي للمأسورين بالإطلاق وللعمي بالبصر وأرسل المنسحقين في الحرية » (لوقا ٤: ١٨). ولكن: « لاَ يَحْتَاجُ الأَصِحَّاءُ إِلَى طَبِيب » (لوقا ٥: ٣١). فينبغي لنا أن نعرف حالتنا على حقيقتها وإلاّ فلَن نحسّ بحاجتنا إلى معونة المسيح ويجب أن ندرك خطرنا وإلاّ فلن نهرب إلى الملجأ. ويجب أن نشعر بالآلام الناشئة عن جروحنا وإلاّ فلن نطلب الشفاء.

يقول الرب: « لأَنَّكَ تَقُولُ: إِنِّي أَنَا غَنِيٌّ وَقَدِ اسْتَغْنَيْتُ، وَلاَ حَاجَةَ لِي إِلَى شَيْءٍ، وَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ أَنْتَ الشَّقِيُّ وَالْبَئِسُ وَفَقِيرٌ وَأَعْمَى وَعُرْيَانٌ. أُشِيرُ عَلَيْكَ أَنْ تَشْتَرِيَ مِنِّي ذَهَبًا مُصَفًّى بِالنَّارِ لَكَيْ تَسْتَغْنِيَ، وَثِيَابًا بِيضًا لَكَيْ تَلْبَسَ، فَلاَ يَظْهَرَ خِزْيُ عُرْيَتِكَ. وَكَحِّلْ عَيْنَيْكَ بِكُحْلٍ لَكَيْ تُبْصِرَ » (رؤيا ٣: ١٧، ١٨). إنّ الذهب المصفّى بالنار هو الإيمان العامل بالمحبة. هذا هو وحده الذي يستطيع أن يجعلنا في حالة انسجام مع اللّه. قد نكون نشيطين وقد نقوم بعمل كثير ولكن بدون أن تكون في قلوبنا محبة كالمحبة التي سكنت في قلب المسيح فلن يمكن أن نُحصَى ضمن أسرة السماء. [159]

ولن يمكن لإنسان من ذاته أن يدرك أخطاءه: « اَلْقَلْبُ أَخْدَعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ نَجِيسٌ، مَنْ يَعْرِفُهُ؟ » (إِرْمِيَا ١٧: ٩). يمكن للشفتين أن تعبرا عن فقر النفس، ولكن القلب لا يعترف بذلك. وفى حين يحادث الإنسان اللّه معبرا عن فقر روحه قد يكون القلب منتفخا بغرور وداعته الفائقة وبره السامي. ولكن يمكن

الحصول على معرفة حقيقية للنفس بطريقة واحدة. ينبغي أن نرى المسيح. إنّ جهل الناس للمسيح هو الذي يجعلهم ينتفخون ببرّهم. فعندما نتأمل في طهارته وتفوقه نرى ضعفنا وفقرنا ونقائصنا كما هي في حقيقتها، نرى أنفسنا هالكين وعاجزين ولابسين أسمال البرّ الذاتي كأي خاطئ آخر. نرى انه إذا كنا سنخلص فلن يكون ذلك عن طريق صلاحنا بل عن طريق نعمة اللّه غير المحدودة.

لقد سُمعت صلاة العشار لأنها برهنت على اتكال مُدَّ ليمسك بالقدرة الإلهية. فالذات في اعتبار العشار لم تكن أكثر من عار. وهكذا يجب أن تكون في نظر كل من يطلبون اللّه. فبواسطة الإيمان – الإيمان الذي ينبذ كل ثقة بالذات – على المصلّي المحتاج أن يمسك بالقدرة غير المحدودة.

لا يمكن لأي ممارسة خارجية أن يُستعاض بها عن الإيمان البسيط وإنكار الذات إنكارا كاملا. ولا يستطيع أي إنسان أن يُخلي ذاته بنفسه. ولا يمكننا أن نقبل من غير المسيح أن يتمّم العمل. وحينئذ تكون لغة النفس هكذا: خلّصني بالرغم من ذاتي، ذاتي الضعيفة التي ليست كالمسيح يا رب امتلك قلبي إذ لا يمكنني أن أعطيه لك. إنّه ملكك. احفظه طاهرا لأنّي لا أستطيع أن أحفظه لك. صغني وشكّلني ارفعني إلى جوّ نقيّ ومقدس حيث يمكن لنهر محبتك الغنية أن يفيض في نفسي.

إنّ نبذ الذات هكذا لا يتمّ فقط عند بدء الحياة المسيحية. بل لا بد من تجديد هذا الإنكار عند كل خطوة تقدمية [160] نخطوها في طريق السماء. إنّ كل أعمالنا الصالحة تستند إلى قوة خارجة عن أنفسنا، فلهذا يجب أن يصبو القلب إلى اللّه على الدوام، مع اعتراف مستمرّ بالخطية من قلب منسحق واتضاع النفس وتذللها أمام اللّه، فبواسطة نبذ الذات والاعتماد الدائم على المسيح، يمكننا بذلك وحده أن نسير آمنين.

كلما زدنا قربا من يسوع وكلما شاهدنا جليا طهارة صفاته، كلما أدركنا بوضوح أكثر شر الخطية العظيم وكلما قل اهتمامنا بتمجيد ذواتنا. إنّ أولئك الذين تعترف السماء بأنهم قديسون هم آخر من يباهون بصلاحهم. لقد صار بطرس الرسول خادما أمينا للمسيح، فأكرمه الرب بنور وقوة إلهيين. وقام بطرس بدور نشيط كبير في بناء كنيسة المسيح، ولكنه لم ينس قط اختبار إذلاله المخيف. لقد غُفرت خطيته، ولكنه عرف جيدا أنه لم يمكن لغير نعمة المسيح أن تنهضه من سقوطه الذي جاء نتيجة لضعف خلقه. إنّه لم يجد في نفسه شيئا يدعو إلى الفخر.

إنّه ولا واحد من الرسل أو الأنبياء ادّعى العصمة من الخطية. والناس الذين عاشوا أقرب من غيرهم إلى اللّه، والذين كانوا على أتم استعداد للتضحية بالحياة نفسها حتى لا يرتكبوا خطأ واحد عن علم أو عمد، والذين قد أكرمهم اللّه بنور وقوة إلهيين – هؤلاء اعترفوا بشرّ طبيعتهم. إنّهم لم يتكلوا على الجسد ولا ادعوا لأنفسهم برّا ولكنهم اتكلوا بالتمام على برّ المسيح. وهكذا تكون الحال مع من يشاهدون المسيح.

إنّ توبتنا ستتعمق في كل خطوة من خطوات تقدمنا في الاختبار المسيحي. فالذين غفر لهم الرب، والذين يعترف بأنّهم شعبه يقول لهم: « فتذكرون طرقكم الرديئة وأعمالكم غير الصالحة وتمقتون [161] أنفسكم أمام وجوهكم » (حزْقيَال ٣٦: ٣١). ثم يقول أيضا: « وَأَنَا أُقِيمُ عَهْدِي مَعَكَ، فَتَعْلَمِينَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ، لكَيْ تَتَذَكَّرِي فَتَخْزَيْ وَلاَ تَفْتَحِي فَاكِ بَعْدُ بِسَبَبِ خِزْيِكِ، حِينَ أَغْفِرُ لَكِ كُلَّ مَا فَعَلْتِ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ » (حزْقيَال ١٦: ٦٢، ٦٣). وحينئذ لن تنفرج شفاهنا عن أقوال التمجيد لذواتنا. وسنعلم أن كفايتنا هي في المسيح وحده. وسنعترف بما قد اعترف به الرسول عندما قال: « فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ سَاكِنٌ فِيَّ (أي في جسدي) شَيْءٌ صَالِحٌ » (رومية ٧: ١٨). « حَاشَا لِي أَنْ أَفْتَخِرَ إِلاَّ بِصَلِيبِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي بِهِ قَدْ صُلِبَ الْعَالَمُ لِي وَأَنَا لِلْعَالَمِ » (غلاطية ٦: ١٤).

وعلى وفاق هذا الاختبار يأتي هذا الأمر: « تَمِّمُوا خَلاَصَكُمْ بِخَوْفٍ وَرِعْدَةٍ، لأَنَّ اللّهَ هُوَ الْعَامِلُ فِيكُمْ أَنْ تُرِيدُوا وَأَنْ تَعْمَلُوا مِنْ أَجْلِ الْمَسَرَّةِ » (فيلبي ٢: ١٢، ١٣). إنّ اللّه لا يأمركم بأن تخافوا لئلا يخفق هو في إنجاز وعوده أو أنّ صبره سيكلّ أو أنّ رحمته ستوجد ناقصة. بل خافوا لئلا تأبى أرادتكم الخضوع لإرادة المسيح، ولئلا تتحكم أخلاقكم الموروثة والمكتسبة فتسيطر على حياتكم: « لأَنَّ اللّهَ هُوَ الْعَامِلُ فِيكُمْ أَنْ تُرِيدُوا وَأَنْ تَعْمَلُوا مِنْ أَجْلِ الْمَسَرَّةِ » خف لئلا تتدخل الذات بين نفسك وبين السيد العامل الأعظم. وخف لئلا يفسد عنادك المقصد الأسمى الذي يريد اللّه أن يتممه بواسطتك. خف من الوثوق بقوتك، وخف من أن تسحب يدك من يد المسيح وتحاول أن تسير في طريق الحياة بدون حضوره الدائم معك.

إننا نحتاج إلى أن نتحاشى كل ما يشجع الكبرياء والاكتفاء بالذات، ولذلك يجب أن نحذر مدح الناس أو تملّقهم أو قبول شيء من ذلك لأنفسنا. التملق من

أعمال الشيطان. إنّه يتعامل في التملق كما في الشكوى والدينونة. وبهذه الكيفية يحاول إهلاك النفس. إنّ من [162] يمتدحون الآخرين يستخدمهم الشيطان أعوانا له ليوجه خدام المسيح كلّ كلمة مديح بعيدا عن أنفسهم. لنبعد الذات بحيث لا نراها. وليتمجد المسيح وحده. لتتجه كل عين وليرتفع التسبيح من كل لسان إلى ذاك الذي « أَحَبَّنَا، وَقَدْ غَسَّلَنَا مِنْ خَطَايَانَا بِدَمه » (رؤيا ١: ٥).

إنّ الحياة التي يحياها الإنسان في خوف اللّه لَن تكون حياة حزن أو غم. ولكن عدم وجود المسيح هو الذي يجعل الوجه حزينا والحياة سياحة كلها آهات وتنهدات. إنّ من يملأ قلوبهم الاعتداد بالذات ومحبة الذات لا يحسون بحاجتهم إلى الاتحاد بالمسيح اتحادا حيا وشخصيا. إن القلب الذي لم يسقط على الصخرة يفخر بكماله. فالناس يريدون ديانة وجيهة. يريدون أن يسيروا في طريق رحب بالكفاية بحيث يتسع لصفاتهم. إن حبهم لذواتهم وحبهم للشهرة وحبهم للمديح يطرد المُخَلِّص من قلوبهم، وبدونه توجد الكآبة والحزن. ولكن إذ يسكن المسيح في النفس ينبثق منها ينبوع الفرح. فلكل الذين يقبلونه تكون نفس النغمة الرئيسية في كلمة اللّه هي الفرح.

« لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ الْعَلِيُّ الْمُرْتَفِعُ، سَاكِنُ الأَبَد، الْقُدُّوسُ اسْمُهُ. فِي الْمَوْضِعِ الْمُرْتَفِعِ الْمُقَدَّسِ أَسْكُنُ، وَمَعَ الْمُنْسَحِقِ وَالْمُتَوَاضِعِ الرُّوحِ، لأُحْيِيَ رُوحَ الْمُتَوَاضِعِينَ، وَلأُحْيِيَ قَلْبَ الْمُنْسَحِقِينَ » (إِشَعْيَاء ٥٧: ١٥).

إنّ موسى عندما أُخفيَ في شق الصخرة رأى مجد اللّه. وعندما نختبئ نحن في الصخرة المشقوقة يغطينا المسيح بيده المثقوبة فنسمع ما يقول الرب لعبيده. واللّه سيعلن نفسه لنا كما لموسى على أنه « رَحِيمٌ وَرَؤُوفٌ، بَطِيءُ الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الإِحْسَانِ وَالْوَفَاءِ. حَافِظُ الإِحْسَانِ إِلَى أُلُوفٍ. غَافِرُ الإِثْمِ وَالْمَعْصِيَةِ وَالْخَطِيَّةِ » (خروج ٣٤: ٦، ٧).

إنّ عمل الفداء ينطوي على نتائج [163] يصعب على الإنسان أن يدركها. « مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ إِنْسَان: مَا أَعَدَّهُ اللّهُ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَهُ » (١كورنثوس ٢: ٩). فالخاطئ إذ تجتذبه قوة المسيح وإذ يقترب إلى الصليب المرفوع وينطرح أمامه تكون هناك خليقة جديدة. فيُعطَى له قلب جديد ويصير خليقة جديدة في المسيح يسوع. والقداسة تجد انّه لا يوجد لديها مطلب آخر. واللّه نفسه هو الذي: « يُبَرِّرَ مَنْ هُوَ مِنَ الإِيمَانِ بِيَسُوعَ »

(رومية ٣: ٢٦). « وَالَّذِينَ بَرَّرَهُمْ، فَهؤُلاَءِ مَجَّدَهُمْ أَيْضًا » (رومية ٨: ٣٠). ومع عظمة العار والانحطاط الذين أحدثتهما الخطية فإنّ الكرامة والمجد اللذين تحققهما المحبة الفادية هما أعظم. والناس الذين يجاهدون ليكونوا مماثلين لصورة اللّٰه مذخور لهم مؤونة عظيمة من كنز السماء وقوة فائقة سامية ترفعهم إلى درجه أسمى حتى من الملائكة الذين لم يخطئوا.

« هكَذَا قَالَ الرَّبُّ ... للْمُهَان النَّفْس، لمَكْرُوه الأُمَّة ... يَنْظُرُ مُلُوكٌ فَيَقُومُونَ. رُؤَسَاءُ فَيَسْجُدُونَ. لأَجْلِ الرَّبِّ الَّذِي هُوَ أَمِينٌ، وَقُدُّوسِ إِسْرَائِيلَ الَّذِي قَدِ اخْتَارَكَ » (إِشَعْيَاء ٤٩: ٧).

« لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ يَتَّضِعُ وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ يَرْتَفِعُ » (لوقا ١٨: ١٤). [164]

١٤

« أفـلا يُنصِف اللَّه مختَاريه؟ »

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في لوقا ١٨: ١-٨).

كان المسيح يتكلم عن الفترة التي تسبق مجيئه الثاني حالا وعن المخاطر المزمع أن يمر فيها شعبه. فإذ أشار إلى ذلك الوقت إشارة خاصة قدم لهم مثلا « في أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُصَلَّى كُلَّ حين وَلاَ يُمَلَّ » (لوقا ١٨: ١).

قال: « كَانَ فِي مَدِينَةٍ قَاضٍ لاَ يَخَافُ اللّٰهَ وَلاَ يَهَابُ إِنْسَانًا. وَكَانَ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ أَرْمَلَةٌ. وَكَانَتْ تَأْتِي إِلَيْهِ قَائِلَةً: أَنْصِفْنِي مِنْ خَصْمِي! وَكَانَ لاَ يَشَاءُ إِلَى زَمَان. وَلكِنْ بَعْدَ ذلِكَ قَالَ فِي نَفْسِهِ: وَإِنْ كُنْتُ لاَ أَخَافُ اللّٰهَ وَلاَ أَهَابُ إِنْسَانًا، فَإِنِّي لأَجْلِ أَنَّ هذِهِ الأَرْمَلَةَ تُزْعِجُنِي، أُنْصِفُهَا، لِئَلاَّ تَأْتِيَ دَائِمًا فَتَقْمَعَنِي! وَقَالَ الرَّبُّ: اسْمَعُوا مَا يَقُولُ قَاضِي الظُّلْمِ. أَفَلاَ يُنْصِفُ اللّٰهُ مُخْتَارِيهِ، الصَّارِخِينَ إِلَيْهِ نَهَارًا وَلَيْلاً، وَهُوَ مُتَمَهِّلٌ عَلَيْهِمْ؟ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ يُنْصِفُهُمْ سَرِيعًا » (لوقا ١٨: ٢-٨).

إنّ القاضي الموصوف هنا كان لا يكترث للعدل [165] ولا يعطف على المتألمين. فالأرملة التي كانت تلح عليه بقضيتها كانت تُصدُّ بكل إصرار. وقد

أتت إليه مرارا وتكرارا وفى كلّ مّرة كانت تُعامل بالازدراء وتُطرَد من أمام كرسي القضاء. كان القاضي يعلم أن دعواها عادلة وكان يستطيع أن ينصفها في الحال ولكنه لم يشأ ذلك. لقد أراد أن يبرهن على تعسّفه وجبروته، وقد سرّه أن يراها تسأل وتترافع وتتوسل عبثا. ولكنها لم تفشل ولم تيأس. فبالرغم من عدم اكتراثه وقساوة قلبه فقد ألحّت عارضة أمرها إلى أن رضي القاضي بأن ينظر في قضيتها إذ قال: « وَإِنْ كُنْتُ لاَ أَخَافُ اللّٰهَ وَلاَ أَهَابُ إِنْسَانًا، فَإِنِّي لأَجْل أَنَّ هذه الأَرْمَلَةَ تُزْعِجُني، أُنْصِفُهَا، لئَلاَّ تَأْتيَ دَائمًا فَتَقْمَعَني » فإبقاء على سمعته وحتَى لا يشاع أمر محاباتَه وتحيّزه في حكمه أنصف تلك المرأة المثابرة.

« وقال الرب اسمعوا ما يقول قاضي الظلم. « أَفَلاَ يُنْصِفُ اللّٰهُ مُخْتَارِيه، الصَّارِخِينَ إِلَيْه نَهَارًا وَلَيْلاً، وَهُوَ مُتَمَهِّلٌ عَلَيْهِمْ؟ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ يُنْصِفُهُمْ سَرِيعًا». إنّ المَسيح هنا يرسم صورة التباين الحادَ بين قاضي الظلم واللّٰه. فالقَاضي أجاب الأرملة إلى طلبها مدفوعا بدافع الأنانية فقط حتى يستريح من إلحاحها. لم يكن يحسّ نحوها بأية رأفة أو رحمة، ولم يكن يكترث لبؤسها وشقائها. إنّ اللّٰه يلتفت إلى توسلات الفقراء والمتضايقين برحمته اللامحدودة.

إنّ الأرملة التي توسلت إلى القاضي لينصفها كانت قد ثُكلت رجلها. فإذ كانت فقيرة وبلا صديق لم تكن لديها وسيلة بها تسترد أملاكها وأموالها الضائعة. وهكذا فإنّ الإنسان قد قطع صلته باللّٰه بسبب الخطية. وهو من نفسه لا يملك وسيلة للخلاص. ولكنّ لنا في المسيح قدوما إلى الآب. إنّ مختاريّ اللّٰه أعزاء على قلبه. إنهم أولئك الذين دعاهم من الظلمة إلى نوره العجيب لمدح مجده ليضيئوا كأنوار [166] في ظلمة العالم. إنّ قاضي الظلم لم يبد أيّ اهتمام خاص بالأرملة التي كانت تلحّ عليه في طلب الخلاص، ومع ذَلك فلكي يتخلص من توسلاتها المحزنة استمع لحجتها وأنقذها من خصمها. ولكنّ اللّٰه يحبّ أولاده محبة لا نهائية. فبالنسبة إليه فإن أعز شيء لديه على الأرض هو كنيسته.

« إِنَّ قِسْمَ الرَّبِّ هُوَ شَعْبُهُ. يَعْقُوبُ حَبْلُ نَصِيبِه. وَجَدَهُ فِي أَرْض قَفْر، وَفِي خَلاَءَ مُسْتَوْحِش خَرب. أَحَاطَ به وَلاَحَظَهُ وَصَانَهُ كَحَدَقَةَ عَيْنِه » (تثنيه ٣٢: ٩، ١٠). « لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُود: بَعْدَ الْمَجْد أَرْسَلَنِي إِلَى الأُمَمِ الَّذِينَ سَلَبُوكُمْ، لأَنَّهُ مَنْ يَمَسُّكُمْ يَمَسُّ حَدَقَةَ عَيْنِه » (زكريا ٢: ٨).

إنّ طلبة الأرملة القائلة: انتقم لي. « أَنْصِفْني منْ خَصْمي » تُصوِّر لنا صلاة أولاد اللّٰه. فالشيطان هو خصمهم العظيم. وهو « الْمُشْتَكِي عَلَى إِخْوَتِنَا »

الذي يشتكى عليهم أمام اللّٰه نهارا وليلا (رؤيا ١٢: ١٠). إنّه دائب أبدا على التحريف والشكوى وعلى خداع شعب اللّٰه وإهلاكهم. والمسيح في هذا المثل يعلّم تلاميذه أن يصلّوا لكي ينجوا من سلطان الشيطان وأعوانه.

في نبوة زكريا ينكشف أمام أنظارنا عمل الشيطان في الشكوى وعمل المسيح في مقاومة خصم شعبه، فيقول النبي: « وَأَرَانِي يَهُوشَعَ الْكَاهِنَ الْعَظِيمَ قَائِمًا قُدَّامَ مَلاَكِ الرَّبِّ، وَالشَّيْطَانُ قَائِمٌ عَنْ يَمِينِهِ لِيُقَاوِمَهُ. الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: « لِيَنْتَهِرْكَ الرَّبُّ يَا شَيْطَانُ! لِيَنْتَهِرْكَ الرَّبُّ الَّذِي اخْتَارَ أُورُشَلِيمَ! أَفَلَيْسَ هَذَا شُعْلَةً مُنْتَشَلَةً مِنَ النَّارِ؟ وَكَانَ يَهُوشَعُ لاَبِسًا ثِيَابًا قَذِرَةً وَوَاقِفًا قُدَّامَ الْمَلاَكِ » (زكريا ٣: ١-٣).

إنّ أولاد اللّٰه ممثلون هنا بمجرم [167] يحاكم. إنّ يهوشع بصفته الكاهن العظيم يطلب بركة لشعبه الذين هم في محنة قاسية. وفى حين هو واقف ليتوسل أمام اللّٰه يقف الشيطان عن يمينه كخصمه. فهو يشتكي على أولاد اللّٰه ويجعل قضيتهم تبدو ميئوسا منها بقدر المستطاع. وهو يعرض أمام اللّٰه شرورهم ونقائصهم، وهو يعرض أخطاءهم وفشلهم على أمل أن يظهروا أمام المسيح في صفات تجعل من المستحيل عليه أن يقدم لهم عونا في حاجتهم الشديدة. ويهوشع كالنائب عن شعب اللّٰه يقف تحت الدينونة إذ انّه يلبس ثيابا قذرة. فإذ هو عالم بخطايا شعبه يقف مثقّلا باليأس. والشيطان يضغط على نفسه بالشعور بالإثم الذي يجعله يحسّ وكأنّ لا رجاء له. ومع ذلك فهو يقف هناك متضرّعا والشيطان واقف ضده.

إنّ عمل الشيطان كمشتكٍ بدأ في السماء. وقد كان هذا هو عمله على الأرض ولا يزال منذ سقوط الإنسان. وسيكون هو [168] عمله بمعنى خاص عندما نقترب أكثر إلى نهاية تاريخ العالم. فإذ يرى انّه لم يبقَ له غير وقت قصير فهو سيعمل بغيرة أعظم في الإغراء والإهلاك. إنّه يغضب حين يرى على الأرض شعبا، حتى في ضعفهم وحالتهم الخاطئة يكرمون شريعة الرب. وقد عقد العزم على أن يجعلهم يعصون اللّٰه. وهو يسرّ لعدم استحقاقهم وقد أعد مكايد لكل نفس حتى يؤخذ الجميع في الأشراك وينفصلوا عن اللّٰه. إنّه يحاول أن يتهم اللّٰه ويدينه مع كل من يحاولون أن يتمموا مقاصده في هذا العالم بالرحمة والمحبة والرأفة والغفران.

إنّ كل إعلان لقدرة اللّٰه لأجل شعبه يثير عداء الشيطان ففي كل وقت يعمل اللّٰه لصالحهم، فالشيطان وملائكته يعملون بنشاط متجدد ليحققوا

هلاكهم. إنّه يغار من كل من يجعلون المسيح قوتهم. وغرضه هو التحريض على عمل الشرّ، ومتى نجح فهو يلقي كل اللوم على المجربين. يشير إلى ثيابهم القذرة وأخلاقهم الناقصة. يعرض بضعفهم وجهلهم وخطايا جحودهم وعدم تشبههم بالمسيح التي جلبت العار على فاديهم. إنّه يلح بكل هذا كحجة تبرهن على أنّ له الحق في عمل مشيئته لهلاكهم. وهو يحاول أن يرعب نفوسهم بفكرة كون قضيتهم ميئوسا منها وأنّ لطخة نجاستهم لا يمكن محوها. وهكذا يحاول أن يدمر إيمانهم حتى يخضعوا لتجاربه خضوعا كاملا ويرتدوا عن ولائهم للّه.

ولا يستطيع شعب الرب من ذواتهم أن يجيبوا على اتهامات الشيطان. فإذ ينظرون إلى نفوسهم يوشكون على اليأس. ولكنهم يلجأون إلى الشفيع الإلهي. ويتوسلون باستحقاقات الفادي. فاللّه يمكن أن يكون « بَارًّا وَيُبَرِّرَ مَنْ هُوَ مِنَ الإِيمَانِ بِيَسُوعَ » (رومية ٣: ٢٦) فيصرخ أولاد الرب إليه بثقة [169] ليسكتوا اتهامات الشيطان ويخيّبوا مكايده. فيصلون: « أَنْصِفْنِي مِنْ خَصْمِي ». وبحجة الصليب القوية يبكم المسيح ذلك المشتكي الجسور.

« فَقَالَ الرَّبُّ لِلشَّيْطَانِ: لِيَنْتَهِرْكَ الرَّبُّ يَا شَيْطَانُ! لِيَنْتَهِرْكَ الرَّبُّ الَّذِي اخْتَارَ أُورُشَلِيمَ! أَفَلَيْسَ هَذَا شُعْلَةً مُنْتَشَلَةً مِنَ النَّارِ؟ » وعندما يحاول أن يلف شعب اللّه بالسواد ويهلكهم يتدخّل المسيح. فَمَعَ أنَّهم أخطأوا فالمسيح حمل جرم خطاياهم على نفسه. لقد انتشل جنسنا كشعلة من النار. إنه مرتبط بالإنسان بطبيعته البشرية، في حين أنّه عن طريق طبيعته الإلهية هو واحد مع الإله السرمدي. وحينئذ يصير العون في متناول النفوس الهالكة. لقد انتُهر الخصم.

« وَكَانَ يَهُوشَعُ لاَبِسًا ثِيَابًا قَذِرَةً وَوَاقِفًا قُدَّامَ الْمَلاَكِ. فَأَجَابَ وَكَلَّمَ الْوَاقِفِينَ قُدَّامَهُ قَائِلاً: انْزِعُوا عَنْهُ الثِّيَابَ الْقَذِرَةَ. وَقَالَ لَهُ: انْظُرْ. قَدْ أَذْهَبْتُ عَنْكَ إِثْمَكَ، وَأُلْبِسُكَ ثِيَابًا مُزَخْرَفَةً. فَقُلْتُ: لِيَضَعُوا عَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةً طَاهِرَةً. فَوَضَعُوا عَلَى رَأْسِهِ الْعِمَامَةَ الطَّاهِرَةَ، وَأَلْبَسُوهُ ثِيَابًا. » وحينئذ فبسلطان رب الجنود عاهد الملاك يهوشع النائب عن شعب اللّه قائلا: « إِنْ سَلَكْتَ فِي طُرُقِي، وَإِنْ حَفِظْتَ شَعَائِرِي، فَأَنْتَ أَيْضًا تَدِينُ بَيْتِي، وَتُحَافِظُ أَيْضًا عَلَى دِيَارِي، وَأُعْطِيكَ مَسَالِكَ بَيْنَ هؤُلاَءِ الْوَاقِفِينَ » – أي بين الملائكة المحيطين بعرش اللّه (زكريا ٣: ٣-٧).

فبالرغم من نقائص شعب اللّه لا يحوّل المسيح وجهه عمّن هم موضوع رعايته. إنّ له السلطان على أن يبدّل ثيابهم. فهو ينزع الملابس القذرة [170]

ويلبس التائبين المؤمنين ثوب برّه ويكتب في أسفار السماء كلمة الغفران أمام أسمائهم. وهو يعترف بهم أنّهم خاصته أمام مسكونة السماء. ويرى الشيطان خصمهم بأنّه مشتك ومخادع. واللّٰه ينصف مختاريه.

إنّ الطلبة التي تقول: « أَنْصِفْنِي مِنْ خَصْمِي » لا تنطبق على الشيطان وحده بل على أعوانه الذين يحرّضهم على تشويه سمعة شعب اللّٰه وتجريبهم وإهلاكهم. إنّ من قد عقدوا العزم على إطاعة وصايا اللّٰه يدركون بالاختبار أنّ لهم خصوما تسيطر عليهم قوة جهنمية. مثل هؤلاء الخصوم يحدقون بالمسيح عند كل خطوة، ولا يمكن لأي كائن بشري أن يعرف بأي مداومة وإصرار يفعلون ذلك. وتلاميذ المسيح مثل سيدهم تتعقبهم التجارب باستمرار.

إنّ الكتاب المُقَدَّس يصف حالة العالم قبل مجيء المسيح الثاني مباشرة. فها هو يعقوب الرسول يصور الطمع والظلم اللذين سيتفشّيان، فيقول: « هَلُمَّ الآنَ أَيُّهَا الأَغْنِيَاءُ ... قَدْ كَنَزْتُمْ فِي الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ. هُوَذَا أُجْرَةُ الْفَعَلَةِ الَّذِينَ حَصَدُوا حُقُولَكُمُ، الْمَبْخُوسَةُ مِنْكُمْ تَصْرُخُ، وَصِيَاحُ الْحَصَّادِينَ قَدْ دَخَلَ إِلَى أُذُنَيْ رَبِّ الْجُنُودِ. قَدْ تَرَفَّهْتُمْ عَلَى الأَرْضِ، وَتَنَعَّمْتُمْ وَرَبَّيْتُمْ قُلُوبَكُمْ، كَمَا فِي يَوْمِ الذَّبْحِ. حَكَمْتُمْ عَلَى الْبَارِّ. قَتَلْتُمُوهُ. لاَ يُقَاوِمُكُمْ » (يعقوب ٥: ١-٦). هذه صورة لما هو موجود اليوم. فالناس يكوّمون ثروات طائلة مستعينين في ذلك بكل دروب الظلم والاغتصاب، في حين أن صرخات الإنسانية الجائعة تصعد أمام اللّٰه.

« ارْتَدَّ الْحَقُّ إِلَى الْوَرَاءِ، وَالْعَدْلُ يَقِفُ بَعِيدًا. لأَنَّ الصِّدْقَ سَقَطَ فِي الشَّارِعِ، وَالاسْتِقَامَةَ لاَ تَسْتَطِيعُ الدُّخُولَ. وَصَارَ الصِّدْقُ مَعْدُومًا، وَالْحَائِدُ [171] عَنِ الشَّرِّ يُسْلَبُ » (إِشَعْيَاء ٥٩: ١٤، ١٥). ولقد تمّ هذا في حياة المسيح على الأرض. لقد كان أمينا لوصايا اللّٰه، وطرح تقاليد الناس جانبا والمطالب التي كانت قد رُفعت فوق شريعة اللّٰه حتى احتلّت مكانها. فمن أجل هذا أبغضوه واضطهدوه. وهذا التاريخ يعيد نفسه. فشرائع الناس وتقاليدهم ممجدة فوق شريعة اللّٰه، والذين هم أمناء لوصايا اللّٰه يحتملون العار والاضطهاد. والمسيح بسبب أمانته للّٰه اتُّهم بكسر السبت والتجديف. وقد أُشيع عنه بأنّ به شيطانا ونُبذ كمن هو بعلزبول. وبمثل هذه الكيفية يتهم أتباعه وتشوّه سمعتهم. وهكذا يحاول الشيطان أن يجتذبهم إلى الخطية فيجلل اسم اللّٰه بالعار.

إنّ خُلق القاضي المذكور في المَثَل الذي كان لا يخاف اللّٰه ولا يهاب إنسانا قدمه المسيح ليرينا نوع الحكم الذي كان سائدا آنئذٍ، وهو نفس ما كان مزمعا

أن يُشاهَد عند محاكمته. وهو يريد أن يدرك شعبه في كل عصر انّه ينبغي لهم ألاّ يركنوا إلى الحكام أو القضاة الأرضيين في يوم البلية. وكثيرا ما يلتزم شعب اللّه الوقوف أمام رجال يشغلون مراكز رسمية، ولكنهم لا يسترشدون بكلمة اللّه ولا يتخذونها دليلا لهم ولكنّهم يتبعون نزعاتهم غير المقدسة وغير المهذبة.

وفى مثل قاضي الظلم أبان المسيح ما ينبغي لنا أن نفعله: « أَفَلاَ يُنْصِفُ اللّٰهُ مُخْتَارِيه، الصَّارِخِينَ إِلَيْه نَهَارًا وَلَيْلاً؟ » إنّ المسيح مثالنا لم بفعل شَيئا ليزكّي نفسَه أو يخلّصَها. لقد وضع قضيته بين يدي اللّه. وكذلك ينبغي لتلاميذه ألا يشتكوا أو يدينوا أحدا أو أن يلجأوا إلى العنف لكي يخلّصوا أنفسهم.

وعندما تثور التجارب التي يبدو أنّه لا يمكن تفسيرها فينبغي ألا يضطرب سلامنا. فمهما يكن الظلم الذي نعامل به فلا يُثر غضبنا. فإننا إذ نضمر روح [172] الانتقام نضرّ أنفسنا. ونحن ندمر ثقتنا باللّه ونحزن الرُّوح الْقُدُس. فيوجد إلى جانبنا شاهد، رسول سماوي يرفع لأجلنا راية في وجه العدو. وهو سيحيطنا بأشعة شمس البر المشرقة. والشيطان لا يستطيع أن يتجاوز هذا الحدّ. إنّه لا يقدر أن يتعدى هذا الترس، ترس النور المقدس.

وفى حين أنّ العالم يوغل في الشر فلا ينبغي أن نخدع أنفسنا قائلين أنه لن تواجهنا متاعب. إن نفس هذه المشقات وهذه المتاعب هي التي تدخلنا إلى حيث العلي. ويمكننا أن نطلب المشورة من ذاك الذي لا حد لحكمته.

يقول الرب: « ادْعُنِي فِي يَوْمِ الضِّيقِ » (مزمور ٥٠: ١٥). وهو يدعونا لأن نتقدم إليه بمشكلاتنا وَاحتِياجاتنَا وحاجَتنا إلى العون الإلهي. إنّه يأمرنا بأن نواظب على الصلاة. فحالما تبرز أمامنا الصعوبات علينا أن نقدّم له طلباتنا الخالصة الجدية. إذ بصلواتنا اللجوجة نبرهن على ثقتنا القوية باللّه. إنّ الشعور بحاجتنا يسوقنا إلى الصلاة بلجاجة وغيرة. وأبونا السماوي يتأثر بتضرعاتنا.

كثيرا ما يحدث أن الذين يُعيّرون أو يُضطهدون لأجل إيمانهم يجربون لأن يظنوا بأن اللّه قد تركهم. إنّهم في نظر الناس أقليّة. وكل الظواهر تدل على أن أعداءهم سينتصرون عليهم. ولكن ينبغي لهم ألاّ يخالفوا ضمائرهم. فذاك الذي قد تألم لأجلهم وحمل أحزانهم وأوجاعهم لن يتركهم.

إنّ أولاد اللّه غير متروكين أو بدون حماية. الصلاة تحرك ذراع اللّه القادر على كل شيء. فهم بالصلاة « قَهَرُوا مَمَالِكَ، صَنَعُوا برًّا، نَالُوا مَوَاعِيدَ، سَدُّوا أَفْوَاهَ أُسُود، أَطْفَأُوا قُوَّةَ النَّار » – وسنعرف مَاذا يعنى هذَا عندما نسمعَ أخبار الشهداء الذينَ ماتوا لأجل إيمانَهم – « هَزَمُوا جُيُوشَ غُرَبَاءَ » (عبرانيين ١١: ٣٣، ٣٤). [173]

وإذا سلمنا حياتنا لخدمته فلن نوضع في مركز لم يعدّ لنا الرب فيه كلّ معونة وإمداد. فأيّا يكن وضعنا فإنّ لنا مرشدا يهدي خطواتنا، ومهما تكن مشاكلنا فإن لنا مشيرا أمينا، ومهما يكن حزننا أو حرماننا أو وحشتنا فإنّ لنا صديقا عطوفا. وإذ كنا في جهلنا نضلّ فالمسيح لا يتركنا. إنّ صوته الصريح الواضح يسمع قائلا : « أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ » (يوحنا ١٤: ٦). « لأَنَّهُ يُنَجِّي الْفَقِيرَ الْمُسْتَغِيثَ، وَالْمِسْكِينَ إِذْ لاَ مُعِينَ لَهُ » (مزمور ٧٢: ١٢).

والرب يعلن أَنّ الذين يقتربون منه ويخدمونه بأمانة يُكرمون. [174] « ذُو الرَّأْيِ الْمُمَكَّنَ تَحْفَظُهُ سَالِمًا سَالِمًا، لأَنَّهُ عَلَيْكَ مُتَوَكِّلٌ » (إِشَعْيَاء ٢٦: ٣). إنّ ذراعَ القدرة ممدودة لتقودنا إلى الأمام باستمرار. يقول الرب: تقدموا، فسأرسل لكم العون. فلأجل مجد اسمي تسألون فتأخذون. وسأتمجد أمام من يتوقعون فشلكم. وسيرون كلمتي تنتصر بمجد عظيم: « كُلُّ مَا تَطْلُبُونَهُ فِي الصَّلاَةِ مُؤْمِنِينَ تَنَالُونَهُ » (متى ٢١: ٢٢).

فليصرخ إلى اللّٰه المتضايقون أو المظلومون. تحولوا عن الذين قلوبهم قُدّت من فولاذ ولتُعلم طلباتُكم لدى خالقكم. لن يخيب أبدا من يأتي إليه بقلب منسحق. ولا يمكن أن تضيع أي صلاة مخلصة. ففي وسط تسبيحات أجواق السماويين يسمع اللّٰه صرخات أضعف إنسان. إنّنا نسكب أشواق قلوبنا في مخادعنا، وننطق بالصلاة ونحن سائرون في طريقنا فتصل صلواتنا إلى عرش ملك الكون. قد لا تسمعها أذن بشرّية ولكنها لا يمكن أن تتلاشى في السكون ولا يمكن أن تضيع في غمرة نشاط الأعمال التي تُعمل. ولا يمكن لشيء أن يغرق في أشواق النفس. إنّها ترتفع فوق ضجيج الشارع وضوضائه وفوق شغب الجموع إلى ديار السماء. إننا نتحدث إلى اللّٰه وصلاتنا تُسمع.

أنتم يا من تحسون بأنكم أقل الناس استحقاقا لا تخافوا من أن تسلموا قضيتكم إلى اللّٰه. إنّه عندما بذل نفسه في شخص المسيح لأجل خطية العالم أخذ على عاتقه قضية كل نفس، « اَلَّذِي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ابْنِه، بَلْ بَذَلَهُ لأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ، كَيْفَ لاَ يَهَبُنَا أَيْضًا مَعَهُ كُلَّ شَيْءٍ؟ » (رومية ٨: ٣٢). أفلا يفي بكلمته الرحيمة التي أعطاها لنا لأجل تشجيعنا وتقويتنا؟

إنّ المسيح لا يشتاق إلى شيء قدر اشتياقه لافتداء ميراثه من سلطان الشيطان. ولكن قبل ما نتحرر من قوة الشيطان الخارجية يجب أن نتحرر [175] من قوته في داخلنا. إنّ الرب يسمح بوقوع التجارب علينا لكي نتطهر من التعلّق بالأرضيات والأنانية والصفات الفظّة التي لا تمت إلى المسيح.

إنه يسمح بمياه الضيقات العميقة بأن تطمو فوق نفوسنا لكي نعرفه ويسوع المسيح الذي أرسله حتى تنشأ في قلوبنا أشواق قلبية عميقة لنتطهر من نجاستنا ولكي نخرج من التجربة أطهر وأقدس وأسعد ممّا كنا. وفى كثير من الأحيان ندخل أتون التجربة ونفوسنا قد أظلمتها الأنانية، ولكن إذا كنا نصبر على التجربة الفاحصة فسنخرج وقد انعكست على قلوبنا الصفات الإلهية. ومتى تحقق قصده من التجربة فحينئذ « يُخْرِجُ مِثْلَ النُّورِ بِرَّكَ، وَحَقَّكَ مِثْلَ الظَّهِيرَةِ » (مزمور ٣٧: ٦).

ليس هناك خَطرَ من اللّه بأن يهمل صلوات شعبه. ولكن الخطر هو أنّهم في التجارب والمحن يخورون ويخفقون في المواظبة على الصلاة.

لقد أبدى المُخَلِّص رحمة إلهيّة للمرأة الفينيقية السورية. فقد تأثر قلبه عندما رأى حزنها. واشتاق إلى أن يمنحها تأكيدا سريعا بأن طلبتها قد سُمعت، إلاّ انّه أراد أن يعلم تلاميذه درسا، وقد بدأ لوقت قصير وكأنه قد أغضى على صرخات قلبها المُعذّب. وعندما اتضح إيمانها خاطبها بكلام المديح وأرسلها مزوّدة بالهبة الثمينة التي سألتها. ولم ينسَ التلاميذ هذا الدرس قطّ، وقد سجّل شهادة في الكتاب للتدليل على نتيجة المداومة على الصلاة.

المسيح نفسه هو الذي أوجد في قلب تلك الأم ذلك الإصرار الذي يأبى أن يرفض. والمسيح هو الذي أعطى تلك الأرملة المتوسّلة شجاعة وتصميما أمام القاضي. والمسيح هو الذي منذ قرون مضت وفي الصراع الخفي عند مخاضة يبوق ألهم يعقوب بنفس الإيمان المثابر. هذا وإنّ الثقة التي هي من غرس يديه لم يخفق في مكافأتها. [176]

إنّ ذاك الساكن في القدس السماوي يقضي بالعدل والبرّ. إنّ مسرته هي بالأكثر في أفراد شعبه الذين يكافحون ضد التجربة في عالم الخطية، أكثر من جيوش الملائكة المحيطين بعرشه.

كل مسكونة السماء تظهر أعظم اهتمام ببقعة العالم هذه لأنّ المسيح قد دفع ثمنا لا يُقدّر لجلّ نفوس سكانه. لقد ربط فادي العالم الأرض بالسماء برباط رسل السماء لأن مفديي الرب هنا. والكائنات السماوية لا تزال تزور الأرض كما في الأيام التي فيها كانوا يسيرون ويتحدثون مع إبْرَاهيم وموسى. ففي وسط النشاط والعمل في مدننا الكبرى، وفي وسط الجموع الذين تزدحم بهم الشوارع العامة والذين يملأون أسواق التجارة، حيث يعمل الناس من الصباح إلى المساء كما لو أن العمل والألعاب والمسرات هي كل شيء في

الحياة، حيث لا يوجد غير القليلين الذين يفكرون في الحقائق غير المنظورة – حتى هنا لم يزل لدى السماء رقباؤها وقديسوها. توجد خلائق غير منظورة تراقب أقوال بني الإنسان وأعمالهم كلها. وفي كل اجتماع لأجل العمل أو المسرّات وفي كل اجتماع للعبادة يوجد مستمعون أكثر ممن تراهم العيون البشرية. وأحيانا تزيح تلك الخلائق السماوية الستار الذي يخفي العالم غير المنظور حتى تنصرف أفكارنا عن سرعة الحياة واندفاعها لنتأمل في أنه يوجد شهود غير منظورين لكل ما نفعله أو نقوله.

إننا بحاجة إلى أن تفهم رسالة الزوار من الملائكة فهما أفضل. ويحسن بنا أن نراعي الفكرة أنه في كل عملنا نجد تعاونا ورعاية من الخلائق السماوية. إن جيوشا غير منظورة من النور والقوة تلازم الودعاء والمتواضعين الذين يؤمنون بمواعيد اللّٰه ويطالبون بها. إنّ الْكَرُوبيم والسَّرَافيم والملائكة المقتدرين قوة – ربوات ربوات وألوف ألوف - يقفون عن يمين اللّٰه. « أَلَيْسَ جَمِيعُهُمْ أَرْوَاحًا خَادِمَةً مُرْسَلَةً لِلْخِدْمَةِ لأَجْلِ الْعَتِيدِينَ أَنْ يَرِثُوا الْخَلاَصَ » (عبرانيين ١:١٤). [177]

هؤلاء الرسل من الملائكة يحتفظون بسجل أمين لأقوال بني الإنسان وأفعالهم. فكل عمل من أعمال القسوة أو الظلم موجه إلى شعب اللّٰه وكل ما يضطرون لأن يقاسوه بسبب قوة فاعلي الشرّ مسجل في السماء.

« أَفَلاَ يُنْصِفُ اللّٰهُ مُخْتَارِيهِ، الصَّارِخِينَ إِلَيْهِ نَهَارًا وَلَيْلاً، وَهُوَ مُتَمَهِّلٌ عَلَيْهِمْ؟ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ يُنْصِفُهُمْ سَرِيعًا ».

« فَلاَ تَطْرَحُوا ثِقَتَكُمُ الَّتِي لَهَا مُجَازَاةٌ عَظِيمَةٌ. لأَنَّكُمْ تَحْتَاجُونَ إِلَى الصَّبْرِ، حَتَّى إِذَا صَنَعْتُمْ مَشِيئَةَ اللّٰهِ تَنَالُونَ الْمَوْعِدَ. لأَنَّهُ بَعْدَ قَلِيلٍ جِدًّا « سَيَأْتِي الآتِي وَلاَ يُبْطِئُ » (عبرانيين ١٠: ٣٥-٣٧). « هُوَذَا الْفَلاَحُ يَنْتَظِرُ ثَمَرَ الأَرْضِ الثَّمِينَ، مُتَأَنِّيًا عَلَيْهِ حَتَّى يَنَالَ الْمَطَرَ الْمُبَكِّرَ وَالْمُتَأَخِّرَ. فَتَأَنَّوْا أَنْتُمْ وَثَبِّتُوا قُلُوبَكُمْ، لأَنَّ مَجِيءَ الرَّبِّ قَدِ اقْتَرَبَ » (يعقوب ٥: ٧، ٨).

إنّ طول أناة اللّٰه عجيبة. العدل ينتظر طويلا في حين تتوسل الرحمة إلى الخاطئ: « الْعَدْلُ وَالْحَقُّ قَاعِدَةُ كُرْسِيِّكَ » (مزمور ٩٧: ٢): « الرَّبُّ بَطِيءُ الْغَضَبِ وَعَظِيمُ الْقُدْرَةِ، وَلكِنَّهُ لاَ يُبَرِّئُ الْبَتَّةَ. الرَّبُّ فِي الزَّوْبَعَةِ، وَفِي الْعَاصِفِ طَرِيقُهُ، وَالسَّحَابُ غُبَارُ رِجْلَيْهِ » (نَاحُوم ١: ٣).

لقد أمسى العالم جريئا في عصيان شريعة اللّٰه. فبسبب صبره الطويل داس الناس على سلطانه. لقد شدد بعضهم أيدي بعض في الظلم والقسوة على ميراثه قائلين: « كَيْفَ يَعْلَمُ اللّٰهُ؟ وَهَلْ عِنْدَ الْعَلِيِّ مَعْرِفَةٌ؟ » (مزمور

٧٣: ١١). ولكن هنالك حدا لا يستطيعون أن يتعدوه، وقريب هو الوقت الذي فيه يكونون قد وصلوا إلى الحد المعين. بل حتى الآن كادوا يتجاوزون حدود طول أناة اللّٰه وحدود [178] نعمته وحدود رحمته. وسيتدخل الرب ليزكّي كرامته ولينقذ شعبه وليقمع ثورة الآثم وهيجانه.

في عهد نوح كان الناس قد أهملوا شريعة اللّٰه، حتى كادت كل ذكرى للخالق تتلاشى من الأرض. وقد بلغ إثمهم حدا هكذا شنيعا بحيث جلب الرب طوفانا من المياه على الأرض واكتسح سكانها الأشرار.

ومن جيل إلى جيل أعلن الرب طريقة عمله. فعندما كانت تحل أزمة كان يعلن نفسه ويتدخل ليعرقل إتمام خطط الشيطان. فمع الأمم والعائلات والعشائر والأفراد كثيرا ما سمح بان تتأزم الحالة حتى يكون تدخله ملحوظا. وحينئذ أعلن أنّه يوجد إله في إسرائيل يحفظ شريعته ويزكّي شعبه.

وفي هذا الوقت الذي فيه طغى الإثم يمكننا أن نعلم أنّ الأزمة الأخيرة العظيمة هي على الأبواب. وعندما يكاد تحدّي شريعة اللّٰه يكون شاملا وعندما يُضطهد شعب اللّٰه ويتضايقون على أيدي بني جنسهم فالرب سيتدخل حتما.

قريب هو الوقت الذي فيه يقول اللّٰه: « هَلُمَّ يَا شَعْبِي ادْخُلْ مَخَادِعَكَ، وَأَغْلِقْ أَبْوَابَكَ خَلْفَكَ. اخْتَبِئْ نَحْوَ لُحَيْظَةٍ حَتَّى يَعْبُرَ الْغَضَبُ. لأَنَّهُ هُوَذَا الرَّبُّ يَخْرُجُ مِنْ مَكَانِهِ لِيُعَاقِبَ إِثْمَ سُكَّانِ الأَرْضِ فِيهِمْ، فَتَكْشِفُ الأَرْضُ دِمَاءَهَا وَلاَ تُغَطِّي قَتْلاَهَا فِي مَا بَعْدُ » (إِشَعْيَاء ٢٦: ٢٠، ٢١). يمكن أن الناس الذين يدّعون أَنَّهُمْ مسيحيون يغدرون الآن بالمساكين ويضطهدونهم، ويمكنهم أن يسلبوا الأرملة واليتيم وأن يضمروا في نفوسهم الكراهية الشيطانية لأنهم لا يستطيعون التحكم في ضمائر شعب اللّٰه. ولكن لأجل كل هذا سيحضرهم اللّٰه إلى الدينونة. وسيكون « الْحُكْم ... بلاَ رَحْمَة لِمَنْ لَمْ يَعْمَلْ رَحْمَةً » (يعقوب ٢: ١٣). وبعد قليل سيقفون أمام ديّان كل الأَرض [179] ليعطوا حسابا عن الألم الذي سببوه لأجسام ميراثه ونفوسهم. يمكنهم الآن أن يمعنوا في اتهاماتهم الكاذبة، ويمكنهم أن يسخروا بمن قد أقامهم اللّٰه ليعملوا عمله ويمكنهم أن يودعوا في السجن جماعة المؤمنين به، وأن يوثقوهم بالسلاسل للأعمال الشاقة أو أن ينفوهم أو يقتلوهم، ولكنّهم لابد سيعطون حسابا عن كل وخزة من وخزات الألم وكل دمعة سُكبت. فاللّٰه سيجازيهم ضعفا عن كل خطاياهم. إنّ اللّٰه يقول لرسل دينونته

عن بابل التي ترمز إلى الكنيسة المرتدة: « لأَنَّ خَطَايَاهَا لَحِقَت السَّمَاءَ، وَتَذَكَّرَ اللّٰهُ آثَامَهَا. جَازُوهَا كَمَا هِيَ أَيْضًا جَازَتْكُمْ، وَضَاعِفُوا لَهَا ضِعْفًا نَظِيرَ أَعْمَالِهَا. فِي الْكَأْسِ الَّتِي مَزَجَتْ فِيهَا امْزُجُوا لَهَا ضِعْفًا » (رؤيا ١٨: ٥، ٦).

إنّ صرخة الشقاء الإنساني تصعد إلى اللّٰه من الهند وأفريقيا والصين ومن جزائر البحر ومن ملايين المدوسين بالأقدام ممن يعيشون في البلدان التي تدعى مسيحية. وتلك الصرخة لن تظلّ طويلا بدون إجابة. فاللّٰه سيطهر الأرض من فسادها الأدبي، لا بطوفان من الماء كما في عهد نوح بل بطوفان من النار التي لا يمكن لأي اختراع بشري أن يطفئها.

« وَيَكُونُ زَمَانُ ضِيقٍ لَمْ يَكُنْ مُنْذُ كَانَتْ أُمَّةٌ إِلَى ذلِكَ الْوَقْتِ وَفِي ذلِكَ الْوَقْتِ يُنَجَّى شَعْبُكَ، كُلُّ مَنْ يُوجَدُ مَكْتُوبًا فِي السِّفْرِ » (دانيال ١٢: ١).

إنّ المسيح سيجمع أولاده إلى نفسه من الغرف العلوية ومن المخابيء ومن السجون المظلمة ومن فوق المشانق ومن الجبال والبراري ومن مغاير الأرض وكهوف البحر. لقد كانوا على الأرض معوزين ومتضايقين ومعذبين. ملايين منهم نزلوا إلى الهاوية مجللين بالعار لأنّهم رفضوا الخضوع لمطاليب الشيطان الخادعة. لقد حكمت محاكم الأرض على أولاد اللّٰه على أنّهم أحط المجرمين. ولكن سيأتي قريبا اليوم الذي يكون فيه « اللّٰه هُوَ الدَّيَّانُ » (مزمور ٥٠: ٦)، وحينئذ ستنعكس قرارات الأرض [180] « يَنْزِعُ عَارَ شَعْبِهِ » (إِشَعْيَاء ٢٥: ٨). وستُعطى لكلّ منهم ثياب بيض (رؤيا ٦: ١١). « وَيُسَمُّونَهُمْ: شَعْبًا مُقَدَّسًا، مَفْدِيِّي الرَّبِّ » (إِشَعْيَاء ٦٢: ١٢).

مهما تكن الصلبان التي دُعي أولاد اللّٰه ليحملوها، ومهما تكن الخسائر التي حاقت بهم ومهما يكن الاضطهاد الذي قاسوه حتى إلى خسارة حياتهم الأرضية فقد نالوا تعويضا كافيا « وَهُمْ سَيَنْظُرُونَ وَجْهَهُ، وَاسْمُهُ عَلَى جِبَاهِهِمْ » (رؤيا ٢٢: ٤). [185]

١٥

« هـذا يقبَـل خُطـاة »

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في لوقا ١٥: ١-١٠).

عندما اجتمع العشارون والخطاة حول المسيح تذمر معلمو اليهود قائلين: « هذَا يَقْبَلُ خُطَاةً وَيَأْكُلُ مَعَهُمْ » (لوقا ١٥: ١، ٢).

بهذه التهمة لمَّحوا إلى أن المسيح يحب الاختلاط بالخطاة والمنحطين وهو لا يحسّ بشرّهم. لقد خابت آمال الأحبار في يسوع. لماذا حدث ذاك الذي يدَّعي لنفسه صفات سامية جدّا، لم يختلط بهم هم ويتبع أساليبهم في التعليم؟ ولماذا يتجول هكذا بكل بساطة خادما بين كل الطبقات؟ ثم قالوا: لو كان هذا نبيا حقيقيا لكان ينسجم معهم ويعامل العشارين والخطاة بما يستحقونه من عدم اكتراث. لقد أغضب حراس المجتمع هؤلاء أنّ هذا الذي كانوا يشتبكون معه في مناقشات لا تنقطع، والذي مع ذلك أخافتهم ودانتهم طهارة حياته يلتقي في عطف ظاهر مع أولئك المنبوذين من المجتمع. إنّهم لم يستحسنوا أساليبه. لقد اعتبروا أنفسهم متعلمين ومتفوقين في الأمور الدينية، ولكن مثال المسيح فضح أنانيتهم. [186]

وقد أغضبهم أيضا أنّ الذين لم يكونوا يُظهرون للأحبار غير الازدراء والذين لم يُروا قط في المجامع، يتقاطرون ويجتمعون حول يسوع ويصغون إلى أقواله بكل انتباه. إنّ الكتبة والفريسيين لم يحسّوا بغير الإدانة في تلك الحضرة الطاهرة، فكيف حدث إذا أن العشارين والخطاة ينجذبون إلى يسوع؟

ولم يدروا أن تفسير هذا كائن في نفس الكلام الذي نطقوا به واتهموه في ازدراء « هذَا يَقْبَلُ خُطَاةً ». فالنفوس التي أتت إلى يسوع أحسست وهي في محضره بأنّه يوجد طريق للنجاة من حضرة الخطية حتى لهم هم أنفسهم. لقد كان الفريسيون يحتقرونهم ويدينونهم، أما المسيح فحياهم مرحّبا بهم كأولاد اللّه الذين وإن كانوا في الواقع متباعدين عن بيت الآب فإن قلب الآب لم ينسهم. إنّ نفس شقائهم وخطيتهم جعلتهم بالأكثر موضوع حنانه ورحمته. وبقدر ما ابتعدوا عنه – بقدر ذلك زاد حنينه إليهم وعظمت تضحيته لإنقاذهم.

كلّ هذا كان يمكن لمعلمي إسرائيل أن يتعلموه من الأسفار المقدسة التي كانوا يفخرون بأنهم حُفَّاظها وشارحوها. ألم يكتب – داود الذي قد سقط في خطية مميتة قائلا: « ضَلَلْتُ، كَشَاة ضَالَّة. اطْلُبْ عَبْدَكَ؟ » (مزمور ١١٩: ١٧٦). أولم يعلن ميخا محبة اللّه للخاطئ قائلا: « مَنْ هُوَ إِلهٌ مِثْلُكَ غَافِرٌ الإِثْمَ وَصَافِحٌ عَنِ الذَّنْبِ لِبَقِيَّةِ مِيرَاثِهِ! لاَ يَحْفَظُ إِلَى الأَبَدِ غَضَبَهُ، فَإِنَّهُ يُسَرُّ بِالرَّأْفَةِ؟ » (ميخا ٧: ١٨).

الخروف الضال

ولم يذكّر المسيح سامعيه في ذلك الوقت بأقوال الكتاب. ولكنه لجأ إلى شهادة اختبارهم. فإنّ السهول الفسيحة الممتدة شرقيّ الأردن كانت فيها مراع للقطعان، وفي الممرات وعلى الجبال التي اكتست بالغابات شرد [187] الكثير من الخراف الضالة، واستلزمت عناية الراعي التفتيش عنها وإعادتها. كان يوجد بين الرجال الملتفين حول يسوع رعاة، وكذلك رجال كانت لديهم أموال استثمروها في القطعان والمواشي، وقد أمكن لجميعهم أن يقدّروا ويفهموا المثل الذي أورده حين قال: « أَيُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ لَهُ مِئَةُ خَرُوف، وَأَضَاعَ وَاحِدًا مِنْهَا، أَلاَ يَتْرُكُ التِّسْعَةَ وَالتِّسْعِينَ فِي الْبَرِّيَّةِ، وَيَذْهَبَ لأَجْلِ الضَّالِّ حَتَّى يَجِدَهُ؟ » (لوقا ١٥: ٤).

قَال لهم يسوع: هذه النفوس التي تحتقرونها هي ملك اللّه. فهي له بحق الخلق والفداء وهي غالية القيمة في عينيه. فكما يحب الراعي خرافه ولا يستطيع أن يستريح لو ضاع واحد منها فقط، كذلك اللّه يحب كل شريد إنما بدرجة أسمى بكثير. قد ينكر الناس حق محبته. وقد يبتعدون عنه وقد يختارون

لأنفسهم سيدا آخر، ومع ذلك فهم خاصة اللّٰه وهو يتوق لاسترداد خاصته. إنّه يقول: « كَمَا يَفْتَقِدُ الرَّاعِي قَطِيعَهُ يَوْمَ يَكُونُ فِي وَسْطِ غَنَمِهِ الْمُشَتَّتَةِ، هكَذَا أَفْتَقِدُ غَنَمِي وَأُخَلِّصُهَا مِنْ جَمِيعِ الأَمَاكِنِ الَّتِي تَشَتَّتَتْ إِلَيْهَا فِي يَوْمِ الْغَيْمِ وَالضَّبَابِ » (حزْقِيَال ٣٤: ١٢).

وفي المثل نَجد أن الراعي يخرج ليفتش عن خروف واحد – أقل ما يمكن أن يُحصى. وهكذا إذا لم يكن غير نفس واحدة هالكة، لكان المسيح يموت لأجل تلك النفس.

إنّ الشاة التي ضلت بعيدا عن الحظيرة هي أعجز كل الخلائق. فينبغي أن يفتش عنها الراعي بنفسه لأنها لا تستطيع أن تجد طريقها للعودة. وهكذا الحال مع النفس التي قد ابتعدت عن اللّٰه، فذلك الإنسان عاجز كالخروف الضال، ولو لم تأت محبة اللّٰه لإنقاذه لما أمكنه أن يجد طريق الرجوع إلى اللّٰه.

الراعي الذي يكتشف أنّ خروفا واحدا ناقصٌ لا ينظر في غير مبالاة إلى القطيع الذي آوى بأمان إلى الحظيرة قائلا: « عندي تسعة وتسعون، والبحث عن الخروف الضال يكلفني عناءً أكثر من اللازم. [188] فليرجع وأنا أفتح له باب الحظيرة وأدخله ». كلا، فما أن ضلّ الخروف حتى تمتلئ نفس الراعي حزنا وجزعا. فيعدّ القطيع مرارا وتكرارا. وعندما يتأكد أن خروفا قد ضاع فهو لا ينام. بل يترك التسعة والتسعين في الحظيرة ويذهب مفتشا عن الخروف الضال. فكلما اشتد ظلام الليل والعواصف، وزادت خطورة الطريق ازداد جزع الراعي، وجَدَّ في بحثه. فهو يبذل كل جهده ليجد ذلك الخروف الواحد الضال.

فبأي ارتياح يسمع أول صرخاته الواهنة من بُعد. فإذ يتتبع الصوت يتسلق المرتفعات السريعة الانحدار ويذهب إلى حافة الهوة مخاطرا بحياته. وهكذا يبحث في حين تنبئه الصرخة التي صارت أضعف مما كانت بأن خروفه موشك على الموت. أخيرا يُكافأ مسعاه فقد وُجد الضال. وحينئذ لا ينتهره لأنّه سبّب له كل ذلك العناء، ولا يسوقه بالسوط ولا حتى يحاول أن يقوده إلى البيت. بل إنّه لفرط سروره يضع ذلك المخلوق المرتجف على منكبيه، وإذا كان مسحوقا أو مجروحا يضمه بين ذراعيه ويحتضنه حتى تعيدُ حرارة قلبه الحياة إليه. فبقلب مفعم بالشكر، لأنّ بحثه لم يذهب عبثا، يحمله عائدًا به إلى الحظيرة.

شكرا للّٰه لأنّه لم يعرض أمام أذهاننا صورة راع حزين عائد بدون الخروف. فالمثل لا يتحدّث عن الفشل بل عن النجاح والفرح باسترداده.

هنا الضمان الإلهي بأنّه ولا شاة واحدة ضالة بعيدا عن حظيرة اللّه تُغفل أو تُترك بدون نجدة. فكل من يخضع ليُقتدي سيخلّصه المسيح من جب الفساد ومن أشواك الخطية.

فيا أيتها النفس اليائسة تشجّعي حتى ولو كنت قد فعلت شرّاً. لا تظن أنّ اللّه ربما يغفر [189] معاصيك ويسمح لك بالمثول في حضرته. لقد تقدم اللّه إليك أولاً. فحين كنت في حالة العصيان عليه خرج يفتش عنك. فبقلب الراعي الحنَّان الرقيق ترك التسعة والتسعين وخرج إلى البرية ليجد ما قد هلك. فالنفس المُرضّضة الجريحة والموشكة على الهلاك يحيطها بذراعي محبته ويحملها فرحا إلى حظيرة الأمان.

كان اليهود يعلّمون الشعب قائلين إنّه قبلما تمتد محبة اللّه إلى الخاطئ عليه أوّلا أن يتوب. ففي رأيهم أنّ التوبة عمل بواسطته يحرز الناس رضى السماء. وهذا هو الفكر الذي جعل الفريسيين يصيحون في دهشة وغضب قائلين: « هذَا يَقْبَلُ خُطَاةً وَيَأْكُلُ مَعَهُمْ ». فبناء على أفكارهم لم يكن يحق له أن يسمح بالاقتراب منه إلاّ لمن قد تاب. ولكن المسيح يعلمنا في مثل الخروف الضال أنّ الخلاص لا يأتينا عن طريق تفتيشنا عن اللّه بل عن طريق تفتيش اللّه عنا: « لَيْسَ مَنْ يَفْهَمُ. لَيْسَ مَنْ يَطْلُبُ اللّهَ. الْجَمِيعُ زَاغُوا وَفَسَدُوا مَعًا » (رومية ٣: ١١، ١٢). فنحن لا نتوب لكي يحبنا اللّه، ولكنه يعلن لنا محبته لكي نتوب.

وعندما يعاد الخروف الضال إلى الحظيرة أخيرا فإنّ شكر الراعي يجد له تعبيرا في أغاني الفرح. فهو يدعو الأصدقاء والجيران قائلا لهم: « افْرَحُوا مَعِي، لأَنِّي وَجَدْتُ خَرُوفِي الضَّالَّ » (عدد ٦). وهكذا عندما يجد راعي الخراف العظيم إنسانا ضالا فالسماء والأرض تشتركان في الشكر والفرح.

« هكَذَا يَكُونُ فَرَحٌ فِي السَّمَاءِ بِخَاطِئٍ وَاحِدٍ يَتُوبُ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ بَارًّا لاَ يَحْتَاجُونَ إِلَى تَوْبَةٍ » (عدد ٧). قال المسيح: إنكم أيها الفريسيون تحسبون أنفسكم محبوبين لدى السماء. وتظنون أنفسكم في أمان إذ تتحصّنون في برّكم. إذا فاعلموا أنكم إذا كنتم [190] في غير حاجة إلى توبة فرسالتي ليست لكم. فهذه النفوس المسكينة التي تحسّ بفقرها وشرّها هي ذات النفوس التي قد أتيت لأخلّصها. فملائكة السماء مهتمون بهؤلاء الناس الهالكين الذين تزدرونهم. إنكم تشتكون وتسخرون عندما ينضم إليّ واحد من هؤلاء الناس. ولكن اعلموا أن الملائكة يفرحون وأنشودة النصرة يرنّ صداها في كل أرجاء السماء.

كان عند أحبار إسرائيل مثل يقول إنّه يكون فرح في السماء عندما يهلك إنسان أخطأ إلى اللّٰه، ولكن يسوع علمنا أنّ عمل الهلاك غريب بالنسبة إلى اللّٰه. فالذي تفرح به كل السماء هو إعادة صورة اللّٰه إلى النفوس التي قد خلقها.

وعندما يحاول إنسان ضلّ ضلالا بعيدا في الخطية أن يرجع إلى اللّٰه فهو يُقابَل بالانتقاد والشك. فهناك من يشكون فيما إذا كانت توبته صادقة، أو يهمسون قائلين: « إنّه لا ثبات عنده فأنا لا أصدق أنه سيصمد ». هؤلاء الناس لا يعملون عمل اللّٰه بل عمل الشيطان المشتكي على الإخوة. فبواسطة انتقاداتهم يؤمل الشرير أن يثبّط تلك النفس ويسوقها بعيدا عن الرجاء وعن اللّٰه. فليفكر الخاطئ التائب في الفرح الذي يكون في السماء برجوع الضال. فليستريح في محبة اللّٰه ولا يضعف قلبه في أي حالة بسبب سخرية الفريسيين وشكوكهم.

لقد فهم الأحبار إن مثل المسيح ينطبق على العشارين والخطاة، ولكن كان له أيضا معنى أوسع. فالمسيح لا يرمز بالخروف الضال إلى الفرد الخاطئ وحده بل أيضا إلى العالم الذي ارتدّ وأهلكته الخطية. فهذا العالم إن هو إلاّ ذرّة واحدة في عوالم واسعة يحكم عليها اللّٰه، ومع ذلك فهذا العالم الصغير الساقط – الخروف الواحد الضال – هو أغلى في نظره من التسعة والتسعين التي لم تضل عن الحظيرة. إنّ المسيح الرئيس الحبيب في المواطن السماوية [191] تنازل عن مركزه العظيم السامي وألقى عنه المجد الذي كان له عند الآب لكي يخلص العالم الواحد الهالك. ولأجل هذا ترك العوالم المعصومة في الأعالي، التسعة والتسعين الذين أحبوه وجاء إلى هذه الأرض ليُجرح « لأَجْل مَعَاصينَا» ويُسحق « لأَجْل آثَامنَا » (إِشَعْيَاء ٥٣: ٥). فاللّٰه بذل نفسه فيَ شخص ابنه لكي يكون له فرَح إرجاع الخروف الضال.

« أُنْظُرُوا أَيَّةَ مَحَبَّة أَعْطَانَا الآبُ حَتَّى نُدْعَى أَوْلاَدَ اللّٰه » (١يوحنا ٣: ١). والمسيح يقول: « كَمَا أَرْسَلْتَنِي إِلَى الْعَالَم أَرْسَلْتُهُمْ أَنَا إِلَى الْعَالَم » (يوحنا ١٧: ١٨). حتى « أُكَمِّلُ نَقَائِصَ شَدَائِد الْمَسِيح ... لأَجْلَ جَسَده، الَّذي هُوَ الْكَنِيسَةُ » (كُولُوسِّي ١: ٢٤). إنّ كلَ نفس خلَصها المسَيح مدَعوة لتعمل باسَمه لأجل خلاص الهالكين. هذا العمل كان قد أُهمل بين العبرانيين. أو ليسَ هو مهملا اليوم ممن يعترفون بأنّهم تلاميذ المسَيح؟

كم من الضالّين طلبتهم أيها القارئ وأرجعتهم إلى الحظيرة؟ فعندما تغضي عمّن يبدو أنه لا رجاء فيهم ولا جاذبية فهل تدرك أنّك تهمل النفوس التي يبحث

المسيح عنها؟ ففي نفس الوقت الذي فيه تتحول عنهم قد يكونون في أشدّ الحاجة إلى عطفك وشفقتك. في كل اجتماع يعقد للعبادة توجد نفوس تتوق إلى الراحة والسلام. قد يبدو أنهم عائشون حياة عدم الاكتراث ولكنهم ليسوا عديمي الشعور بقوة الرُّوح الْقُدُس. فكثيرون منهم يمكن ربحهم للمسيح.

إذا كان الخروف الضال لا يُعاد إلى الحظيرة فسيظل هائما على وجهه حتى يهلك. وهنالك كثيرون ينحدرون إلى الهلاك لعدم وجود يد تمتد إليهم لتخليصهم. هؤلاء المخطئون قد يبدو أَنَّهُمْ قساة وطائشون، ولكن لو أَنَّهُمْ قد تمتعوا بنفس الامتيازات التي كانت للآخرين لكانوا قد برهنوا على نبل نفوسهم وكانت لهم مواهب [192] أكثر نفعا من الآخرين. إنّ الملائكة يعطفون على هؤلاء الضالين. بل إنّ الملائكة يبكون في حين أن عيون الناس جافة من الدموع وقلوبهم مغلقة فلا يتسرب إليها العطف.

آه ما أحوجنا إلى عطف عميق يؤثر في النفس على المجربين والمخطئين! وما أحوجنا إلى المزيد من روح المسيح وإلى القليل من الأنانية!

لقد فهم الفريسيون مثل المسيح على أنّه توبيخ لهم. فبدلا من أن يقبل انتقادهم لعمله وبخهم على إهمالهم للعشارين والخطاة. وهو لم يفعل هذا جهارا لئلا يغلقوا قلوبهم دونه، ولكن مثله وضع أمامهم نفس العمل الذي طلبه اللّه منهم والذي لم يعملوه. فلو كانوا رعاة أمناء فان هؤلاء الذين كانوا رؤساء في شعب اللّه قديما كان يمكنهم أن يقوموا بعمل الراعي، وكانوا قد اظهروا رحمة المسيح ومحبته وكانوا انضمّوا إليه في أداء رسالته – ولكن رفضهم عمل هذا برهن على أنّ ادعاءهم التقوى إدعاء كاذب. وقد رفض كثيرون توبيخ المسيح ومع ذلك فإن كلامه بكّت بعضا منهم. فبعد صعود المسيح إلى السماء حل الرُّوح الْقُدُس على هؤلاء فانضموا إلى تلاميذه في القيام بنفس العمل المجمل في مثل الخروف الضال.

الدرهم المفقود

إنّ المسيح بعدما أورد مثل الخروف الضال قدم مثلا آخر قائلا: « أَيَّةُ امْرَأَة لَهَا عَشْرَةُ دَرَاهِمَ، إِنْ أَضَاعَتْ دِرْهَمًا وَاحِدًا، أَلاَ تُوقِدُ سِرَاجًا وَتَكْنُسُ الْبَيْتَ وَتُفَتِّشُ بِاجْتِهَادٍ حَتَّى تَجِدَهُ؟ » (لوقا ١٥: ٨).

كانتَ بيوتُ الفقراء في بلاد الشرق تتكون من غرفة واحدة غالبا بلا نوافذ ولذلك فهي مظلمة. ولم تكن الغرفة تكنس إلاّ في القليل النادر، ولو سقط

درهم على الأرض فسرعان ما كانت تغطّيه الأتربة والقمامة. وحتى يمكن العثور عليه كان يجب أن يوقد سراج في النهار وأن يكنس البيت جيّداً. [193]

وكان مهر الزوجة عند الزواج يتكون في العادة من دراهم، وكانت تحفظها بكلّ حرص إذ هي ثروتها الثمينة لديها لينتقل منها إلى بناتها. وكان ضياع درهم من هذه الدراهم يعتبر كارثة خطيرة وكان العثور عليه سبب فرح عظيم سرعان ما كانت تشترك فيه جاراتها من النساء.

قال المسيح: « وَإِذَا وَجَدَتْهُ تَدْعُو الصَّدِيقَاتِ وَالْجَارَاتِ قَائِلَةً: افْرَحْنَ مَعِي لأَنِّي وَجَدْتُ الدِّرْهَمَ الَّذِي أَضَعْتُهُ. هكَذَا، أَقُولُ لَكُمْ: يَكُونُ فَرَحٌ قُدَّامَ مَلاَئِكَةِ اللّٰهِ بِخَاطِئٍ وَاحِدٍ يَتُوبُ » (لوقا ١٥: ٩، ١٠).

هَذا المَثل كَسابقه يتحدث عن ضياع شيء يمكن العثور عليه بالتفتيش الصحيح فيسبب ذلك فرحا عظيما. إلا آن المثلين يصوران لنا فريقين مختلفين. فالخروف الضال يعرف أنه ضال. فقد ترك الراعي والقطيع ولا يستطيع أن يرجع بنفسه. وهو يرمز إلى الذين يدركون أَنَّهُمْ قد انفصلوا عن اللّٰه، وتكتنفهم سحابة من الارتباك وهم أذلاّء مجربون بتجارب قاسية. أما الدرهم المفقود فيرمز إلى من هم هالكون بالذنوب والخطايا، ولكن لا يوجد عندهم إحساس بحالتهم. إنّهم متباعدون عن اللّٰه ولكنهم لا يعرفون ذلك. فأرواحهم في خطر ولكنّهم لا يحسون بذلك [194] ولا يهتمون. وفي هذا المثل يعلمنا المسيح أَنَّه حتى الناس العديمو الاكتراث لمطاليب اللّٰه هم موضوع محبته وعطفه. فينبغي التفتيش عنهم لكي يرجعوا إلى اللّٰه ثانية.

لقد ضلّ الخروف وتاه بعيدا عن الحظيرة. ضل في البرية أو على الجبال. أما الدرهم فقد ضاع في البيت. كان قريبا من متناول اليد ولكن لم يمكن استرجاعه إلاّ بعد البحث باجتهاد.

في هذا المثل درس للعائلات. ففي البيت يتفشى الإهمال في الغالب من نحو نفوس أفراد العائلة. فقد يكون بين أولئك الأفراد واحد مبتعد عن اللّٰه، ولكن قلّما يجزع أحد أن تضيع، في خضمّ العلاقات العائلية، واحدةٌ من عطايا اللّٰه المُسلّمة لهم.

إنّ الدرهم، مع أنّه في وسط أكوام التراب والقمامة، لا يزال درهما من فضة كما كان. وصاحبته تفتش عنه لأنّ له قيمته. وهكذا كل نفس مهما تكن منحطّةً بالخطية معتبرةٌ ثمينةً في نظر اللّٰه. وكما أنّ على الدرهم صورة الملك واسمه، فكذلك الإنسان عند خلقه كان يحمل صورة اللّٰه واسمه. ومع أنّ الصورة والاسم

قد فسدا الآن وشُوِّها وطُمسا بتأثير الخطية، فإنّ آثار تلك الصلاة وتلك الكتابة لا تزال باقية في كل نفس. واللّه يتوق إلى أن يرد تلك النفس وينقش عليها من جديد صورته في البرّ والقداسة.

إن المرأة المذكورة في المثل تفتش باجتهاد لأجل درهمها الضائع. فهي توقد السراج وتكنس البيت. وهي تزيح من طريقها كل ما من شأنه أن يعرقلها عن البحث. ومع أن الضائع هو درهم واحد فقط فهي لا تكفّ عن بذل جهودها حتى تجد ذلك الدرهم. وهكذا في الأسرة إن ضلّ أحد أعضائها عن اللّه فينبغي استخدام كل وسيلة في إرجاعه. أمّا من ناحية الآخرين فليجتهد كل واحد في فحص نفسه بكل حرص. كما يجب فحص أعمال الحياة. فانظر لئلا يكون هناك خطأ ما، خطأ في الإدارة بسببه تصرّ تلك النفس على البقاء في قساوة القلب. [195]

وإذا كان في العائلة ولد غير شاعر بحالته، حالة الخطية فينبغي ألاّ يستريح الوالدان. ليوقد السراج. فتشوا كلمة اللّه وعلى نورها ليُفحص كل ما في البيت باجتهاد لتروا لماذا ضلّ هذا الولد. ليفحص الوالدون قلوبهم ويمتحنوا عاداتهم وأعمالهم. إنّ الأولاد هم ميراث الرب ونحن سنحاسب أمامه عن تصرفنا إزاء هذا الميراث.

يوجد آباء وأمهات يتوقون للخدمة في حقل مرسلي أجنبي، ويوجد كثيرون نشيطون في العمل المسيحي خارج البيت في حين أن أولادهم غرباء عن المُخَلِّص ومحبته. إنّ كثيرين من الوالدين يكلون عمل ربح أولادهم للمسيح إلى الخادم أو معلم مدرسة السبت، ولكنّهم بذلك يهملون المسؤولية المسندة إليهم من اللّه. إنّ تعليم الأولاد وتربيتهم ليكونوا مسيحيين هو أسمى خدمة يمكن أن يقدمها الوالدون للّه. وهو عمل يتطلب الخدمة في صبر ومجهود ناشط مثابر يدوم مدى الحياة. فإذ نهمل هذه الوديعة نبرهن على عدم أمانتنا كوكلاء. ولا يُقبل عذر عن هذا الإهمال أمام اللّه.

ولكن ينبغي ألاّ ييأس الذين ارتكبوا هذا الإهمال. إنّ المرأة التي أضاعت درهمها فتشت عنه حتى وجدته. فكذلك يجب على الوالدين أن يخدموا عائلاتهم بمحبة وإيمان وصلاة، حتى يمكنهم أن يأتوا إلى اللّه [196] بفرح قائلين: « هَا أَنَا وَالأَوْلاَدُ الَّذِينَ أَعْطَانِيهِمِ اللَّهُ » (إِشَعْيَاء ٨: ١٨).

هذا هو العمل الكرازي الحقيقي وفيه عون لمن يقومون به كما لمن يُعمل لأجلهم. فباهتمامنا الأمين بمحيط البيت إنّما نحن نؤهل ذواتنا لخدمة أعضاء

أسرة الرب الذين إذا كنا نظل على ولائنا للمسيح سنعيش معهم مدى أجيال الأبد. فعلينا أن نظهره بعضنا لبعض كأفراد في عائلة واحدة.

واللّٰه يقصد أن يؤهلنا هذا كله لنخدم آخرين أيضا. فإذ تتسع عواطفنا وتزيد محبتنا فسنجد لنا عملا نقوم به في كل مكان. إنّ أسرة اللّٰه البشرية الكبيرة تشمل العالم وينبغي إلاّ نهمل فردا واحدا من أفرادها.

وأينما نكون يوجد هناك الدرهم المفقود ينتظر بحثنا عنه. فهل نحن دائبون على التفتيش عنه؟ إنّنا من يوم إلى يوم نتقابل مع من لا يهتمون بالأمور الدينية، ونحن نتحدث معهم ونقوم بزيارات بينهم فهل نبدي اهتماما بخيرهم الروحي؟ وهل نقدّم لهم المسيح كالمُخَلِّص الذي يغفر الخطايا؟ فإذ تكون قلوبنا ملتهبة بمحبة المسيح هل نخبرهم عن تلك المحبة؟ فإذا لم نفعل ذلك فكيف نواجه هذه النفوس التي هلكت هلاكا أبديا – عندما نقف معهم أمام عرش اللّٰه؟

مَن ذا يستطيع أن يقدّر قيمة النفس؟ فإذا أردتم أن تعرفوا قيمتها فاذهبوا إلى جَثْسَيْمَانِي واسهروا هناك مع المسيح مدى تلك الساعات، ساعات الحزن والألم عندما كان عرقه ينزل كقطرات من الدم. وانظروا إلى المُخَلِّص مرفوعا على الصليب. واسمعوا صرخة اليأس التي فاه بها قائلا: « إلهي، إلهي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟ » (مرقس ١٥: ٣٤). انظروا إلى رأسه الجريح الدامي وجَنبه المطعون وقدميه الممزقتين. واذكروا أنّ المسيح خاطر بكل شيء. فلأجل فدائنا تعرضت السماء نفسها للخطر. وعند قاعدة الصليب إذ تذكرون أن المسيح كان يمكن أن يبذل نفسه لأجل خاطئ واحد يمكنكم أن تقدّروا قيمة نفس واحدة. [197]

وإذا كنتم في شركة مع المسيح فستضعون تقديره على كل إنسان. وستحسّون نحو الآخرين بنفس الحب العميق الذي أحسّ به المسيح نحوكم. وحينئذ ستكونون قادرين على أن تربحوا الذين مات المسيح لأجلهم لا أن تطردوهم وأن تجتذبوهم لا أن تنفّروهم. ما كان يمكن أن إنسانا يرجع إلى اللّٰه لو لم يبذل المسيح جهدا شخصيا لأجله، وبهذا العمل الفردي يمكننا أن نخلص النفوس. فعندما ترون المنحدرين إلى الموت فإنكم لن تركنوا إلى الراحة وعدم المبالاة. فبقدر ما عظمت خطيتهم وزاد شقاؤهم تزداد جهودكم غيرة ورقّة في سبيل إرجاعهم. وستكشفون حاجة المتألمين والذين ظلوا طويلا يخطئون إلى اللّٰه والذين يضايقهم ثقل آثامهم. وستمتليء قلوبكم

عطفا عليهم وستمدّون إليهم يد العون. وستأتون بهم إلى المسيح على أذرع إيمانكم ومحبتكم. وستسهرون عليهم وتشجعونهم وسيجعل عطفكم وثقتكم من الصعب عليهم أن يسقطوا من ثباتهم.

إنّ كل ملائكة السماء مستعدون للتعاون في هذه الخدمة. فكل مصادر السماء هي تحت تصرّف من يجتهدون في تخليص الهالكين. والملائكة سيساعدونكم في الوصول إلى أقل الناس اكتراثا وأقساهم قلوبا. وعندما يرجع أحدهم إلى اللّه فكل السماء ستفرح، والسَّرَافيم والْكَرُوبيم سيعزفون على قيثاراتهم الذهبية ويترنمون بترنيمات الحمد للّٰه وللحمل لأجل رحمته ورأفته نحو بني الإنسان. [198]

١٦

« كَانَ ضالاًّ فَوُجِدَ »

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في لوقا ١٥: ١١-٣٢).

إنّ مثل الخروف الضال والدرهم المفقود والابن الضال ترسم أمامنا في سطور واضحة محبة اللّه الرحيمة لمن هم ضالون بعيدا عنه. فمع أنهم قد ابتعدوا عن اللّه فانه لا يتركهم في شقائهم. إنّه مفعم القلب بالإشفاق والعطف الرقيق لكل من هم معرضون لتجارب العدو الماكر.

وفي مثل الابن الضال تُعرض أمامَنا معاملة الرب مع من قد عرفوا محبة الأب من قبل، ومع ذلك فقد سمحوا للمجرب بان يقودهم أسرى لإرادته.

« إِنْسَانٌ كَانَ لَهُ ابْنَان. فَقَالَ أَصْغَرُهُمَا لأَبِيه: يَا أَبِي أَعْطِنِي الْقِسْمَ الَّذِي يُصِيبُنِي مِنَ الْمَال. فَقَسَمَ لَهُمَا مَعِيشَتَهُ. وَبَعْدَ أَيَّام لَيْسَتْ بِكَثِيرَة جَمَعَ الابْنُ الأَصْغَرُ كُلَّ شَيْء وَسَافَرَ إِلَى كُورَة بَعِيدَة » (لوقا ١٥: ١١-١٣).

لقد ضجر هذا الابن الأصغر من القيود التي كانت مفروضة في بيت أبيه، وظن أن حريته مقيدة، وأساء تفسير محبة أبيه ورعايته له فعقد العزم على أن يتبع ميوله وأهواءه. [199]

إنّ ذلك الشاب لا يعترف بأي التزام له تجاه أبيه، ولا ينطق بكلمة شكر، ومع ذلك فهو يطالب بامتياز الابن في اقتسام ميراث أبيه. إنّه يرغب في أن

يحصل الآن على نصيبه من الميراث الذي يكون له الحق فيه عند موت أبيه. إنّه منصرف إلى التمتع بالبركات الحاضرة ولا يكترث للمستقبل.

فبعدما يحصل على ميراثه يسافر « إِلَى كُورَة بَعِيدَة » بعيدا عن بيت أبيه. وإذ لديه المال الوفير والحرية ليفعل ما يشاء يتملّق نفسه قائلا إنّه قد وصل إلى ما يصبو إليه قلبه. ولا يوجد من يقول له: لا تفعل هذا ففيه ضرر يلحقك، أو افعل هذا فهو الصواب. ثم إنّ رفاق السوء يساعدونه على الانغماس في عمق أعماق الخطية فيبذر « مَالَهُ بِعَيْش مُسْرف ».

إن الكتاب يخبرنا عن قوم « بَيْنَمَا هُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ حُكَمَاءُ صَارُوا جُهَلاَءَ» (رومية ١: ٢٢). وهذا هو تاريخ الشاب المذكور في المثل. فالثروة التي، في أنانيته، طلبها من أبيه يبذرها على الزواني. وكنز شبابه يضيع هباء. [200] وسنو الحياة الثمينة وقوّة الذكاء ورؤى الشباب المشرقة والأشواق الروحية – كل هذه احترقت بنيران الشهوة.

ثم إذ يحدث جوع شديد يبتدئ هو يحتاج فيلتصق بواحد من أهل الكورة يرسله إلى حقوله ليرعى خنازير. وقد كان هذا العمل أحقر أنواع الأعمال وأشدها انحطاطا في نظر أي يهودي. فهذا الشاب الذي كان يفخر بحريته يجد نفسه الآن عبدا. وهو في أردأ حالات العبودية – « بِحبَال خَطِيَّته يُمْسَكُ » (أمثال ٥: ٢٢). والبريق والزخرفة اللذان قد غررا بهَ تَلاشَيا وَهَا هو الآن يحسّ بثقل قيوده. وإذ يجلس على الأرض في تلك البلاد الموحشة التي قد ضربتها المجاعة ولا عشراء له غير الخنازير كان يشتهي أن يملأ بطنه من الخرنوب الذي كانت الخنازير تأكله. أمّا رفاقه المرحون الذين اجتمعوا حوله في أيام اليسر والذين كانوا يأكلون ويشربون على نفقته فلم يبق منهم أحد يصادقه. أين الآن فرحُه وعربدته؟ فإذ اسكت ضميره وخدر مشاعره ظن نفسه سعيدا، أما الآن وقد أنفق ماله وصار فريسة للجوع فقد أُذلت كبرياؤه، وتضاءلت طبيعته الأدبية وضعفت إرادته بحيث لم يعُدْ يثق بهَا. وقد بدا أنّ مشاعره الحساسة قد ماتت فهو أتعس إنسان.

ما أعظم هذه من صورة لحالة الخاطئ فمع انّه محاط ببركات محبة اللّٰه لا يوجد شيء يتوق إليه الخاطئ المنصبّ على تمتعاته الذاتية ومسراته الخاطئة قدر الانفصال عن اللّٰه. فهكذا الابن الجاحد يدّعي أن خيرات اللّٰه هي من حقه. وهو يأخذها كأمر طبيعي ولا يقدم شكرا عليها ولا يقدم خدمة محبة. فكما خرج قَايِين من حضرة الرب ليطلب بيته، وكما ضلّ

الابن الضال تائها في « الكُورَة البَعِيدَة » هكذا يطلب الخطاة السعادة في نسيان اللّه (رومية ١: ٢٨).

مهما يكن المظهر فكل حياة مركّزة في الذات هي حياة مبعثرة. وكل من يعيش بعيدا [201] عن اللّه يبذر جوهره. إنّه يبذر سني الحياة الغالية، يبذر قوى عقله وقلبه ونفسه، ويعمل على جلب الإفلاس الأبدي لنفسه. والإنسان الذي ينفصل عن اللّه ليخدم ذاته هو عبد للمال. فالكائن العاقل الذي خلقه اللّه ليكون عشيرا للملائكة صار منحطّا لخدمة ما هو أرضي ووحشي. هذه هي النهاية التي تنتهي إليها خدمة الذات.

فإذا كنت قد اخترت مثل هذه الحياة فأنت تعلم أنك إنّما تزنُ فضةً لغير خبز وتتعب لغير شبع. وستأتي عليك ساعات فيها تُدرك انحطاطَك. فإذ تكون وحيدا في الكورة البعيدة تحس بشقائك فتصرخ قائلا في يأس: « وَيْحي أَنَا الإِنْسَانُ الشَّقِيُّ! مَنْ يُنْقِذُني منْ جَسَد هذَا الْمَوْت؟ » (رومية ٧: ٢٤). هذا شرح لحق عام متضمن في أقوال النبي الذي قال: « مَلْعُونٌ الرَّجُلُ الَّذي يَتَّكِلُ عَلَى الإِنْسَان، وَيَجْعَلُ الْبَشَرَ ذرَاعَهُ، وَعَن الرَّبِّ يَحيدُ قَلْبُهُ. وَيَكُونُ مثْلَ الْعَرْعَر فِي الْبَادِيَة، وَلاَ يَرَى إِذَا جَاءَ الْخَيْرُ، بَلْ يَسْكُنُ الْحَرَّةَ في الْبَرِّيَّةَ، أَرْضًا سَبَخَةً وَغَيْرَ مَسْكُونَة » (إرْمِيَا ١٧: ٥، ٦). [202] إنّ اللّه: « يُشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى الأَشْرَار وَالصَّالحينَ، وَيُمْطِرُ عَلَى الأَبْرَار وَالظَّالمينَ » (متى ٥: ٤٥). ولكن الناس لهم القوة على أن يحبسوا أنفسهم بعيدًا عن ضوء الشمس والمطر. وهكذا فيما يشرق « شَمْسُ البرِّ » وتهطل سيول النعمة على الجميع بسخاء فقد نكون عاملين على فصل أنفسنا عن اللّه ونسكن « الحَرَّة في البَرِّيَّة ».

إنّ محبة اللّه لا تزال تحنّ إلى مَن قد اختار الانفصال عنه، وهو يشغّل العوامل الكفيلة بإرجاعه إلى بيت الآب. إنّ الابن الضال وهو في شقائه « رَجَعَ إِلَى نَفْسه ». لقد تلاشت قوى الخداع التي سلطها عليه الشيطان – فرأى أنّ جهالَته هي التي سببت له آلامه. فقال: « كَمْ منْ أَجير لأَبي يَفْضُلُ عَنْهُ الْخُبْزُ وَأَنَا أَهْلكُ جُوعًا! أَقُومُ وَأَذْهَبُ إِلَى أَبي » (لوقا ١٥: ١٧، ١٨). إنّ ذلك الابن الضال وهو في شقائه وجد رجاء في اقتناعه بمحبة أبيه. فتلك المحبة هي التي اجتذبته إلى البيت. وهكذا نجد أن يقين محبة اللّه هو الذي يحصر الخاطئ للرجوع إلى اللّه: « لُطْفَ اللّه إِنَّمَا يَقْتَادُكَ إِلَى التَّوْبَة » (رومية ٢: ٤). إنّ سلسلة ذهبية هي رحمة المحبة

الإلهية وحنانها تحيط بكل نفس معرضة للخطر. والرب يعلن قائلا: « مَحَبَّةً أَبَدِيَّةً أَحْبَبْتُك، مِنْ أَجْل ذلكَ أَدَمْتُ لَك الرَّحْمَةَ » (إِرْمِيَا ٣١: ٣).

وها هو الابن يعقد العزم على الاعتراف بجرمه. فسيذهب إلى أبيه قائلا له: « أَخْطَأْتُ إِلَى السَّمَاءِ وَقُدَّامَكَ، وَلَسْتُ مُسْتَحقًّا بَعْدُ أَنْ أُدْعَى لَكَ ابْنًا». لكنه يضيف قائلا: « اِجْعَلْنِي كَأَحَدِ أَجْرَاكَ ». مُظْهرا بذلك إدراكه الضيّق لمحبة أبيه.

وها هو الشاب يترك قطعان الخنازير والخَرْنُوب ويتجه إلى البيت. وإذ هو مرتجف من الضعف وخائر القوى بسبب الجوع يتقدم في طريقه بحنين وشوق. إنّه لا يجد شيئا يستر به أسماله ولكن [203] شقاءه انتصر على كبريائه فأسرع ليسأل أن تعطى له منزلة أجير في البيت الذي كان فيه ابنا.

إنّ ذلك الشاب المستهتر الطائش قلما كان يحلم وهو خارج من بيت أبيه بالآلام والحنين التي خلّفها في قلب ذلك الأب. وعندما كان يرقص ويرتع في الولائم مع رفاقه المتهورين قلّما كان يفكر في الكآبة التي أُطبقت على بيته. والآن في طريق العودة وهو يجرّ رجليه في خطوات متثاقلة كليلة لم يكن يعرف أنّ شخصا ينتظر رجوعه. ولكن إذ كان لم يزل « بَعيدًا » عرفه أبوه، إنّ المحبة سريعة وحادة البصر. فحتى انحطاط سنيّ الخطية لا يمكن أن يخفي الابن عن عيني أبيه بحيث لا يعرفه. « تَحَنَّنَ وَرَكَضَ وَوَقَعَ عَلَى عُنُقِه وَقَبَّلَهُ » في عناق طويل رقيق.

إنّ الأب لا يسمح لأي عين مزدرية بأن تسخَر من ابنه وهو في بؤسه وثيابه البالية. لذلك فهو يخلع وشاحه الفضفاض الغالي الثمن عن كتفيه ويلف به [204] جسم ابنه المُضنى، وإذا بالابن يعلن توبته وندامته وهو ينتحب قائلا: « يَا أَبي، أَخْطَأْتُ إِلَى السَّمَاءِ وَقُدَّامَكَ، وَلَسْتُ مُسْتَحقًّا بَعْدُ أَنْ أُدْعَى لَكَ ابْنًا ». فَيضمه الأب إلى حضنه ويأتي به إلى البيت، ولا يعطيه فرصة فيها يطلب مكان أجير. إنّه ابن وسيُكرم بأفضل ما يمكن للبيت أن يقدمه، وسيكرمه ويخدمه الرجال والنساء الواقفون في انتظار أوامره.

قال الأب لعبيده « أَخْرِجُوا الْحُلَّةَ الأُولَى وَأَلْبِسُوهُ، وَاجْعَلُوا خَاتَمًا في يَده، وَحذَاءً في رِجْلَيْه، وَقَدِّمُوا الْعِجْلَ الْمُسَمَّنَ وَاذْبَحُوهُ فَنَأْكُلَ وَنَفْرَحَ، لأَنَّ ابْنِي هَذَا كَانَ مَيِّتًا فَعَاشَ، وَكَانَ ضَالاًّ فَوُجِدَ. فَابْتَدَأُوا يَفْرَحُونَ » (لوقا ١٥: ٢٢-٢٤).

إنّ الابن الضال في سني شبابه، سنيّ التبرم والضجر كان ينظر إلى أبيه كمن هو شديد وصارم. أمّا الآن فكم تبدّل فكره عنه وهكذا الذين يخدعهم الشيطان ينظرون إلى اللّٰه كمن هو قاس لا يعرف الرحمة. إنّهم ينظرون إليه كمن يراقب

ليشتكي ويدين، وكمن يرفض قبول الخاطئ طالما يوجد عذر شرعي يمنع تقديم العون له. وهم يعتبرون شريعة اللّه على أنّها تقييد لسعادة الناس ونير ثقيل يسعدهم التهرّب منه. أما الذي فتحت محبة المسيح بصيرته فإنّه يرى اللّه كمن هو ممتلئ رحمة. فهو لا يبدو ككائن طاغية لا يعرف الرحمة، بل كأب يتوق لاحتضان ابنه التائب. وحينئذ يهتف الخاطئ قائلا مع المرنم: « كَمَا يَتَرَأَّفُ الأَبُ عَلَى الْبَنِينَ يَتَرَأَّفُ الرَّبُّ عَلَى خَائِفِيه » (مزمور ١٠٣: ١٣).

ولا يوجد في المثل أي لوم أو تعيير موجّه لذلك الضال بسبب مسلكه الأثيم. فالابن يحس بأنّ الماضي قد نُسي وغُفر ومُحي إلى الأبد. وهكذا يقول اللّه للخاطئ: « قَدْ مَحَوْتُ كَغَيْمٍ ذُنُوبَكَ وَكَسَحَابَةٍ خَطَايَاكَ » (إِشَعْيَاء ٤٤: ٢٢). « أَصْفَحُ عَنْ إِثْمِهِمْ، وَلاَ أَذْكُرُ [205] خَطِيَّتَهُمْ بَعْدُ » (إِرْمِيَا ٣١:٣٤). « لِيَتْرُكِ الشِّرِّيرُ طَرِيقَهُ، وَرَجُلُ الإِثْمِ أَفْكَارَهُ، وَلْيَتُبْ إِلَى الرَّبِّ فَيَرْحَمَهُ، وَإِلَى إِلهِنَا لأَنَّهُ يُكْثِرُ الْغُفْرَانَ » (إِشَعْيَاء ٥٥:٧). « في تِلْكَ الأَيَّامِ وَفي ذلكَ الزَّمَانِ، يَقُولُ الرَّبُّ، يُطْلَبُ إِثْمُ إِسْرَائِيلَ فَلاَ يَكُونُ، وَخَطِيَّةُ يَهُوذَا فَلاَ تُوجَدُ » (إِرْمِيَا ٥٠: ٢٠).

أي يقين هذا الذي فيه يبدي اللّه استعداده لقبول الخاطئ التائب! فهل اخترت أيها القارئ طريقا لنفسك؟ وهل ضللت بعيدا عن اللّه؟ وهل حاولت أن تمتع نفسك بثمار العصيان وإنما اكتشفت أنّها قد استحالت إلى رماد على شفتيك؟ والآن وقد أنفقت مالك وخابت خطط حياتك وماتت آمالك فهل تجلس وحدك مستوحشا؟ الآن ها هو الصوت الذي طالما تحدث إلى قلبك ولكنك رفضت الإصغاء إليه، ها هو يأتيك بكل وضوح وجلاء قائلا: « قُومُوا وَاذْهَبُوا، لأَنَّهُ لَيْسَتْ هذه هِيَ الرَّاحَةَ. مِنْ أَجْلِ نَجَاسَةٍ تُهْلِكُ وَالْهَلاَكُ شَدِيدٌ» (ميخا ٢: ١٠). فارجع إلى بيت أبيك. فهو يدعوك قائلاً: « ارْجِعْ إِلَيَّ لأَنِّي فَدَيْتُكَ » (إِشَعْيَاء ٤٤: ٢٢).

لا تصغ إلى اقتراح الشيطان عليك بالبقاء بعيدا عن المسيح حتى تصلح نفسك، حتى تكون صالحا بالكفاية لتأتي إلى اللّه. فإن أنت انتظرت حتى يتم ذلك [206] فإنك لن تأتي أبدا. وعندما يشير الشيطان إلى ثيابك القذرة كرر قول يسوع: « مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ لاَ أُخْرِجْهُ خَارِجًا » (يوحنا ٦: ٣٧). وقل لذلك العدو إنّ دم يسوع المسيح يطهر من كل خطية. واجعل صلاة داود صلاتك: « طَهِّرْنِي بِالزُّوفَا فَأَطْهُرَ. اغْسِلْنِي فَأَبْيَضَّ أَكْثَرَ مِنَ الثَّلْجِ » (مزمور ٥١: ٧).

قم واذهب إلى أبيك. إنّه سيلاقيك من بعيد. فإذا أنت خطوت نحوه ولو خطوة واحدة بالتوبة فهو سيسرع ليحتضنك بين ذراعي محبته اللامحدودة. إنّ أذنه مفتوحة لسماع صرخة النفس المنسحقة. وأول اشتياقات القلب إلى اللّه

معلومة لديه. إنه لم تقدم صلاة وإن تكن متلعثمة، ولم تسكب دمعة وإن تكن في الخفاء، ولم تحتضن النفس أي شوق إلى اللّه مهما يكن واهنا إلاّ ويخرج روح اللّه ليلاقيه. وحتى قبلما ينطق الإنسان بالصلاة وقبلما يُعرف الشوق إلى اللّه فإنّ نعمة تخرج من قبل المسيح لتلاقي النعمة العاملة في نفس الإنسان.

إنّ أباك السماوي سينزع عنك الثياب التي قد لوثتها الخطية. ففي نبوة زكريا التشبيهية الجميلة إذ يقف يهوشع الكاهن العظيم وهو لابس ثيابا قذرة أمام ملاك الرب فهو يرمز إلى الخاطئ. ثم يتكلم الرب قائلا: « انْزِعُوا عَنْهُ الثِّيَابَ الْقَذِرَةَ. وَقَالَ لَهُ: انْظُرْ. قَدْ أَذْهَبْتُ عَنْكَ إِثْمَكَ، وَأُلْبِسُكَ ثِيَابًا مُزَخْرَفَةً ... فَوَضَعُوا عَلَى رَأْسِهِ الْعِمَامَةَ الطَّاهِرَةَ، وَأَلْبَسُوهُ ثِيَابًا » (زكريا ٣: ٤، ٥). هكذا يُلبسك اللّه « ثِيَابَ الْخَلاَصِ » ويكسوك « رِدَاءَ الْبِرِّ » (إشَعْيَاء ٦١: ١٠). « إِذَا اضْطَجَعْتُمْ بَيْنَ الْحَظَائِرِ فَأَجْنِحَةُ حَمَامَةٍ مُغَشَّاةٌ بِفِضَّةٍ وَرِيشُهَا بِصُفْرَةِ الذَّهَبِ » (مزمور ٦٨: ١٣).

أنه سيدخلك إلى بيت الوليمة [207] وعلمه فوقك محبة (نشيد ٢: ٤). « إِنْ سَلَكْتَ فِي طُرُقِي، وَإِنْ حَفِظْتَ شَعَائِرِي » هكذا هو يعلن « أُعْطِيكَ مَسَالِكَ بَيْنَ هؤُلاَءِ الْوَاقِفِينَ » – أي بين الملائكة المحيطين بعرشه (زكريا ٣: ٧).

« كَفَرَحِ الْعَرِيسِ بِالْعَرُوسِ يَفْرَحُ بِكِ إِلهُكِ » (إشَعْيَاء ٦٢: ٥). « يُخَلِّصُ. يَبْتَهِجُ بِكِ فَرَحًا. يَسْكُتُ فِي مَحَبَّتِهِ. يَبْتَهِجُ بِكِ بِتَرَنُّمٍ » (صفنيا ٣: ١٧). والسماء والأرض ستشتركان في أغنية فرح الآب: « لأَنَّ ابْنِي هذَا كَانَ مَيِّتًا فَعَاشَ، وَكَانَ ضَالاًّ فَوُجِدَ ».

إلى هنا لا توجد نغمة نشاز في مثل المُخَلِّص لتوجد تنافرا في توافق مشهد الفرح. أمّا الآن فها المسيح يقدم عنصرا جديدا. عندما رجع الابن الضال إلى البيت كان الأخ الأكبر « فِي الْحَقْلِ. فَلَمَّا جَاءَ وَقَرُبَ مِنَ الْبَيْتِ، سَمِعَ صَوْتَ آلاَتِ طَرَبٍ وَرَقْصًا ». فدعا واحدا من الغلمان وسأله ما عسى أن يكون هذا. فقال له: أخوك جاء فذبح أبوك العجل المسمن لأنّه قبله سالما. فغضب ولم يُرد أن يدخل » (لوقا ١٥: ٢٥-٢٨). هذا الأخ الأكبر لم يكن يشارك أباه في جزعه وفي انتظاره للذي كان ضالاّ. ولذلك فهو لا يشارك الأب في فرحه برجوع الشارد. أصوات الفرح لا تثير في نفسه أي فرح أو سرور. وهو يسأل أحد الغلمان عن سبب الفرح فيثير الجواب حسدَه. إنّه لن يدخل ليرحب بأخيه الضال. إنّه يعتبر الكرامة المقدمة للضال إهانة لشخصه هو.

وعندما يخرج الأب ليعاتبه تنكشف كبرياؤه وخبث طويته. فهو يتحدث عن حياته في بيت أبيه على أنّها سلسلة من الخدمات التي لم يكافأ عليه، وحينئذ

يجعل مفارقة وضيعة بين هذا وبين الإكرام المقدم للابن العائد لتوّه. وهو يجعل الأمر واضحا أنّ خدمته كانت خدمة عبد لا [208] خدمة ابن. وعندما كان يجب أن يجد فرحا دائما في حضرة أبيه كان عقله منصبا في الربح الذي كان سيحصل عليه من حياة الحرص والاقتصاد. وكلامه يبرهن على أنّه لأجل هذا السبب تنازل عن ملذات الخطية. فإن كان هذا الأخ سيقتسم هبات أبيه فالابن الأكبر سيعتبر أنّه قد ظُلم. وهو يحقد على أخيه بسبب الإكرام المقدم له. وهو يبرهن بكل وضوح على أنّه لو كان في مكان أبيه لما قبل الابن الضال. بل إنّه لا يعتبره أخا، ولكنّه بكل فتور يتكلّم عنه قائلا: « ابْنُك ».

ومع ذلك فالأب يعامله بكل رِقة فيقول: « يَا بُنَيَّ أَنْتَ مَعي في كُلِّ حين، وَكُلُّ مَا لي فَهُوَ لَكَ ». مدى هذه السنين التي كان أخوك فيها شريدا ألَم يكن لك امتياز معاشرتي؟

لقد قدم الأب لابنيه مجانا وبسخاء كل ما من شأنه أن يكفل لهما السعادة. [209] ولا حاجة بالابن لأن يسأل عن هبة أو جزاء « كُلُّ مَا لي فَهُوَ لَكَ ». عليك فقط أن تؤمن بمحبتي وتأخذ الهبة المقدمة لك مجانا.

إنّ أحد الابنين قد انفصل عن البيت إلى حين إذ لم يكن يدرك محبة الأب. وها هو قد عاد الآن فاكتسح تيار الفرح كل فكر مزعج « لأَنَّ أَخَاكَ هذَا كَانَ مَيِّتًا فَعَاشَ، وَكَانَ ضَالًّا فَوُجِدَ ».

فهل أمكن للابن الأكبر أن يرى روحه الخسيسة الجاحدة؟ وهل رأى أنه مع كون أخيه قد عمل شرّا فإنه لا يزال أخاه؟ وهل تاب الأخ الأكبر عن حسده وقساوة قلبه؟ إنّ المسيح لم يقل شيئا عن هذا. لأنّ المثل كان لا يزال يمثل وكان على السامعين أن يقرّروا النتيجة بأنفسهم.

إنّ الابن الأكبر يرمز إلى اليهود غير التائبين في عهد المسيح والفريسيين في كل عصر الذين ينظرون بازدراء إلى من يعتبرونهم كالعشارين والخطاة. فلأنّهم هم أنفسهم لم يوغلوا بعيدا في طريق الرذيلة فقلوبهم مفعمة بالبرّ الذاتي. وقد التقى المسيح بهؤلاء المماحكين في ميدانهم. فكالابن الأكبر المذكور في المثل كانوا يتمتعون بامتيازات خاصة من اللّه. فقد ادّعوا أنّهم أبناءَ في بيت اللّه ولكنّ روحهم كانت روح الأُجَراء. كانوا يخدمون ليس بدافع المحبة بل على أمل الجزاء. وكان اللّه في نظرهم سيّدا صارما. وقد رأوا المسيح يدعو العشارين والخطاة لقبول هبة نعمته مجانا – الهبة التي كان أولئك الأحبار يرجون الحصول عليها عن طريق الكدح والأعمال التكفيرية – وقد استاءوا واغتاظوا. فإنّ رجوع الابن الضال الذي ملأ قلب الأب فرحا أثار الحسدَ في نفوسهم.

ونجد في المثل أنّ عتاب الأب للابن الأكبر كان هو نداء السماء الرقيق إلى الفريسيين: « كُلُّ مَا [210] هُوَ لِي فَهُوَ لَكَ » لا على أنه أجرة بل على أنه هبة. فيمكنكم قبولها كالابن الضال فقط على أنها هبة محبة الآب التي لا تستحقونها.

إنّ البرّ الذاتي فضلا عن كونه يقود الناس لأن يسيئوا تصوير اللّٰه فإنّه يجعلهم فاتري المحبة ومنتقدين لإخوتهم. إنّ الابنَ الأكبرَ في أنانيته وحسده وقف متأهبا لمراقبة أخيه وانتقاد كل عمل من أعماله واتّهامه بأقل تقصير. أراد أن يكتشف كل غلطة ويهوّل كل خطأ. وهكذا أراد أن يبرر روح الحقد والضغينة الذي فيه. وكثيرون اليوم يفعلون نفس هذا الشيء. ففي حين أن النفس تبذل أول جهودها لصد تيار التجارب فإنهم يقفون في صلابتهم وعنادهم يشتكون ويتهمون. قد يدّعون أنهم أولاد اللّٰه ولكنهم يتصرفون مدفوعين بروح الشيطان. إنّ هؤلاء المشتكين، بموقفهم الذي يقفونه من إخوتهم، يضعون أنفسهم في وضع لا يمكن للّٰه فيه أن يشرق عليهم بنور وجهه.

إن كثيرين يتساءلون دائما قائلين: « بِمَ أَتَقَدَّمُ إِلَى الرَّبِّ وَأَنْحَنِي لِلإِلهِ الْعَلِيِّ؟ هَلْ أَتَقَدَّمُ بِمُحْرَقَات، بِعُجُول أَبْنَاء سَنَة؟ هَلْ يُسَرُّ الرَّبُّ بِأُلُوف الْكِبَاشِ، بِرِبَوَات أَنْهَار زَيْت؟ ... قَدْ أَخْبَرَكَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا هُوَ صَالِحٌ، وَمَاذَا يَطْلُبُهُ مِنْكَ الرَّبُّ، إِلاَّ أَنْ تَصْنَعَ الْحَقَّ وَتُحِبَّ الرَّحْمَةَ، وَتَسْلُكَ مُتَوَاضِعاً مَعَ إِلهِكَ » (ميخا ٦: ٦-٨).

هذه هي الخدمة التي قد اختارها اللّٰه – « حَلَّ قُيُود الشَّرِّ. فَكَّ عُقَد النِّيرِ، وَإِطْلاَقَ الْمَسْحُوقِينَ أَحْرَارًا وَقَطْعَ كُلِّ نير ... وَأَنْ لاَ تَتَغَاضَى عَنْ لَحْمِكَ» (إِشَعْيَاءَ ٥٨: ٦، ٧). فعندما ترون أنفسكم كخطاة مخلصين فقط بمحبة أبيكم السماوي فستعطفون وتشفقون على من يتألمون بالخطية. ولن تعودوا تواجهون الشقاء والتوبة بالحسد واللوم. [211] فعندما يذوب الثلج، ثلج الأنانية من قلوبكم فستشاركون اللّٰه في عطفه وفي فرحه بخلاص الهالكين.

نعم إنّك تقول انك ابن اللّٰه فإذا كنت صادقا في هذا الادعاء فإنّ « أَخَاكَ» هو الذي « كَانَ مَيِّتًا فَعَاشَ، وَكَانَ ضَالاًّ فَوُجِدَ » إنّه مرتبط بك بأوثق الربط لأنّ اللّٰه يعتبره ابنا. فإن أنكرت صلة قرابتك له برهنت على أنك أجير في البيت ولست ابنا في أسرة اللّٰه.

ومع أنّك لا تشترك في الترحيب بالضال فالفرح سيستمر وسيكون للابن الراجع مكان إلى جوار الآب وفي عمل الآب. فالذي يُغْفَرُ لَهُ كثيرٌ يُحِبُّ كثيرا. أمّا أنت فستكون في الظلمة الخارجية، لأن « مَنْ لاَ يُحِبُّ لَمْ يَعْرِفِ اللّٰهَ، لأَنَّ اللّٰهَ مَحَبَّةٌ » (١يوحنا ٤: ٨). [212]

١٧

« اتْرُكْهَا هذِهِ السَّنَةَ أَيْضًا »

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في لوقا ١٣: ١-٩).

إنّ المسيح في تعليمه ربط دعوة الرحمة بالإنذار بالدينونة. فلقد قال: « لأَنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ لَمْ يَأْتِ لِيُهْلِكَ أَنْفُسَ النَّاسِ، بَلْ لِيُخَلِّصَ » (لوقا ٥٦:٩). « لأَنَّهُ لَمْ يُرْسِلِ اللهُ ابْنَهُ إِلَى الْعَالَمِ لِيَدِينَ الْعَالَمَ، بَلْ لِيَخْلُصَ بِهِ الْعَالَمُ » (يوحنا ٣: ١٧). أن رسالة رحمته في علاقتها بعدل الله ودينونته نجدها مصورة في مثل التينة العقيمة.

كان المسيح ينذر الشعب بمجيء ملكوت الله وقد وبخهم توبيخا صارما على جهلهم وعدم اكتراثهم. فالعلامات التي كانت تُرى في السماء منبئة عن الطقس سرعان ما كانوا يقرأونها، أما علامات الأزمنة التي أشارت بكل وضوح إلى رسالته فلم يميزوها.

ولكن الناس كانوا مستعدين، آنئذ كما هي الحال مع الناس اليوم، لأن يظنوا أنهم محاسيب السماء وأنّ رسالة التوبيخ موجهة إلى أناس آخرين. لقد أخبر السامعون يسوع عن حادثة سببت كثيرا من الاهتياج منذ عهد

قريب. ذلك أنّ بعض الإجراءات التي قام بها بيلاَطُسُ الْبُنْطِيُّ أغضبت الشعب. فقد حدث [213] في أورشليم شغبَ عام وحاول بيلاَطُسُ أن يقمعه بالعنف. ففي مرّة دخل جنوده تخوم الهيكل وقتلوا بعضَ الحجاج القادمين من الجليل في نفس الوقت الذي كانوا فيه يذبحون ذبائحهم. كان اليهود يعتبرون الكوارث أحكاما من اللّٰه تقع على أصحابها بسبب الخطية. والذين أخبروا عن هذه القسوة فعلوا ذلك وهم راضون عن أنفسهم في أعماقهم. فقد كانوا يرون أن حظّهم الحسن يبرهن على أنهم أفضل بكثير من غيرهم ولذلك فهم أكرم لدى اللّٰه من هؤلاء الجليليين. وكانوا ينتظرون أن يسمعوا من يسوع كلام الذم والإدانة لهؤلاء الناس الذين لم يكن لهم شكّ في أنّهم يستحقون هذا الجزاء الصارم.

ولم يجرؤ تلاميذ المسيح على التعبير عن آرائهم حتى يسمعوا رأي معلمهم. كان قد قدم لهم دروسا سديدة فيما يختص بالحكم على أخلاق الغير وقياس الجزاء بموجب حكمهم المحدود. ومع ذلك فقد كانوا ينتظرون أن المسيح سيحكم على هؤلاء الناس بأنهم خطاة أكثر من غيرهم. وما كان أعظم دهشتهم عندما سمعوا جوابه.

فإذ نظر المُخَلِّص إلى الجمع قال: « أَتَظُنُّونَ أَنَّ هؤُلاَءِ الْجَلِيلِيِّينَ كَانُوا خُطَاةً أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ الْجَلِيلِيِّينَ لأَنَّهُمْ كَابَدُوا مِثْلَ هذَا؟ كَلاَّ! أَقُولُ لَكُمْ: بَلْ إِنْ لَمْ تَتُوبُوا فَجَمِيعُكُمْ كَذلِكَ تَهْلِكُونَ » (لوقا ١٣: ٢، ٣). لقد كان القصد من هذه الكوارث المفزعة أن يتضعوا بقلوبهم ويتوبوا عن خطاياهم. كانت عاصفة الانتقام تتجمع وكانت موشكة أن تنقضّ على كل من لم يحتموا في المسيح.

وإذ كان يسوع يحدث تلاميذه والجمع نظر إلى الأمام بعين النبوة ورأى أورشليم محاطة بجيوش وسمع وقع أقدام الأمم وهم يصطفون على المدينة المختارة ورأى ألوفا فوق ألوف يهلكون في الحصار. وكثيرون من اليهود ذُبحوا في رواق الهيكل كأولئك الجليليين، وهم يقدمون ذبائحهم. لقد كانت الكوارث التي حلت [214] بالأفراد إنذارات من اللّٰه للأمة التي كانت مذنبة مثلهم. قال يسوع: « إِنْ لَمْ تَتُوبُوا فَجَمِيعُكُمْ كَذلِكَ تَهْلِكُونَ ». إنّ يوم إمهالهم تأخّر قليلا. فقد كان باقيا لهم زمان ليعرفوا ما هو لسلامهم.

ثم استطرد يقول: « كَانَتْ لوَاحِد شَجَرَةُ تِين مَغْرُوسَةٌ فِي كَرْمِه، فَأَتَى يَطْلُبُ فِيهَا ثَمَرًا وَلَمْ يَجِدْ. فَقَالَ لِلْكَرَّامِ: هُوَذَا ثَلاَثُ سِنِينَ آتِي أَطْلُبُ ثَمَرًا فِي هذِهِ التِّينَةِ وَلَمْ أَجِدْ. اِقْطَعْهَا! لِمَاذَا تُبَطِّلُ الأَرْضَ أَيْضًا؟ » (لوقا ١٣: ٦، ٧).

إن سامعي المسيح لم يجهلوا تطبيق أقواله. لقد تغنى داود عن إسرائيل كالكرمة التي نُقلت من مصر. كما سبق إِشَعْيَاء فكتب يقول: « إِنَّ كَرْمَ رَبِّ الْجُنُودِ هُوَ بَيْتُ إِسْرَائِيلَ، وَغَرْسَ لَذَّتِهِ رِجَالُ يَهُوذَا » (إِشَعْيَاء ٥: ٧). وأهل الجليل الذين جاءهم المسيح شُبهوا بشجرة التين في كرم الرب في داخل حدود رعايته وبركته الخاصة.

إنّ قصد اللّٰه نحو شعبه والإمكانيات المجيدة التي كانت أمامهم أوضحت في هذا القول الجميل: « فَيُدْعَوْنَ أَشْجَارَ الْبِرِّ، غَرْسَ الرَّبِّ لِلتَّمْجِيدِ » (إِشَعْيَاء ٦١: ٣). ويعقوب عند احتضاره قال مسوقاً بروح الإلهام عن ابنه الحبيب: « يُوسُفُ، غُصْنُ شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ، غُصْنُ شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ عَلَى عَيْنٍ. أَغْصَانٌ قَدِ ارْتَفَعَتْ فَوْقَ حَائِطٍ » ثم قال: « إِلهُ أَبِيكَ ... يُعِينُكَ ... الْقَدِيرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ » يباركك ببركات « السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَبَرَكَاتُ الْغَمْرِ الرَّابِضِ تَحْتُ » (تكوين ٤٩: ٢٢، ٢٥). وهكذا غرس اللّٰه شعبه ككرمة طيبة بجانب ينابيع الحياة. لقد جعله على « أَكَمَةٍ خَصِيبَةٍ » و « نَقَبَهُ وَنَقَّى حِجَارَتَهُ وَغَرَسَهُ كَرْمَ سَوْرَقَ » (إِشَعْيَاء ٥: ١، ٢). [215] « فَانْتَظَرَ أَنْ يَصْنَعَ عِنَبًا فَصَنَعَ عِنَبًا رَدِيئًا » (إِشَعْيَاء ٥: ٢). إنّ الناس في أيام المسيح كان تظاهرهم بالتقوى أعظم من تظاهر اليهود في العصور السالفة ولكنهم كانوا أكثر من أولئك تجرّدا من فضائل روح اللّٰه الجميلة. فثمار الخلق الثمينة التي جعلت حياة يوسف عطرة وجميلة جدّا لم يكن لها وجود في الأمة اليهودية.

واللّٰه في شخص ابنه ظلّ يطلب ثمراً ولم يجد. لقد كان إسرائيل مبطّلا للأرض. لقد كان نفس وجوده لعنة لأنّه شغل مكانا في الكرم كان يمكن أن تشغله شجرة مثمرة. لقد سلب من العالم البركات التي قصد اللّٰه أن يمنحها له. ولقد شوّه الإسرائيليون صورة اللّٰه وصفاته بين الأمم. إنّهم لم يكونوا عديمي النفع وحسب ولكنّهم كانوا معطّلا صريحا. لقد كان دينهم مضللا بدرجة كبيرة وتسبب في الهلاك بدل الخلاص.

نجد في المثل أنّ الكرام لا يشك في الحكم بقطع الشجرة لو بقيت بلا ثمر ولكنه يعرف اهتمام صاحب الكرم بالشجرة العقيمة ويشاركه في ذلك الاهتمام. فليس ما يبهجه أكثر من أن يراها نامية ومثمرة. وهو يجيب على رغبة صاحب الكرم بقوله: « اتْرُكْهَا هذِهِ السَّنَةَ أَيْضًا، حَتَّى أَنْقُبَ حَوْلَهَا وَأَضَعَ زِبْلاً. فَإِنْ صَنَعَتْ ثَمَرًا ... » (لوقا ١٣: ٨، ٩).

إنّ البستاني لا يرفض خدمة مثل هذه الشجرة التي لا رجاء فيها. إنّه يقف مستعدّا لأن يوليها عناية أعظم.[216] وهو سيجعل بيئتها أكثر نفعا وسيسخو عليها بكل اهتمام.

إنّ صاحب الكرم والكرّام متحدان في اهتمامهما بشجرة التين. وكذلك كان الآب والابن متّحدَين في حبهما للشعب المختار. كان المسيح يقول لسامعيه إنّ فرصا أكثر ستُعطى لهم. وكلّ وسيلة أمكن لمحبة اللّه أن تبتكرها ستعمل حتى يصيروا أشجار البرّ يثمرون ليباركوا العالم.

إنّ يسوع في هذا المثل لم يخبرهم عن نتيجة عمل الكرام. فعند هذا الحد قطع القصة. فقد كانت خاتمتها متوقفة على جموع الشعب الذين سمعوا أقواله. فقد قُدّم إليهم هذا الإنذار الخطير: « وَإِلاَّ فَفِيمَا بَعْدُ تَقْطَعُهَا ». كان يتوقف عليهم ما إذا كان الحكم الذي لا يُردّ سيقع عليهم. لقد كان يوم الغضب قريباً. وفي الكوارث التي وقعت على إسرائيل كان صاحب الكرم ينذرهم مقدّما رحمة منه بهلاك الشجرة العقيمة.

وإنّ نفس الإنذار يرنّ صداه عبر العصور حتى يصل إلينا في عصرنا هذا. فيا أيها القلب المهمل هل أنت شجرة عقيمة في كرم الرب؟ وهل ستسمع حكم الدينونة بعد قليل؟ وكم من الزمن ظللت تتمتع بعطاياه؟ وكم من الزمن ظل هو يراقب وينتظر أن يجد تجاوبا مع محبته؟ فإذ أنت مغروس في كرمه وتحت رعاية الكرّام الساهرة، أيّة امتيازات هذه التي لك! وكم مرّةً هزّت رسالة الإنجيل الرقيقة قلبك! لقد اتّخذت اسم المسيح وأنت، ظاهرَيّا، عضوٌ في الكنيسة التي هي جسده، ومع ذلك فأنت لا تحسّ باتصال حيّ بين قلبك وقلب المحبة الكبير. إنّ فيض حياته لا يجري فيك. وفضائل صفاته « ثَمَرُ الرُّوحِ » لا يُرى في حياتك. [217]

إنّ الشجرة العقيمة تتمتع بالمطر والشمس ورعاية الكرام. وهي تمتص الغذاء من التربة، ولكنّ أغصانها العقيمة تظلم الأرض بحيث أنّ النبتات المثمرة لا تستطيع أن تزدهر بسبب الظلال التي تلقيها عليها. وكذلك هبات اللّه التي يغدقها عليك لا تحمل بركة للعالم. أنت تسلب الآخرين الامتيازات التي لولاك لكانت تصير من نصيبهم.

إنّك تدرك وإن يكن بغير وضوح أنّك مُبطّل للأرض. ومع ذلك فاللّه في رحمته العظيمة لم يقطعك. إنّه لا ينظر إليك بفتور وهو لا ينصرف عنك في غير اكتراث ولا يتركك للهلاك. فإذ ينظر إليك يصرخ كما قد صرخ منذ [218] عصور طويلة مضت عن إسرائيل قائلا: « كَيْفَ أَجْعَلُكَ يَا أَفْرَايِمُ، أُصَيِّرُكَ يَا إِسْرَائِيلُ ... لاَ أُجْرِي حُمُوَّ غَضَبِي. لاَ أَعُودُ أُخْرِبُ أَفْرَايِمَ، لأَنِّي اللّهُ لاَ إِنْسَانٌ » (هوشَع ١١: ٨، ٩). إن المُخَلِّصَ الرحيم يقولَ عنك: أتركها هذه السنة أيضا حتى أنقب حولها وأضع زبلا.

بأي محبة لا تكلّ خدم المسيح إسرائيل في أثناء فترة الإمهال التي أضيفت لهم. فإذ كان على الصليب صلى قائلا: « يَا أَبَتَاهُ، اغْفِرْ لَهُمْ، لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ » (لوقا ٢٣: ٢٤). وبعد صعوده كُرز بالإنجيل في أورشليم أولا وهناك انسكب الرُّوح الْقُدُس. وهناك أعلنت كنيسة الإنجيل الأولى قوة المُخَلِّص المُقَام. وهناك استفانوس – إذ كان « وَجْهَهُ كَأَنَّهُ وَجْهُ مَلاَك » (أعمال ٦: ١٥). قدم شهادته وبذل حياته. فكل ما أمكن للسماء نفسها أن تقدمه مُنح لهم. قال المسيح: « مَاذَا يُصْنَعُ أَيْضًا لكَرْمِي وَأَنَا لَمْ أَصْنَعْهُ لَهُ؟ » (إشَعْيَاء ٥: ٤). وهكذا رعايته لك وتعبه لأجلك لم ينقصا بل زادا. وهو لا يزال يقول: « أَنَا الرَّبُّ حَارِسُهَا. أَسْقِيهَا كُلَّ لَحْظَة. لِئَلاَّ يُوقَعَ بِهَا أَحْرُسُهَا لَيْلاً وَنَهَارًا » (إشَعْيَاء ٢٧: ٣).

« إِنْ صَنَعَتْ ثَمَرًا، وَإِلاَّ فَفِيمَا بَعْدُ »

إنّ القلب الذي لا يستجيب للقوى الإلهية يتقسّى حتى لا يعود يحسّ بتأثير الرُّوح الْقُدُس، وحينئذ ينطق بالحكم: « اقْطَعْهَا! لِمَاذَا تُبَطِّلُ الأَرْضَ أَيْضًا؟ »

واليوم هو يدعوك قائلا: « ارْجِعْ يَا إِسْرَائِيلُ إِلَى الرَّبِّ إِلهِكَ ... أَنَا أَشْفِي ارْتِدَادَهُمْ. أُحِبُّهُمْ فَضْلاً ... أَكُونُ لإِسْرَائِيلَ كَالنَّدَى. يُزْهِرُ كَالسَّوْسَنِ، وَيَضْرِبُ أُصُولَهُ كَلُبْنَانَ ... يَعُودُ السَّاكِنُونَ فِي ظِلِّهِ يُحْيُونَ حِنْطَةً وَيُزْهِرُونَ كَجَفْنَةٍ ... مَنْ قِبَلِي يُوجَدُ ثَمَرُكِ » (هوشع ١٤: ١-٨). [219]

١٨

« أُخرُج إلى الطرق وَالسِيَاجَات »

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في لوقا ١٤: ١، ١٢-٢٤).

كان المُخَلِّص ضيفاً على مائدة أحد الفريسيين. كان يلبّي دعوة الأغنياء كالفقراء سواء بسواء، وكما كانت عادته ربط المشهد الذي أمامه بتعاليم الحق. كان العيد المقدس بين اليهود مرتبطا بكل مواسم أفراحهم القومية والدينية، وقد كان بالنسبة إليهم رمزا لبركات الحياة الأبدية، فالعيد العظيم الذي كانوا سيجلسون فيه مع إِبْرَاهيم واسحق ويعقوب، حينما يقف الأمم خارجا وينظرون بعيون مشتاقة إليهم، كان موضوعا أحبّوه وسُروا بالحديث عنه. أمّا درس الإنذار والتعليم الذي رغب المسيح في أن يقدمه لأولئك المدعوين فقد قدمه لهم في صورة مَثَل تحدث فيه عن عشاء عظيم. لقد ظن اليهود أن بركات اللّٰه للحياة الحاضرة والعتيدة هي وقفٌ عليهم وحدهم، فقد أنكروا رحمة اللّٰه للأمم، ولكنّ المسيح أبان لهم في هذا المثل أنهم هم أنفسهم كانوا في ذلك الحين يرفضون دعوة الرحمة، دعوة ملكوت اللّٰه. [220] وقد أراهم أنّ الدعوة التي قد استهانوا بها كانت مزمعة أن توجَّه

إلى من كانوا يحتقرونهم، الذين كانوا يُبعدون عنهم ثيابهم كما لو كانوا برصاً يجب تجنبهم.

إنّ الفريسي عند اختيار ضيوف وليمته راعى مصلحته الذاتية. قال له المسيح: « إِذَا صَنَعْتَ غَدَاءً أَوْ عَشَاءً فَلاَ تَدْعُ أَصْدِقَاءَكَ وَلاَ إِخْوَتَكَ وَلاَ أَقْرِبَاءَكَ وَلاَ الْجِيرَانَ الأَغْنِيَاءَ، لِئَلاَّ يَدْعُوكَ هُمْ أَيْضًا، فَتَكُونَ لَكَ مُكَافَاةٌ. بَلْ إِذَا صَنَعْتَ ضِيَافَةً فَادْعُ: الْمَسَاكِينَ، الْجُدْعَ، الْعُرْجَ، الْعُمْيَ، فَيَكُونَ لَكَ الطُّوبَى إِذْ لَيْسَ لَهُمْ حَتَّى يُكَافُوكَ، لأَنَّكَ تُكَافَى فِي قِيَامَةِ الأَبْرَارِ » (لوقا ١٤: ١٢-١٤).

وكان المسيح هنا يكرر التعليم الذي أعطاه للعبرانيين بواسطة موسى. ففي أعيادهم المقدسة أوصاهم قائلا: « فَيَأْتِي ... الْغَرِيبُ وَالْيَتِيمُ وَالأَرْمَلَةُ الَّذِينَ فِي أَبْوَابِكَ، وَيَأْكُلُونَ وَيَشْبَعُونَ » (تثنية ١٤: ٢٩). هذه المحافل كان يجب أن تكون دروساً للعبرانيين. فإذ كانوا قد تعلموا شيئا عن فرح الكرّم والسخاء الحقيقي، كان عليهم أن يرعوا الحزانى والفقراء على مدار السنة. وقد كان لهذه الأعياد [221] درس أوسع. فالبركات الروحية المعطاة للعبرانيين لم تكن وقفا عليهم وحدهم. فلقد أعطاهم اللّٰه خبز الحياة لكي يكسروه للعالم.

ولكنّهم لم ينجزوا هذا العمل. ولقد كان كلام المسيح توبيخا لهم على أنانيتهم. ولم يكن الفريسيون يستسيغون أقواله. فإذ كان واحد منهم يؤمّل أن يحوّل مجرى الحديث إلى ناحية أخرى صاح وهو يتظاهر بالتقوى قائلا: « طُوبَى لِمَنْ يَأْكُلُ خُبْزًا فِي مَلَكُوتِ اللّٰهِ ». كان هذا الرجل يتكلم بيقين عظيم كما لو كان واثقاً من أن له مكانا في الملكوت. إنّ موقفه شبيه بموقف من يفرحون لكونهم قد خلصوا بالمسيح في حين أنهم لا يتمّمون الشروط التي بموجبها قُدّم الوعد بالخلاص. لقد كانت روحُه كروح بلعام حين صلى قائلا: « لِتَمُتْ نَفْسِي مَوْتَ الأَبْرَارِ، وَلْتَكُنْ آخِرَتِي كَآخِرَتِهِمْ » (عدد ٢٣: ١٠). لم يكن الفريسي يفكر في أهليته للسماء بل في ما كان يرجو التمتع به في السماء. كان يقصد بملاحظته أن يحوّل أفكار الضيوف الذين كانوا في تلك الوليمة عن موضوع الواجب العملي. فكر في أن يحمل أفكارهم عبر الحياة الحاضرة إلى الزمن البعيد زمن قيامة الأبرار.

عرف المسيح ما كان يجول في قلب ذلك الدعيّ، فإذ ثبّت عليه عينيه كشف لتلك الجماعة صفة امتيازاتهم الحاضرة وقيمتها. فأبان لهم أنّ عليهم دورا يقومون به في نفس ذلك الحين حتى يكون لهم نصيب في الغبطة المستقبلة.

قال: « إِنْسَانٌ صَنَعَ عَشَاءً عَظِيمًا وَدَعَا كَثِيرِينَ ». وفي ساعة العشاء أرسل المضيف عبده إلى الضيوف المنتظر حضورهم برسالة تقول: « تَعَالَوْا لأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ أُعِدَّ ». ولكنهم أبدوا عدم اكتراث عجيبا: « فَابْتَدَأَ الْجَمِيعُ بِرَأْيٍ وَاحِدٍ يَسْتَعْفُونَ. قَالَ لَهُ الأَوَّلُ: إِنِّي اشْتَرَيْتُ حَقْلاً، وَأَنَا مُضْطَرٌّ أَنْ أَخْرُجَ وَأَنْظُرَهُ. [222] أَسْأَلُكَ أَنْ تُعْفِيَنِي. وَقَالَ آخَرُ: إِنِّي اشْتَرَيْتُ خَمْسَةَ أَزْوَاجِ بَقَرٍ، وَأَنَا مَاضٍ لأَمْتَحِنَهَا. أَسْأَلُكَ أَنْ تُعْفِيَنِي. وَقَالَ آخَرُ: إِنِّي تَزَوَّجْتُ بِامْرَأَةٍ، فَلِذلِكَ لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَجِيءَ » (لوقا ١٤: ١٨-٢٠).

ولكن ولا عذر من تلك الأعذار كان يستند إلى ضرورة حقيقية. فالرجل الذي قال: « أَنَا مُضْطَرٌّ أَنْ أَخْرُجَ وَأَنْظُرَهُ » أي حقله كان قد اشتراه قبل ذلك. فسرعته في الخروج لرؤيته كانت تُعزى إلى أنّ اهتمامه كان منصرفاً إلى ما قد اشتراه. والبقر أيضا كان صاحبها قد اشتراها. فامتحانها كان فقط لإرضاء اهتمام شاريها. أما العذر الثالث فلم يكن فيه أيّ مظهر من مظاهر الوجاهة أكثر من سابقيه. فحقيقة كون ذلك الضيف المقصود قد تزوج بامرأة ما كانت لتمنعه من الذهاب إلى الوليمة. ولكن كانت له خططه الخاصة للتمتع، وقد بدا له أن هذه الأمور أعظم جاذبية من الوليمة التي قد وعد بالذهاب إليها. لقد تعلّم أن يجد مسرته في وسط جماعات أخرى غير جماعة صاحب الوليمة. ولم يسأل إعفاءه، ولا حتى تظاهر بمظهر اللياقة في رفضه. إنّ قوله: « لاَ أَقْدِرُ » إنما كان ستارا يخفي خلفه هذا الحق: « لست أكترث للمجيء ».

كلَ هذه الأعذار تكشف عن عقل كان مشغولا من قبل. فهؤلاء الضيوف المقصودون شغلت مصالحُهم الأخرى كل تفكيرهم. والدعوة التي قد تعهّدوا بقبولها ألقوا بها جانباً. وقد أُهين ذلك الصديق الكريم بعدم اكتراثهم.

إنّ المسيح يرمز بالعشاء العظيم إلى البركات المقدمة في الإنجيل. والمؤونة ليست أقلّ من المسيح نفسه. فهو الخبز النازل من السماء، ومنه تفيض ينابيع الخلاص. وقد أعلن رسل الرب لليهود عن مجيء المُخَلِّص، وأشاروا إلى المسيح على أنّه « حَمَلُ اللّه الَّذي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ » (يوحنا ١: ٢٩). وفي الوليمة التي قد أعدها اللّه قدّم [223] لهم أعظم هبة يمكن أن تمنحها السماء – هبة هي أجَلّ من كل تقدير. وقد جهزت محبة اللّه الوليمة الغالية وأعدت مصادر لا تنفد. وقد قال المسيح: « إِنْ أَكَلَ أَحَدٌ مِنْ هذَا الْخُبْزِ يَحْيَا إِلَى الأَبَدِ » (يوحنا ٦: ٥١).

ولكن لكي يقبلوا الدعوة لوليمة الإنجيل عليهم أن يجعلوا اهتماماتهم العالمية ثانوية بالنسبة إلى الغرض الوحيد وهو قبول المسيح وبرّه. لقد قدم

اللّٰه للإنسان كلّ شيء وهو يريده أن يجعل خدمته قبل كل اعتبار أرضي أو أناني. وهو لا يمكنه أن يقبل قلبا منقسما. والقلب المشغول بمحبة الأرضيات لا يمكن تسليمه للّٰه.

إنّ هذا الدرس نافع لكل عصر. فعلينا أن نتبع حمل اللّٰه حيثما يذهب. علينا أن نختار قيادته وأن نقدر صحبته على صحبة كل الأصدقاء الأرضيين. فالمسيح يقول: « مَنْ أَحَبَّ أَبًا أَوْ أُمًّا أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي، وَمَنْ أَحَبَّ ابْنًا أَوِ ابْنَةً أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي » (متى ١٠: ٣٧).

عندما كان أفراد العائلة يجلسون حول المائدة ليكسروا خبزهم اليومي، كان كثيرون منهم في عهد المسيح يرددون القول: « طُوبَى لِمَنْ يَأْكُلُ خُبْزًا فِي مَلَكُوتِ اللّٰهِ ». ولكن المسيح أبان مقدار الصعوبة في إيجاد ضيوف للجلوس على المائدة التي قد أعدت بكلفة غير محدودة. والذين استمعوا لأقواله علموا أنهم قد استهانوا بدعوة الرحمة. ففي اعتبارهم كانت الأملاك العالمية والغنى والمسرات [224] تشغل كل تفكيرهم. فابتدأ الجميع برأي واحد يستعفون.

وكذلك الحال الآن. فالأعذار التي قدمت لرفض الدعوة للحضور إلى الوليمة تشمل جميع الأعذار لرفض دعوة الإنجيل. فالناس يعلنون أنهم لا يستطيعون أن يعرّضوا للخطر مطامعهم الدنيوية بالالتفات إلى مطاليب الإنجيل. إنّهم يعتبرون مصالحهم الزمنية أجلّ قدراً من الأمور الأبدية. فنفس البركات التي ينالونها من اللّٰه تصير حاجزاً يفصل بين نفوسهم وخالقهم وفاديهم. إنّهم لا يريدون أن يقاطعهم أحد في مطالبهم الدنيوية. وهم يقولون لرسول الرحمة: « أَمَّا الآنَ فَاذْهَبْ، وَمَتَى حَصَلْتُ عَلَى وَقْتٍ أَسْتَدْعِيكَ » (أعمال ٢٤: ٢٥). وآخرون يحتجّون بالصعوبات التي قد تنشأ في علاقاتهم الاجتماعية لو أطاعوا دعوة اللّٰه. فيقولون إنّهم لا يستطيعون أن يخرجوا على الوفاق الكائن بينهم وبين أقاربهم ومعارفهم. وهكذا يبرهنون على أنهم نفس الممثلين الذين قاموا بالدور المذكور في المثل. إنّ صاحب الوليمة يعتبر أعذارهم الواهية برهاناً على احتقارهم لدعوته.

إنّ الرجل الذي قال: « إِنِّي تَزَوَّجْتُ بِامْرَأَةٍ، فَلِذلِكَ لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَجِيءَ » يمثل فريقاً كبيراً من الناس. يوجد كثيرون ممن يسمحون لزوجاتهم أو يسمحن لأزواجهن بمنعهم أو منعهن من الالتفات إلى دعوة اللّٰه. فالزوج يقول: « إنّي لا أستطيع أن أطيع اقتناعاتي بالواجب في حين أنّ امرأتي تقاوم ذلك. فتأثيرها يجعل قيامي بهذا الواجب يغدو ضرباً من المستحيل ». والزوجة تسمع دعوة الرحمة القائلة: « تَعَالَوْا لأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ أُعِدَّ » فتقول: « أسألك أن تعفيني.

فزوجي يرفض دعوة الرحمة. وهو يقول إنّ عمله يقف عقبة في سبيله. فينبغي لي أن أسير مع زوجي ولذلك لا أقدر أن أجيء ». ثم إنّ الأولاد يظنون أنه [225] لا يُنتظر منهم أن يأتوا. فيقولون: « أَسْأَلُكَ أَنْ تُعْفِيَنِي ».

كل هؤلاء يرفضون دعوة المُخَلِّص لأنهم يخشون مغبّة الانقسام في محيط العائلة. ويظنون أنهم إذ يرفضون إطاعة اللّه فهم يضمنون للبيت السلام والنجاح، ولكن هذا تضليل. فالذين يزرعون أنانية يحصدونها. فإذ يرفضون محبة المسيح إنما يرفضون من يستطيع وحده أن يمنح المحبة البشرية الطهارة والثبات. فلن يخسروا السماء وحدها بل سيخفقون في التمتع بما قد ضحوا بالسماء في سبيله.

لقد علم صانع العشاء في المثل كيف عوملت دعوته، فإذ « غَضِبَ ... قَالَ لعَبْده: اخْرُجْ عَاجلاً إِلَى شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ وَأَزِقَّتِهَا، وَأَدْخِلْ إِلَى هُنَا الْمَسَاكِينَ وَالْجُدْعَ وَالْعُرْجَ وَالْعُمْيَ ».

لقد تحول صاحب الضيافة عن الذين رفضوا هبات سخائه ودعا فريقا من الناس لم يكونوا ممتلئين شبعا ولا كانوا يملكون بيوتا أو حقولا ... دعا [226] المساكين والجياع والذين يقدرون العطايا المقدمة. قال المسيح: « إِنَّ الْعَشَّارِينَ وَالزَّوَانِيَ يَسْبِقُونَكُمْ إِلَى مَلَكُوتِ اللّه » (متى ٢١: ٣١). مهما تكن تعاسة أفراد البشرية الذين يزدريهم الناس ويتحاشون لقاءهم فإنّهم ليسوا أحقر ولا أتعس من أن يلاحظهم اللّه ويحبهم. إنّ المسيح يتوق إلى أن يأتي إليه من أضنتهم الهموم والمنهوكون والمظلومون. وهو يشتاق إلى أن يمنحهم النور والفرح والسلام الذي لا يوجد في أي مكان آخر. إنّ أشرّ الخطاة هم موضوع عطفه وحبه العميق الغيور. وهو يرسل روحه القدوس ليحنّ إليهم بكل رقة محاولا اجتذابهم إلى ذاته.

إن العبد الذي أدخل المساكين والعمي قال لسيده: « قَدْ صَارَ كَمَا أَمَرْتَ، وَيُوجَدُ أَيْضًا مَكَانٌ. فَقَالَ السَّيِّدُ لِلْعَبْد: اخْرُجْ إِلَى الطُّرُق وَالسِّيَاجَات وَأَلْزِمْهُمْ بِالدُّخُول حَتَّى يَمْتَلِئَ بَيْتِي » (لوقا ١٤: ٢٢، ٢٣). هنا أشار المسيح إلى عمل الإنجيل خارج نطاق الدين اليهودي، في طرق العالم وسياجاته.

فإطاعة لهذا الأمر أعلن بولس وبرنابا قائلين لليهود: « كَانَ يَجِبُ أَنْ تُكَلَّمُوا أَنْتُمْ أَوَّلاً بِكَلِمَةِ اللّه، وَلكِنْ إِذْ دَفَعْتُمُوهَا عَنْكُمْ، وَحَكَمْتُمْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُسْتَحقِّينَ لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّة، هُوَذَا نَتَوَجَّهُ إِلَى الأُمَمِ. لأَنْ هكَذَا أَوْصَانَا الرَّبُّ: قَدْ أَقَمْتُكَ نُورًا لِلأُمَمِ، لتَكُونَ أَنْتَ خَلاَصًا إِلَى أَقْصَى الأَرْضِ. فَلَمَّا سَمِعَ الأُمَمُ ذلكَ كَانُوا يَفْرَحُونَ وَيُمَجِّدُونَ كَلِمَةَ الرَّبِّ. وَآمَنَ جَمِيعُ الَّذِينَ كَانُوا مُعَيَّنِينَ لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّة » (أعمال ١٣: ٤٦-٤٨).

لقد كانت رسالة الإنجيل التي أذاعها تلاميذ المسيح هي إعلان مجيئه الأول إلى العالم. لقد حملت إلى الناس الأخبار الطيبة عن الخلاص بالإيمان به. وقد أشارت مستقبلاً إلى مجيئه الثاني في المجد لفداء [227] شعبه. ووضعت أمام الناس الرجاء بالإيمان والطاعة، رجاء شركة ميراث القديسين في النور. وهذه الرسالة مقدمة للناس اليوم، وفي هذا الوقت يقترن بها إعلان المجيء الثاني للمسيح على أنّه قريب. والعلامات التي قدمها هو بنفسه عن مجيئه قد تمت، وبموجب تعليم كلمة اللّٰه يمكننا أن نعلم أن الرب على الأبواب.

إنّ يوحنا ينبيء في سفر الرؤيا عن إذاعة رسالة الإنجيل قبيل المجيء الثاني للمسيح. فهو يشاهد ملاكا طائرا « في وَسَط السَّمَاء مَعَهُ بشَارَةٌ أَبَديَّةٌ، ليُبَشِّرَ السَّاكنينَ عَلَى الأَرْض وَكُلَّ أُمَّة وَقَبيلَة وَلسَان وَشَعْب، قَائلاً بصَوْت عَظيم: « خَافُوا اللّٰهَ وَأَعْطُوهُ مَجْدًا، لأَنَّهُ قَدْ جَاءَتْ سَاعَةُ دَيْنُونَته » (رؤيا ١٤: ٦، ٧).

وفي النبوة نجد أنّ هذا الإنذار بالدينونة مع الرسَالة المرتبطة به يتبعه مجيء ابن الإنسان في سحب السماء. إنّ إعلان الدينونة هو إعلان بأن المجيء الثاني للمسيح هو على الأبواب. وهذا الإعلان يُسمّى البشارة الأبدية. وهكذا نجد أنّ الكرازة بالمجيء الثاني للمسيح، [228] الإعلان بأنّه قريب، هي جزء جوهري من رسالة الإنجيل.

إنّ الكتاب يعلن أنّه في الأيام الأخيرة سيكون الناس منهمكين في مطالبهم الدنيوية، في المسرّات وجمع المال. ولكنهم سيعمون عن الحقائق الأبدية. والمسيح يقول: « وَكَمَا كَانَتْ أَيَّامُ نُوح كَذلكَ يَكُونُ أَيْضًا مَجيءُ ابْن الإنْسَان. لأَنَّهُ كَمَا كَانُوا في الأَيَّام الَّتي قَبْلَ الطُّوفَان يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَتَزَوَّجُونَ وَيُزَوِّجُونَ، إلَى الْيَوْم الَّذي دَخَلَ فيه نُوحٌ الْفُلْكَ، وَلَمْ يَعْلَمُوا حَتَّى جَاءَ الطُّوفَانُ وَأَخَذَ الْجَميعَ، كَذلكَ يَكُونُ أَيْضًا مَجيءُ ابْن الإنْسَان » (متى ٢٤: ٣٧-٣٩).

فكذلكَ الحال اليوم. إنّ الناس يسَارعون وَراءَ الربحِ والتمتعات الأنانية كما لو لم يكن يوجد إله ولا سماء ولا أبدية. لقد قُدّم الإنذار في أيام نوح عن مجيء الطوفان لكي يفزع الناس وهم في شرورهم وليدعوهم إلى التوبة. فكذلك قُصد برسالة قرب مجيء المسيح أن توقظ الناس من انهماكهم في العالميات. فإنّ الغرض منها هو إيقاظهم للشعور بالحقائق الأبدية حتى ينتبهوا إلى الدعوة لمائدة الرب.

يجب أن تُقدَّم دعوة الإنجيل لكل العالم « كُلَّ أُمَّة وَقَبيلَة وَلسَان وَشَعْب » (رؤيا ١٤: ٦). فيجب أن تنير آخر رسالة للإنذار والرَحمَة أرجَاء العالم كلّها بمجدها. فيجب أنها تصل إلى كل طبقات الناس، الأغنياء والفقراء والعال

والدون. يقول المسيح: « اخْرُجْ إِلَى الطُّرُقِ وَالسِّيَاجَاتِ وَأَلْزِمْهُمْ بِالدُّخُولِ حَتَّى يَمْتَلِئَ بَيْتِي ».

إنّ العالم هَلَك لحاجته إلى الإنجيل. فيوجد جوع إلى كلمة اللّٰه. وقليلون هم الذين يكرزون بالكلمة خالصة من التقاليد البشرية. ومع أن الناس عندهم الكتاب بين أيديهم فهم لا يحصلون على البركة التي قد أودعها اللّٰه فيه لأجلهم. والرب يدعو خدامه ليحملوا رسالته إلى الشعب. [229] وكلمة الحياة الأبدية يجب تقديمها لمن يهلكون في خطاياهم.

وفي الأمر بالخروج إلى الطرق والسياجات يعيِّن المسيح عمل كل من يدعوهم ليخدموا باسمه. إنّ العالم كله هو الحقل الذي يجب أن يعمل فيه خدام المسيح. والأسرة البشرية كلها يستوعبها محفلهم. والرب يشتهي أن تصل كلمة نعمته إلى أعماق كل نفس.

ينبغي أن يتم هذا عن طريق العمل الفردي إلى حدّ كبير. هذه كانت طريقة المسيح. فالجانب الأكبر من عمله كان يتكون من مقابلات فردية وكان له اعتبار مخلص لمستمع واحد. وعن طريق نفس واحدة كانت الرسالة تمتد في الغالب إلى ألوف.

وينبغي ألاّ ننتظر حتى يأتينا الناس، بل علينا أن نذهب إليهم حيث هم. فعندما يُكرز بالكلمة من المنبر يكون العمل قد بدأ. ويوجد كثيرون من الناس الذين لا يمكن أن يصل الإنجيل إليهم ما لم يُحمل إليهم.

إنّ الدعوة إلى الوليمة قُدِّمت أولا إلى الشعب اليهودي، الشعب الذي قد دُعي ليقفوا معلمين وقادة بين الناس، الشعب الذي كان بين يديهم الأسفار النبوية منبئة بقدوم المسيح، والذين قد سُلمت إليهم الخدمة الرمزية لترمز إلى رسالته. فلو كان الكهنة والشعب قد التفتوا إلى الدعوة لكانوا اشتركوا مع رسل المسيح في تقديم دعوة الإنجيل إلى العالم. لقد أرسل الحق إليهم لكي يذيعوه. فلما رفضوا الدعوة قُدمت إلى المساكين والجدع والعرج والعمي. وقد قبل العشارون والخطاة الدعوة. وعندما ترسل دعوة الإنجيل إلى الأمم فهناك خطة العمل نفسها. فيجب أن ترسل الرسالة أولا « إِلَى الطُّرُقِ » – الناس الذين يقومون بنصيب فعَّال في العمل، إلى المعلمين والقادة بين الشعب. [230]

ليتذكّر رسل الرب هذا الأمر. فبالنسبة إلى رعاة الرعية، المعلمين المعينين من اللّٰه ينبغي أن يأتي ككلمة يجب الالتفات إليها. والذين يُحسبون

ضمن الطبقات الراقية في المجتمع ينبغي البحث عنهم بمحبة ورقة وتقدير أخوي. فالناس الذين عندهم قوة جبارة للاختراع والبصيرة العلمية، والعباقرة، ومعلمو الإنجيل الذين لم تعبأ عقولهم بالحقائق الخاصة بهذا الوقت – هؤلاء ينبغي أن يكونوا أول من يسمعون النداء. فيجب أن تقدم إليهم الدعوة.

وتوجد خدمة يجب تقديمها للأثرياء. فهم بحاجة لإيقاظهم لمعرفة مسؤوليتهم كمن قد أودعت بين أيديهم هبات السماء. إنّهم بحاجة إلى تذكيرهم بأنهم لابد أن يقدموا حسابا للذي سيدين الأحياء والأموات. إنّ الرجل الغني يحتاج إلى خدمتك له بمحبة اللّه وخوفه. إنّه في غالب الأحيان يتّكل على غناه ولا يحسّ بخطره. إنّ عيني ذهنه تحتاجان إلى أن تتجها إلى الأشياء ذات القيمة الباقية. وهو يحتاج إلى أن يعترف بسلطة الصلاح الحقيقي الذي يقول: « تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَال، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ. احْمِلُوا نِيرِي عَلَيْكُمْ وَتَعَلَّمُوا مِنِّي، لأَنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعُ الْقَلْبِ، فَتَجِدُوا رَاحَةً لِنُفُوسِكُمْ. لأَنَّ نِيرِي هَيِّنٌ وَحِمْلِي خَفِيفٌ » (متى ١١: ٢٨-٣٠).

إنّ الذين يحتلّون مراكز سامية في العالم لأجل علمهم أو غناهم أو عملهم قلّما يحدثهم أحد حديثاً فردياً فيما يختص بصالح نفوسهم. وكثيرون من الخدام المسيحيين يترددون في الاقتراب من هذه الطبقات. ولكن هذا ما لا يجب أن يكون. فإذا كان هناك إنسان موشكا على الغرق فإننا لا نقف جانبا ونتركه يغرق لكونه محاميا أو تاجرا أو قاضيا. فإذا رأينا أشخاصا يسرعون إلى هوة فإننا لا نتردد في صدهم وإبعادهم عنها مهما يكن مركزهم أو عملهم. وكذلك ينبغي ألاّ نتردد في إنذار الناس من الخطر الذي يهدد نفوسهم. [231]

ينبغي ألاّ نهمل أحدا من الناس بسبب انصرافهم الظاهري إلى الأمور الدنيوية. كثيرون ممن يحتلون مراكز سامية في المجتمع هم خائرو القلوب وقد سئمت نفوسهم الأباطيل. إنهم يتوقون إلى سلام لم يحصلوا عليه. ففي أرقى طبقات المجتمع يوجد من يجوعون ويعطشون إلى الخلاص. وكثيرون كان يمكن أن يحصلوا على العون لو أنّ خدام الرب يقتربون منهم شخصياً بأسلوب لطيف وبقلب صيرته محبّة المسيح رقيقا.

إنّ نجاح رسالة الإنجيل لا يتوقف على فصاحة الكلام أو الشهادات البليغة أو الحجج الدامغة. ولكنّه يعتمد على بساطة الرسالة وموافقتها للنفوس الجائعة إلى خبز الحياة « مَاذَا يَنْبَغِي أَنْ أَفْعَلَ لِكَيْ أَخْلُصَ؟ » – هذا هو ما تحتاجه النفس. [232]

يمكن الوصول إلى ألوف الناس بأبسط الطرق المتواضعة. ذوي العقول الراجحة الذين يُنظر إليهم على أنّهم موهوبون أكثر من كل رجال ونساء العالم، في غالب الأحيان ينتعشون عندما يسمعون كلاما بسيطا من فم إنسان يحب اللّه ويستطيع أن يتحدث عن تلك المحبة على سجّيته كما يتحدث الرجل الدنيوي عن الأشياء التي تهمه جدا.

في كثير من الأحيان يكون الكلام المجهز والمدروس جيدا قليل التأثير. ولكن التعبير المُخلص الأمين الذي ينطق به أيّ ابن أو أية ابنة من أولاد اللّه ببساطة طبيعية يمكَن أن تكون له قوة على فتح مغَاليق القلوبً التي ظلت طويلا مغلقة في وجه المسيح ومحبته.

ليذكر خادم المسيح أنّ ليس عليه أن يعمل بقوته. فليتمسك بعرش اللّه وهو مؤمن بقدرته على أن يخلص. فليجاهد مع اللّه في الصلاة، وحينئذ ليعمل بكل المساعدات التي منحه اللّه إياها. والرُّوح الْقُدُس مقدم على أنه كفايته. والملائكة الخادمون سيكونون إلى جواره ليؤثروا في القلوب.

لو كان الرؤساء والمعلمون في أورشليم قد قبلوا الحق الذي جاء به المسيح، فكم كانت مدينتهم تصير مركزا كرازيا عظيما! وكان يمكن لإسرائيل المرتدّ أن يرجع إلى اللّه. وكان يمكن حشد جيش عظيم للرب. وبأي سرعة كان يمكنهم أن يحملوا الإنجيل إلى كل أنحاء العالم! وهكذا الآن، لو أمكن ربح الناس ذوي النفوذ والقدرة العظيمة على العمل للمسيح، فما كان أعظم العمل الذي كان يمكن أن يتم بواسطتهم في إقامة الساقطين وجمع الشاردين ونشر بشارة الخلاص إلى أقصى مكان. كان يمكن أن تقدم الدعوة سريعا ويُجمع الضيوف إلى وليمة الرب.

ولكن ينبغي ألاّ نفكر فقط في الرجال العظام والموهوبين لنهمل الطبقات الفقيرة. إنّ المسيح يعلم رسله أن يذهبوا أيضا إلى من هم في الطرق والسياجات، إلى المساكين وأدنياء الأرض. ففي رحاب المدن العظيمة وأزقتها، وفي الطرق الموحشة في الأرياف، [233] توجد عائلات وأفراد – ربما يكونون غرباء في أرض غريبة – هؤلاء لا توجد صلة تربطهم بكنيسة، وفي وحدتهم ينتهي بهم الأمر إلى أن يحسّوا بأنّ اللّه قد نسيهم. إنهم لا يعلمون ما الذي ينبغي أن يفعلوه لكي يخلصوا. وكثيرون منهم غائصون في الخطية، وكثيرون في ضيق. إنّ الآلام والعوز وعدم الإيمان واليأس تضغط عليهم. والمرض من كل نوع يؤلم أجسادهم ويعذب نفوسهم. إنّهم يتوقون

للحصول على عزاء في متاعبهم وضيقاتهم، والشيطان يجربهم ليجدوا العزاء في الشهوات والملذات التي تقود إلى الدمار والموت. إنّه يقدم لهم تفاح سدوم الذي يستحيل إلى رماد على شفاه آكليه. إنّهم يزِنون فضةً لغير خبز وتعبهَم لغير شبع.

علينا أن نرى في هؤلاء الناس المتألمين، أولئك الذين أتى المسيح ليخلصهم. ودعوته إليهم هي هذه: « أَيُّهَا الْعطَاشُ جَميعاً هَلُمُّوا إِلَى الْميَاه وَالَّذي لَيْسَ لَهُ فضَّةٌ تَعَالُوا اشْتَرُوا وَكُلُوا. هَلُمُّوا اشْتَرُوا بِلاَ فضَّة وَبِلاَ ثَمَن خَمْراً وَلَبَناً. لمَاذَا تَزِنُونَ ... اسْتَمعُوا لي اسْتمَاعاً وَكُلُوا الطَّيِّبَ وَلْتَتَلَذَّذْ بِالدَّسَم أَنْفُسُكُمْ. أَميلُوا آذَانَكُمْ وَهَلُمُّوا إِلَيَّ. اسْمَعُوا فَتَحْيَا أَنْفُسُكُمْ » (إِشَعْيَاء ٥٥: ١-٣).

لقد قدم اللّه أمرا خاصا حتى نهتم بالغريب المنبوذ والنفوس المسكينة الضعيفة في القوة الأدبية. إنّ كثيرين ممّن يبدو عليهم أنهم لا يكترثون إطلاقا للأمور الدينية هم في أعماقهم يتوقون إلى الراحة والسلام. ومع أنهم قد يكونون غائصين في أعماق الخطية فمن الممكن إنقاذهم.

وعلى خدام المسيح أن يتمثلوا به. فإذ كان يجول من مكان إلى مكان كان يعزّي المتألمين ويشفي المرضى. وحينئذ عرض عليهم الحقائق العظيمة الخاصة بملكوته. هذا هو عمل تلاميذه. فعندما تُخفّف آلامَ الجسم ستجدُ وسائلَ لخدمة حاجات الروح. فيمكنك أن توجّه الأنظار إلى المُخَلِّص المرفوع وتخبر الناس عن محبة [234] الطبيب العظيم، الذي وحده له القوة ليشفي.

قل للمساكين اليائسين الذين قد ضلوا أن لا حاجة بهم إلى أن ييأسوا. فمع أنهم قد أخطأوا ولم يبنوا خُلُقا صالحا فاللّه يسرّ بأن يردّ لهم بهجة خلاصه. إنّه يسرّ بأن يأخذ المادة التي يبدو أن لا رجاء فيها، والذين قد استخدمهم الشيطان، ويجعلهم (اللّه) رعايا نعمته. إنّه يسرّ بأن يخلصهم من الغضب المزمع أن ينصب على العصاة. قل لهم أنه يوجد شفاء وتطهير لكل نفس. ويوجد لهم مكان حول مائدة الرب. إنّه ينتظر ليرحب بهم.

والذين يخرجون إلى الطرق والسياجات سيجدون أناسا آخرين تختلف صفاتهم عن سابقيهم اختلافا بيّناً. هم بحاجة إلى خدمتهم. فيوجد من يعيشون بموجب كل النور المعطى لهم ويخدمون اللّه أفضل خدمة بحسب ما يعرفون. ولكنهم يدركون أنه يوجد عمل عظيم يجب أن يُعمل لأجلهم ولأجل من حولهم. إنهم تائقون للحصول على المزيد من معرفة اللّه، ولكنهم فقط بدأوا يشاهدون بصيص نور أعظم. إنهم يصلّون بدموع إلى اللّه حتى يرسل إليهم البركة التي

يرونها بالإيمان من بعيد. ففي وسط شر المدن العظيمة يوجد كثيرون من هؤلاء الناس. وكثيرون منهم هم في ظروف وضيعة جداً، وبسبب هذا لا يلاحظ العالم وجودهم. ويوجد كثيرون لا يعرف الخدام أو الكنائس شيئا عنهم، ولكنهم شهود الرب في أماكنهم الوضيعة التعسة. ربما كان عندهم قليل من النور فيما مضى وفرص قليلة للتهذيب المسيحي، ولكن في وسط العري والجوع والبرد يحاولون أن يخدموا الآخرين. فليبحث من هم وكلاء على نعم اللّه العديدة عن هذه النفوس ويزوروا بيوتهم. وبقوة الرُّوح الْقُدُس ليخدموا حاجاتهم. ادرسوا معهم الكتاب وصلوا معهم بتلك البساطة التي يلهمكم بها الرُّوح الْقُدُس. إنّ المسيح سيمنح خدامه رسالة تكون [235] كخبز السماء للنفس. وستنتقل البركة الثمينة من قلب إلى قلب ومن عائلة إلى عائلة.

إنّ الأمر المقدم في المثل والقائل: « أَلْزِمْهُمْ بِالدُّخُول » كثيرا ما أُسيء تفسيره. فلقد أُعتبر وكأنه يعلمنا أن نرغم النَاس على قبول الإنجيل. ولكنه يدل بالحري على الإلحاح بالدعوة وفاعلية المؤثرات المقدمة. إنّ الإنجيل لا يلجأ إلى العنف بتاتا في الإتيان بالناس إلى المسيح. ورسالته هي هذه: « أَيُّهَا الْعِطَاشُ جَمِيعًا هَلُمُّوا إِلَى الْمِيَاه » (إِشَعْيَاء ٥٥: ١). « الرُّوحُ وَالْعَرُوسُ يَقُولاَن: تَعَالَ! ... وَمَنْ يُرِدْ فَلْيَأْخُذْ مَاءَ حَيَاةٍ مَجَّانًا » (رؤيا ٢٢: ١٧). فقوة محبة اللّه ونعمته تقنعنا بالمجيء.

يقول المُخَلِّص: « هَنَذَا وَاقِفٌ عَلَى الْبَاب وَأَقْرَعُ. إِنْ سَمِعَ أَحَدٌ صَوْتِي وَفَتَحَ الْبَابَ، أَدْخُلُ إِلَيْه وَأَتَعَشَّى مَعَهُ وَهُوَ مَعِي » (رؤيا ٣: ٢٠). إنّه لا يُصَدّ بالاحتقار ولا يُنحَّى بالتهديد، ولكنه على الدوام يطلب الضالّين قائلا: « كَيْفَ أَجْعَلُكَ؟ » (كيف أتخلى عنك؟) (هوشع ١١: ٨). فمع أن محبته يصدها القلب العنيد فإنه يعود ليتوسل بقوة أعظم: « هَنَذَا وَاقِفٌ عَلَى الْبَاب وَأَقْرَعُ ». إنّ قوة محبته الجاذبة تلزم النفوس بالدخول. فيقولون للمسيح: « لُطْفُكَ يُعَظِّمُني » (مزمور ١٨: ٣٥).

إنّ المسيح منح رسله نفس المحبة المشتاقة التي هي له نحو الهالكين. فيجب ألاّ نكتفي بالقول: « تعالوا » فيوجد من يسمعون الدعوة، ولكن آذانهم غلفاء بحيث لا تفهم معناها. وعيونهم عمياء بحيث لا ترى أي شيء صالح مذخورا لهم. إن كثيرين مدركون انحطاطهم العظيم، فهم يقولون: أنا لست أهلا لقبول العون. فاتركني وشأني. ولكن ينبغي للخدام ألا يكفّوا عن عملهم. ففي رقة وعطف وحبَ أمسِكوا بالخائرين والعاجزين. واعطوهم من شجاعتكم

ورجائكم وقوتكم. ألزموهم بالدخول بكل رفق [236] « وَارْحَمُوا الْبَعْضَ مُمَيِّزِينَ، وَخَلِّصُوا الْبَعْضَ بِالْخَوْفِ، مُخْتَطِفِينَ مِنَ النَّارِ » (يهوذا ٢٢، ٢٣).

إذا كان خدامَ اللّٰه يسيرون معه بإيمان فهو سيضفي على رسالتهم قوة. فسيكونون قادرين على تقديم محبته وإظهار الخطر الناشئ عن رفض نعمة اللّٰه بحيث يلزم الناس لقبول الإنجيل. وسيجري المسيح معجزات عجيبة إذا كان الناس يقومون بدورهم المعطى لهم من اللّٰه. وسيحدث في قلوب الناس اليوم تغيير عظيم كما حدث في سابق العصور. لقد افتُديَ يوحنا بنيان من التجديف والعربدة، كما افتُديَ جون نيوتن من المتاجرة في الرقيق ليذيعا رسالة المُخَلِّص الممجد. ويمكن أن يُقتَدى أمثال بنيان ونيوتن من بين الناس اليوم. فعن طريق الوكلاء البشريين الذين يتعاونون مع القوة الإلهية يمكن أن يُسترَد كثيرون من الضالين المساكين، وكل منهم في دوره سيسعى لرد الإنسان إلى صورة اللّٰه. يوجد من لم تكن لديهم غير فرص قليلة جدا، ممن ساروا في طرق الضلال لأنهم لم يكونوا يعرفون طريقا أفضل وممن سيشرق عليهم النور، فكما قال المسيح لزكا: « يَنْبَغِي أَنْ أَمْكُثَ الْيَوْمَ فِي بَيْتِكَ » (لوقا ١٩: ٥) فستأتي الكلمة إليهم، ومن كان يظن أنهم خطاة قساة القلوب سيتبرهن أن قلوبهم رقيقة كقلوب الأطفال لأن المسيح قصد أن يلاحظهم. وكثيرون سيأتون من أشنع بؤر الضلال والخطية ويأخذون مكان أولئك الذين كانت لهم الفرص والامتيازات ولكنهم لم يقدروها. وسيحسبون مختاري اللّٰه المنتخبين الكرماء. وعندما يأتي المسيح في ملكوته سيقفون بالقرب من عرشه.

ولكن: « اُنْظُرُوا أَنْ لاَ تَسْتَعْفُوا مِنَ الْمُتَكَلِّمِ » (عبرانيين ١٢: ٢٥). فلقد قال يسوع: « إِنَّهُ لَيْسَ وَاحِدٌ مِنْ أُولَئِكَ الرِّجَالِ الْمَدْعُوِّينَ يَذُوقُ عَشَائِي » (لوقا ١٤: ٢٤). إنهم قد رفضوا الدعوة، ولذلك فلن تُقدّم الدعوة ثانية لواحد منهم. إنّ اليهود إذ رفضوا المسيح كانوا يقسّون قلوبهم ويسلمون أنفسهم لسلطان الشيطان بحيث [237] غدا من المستحيل عليهم أن يقبلوا نعمته. وكذلك الحال الآن فإذا لم نقدّر محبة اللّٰه ونجعلها تصير مبدأ ثابتا لتليين قلوبنا وإخضاع نفوسنا فنحن هالكون لا محالة. إنّ الرب لا يمكنه أن يقدم إعلانا لمحبته أعظم ممّا قدّم. فإذا لم تُخضع محبة يسوع القلب فلا توجد وسائط أخرى بها يمكن الوصول ألينا.

إنّك في كل مرة ترفض الإصغاء لرسالة الرحمة فأنت تشدد نفسك في عدم الإيمان. وفي كل مرة لا تفتح باب قلبك للمسيح تزداد شيئا فشيئا عدم

رغبتك في الإصغاء لصوت المتكلم. إنك تقلل من فرصة استجابتك لآخر دعوات الرحمة. لا تجعل هذا القول يصدق عليك كما قيل عن إسرائيل قديما: « أَفْرَايِمُ مُوثَقٌ بالأَصْنَام. اتْرُكُوهُ » (هوشع ٤: ١٧). ولا تجعل المسيح يبكي عليك كَما قد بكَى على أورشليم قائلا: « كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا. « هُوَذَا بَيْتُكُمْ يُتْرَكُ لَكُمْ خَرَابًا » (لوقا ١٣: ٣٤، ٣٥).

إننا عائشون في زمن تُسمع فيه آخر رسائل الرحمة وآخر دعوة مقدمة لأولاد الناس. إنّ الأمر القائل: « هُوَذَا بَيْتُكُمْ يُتْرَكُ لَكُمْ خَرَابًا » يصل الآن إلى غاية إتمامه الأخير. إنّ دعوة المسيح ستُقدّم لكل نفس. والرسل يقولون: « تَعَالَوْا لأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ أُعِدَّ » إنّ ملائكة السماء مازالوا يعملون متعاونين مع الخدام البشريين. والرُّوح القُدُس لا يزال يقدّم كل مرغّب لإقناعك بالمجيء. والمسيح يراقب لعلّه يجد علامة تدل على رفع المغاليق وفتح باب قلبك لدخوله. والملائكة ينتظرون أن ينقلوا إلى السماء الأنباء السارة بأن خاطئا ضالاّ آخر قد وُجد. وأجناد السماء ينتظرون وهم على أتم استعداد لأن يعزفوا على قيثاراتهم ويغنّوا أغاني الفرح لأن نفسا أخرى قد قبِلت الدعوة إلى وليمة الإنجيل. [243]

١٩

مِقيَاس الغفران

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في متى ١٨: ٢١-٣٥).

تقدم بطرس بهذا السؤال إلى المسيح قائلا: « كَمْ مَرَّةً يُخْطِئُ إِلَيَّ أَخِي وَأَنَا أَغْفِرُ لَهُ؟ هَلْ إِلَى سَبْعِ مَرَّات؟ » (متى ١٨: ٢١). حدد معلمو اليهود المرّات التي فيهَا يمارس الغفران بثلاثً مرّات إذ يذنب الإنسان إلى صاحبه. أما بطرس فإذ حسب أنّه ينفّذ تعليم المسيح فكر في أن يزيد عدد المرات إلى سبع إذ أن ذلك العدد يرمز إلى الكمال. ولكن المسيح علَّم أنه ينبغي لنا ألاّ نكلّ أبدا من الغفران. فقَالَ لَهُ: « لاَ أَقُولُ لَكَ إِلَى سَبْعِ مَرَّات، بَلْ إِلَى سَبْعِينَ مَرَّةً سَبْعَ مَرَّات ».

وحينئذ أبان الأساس الحقيقَي الذَّي لأجلَه يُمنح الغفران، والخطر من مراعاة روح عدم المسامحة. فقد تحدث في مَثَل عن معاملة ملك لموظفيه الذين أداروا شؤون حكومته. فبعض أولئك الموظفين كانوا قد تسلموا مبالغ ضخمة من المال تخص الدولة. فإذ فحص الملك في أمر تصرفهم في تلك الأمانة المودعة عندهم أُحضر إليه رجلٌ ظهر من حسابه أنه مدين لمولاه بمبلغ باهظ من المال قدره عشرة آلاف وزنة. ولم يكن [244] لديه مالٌ به يوفي الدين، وبحسب العادة المُتّبعة حينئذ أمر الملك بأن يباع هو وكل ما له حتى يوفي الدَّيْن. ولكن ذلك الرجل المرتعب خَّر عند رجلي سيده وتوسل إليه قائلا: « تَمَهَّلْ عَلَيَّ فَأُوفِيَكَ الْجَمِيعَ» (متى ١٨: ٢٦). فتحنن سيد ذلك العبد وأطلقه وترك له الدَّيْن.

« وَلَمَّا خَرَجَ ذلكَ الْعَبْدُ وَجَدَ وَاحِدًا منَ الْعَبيد رُفَقَائه، كَانَ مَدْيُونًا لَهُ بمئَة دينَار، فَأَمْسَكَهُ وَأَخَذَ بعُنُقه قَائلاً: أَوْفني مَا لي عَلَيْكَ. فَخَرَّ الْعَبْدُ رَفيقُهُ عَلَى قَدَمَيْه وَطَلَبَ إِلَيْه قَائلاً: تَمَهَّلْ عَلَيَّ فَأُوفيكَ الْجَميعَ. فَلَمْ يُرِدْ بَلْ مَضَى وَأَلْقَاهُ في سجْن حَتَّى يُوفيَ الدَّيْنَ. فَلَمَّا رَأَى الْعَبيدُ رُفَقَاؤُهُ مَا كَانَ، حَزنُوا جدًّا. وَأَتَوْا وَقَصُّوا عَلَى سَيِّدهمْ كُلَّ مَا جَرَى. فَدَعَاهُ حينَئذ سَيِّدُهُ وَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْعَبْدُ الشِّرِّيرُ، كُلُّ ذلكَ الدَّيْن تَرَكْتُهُ لَكَ لأَنَّكَ طَلَبْتَ إِلَيَّ. أَفَمَا كَانَ يَنْبَغي أَنَّكَ أَنْتَ أَيْضًا تَرْحَمُ الْعَبْدَ رَفيقَكَ كَمَا رَحمْتُكَ أَنَا؟ وَغَضبَ سَيِّدُهُ وَسَلَّمَهُ إِلَى الْمُعَذِّبينَ حَتَّى يُوفيَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ عَلَيْه » (متى ١٨: ٢٨-٣٤).

هذا المثل يقدم التفاصيل اللازمة لتكملة الصورة ولكن التي ليس لها ما يماثلها في معناها الروحي. فينبغي عدم توجيه الالتفات إليها. توجد بعض الحقائق العظيمة مشروحة فلنوجه تفكيرنا إلى هذه الحقائق.

إن العفو الصادر من هذا الملك يرمز إلى غفران اللّٰه لكل خطية. فالمسيح يُرمز إليه بالملك الذي إذ تحنن سامح عبده وترك له الدين. لقد كان الإنسان واقعا تحت دينونة الشريعة التي انتُهكت. ولم يمكنه أن يخلص نفسه فلهذا السبب جاء المسيح إلى العالم وسربل لاهوته بلباس الناسوت وبذل نفسه، البار من أجل الأثمة. لقد أسلم نفسه [245] لأجل خطايانا وهو يقدم عفوه المشترى بالدم مجانا لكل نفس. « عِنْدَ الرَّبِّ الرَّحْمَةَ وَعِنْدَهُ فِدًى كَثِيرٌ » (مزمور ١٣٠: ٧).

هنا الأساس الذي بناء عليه نمارس الحنان على المخطئين من بني جنسنا: « إِنْ كَانَ اللّٰهُ قَدْ أَحَبَّنَا هكَذَا، يَنْبَغِي لَنَا أَيْضًا أَنْ يُحبَّ بَعْضُنَا بَعْضًا » (١ يوحنا ٤: ١١). وقد قال المسيح: « مَجَّانًا أَخَذْتُمْ، مَجَّانًا أَعْطُوا » (متى ١٠: ٨).

نعلم من المثل أنه عندما توسل المدين في طلب الإمهال ووعد قائلا: « تَمَهَّلْ عَلَيَّ فَأُوفيَكَ الْجَميعَ » أُلغيَ الحكم، وتنازل السيد عن الدين كله. وسرعان ما قدمت له الفرصة ليتمثل بسيده الذي قد سامحه. وفي خروجه لقى عبدا من رفقائه كان مديناً له بدين ضئيل. لقد سُومحَ هو بدَيْن يبلغ عشرة آلاف وزنة، أما العبد رفيقه فكان مديناً له بمئة دينار. ولكن ذلك العبد الذي عومل بهذه المعاملة الرحيمة عامل العبد رفيقه معاملة تخالف هذه المعاملة كل المخالفة. فقد توسل إليه العبد المدين بمثل ما توسل هو إلى الملك، ولكن اختلفت النتيجة. فهذا الذي منذ قليل سومح وعُفي عنه لم يكن رقيق القلب ولا مُشفقا. فالرحمة المقدمة له لم يعامل بها العبد رفيقه. فهو لم

يلتفت إلى طلب الإمهال. فذلك المبلغ الضئيل الذي كان العبد الآخر مدينا له به كان هو ما تذكره هذا العبد غير الشاكر. فطلب أن يُعطى له كل ما ظن أنه من استحقاقه، ونفذ الحكم بينما ألغي الملك تجاهه حكما مماثلا رحمة منه.

كم من الناس يظهرون نفس هذه الروح في هذه الأيام. عندما توسل ذلك المدين في طلب الرحمة من سيده لم يكن يحسّ إحساسا حقيقيا بجسامة دَيْنه. ولم يكن مدركا عجزه. وقد كان يرجو أن يخلص نفسه فقال: « تَمَهَّلْ عَلَيَّ فَأُوفِيَكَ الْجَمِيعَ ». وهكذا يوجد كثيرون ممن يؤملون في الظفر برضى اللّٰه عن طريق استحقاقهم. إنهم لا يدركون عجزهم، فَهُم [246] لا يقبلون نعمة اللّٰه على أنّها هبة مجانية بل يحاولون أن يبنوا أنفسهم على برّهم الذاتي. إنّ قلوبهم غير منسحقة ولا متضعة بسبب الخطية. وهم صارمون وغير متسامحين مع الآخرين. ولو قورنت [247] خطاياهم ضد اللّٰه بخطايا إخوتهم ضدّهم لكانت بنسبة مليون إلى واحد تقريباً، ومع ذلك يتجاسرون على عدم التسامح.

يقول المثل إنّ السيد دعا ذلك المدين الذي لم يرحم رفيقه « وَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْعَبْدُ الشِّرِّيرُ، كُلُّ ذلكَ الدَّيْنِ تَرَكْتُهُ لَكَ لأَنَّكَ طَلَبْتَ إِلَيَّ. أَفَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنَّكَ أَنْتَ أَيْضاً تَرْحَمُ الْعَبْدَ رَفِيقَكَ كَمَا رَحِمْتُكَ أَنَا؟ وَغَضِبَ سَيِّدُهُ وَسَلَّمَهُ إِلَى الْمُعَذِّبِينَ حَتَّى يُوفِيَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ ». ثم قال يسوع: « فَهكَذَا أَبِي السَّمَاوِيُّ يَفْعَلُ بِكُمْ إِنْ لَمْ تَتْرُكُوا مِنْ قُلُوبِكُمْ كُلُّ وَاحِد لأَخِيهِ زَلاَتِه » (لوقا ١٨: ٣٥). إنّ من يأبى أن يغفر فهو بذلك يطرح عنه رجاء الغفران.

ولكن ينبغي لنا ألاّ نسيء تطبيق الدرس الذي نتعلمه من المثل. إنّ غفران اللّٰه نحونا لا يقلل من واجبنا في إطاعته. وكذلك روح الغفران لبني جنسنا لا تقلل من حق المديونية العادلة. في الصلاة التي علمها المسيح لتلاميذه قال: « وَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ أَيْضًا لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا » (متى ٦: ١٢) – وهو لا يعني بهذا أنه لكي تُغفر لنا خطايانا ينبغي لنا ألاّ نطالب بالديون التي هي من حقنا. فإذا لم يستطيعوا إيفاء الدين حتى ولو كان ذلك منشأه سوء الإدارة فينبغي ألاّ يلقي بهم في السجن أو يُضطهدوا أو حتى يُعاملوا معاملة فظة قاسية، ولكن المثل لا يعلمنا أن نشجع الناس على الكسل. إنّ كلمة اللّٰه تعلن أنه إذا كان أحد لا يريد أن يشتغل فينبغي ألا يأكل (٢تسالونيكي ٣: ١٠). والرب لا يطلب من الرجل الذي يكد ويكدح أن يعول غيره من الكسالى. إنّ البعض يبذرون وقتهم ولا يبذلون جهداً. وهذا ينتهي بهم إلى الفقر والعوز. فإذا كان من يرتكبون هذه الأخطاء لا يصلحونها، فكل ما يمكن عمله لأجلهم يشبه وضع

المال في كيس منقوب. ومع ذلك فهنالك فقر لا يمكن تجنّبه وعلينا نحن أن نبدي الرقة والحنان نحو من هم منكودو الحظ. [248] فعلينا أن نعامل الآخرين بنفس المعاملة التي نريد أن يعاملونا بها لو كنا في مثل حالتهم.

إنّ الرُّوح الْقُدُس يوصينا على لسان بولس الرسول قائلا: « فَإِنْ كَانَ وَعْظٌ مَا فِي الْمَسِيحِ. إِنْ كَانَتْ تَسْلِيَةٌ مَا لِلْمَحَبَّةِ. إِنْ كَانَتْ شَرِكَةٌ مَا فِي الرُّوحِ. إِنْ كَانَتْ أَحْشَاءٌ وَرَأْفَةٌ، فَتَمِّمُوا فَرَحِي حَتَّى تَفْتَكِرُوا فِكْرًا وَاحِدًا وَلَكُمْ مَحَبَّةٌ وَاحِدَةٌ بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، مُفْتَكِرِينَ شَيْئًا وَاحِدًا، لاَ شَيْئًا بِتَحَزُّبٍ أَوْ بِعُجْبٍ، بَلْ بِتَوَاضُعٍ، حَاسِبِينَ بَعْضُكُمُ الْبَعْضَ أَفْضَلَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ. لاَ تَنْظُرُوا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَا هُوَ لِنَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَا هُوَ لآخَرِينَ أَيْضًا. فَلْيَكُنْ فِيكُمْ هذَا الْفِكْرُ الَّذِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ أَيْضًا » (فيلبي ٢: ١-٥).

أما الخطية فينبغي عدم الاستخفاف أو الاستهانة بها. فلقد أمرنا الرب ألا نوقع ظلما على أخينا. فهو يقول: « إِنْ أَخْطَأَ إِلَيْكَ أَخُوكَ فَوَبِّخْهُ » (لوقا ١٧: ٣). فيجب أن نسمي الخطية باسمها الحقيقي وينبغي أن تُكشف أمام المخطيء.

إنّ بولس في وصيّته التي بعث بها إلى تيموثاوس إذ كتب بالهام الرُّوح الْقُدُس يقول: « اعْكُفْ عَلَى ذلِكَ فِي وَقْتٍ مُنَاسِبٍ وَغَيْرِ مُنَاسِبٍ. وَبِّخِ، انْتَهِرْ، عِظْ بِكُلِّ أَنَاةٍ وَتَعْلِيمٍ » (٢تيموثاوس ٤: ٢). كما كتب إلى تيطُس يقول: « فَإِنَّهُ يُوجَدُ كَثِيرُونَ مُتَمَرِّدِينَ يَتَكَلَّمُونَ بِالْبَاطِلِ، وَيَخْدَعُونَ الْعُقُولَ ... فَلِهذَا السَّبَبِ وَبِّخْهُمْ بِصَرَامَةٍ لِكَيْ يَكُونُوا أَصِحَّاءَ فِي الإِيمَانِ » (تيطُس ١: ١٠-١٣).

وقد قال المسيح: « إِنْ أَخْطَأَ إِلَيْكَ أَخُوكَ فَاذْهَبْ وَعَاتِبْهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ وَحْدَكُمَا. إِنْ سَمِعَ مِنْكَ فَقَدْ رَبِحْتَ أَخَاكَ. وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ، فَخُذْ مَعَكَ أَيْضًا وَاحِدًا أَوِ اثْنَيْنِ، لِكَيْ تَقُومَ كُلُّ كَلِمَةٍ عَلَى فَمِ شَاهِدَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةٍ. وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُمْ فَقُلْ لِلْكَنِيسَةِ. وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ مِنَ الْكَنِيسَةِ فَلْيَكُنْ عِنْدَكَ كَالْوَثَنِيِّ وَالْعَشَّارِ» (متى ١٨: ١٥-١٧).

إنّ السيد يعلمنا أنّ المشاكل المعقدة بين المسيحيين يجب الفصل فيها في داخل الكنيسة. ينبغي [249] عدم عرضها على من لا يخافون اللّٰه. فإذا ظلم أحد المسيحيين أخاً له فلا يلجأ إلى غير المؤمنين في إحدى محاكم العدل. بل ليتبع التعليمات التي قدمها المسيح. وبدلا من محاولة الثأر لنفسه ليحاول تخليص أخيه. فاللّٰه لابد أن يصون مصالح من يحبونه ويتقونه، فيمكننا بكل ثقة أن نسلم قضيتنا في يدي ذاك الذي يقضي بعدل.

وفي غالب الأحيان عندما تُرتكب المظالم مرارا وتكرارا ويعترف المذنب بخطئه فإنّ المُساء إليه يضجر ويسأم ويظنّ أنه قد غفر مرّات كافية. ولكن

المُخَلِّص أخبرنا بكل وضوح كيف نعامل المخطئين إذ قال: « إِنْ أَخْطَأَ إِلَيْكَ أَخُوكَ فَوَبِّخْهُ، وَإِنْ تَابَ فَاغْفِرْ لَهُ » (لوقا ١٧: ٣). لا تتجنّبه كمن هو غير أهل لثقتك: « نَاظِرًا إِلَى نَفْسِكَ لِئَلاَّ تُجَرَّبَ أَنْتَ أَيْضًا » (غلاطية ٦: ١).

فإن أخطأ أخوتك فواجبكَ يقتضي أن تغفر لهم. فإن جاءوا إليك معترفين فلا تقل [250] أظن أنهم لم يتذللوا بما فيه الكفاية. ولست أظن أن اعترافهم صادر عن شعور حقيقي. فأيّ حق لك في أن تحكم عليهم أو تدينهم كما لو كنت تكشف خفايا القلوب؟ إنّ كلمة اللّٰه تقول: « إِنْ تَابَ فَاغْفِرْ لَهُ. وَإِنْ أَخْطَأَ إِلَيْكَ سَبْعَ مَرَّات فِي الْيَوْم، وَرَجَعَ إِلَيْكَ سَبْعَ مَرَّاتَ فِي الْيَوْم قَائِلاً: أَنَا تَائِبٌ، فَاغْفِرْ لَهُ » (لوقا ١٧: ٣، ٤). وليس فقط سبع مرّاتً بل سبعين مرّة سبع مرّات – على قدر المرّات التي غفر لك اللّٰه فيها.

إننا نحن أنفسنا مدينون بكل شيء لنعمة اللّٰه المجانية. فالنعمة في العهد دبرت تبنّينا. والنعمة في المُخَلِّص حققت فداءنا وتجديدنا وتمجيدنا إلى أن نكون ورثة مع المسيح. فلتعلن هذه النعمة للآخرين.

لا تعط المخطئ مجالاً للفشل. ولا تدع الصرامة الفرّيسية تَتدخل لتضرّ أخاك. ولا تسمح للسخرية المريرة أن تخطر لعقلك أو قلبك. ولا تجعل نغمة الاحتقار ظاهرة في صوتك. فإن نطقت بكلمة أو اتخذت موقف عدم المبالاة أو أظهرت الشك أو عدم الثقة فقد يتسبب ذلك في هلاك نفس. إنّه بحاجة إلى أخ له قلب عطوف كقلب الأخ الأكبر ليلمس قلبه البشري. دعه يحس مصافحة اليد القوية العطوف ويسمعك تهمس في أذنه قائلا: لنصلِّ. واللّٰه سيعطي كليكما اختبارا غنيا. إنّ الصلاة توحِّدنا بعضنا مع بعض ومع اللّٰه. الصلاة تجعل يسوع يقف إلى جانبنا وتمنح النفس الخائرة المرتبكة قوة جديدة لغلبة العالم والجسد والشيطان. والصلاة تصد عنا هجمات الشيطان.

عندما يحول الإنسان نظره بعيدا عن نقائص البشر لينظر إلى يسوع، فإن تغييرا إلهياً يحدث في الخُلُق. وإذ يعمل روح المسيح في القلب فإنه يجعله مشابهاً لصورته. إذاً فابذل جهدك لتُعلّي يسوع. حوّل عيني ذهنك إلى « هُوَذَا حَمَلُ اللّٰه الَّذي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَم » (يوحنا ١: ٢٩). وإذ تَنشغل في هذا العمل أذكر « أَنَّ [251] مَنْ رَدَّ خَاطِئًا عَنْ ضَلاَل طَرِيقِه، يُخَلِّصُ نَفْسًا مِنَ الْمَوْت، وَيَسْتُرُ كَثْرَةً مِنَ الْخَطَايَا » (يعقوب ٥: ٢٠).

« إِنْ لَمْ تَغْفِرُوا لِلنَّاس زَلاَتِهِمْ، لاَ يَغْفِرْ لَكُمْ أَبُوكُمْ أَيْضًا زَلاَتِكُمْ » (متى ٦: ١٥). لا يوجد ما يبرّر الروح الحاقدة التي لا تغفر. إنّ من ليس رحيما نحو الآخرين

يبرهن على أنه ليس شريكا في نعمة اللّٰه الغافرة. ففي غفران اللّٰه. يُجتذب قلب المخطئ إلى القلب الكبير قلب المحبة اللامحدودة. إنّ نهر رحمة اللّٰه يفيض في نفس الخاطئ، ومنه إلى نفوس الآخرين. إنّ الرقة والرحمة التي قد أظهرهما المسيح في حياته الكريمة ستريان في حياة من يصيرون شركاء في نعمته. ولكن: « إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَيْسَ لَهُ رُوحُ الْمَسِيحِ، فَذلِكَ لَيْسَ لَهُ » (رومية ٩: ٨). إنّه متجنب عن اللّٰه وليس أهلا إلا للانفصال الأبدي عنه.

نعم ربما يكون قد نال الغفران مرة، ولكنّ روحه القاسية التي لا تعرف الرحمة تدل على أنه الآن يرفض محبة اللّٰه الغافرة. لقد فصل نفسه عن اللّٰه وهو الآن في نفس الحالة التي كان عليها قبلما غُفرت خطاياه. لقد جحد توبته وخطاياه مستقرة عليه كما لو لم يكن قد تاب.

ولكن الدرس العظيم الذي نتعلمه من المثل كائن في المفارقة بين رحمة اللّٰه وبين قساوة قلب الإنسان، وفي حقيقة كون رحمة اللّٰه الغافرة يجب أن تكون مقياس غفراننا. « أَفَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنَّكَ أَنْتَ أَيْضًا تَرْحَمُ الْعَبْدَ رَفِيقَكَ كَمَا رَحِمْتُكَ أَنَا؟ »

إنّ اللّٰه لا يغفر لنا لأننا نغفر للآخرين بل كما نغفر. إنّ أساس كل غفران يوجد في محبة اللّٰه التي لا نستحقها، ولكننا بموقفنا الذي نقفه من الآخرين نبرهن على ما إذا كنا قد امتلكنا تلك المحبة أم لا. لهذا يقول المسيح: « بِالدَّيْنُونَةِ الَّتِي بِهَا تَدِينُونَ تُدَانُونَ، وَبِالْكَيْلِ الَّذِي بِهِ تَكِيلُونَ يُكَالُ لَكُمْ » (متى ٧: ٢). [252]

٢٠

رِبح هو في حقيقتهِ خسَارة

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في لوقا ١٢: ١٣-٢١).

كان المسيح يعلّم، وحسب العادة التف حوله أناس آخرون بالإضافة إلى تلاميذه. كان يحدّث تلاميذه عن المشاهد التي سرعان ما كانوا سيشتركون في القيام بدورهم فيها. كان عليهم أن يذيعوا الحقائق التي قد سلمها لهم وكانوا سيشتبكون في صراع مع حكام العالم. فلأجل اسمه سيؤخذون إلى محاكم ويوقَفون أمام ولاة وملوك. وقد أكد لهم أنهم سيُعطَون حكمة لا يمكن لأحد أن يناقضها. إنّ كلامه الذي حرك قلوب الشعب وأوقع في الارتباك خصومَه الماكرين شهد بقوة ذلك الروحُ الساكنُ فيه والذي وعد بأن يمنحه لتلاميذه.

ولكن كان يوجد كثيرون ممن اشتهوا نعمة السماء لخدمة مآربهم الأنانية لقد اعترفوا بقدرة المسيح العجيبة في تقديم الحق في نور واضح. وسمعوه يعدُ تلاميذَه بأنّه سيمنحهم حكمة بها يحتجون أمام الملوك والولاة. أفلا يستخدم قدرتَه لأجل فائدتهم الدنيوية؟ [253]

« وَقَالَ لَهُ وَاحِدٌ مِنَ الْجَمْعِ: يَا مُعَلِّمُ، قُلْ لأَخِي أَنْ يُقَاسِمَنِي الْمِيرَاثَ » (لوقا ١٢: ١٣). لقد أعطى اللّه التعليمات الخاصة بعقود الأملاك على يد موسى. فكان الأخ الأكبر يأخذ نصيب اثنين من أملاك أبيه (تثنية ٢١: ١٧). بينما أخوته الأصغر منه يأخذون أنصبة متساوية. فهذا الرجل يظنّ أن أخاه قد اختلس منه ميراثه. وقد فشلت مساعيه في الحصول على ما اعتبره من حقّه، ولكن لو تدخّل المسيح فلابدّ من أن يصل إلى مبتغاه. لقد استمع إلى محاجّات المسيح المثيرة وتشهيره الخطير بالكتبة والفريسيين. فلو وُجه مثل هذا الكلام المزود بسلطان إلى أخيه لما تجرأ على الضنّ على أخيه المغبون بنصيبه.

ففي وسط هذا التعليم المقدس الذي كان المسيح ينطق به كشف هذا الرجل عن ميوله الأنانية. لقد أمكنه أن يقدر مقدرة السيد التي كان يمكن أن تعمل لأجل نجاح وتقدم شؤونه الدنيوية، أما الحقائق الروحية فلم تتأصل في ذهنه وقلبه. لقد كان الحصول على الميراث هو شغله الشاغل. كان يسوع، ملك المجد الذي من أجلنا أفتقر وهو الغني، يفتح له كنوز المحبة الإلهية. وكان الرُّوحِ الْقُدُسِ يتحاجج معه ليصير وارثا للميراث الذي « لاَ يَفْنَى وَلاَ يَتَدَنَّسُ وَلاَ يَضْمَحِلُّ » (١بطرس ١: ٤). لقد رأى البرهان على قدرة المسيح. والآن فها قد سنحت الفرصة له ليحدث المعلم العظيم ويعبر له عن أسمى أشواق قلبه. ولكن عينيه كانت مثبتتين في الأرض كالرجل الذي كان يجمع الأقذار والهشيم بمجرفته الوارد ذكره في كتاب سياحة المسيحي لبنيان. فهو لم ير الإكليل الذي كان فوق رأسه. وكسيمون الساحر كان يقدر موهبة اللّه كوسيلة للكسب العالمي.

كانت رسالة المُخَلِّص على الأرض موشكة على الانتهاء. فلم يبق له غير أشهر قليلة لإنجاز ما قد أتى ليكمله لتوطيد دعائم ملكوت [254] نعمته. ومع ذلك فقد أراد الطمع البشري أن يحوّله عن عمله ليحسم نزاعا على قطعة أرض. ولكن يسوع لم يكن ممكنا تحويله عن رسالته. فقد كان جوابه لذلك الرجل هو هذا: « يَا إِنْسَانُ، مَنْ أَقَامَنِي عَلَيْكُمَا قَاضِيًا أَوْ مُقَسِّمًا؟ » (لوقا ١٢: ١٤).

كان يمكن ليسوع أن يخبر هذا الرجل بما هو حق وعدل. لقد عرف جانب الصواب في القضية، ولكن الأخوين كانا متخاصمين لأن كلا منهما كان طماعا. وقد قال المسيح في الواقع: إنّ عملي لا يتناول فض منازعات من هذا النوع. لقد أتى لأجل قصد آخر، ليكرز بالإنجيل وهكذا ليوقظ الناس للإحساس بالحقائق الأبدية.

إنّ في معالجة المسيح لهذه القضية درسا لكل من يخدمون باسمه. فعندما أرسل الاثني عشر قال لهم: « وَفيمَا أَنْتُمْ ذَاهِبُونَ اكْرِزُوا قَائلينَ: إِنَّهُ قَد اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَات. اشْفُوا مَرْضَى. طَهِّرُوا بُرْصًا. أَقيمُوا مَوْتَى. أَخْرِجُوا شَيَاطِينَ. مَجَّانًا أَخَذْتُمْ، مَجَّانًا أَعْطُوا » (متى ١٠: ٧، ٨). لَم يكن عملهم يتنَاول فضَ مشاكل الناس الزمنية، بل استمالة الناس إلى المصالحة مع اللّه. ففي هذا العمل انحصرت قوتهم في مباركة البشرية. إنّ المسيح هو الترياق الوحيد لخطايا الناس وأحزانهم. وإنجيل نعمته وحده يستطيع أن يشفي الشرور التي هي لعنة المجتمع. ثم إنّ ظلم الأغنياء للفقراء وكره الفقراء للأغنياء متماثلان إذ كلاهما من جذر واحد وهو الأنانية، وهذه لا يمكن استئصالها إلا عن طريق الخضوع للمسيح. فهو وحده يستطيع أن يستبدل قلب الخطية الأناني بقلب المحبة الجديد. فليكرز خدام المسيح بالإنجيل بالروح المرسل من السماء وليخدموا كما قد خدم هو لأجل خير الناس. حينئذ ستظهر مثل هذه النتائج في مباركة بني الإنسان والسموّ بهم، الأمر الذي يستحيل إنجازه إطلاقا بأيّة قوة بشرية.

إنّ ربنا قد ضرب في أصول المسألة التي أزعجت هذا السائل، وكل المنازعات المشابهة إذ قال: « انْظُرُوا وَتَحَفَّظُوا منَ الطَّمَعِ، فَإِنَّهُ مَتَى كَانَ لأَحَدٍ كَثيرٌ فَلَيْسَتْ حَيَاتُهُ [255] منْ أَمْوَاله ».

« وَضَرَبَ لَهُمْ مَثَلاً قَائلاً: إِنْسَانٌ غَنيٌّ أَخْصَبَتْ كُورَتُهُ، فَفَكَّرَ في نَفْسه قَائلاً: مَاذَا أَعْمَلُ، لأَنْ لَيْسَ لي مَوْضعٌ أَجْمَعُ فيه أَثْمَاري؟ وَقَالَ: أَعْمَلُ هذَا: أَهْدمُ مَخَازني وَأَبْني أَعْظَمَ، وَأَجْمَعُ هُنَاكَ جَميعَ غَلاَّتي وَخَيْرَاتي، وَأَقُولُ لنَفْسي: يَا نَفْسُ لَكِ خَيْرَاتٌ كَثيرَةٌ، [256] مَوْضُوعَةٌ لسنينَ كَثيرَة. اسْتَريحي وَكُلي وَاشْرَبي وَافْرَحي! فَقَالَ لَهُ اللّٰهُ: يَاغَبيُّ! هذه اللَّيْلَةَ تُطْلَبُ نَفْسُكَ منْكَ، فَهذه الَّتي أَعْدَدْتَهَا لمَنْ تَكُونُ؟ هكَذَا الَّذي يَكْنزُ لنَفْسه وَلَيْسَ هُوَ غَنيًّا للّٰه » (لوقا ١٢: ١٦-٢١).

كَشَفَ المسيح في مثل الغني الغبي عن غباوة من يجعلون العالم كل نصيبهم. لقد تناول هذا الرجل كل شيء من يد اللّه. سمح للشمس بأن تشرق على أرضه لأن أشعتها تشرق على الأبرار والظالمين. وأمطار السماء تنزل على الأشرار والصالحين. لقد جعل الرب النبات يزدهر وجعل الحقول تأتي بثمر وفير. وقد كان الرجل مرتبكا في ماذا يفعل بأثماره. كانت بيادره ممتلئة وفائضة ولم يكن له موضع يجمع فيه الفائض من محاصيله. لم يفكر

في اللّه الذي منه تنحدر كل المراحم. ولم يدرك أن اللّه قد جعله وكيلا على أمواله لكي يساعد هو المحتاجين. كانت لديه فرصة مباركة لأن يكون وكيلا للّه في توزيع الصدقات، ولكنه لم يفكر في غير خدمة نفسه وما يؤول إلى راحته.

لقد وُجه انتباه هذا الرجل الغني إلى حالة الفقير واليتيم والأرملة والمتضايق والمتألم، وكانت توجد أماكن كثيرة يمكنه أن يوزع عليها خيراته. فكان يمكنه بكل سهولة أن يريح نفسه من جزء من تلك الخيرات الوافرة، وكان يمكن لبيوت كثيرة أن تتحرر من العوز، وكان يمكن إشباع كثيرين من الجياع، وتوفير الكساء لكثيرين من العراة، وجلب السرور إلى كثير من القلوب الحزينة، وكانت تجاب صلوات كثيرة قُدمت في طلب الطعام والكساء وكانت ترفع إلى السماء أغاني الحمد. إنّ الرب قد سمع صلوات المحتاجين وهيأ بجوده للمساكين (مزمور ٦٨: ١٠). كانت توجد مؤونة وافرة لسد احتياجات كثيرين في البركات الممنوحة للغني. ولكنّه أغلق قلبه فلم يسمع صرخات الفقراء، وإنما قال لعبيده: « أَعْمَلُ هذَا: أَهْدِمُ [257] مَخَازِنِي وَأَبْنِي أَعْظَمَ، وَأَجْمَعُ هُنَاكَ جَمِيعَ غَلاَتِي وَخَيْرَاتِي، وَأَقُولُ لِنَفْسِي: يَا نَفْسُ لَكِ خَيْرَاتٌ كَثِيرَةٌ، مَوْضُوعَةٌ لِسِنِينَ كَثِيرَةٍ. اسْتَرِيحِي وَكُلِي وَاشْرَبِي وَافْرَحِي ».

إنّ أهداف هذا الرجل لم تكن أعظم من أهداف البهائم التي تباد. لقد عاش كما لو لم يكن هنالك إله ولا سماء [258] ولا حياة عتيدة، وكأن كل ما كان له هو ملكه، وكأنه لم يكن مديناً بشيء للّه أو لإنسان. وقد كان المرنم يصف هذا الغني حين قال: « قَالَ الْجَاهِلُ فِي قَلْبِهِ: لَيْسَ إِلهٌ » (مزمور ١٤: ١).

لقد عاش هذا الإنسان ورسم خططه لذاته. إنّه يرى أنّ المستقبل معدّ له بوفرة، ولا شيء له الآن ليعمله سوى أن يجمع ثمار تعبه ويتمتع بها. إنّه يعتبر نفسه مُفضّلا على باقي الناس وهو يفاخر بنفسه لأجل تدبيره الحكيم. إنّه مكرّم من أبناء بلده على أنّه صائب الرأي ومواطنٌ ناجح. لأن الناس: « يَحْمَدُونَكَ إِذَا أَحْسَنْتَ إِلَى نَفْسِكَ » (مزمور ٤٩: ١٨).

ولكن: « حِكْمَةَ هذَا الْعَالَمِ هِيَ جَهَالَةٌ » (١كورنثوس ٣: ١٩). ففيما كان الغني ينظر إلى الأمام إلى سنين تمتع فالرب يدبر خططاً أخرى تختلف عن ذلك. فها هي الرسالة تأتي إلى هذا الوكيل الخائن قائلة: « يَا غَبِيُّ! هذِهِ اللَّيْلَةَ تُطْلَبُ نَفْسُكَ ». هنا مطلب لا يمكن للمال أن يسده. فالثروة التي

اكتنزها لا يمكنها أن تشتري فرصة إمهال. ففي لحظة واحدة يمسي كل ما قد تعب مدى حياته ليحرزه عديم القيمة بالنسبة إليه « فَهذه الَّتي أَعْدَدْتَهَا لمَنْ تَكُونُ؟ » إن حقوله الواسعة ومخازنه الممتلئة ما عاد له السلطان عليها. « يَذْخَرُ ذَخَائِرَ وَلاَ يَدْرِي مَنْ يَضُمُّهَا » (مزمور ٣٩: ٦).

والشيء الوحيد الذي كان يمكن أن يكون ذا قيمة بالنسبة إليه الآن لم يحصل عليه. فإذ عاش لذاته رفض تلك المحبة الإلهية التي كان يمكن أن تفيض بالرحمة لبني جنسه. وهكذا رفض الحياة. لأنّ اللّٰه محبة والمحبة هي الحياة. لقد اختار هذا الرجل الأرضيات بدل الروحيات، ومع الأرضيات يجب أن يزول. « إِنْسَانٌ فِي كَرَامَةٍ وَلاَ يَفْهَمُ يُشْبِهُ الْبَهَائِمَ الَّتِي تُبَادُ » (مزمور ٤٩: ٢٠).

« هكَذَا الَّذِي يَكْنِزُ لنَفْسه وَلَيْسَ [259] هُوَ غَنِيًّا للّٰه ». إنّ هذه الصورة تنطبق على كل عصر. فقد تدبر خططك لأجل خيرك الذاتي فحسب، وقد تجمع كنوزا، وقد تبني قصوراً عظيمة وشاهقة كما فعل بناة بابل القديمة، ولكن لا يمكنك أن تبني سورا عاليا أو تبني بابا متينا بحيث يمكنك أن تصدّ رسل الدينونة. إنّ بيلشاصر الملك « صَنَعَ وَلِيمَةً عَظِيمَةً » في قصره وكان يسبح « آلِهَةَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالنُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ وَالْخَشَبِ وَالْحَجَرِ ». ولكن يد إنسان غير منظور كتبت على حائطه حكم الدينونة وسُمع وقع أقدام الجيوش المعادية تدق أبواب قصره. « فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ قُتِلَ بَيْلْشَاصَّرُ مَلِكُ الْكَلْدَانِيِّينَ » وجلس على العرش ملك أجنبي (دانيال ٥: ٣٠).

إنّ كون الإنسان يعيش لذاته هو الهلاك المحقق. فالطمع واشتهاء الإنسان المنفعة لذاته يبتر النفس عن الحياة. إنّ روح الشيطان هي أن يمتلك ويجمع كل شيء لنفسه. أما روح المسيح فهو أن يعطي ويضحي بالذات لأجل خير الآخرين. « وَهذه هِيَ الشَّهَادَةُ: أَنَّ اللّٰهَ أَعْطَانَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً، وَهذه الْحَيَاةُ هِيَ فِي ابْنِه. مَنْ لَهُ الاِبْنُ فَلَهُ الْحَيَاةُ » (١يوحنا ٥: ١١، ١٢).

لذلك يقول: « انْظُرُوا وَتَحَفَّظُوا مِنَ الطَّمَعِ، فَإِنَّهُ مَتَى كَانَ لأَحَدٍ كَثِيرٌ فَلَيْسَتْ حَيَاتُهُ مِنْ أَمْوَالِه ». [260]

٢١

« هُوَّةٌ عَظِيمَةٌ قَدْ أُثْبِتَتْ »

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في لوقا ١٦: ١٩-٣١).

يرينا المسيح في مثل الغني ولعازر أنّ الإنسان يقرر مصيره الأبدي في هذه الحياة. وفى أثناء فرصة الإمهال تُقدَّم نعمة اللّه لكل نفس. ولكن إذا أنفق الناس الفرص المقدمة لهم وأضاعوها في إرضاء الذات فإنهم يفصلون أنفسهم من الحياة الأبدية. ولن تُعطى لهم فرصة إمهال أخرى. فإنهم بمحض اختيارهم قد أثبتوا هوَّة لا تُعبر بينهم وبين اللّه.

هذا المثل يرسم لنا الفرق بين الأغنياء الذين لم يجعلوا اللّه معتمدهم والفقراء الذين قد جعلوا اللّه سندهم. والمسيح يرينا أنّه قريبا سيأتي الوقت الذي فيه سينعكس مركز كل من الفريقين. فالذين هم فقراء في خيرات هذا العالم ومع ذلك يثقون باللّه ويصبرون على الآلام والشدائد سيرتفعون يوما ما ويتمجدون فوق من يحتلون الآن أسمى المراكز التي يمكن للعالم أن يمنحها ومع ذلك لم يسلموا حياتهم للّه.

قال المسيح: « كَانَ إِنْسَانٌ غَنِيٌّ وَكَانَ يَلْبَسُ الأَرْجُوانَ وَالْبَزَّ وَهُوَ يَتَنَعَّمُ كُلَّ يَوْمٍ مُتَرَفِّهًا. وَكَانَ مِسْكِينٌ اسْمُهُ لِعَازَرُ، [261] الَّذِي طُرِحَ عِنْدَ بَابِهِ مَضْرُوبًا بِالْقُرُوحِ، وَيَشْتَهِي أَنْ يَشْبَعَ مِنَ الْفُتَاتِ السَّاقِطِ مِنْ مَائِدَةِ الْغَنِيِّ » (لوقا ١٦: ١٩-٢١).

لم يكن الرجل الغني ينتمي إلى الفريق الذي يمثله قاضي الظلم الذي كان يجاهر باحتقاره لله وللناس. فقد كان يَّدعي أنّه ابن لإبْرَاهيم. وهو لم يقسُ في معاملته للمسكين ولا طلب منه أن ينصرف عن بيته لأنّ منظره كريه. فإذا كان الفقراء الذين تعافهم النفس تعزّوا عندما شاهدوه وهو داخل أبوابه فقد كان الرجل الغني راغبا في بقائه. ولكنّه كان إنسانا أنانيا لا يكترث لحاجات أخيه المتألم.

لم تكن توجد في ذلك الزمان مستشفيات يُعنى فيها بالمرضى. وكان المتألمون والفقراء يجلبون إلى انتباه من قد استأمنهم الربّ على المال حتى يمكنهم أن يحصلوا على العون والعطف منهم. وهكذا كان الحال مع المسكين وهذا الغني كان لعازر في أشد الحاجة إلى المعونة لأنّه لم يكن له أصدقاء ولا بيت ولا مال ولا طعام. ومع ذلك فقد سُمح له بأن يظل على هذه الحال يوما بعد يوم، في حين أن ذلك الشريف الغني كانت كل حاجاته مكفولة. فذاك الذي كانت له كل القدرة على أن يخفّف آلام واحد من بني جنسه عاش لنفسه كما يفعل كثيرون اليوم.

يوجد اليوم بالقرب منا كثيرون من الجياع والعراة والمشردين. فإهمالنا في اقتسام مواردنا مع هؤلاء الفقراء المتألمين يثقّل كواهلنا بجرم عظيم ستخيفنا مواجهته يوما ما. إنّ كل طمع محكوم عليه بأنّه عبادة أوثان. إنّ كل انغماس أناني هو إثم في نظر الله.

لقد جعل الله الرجل الغني وكيلا له على أمواله، وقد كان الواجب يقتضيه أنْ يهتم بحالات أمثال ذلك الشحاذ. لقد صدر هذا الأمر من الله: « فَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ » (تثنية ٦: ٥)، « تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ » (لاويين ١٩: ١٨). كان [262] الغني يهوديا وكان عارفاً أمر الله ولكنه نسي أنه مسؤول عن كيفية استخدام الوسائل والإمكانيات المودعة عنده. لقد أغدق الله بركاته عليه بغنى، ولكنه استخدمها لنفسه ليكرم نفسه لا ليكرم خالقه. فبنسبة أمواله الكثيرة كان ملتزما أن يستخدم تلك الأموال في رفع شأن الإنسانية. هذا كان أمر الرب، ولكن الغني لم يكن يفكر في التزامه نحو الله. كان يقرض المال وكان يتقاضى

الربا عما أقرضه، ولكنه لم يقدم أي فائدة عما أقرضه اللّٰه إياه. كانت عنده معرفة ومواهب ولكنه لم يحسن استخدامها. وإذ نسي مسؤوليته للّٰه كرّس كل قواه للمسرات. فكل ما كان محاطا به من جولات تسلياته ومديح أصدقائه وتمليقاتهم خدمت تمتّعه الأناني. لقد كان مستغرقا في مجتمع أصدقائه بحيث أضاع كل شعور بمسؤوليته في التعاون مع اللّٰه في خدمة رحمته. كانت لديه فرصة لفهم كلمة اللّٰه والعمل بتعاليمها، ولكن المجتمع المحب للذات والمسرّات الذي اختاره شغل وقته بحيث نسي الإله السرمدي.

ولكن جاء الوقت الذي حدث فيه تغيير في حالة ذينك الرجلين. كان المسكين يتألم يوما بعد يوم ولكنه احتمل آلامه بصبر وهدوء. وبمرور الوقت مات ودُفن. ولم يكن هناك من ينوح عليه، ولكنه بصبره واحتماله شهد للمسيح وصمد أمام امتحان إيمانه وعند موته يُصَّور على أن الملائكة قد حملته إلى حضن إِبْرَاهيم.

إنّ لعازر يرمز إِلَى الفقراء المتألمين المؤمنين بالمسيح. فعندما يضرب البوق ويسمع جميع من في القبور صوت المسيح ويخرجون سينالون جزاءهم لأن إيمانهم باللّٰه لم يكن مجرد نظرية بل كان حقيقة. [263]

« وَمَاتَ الْغَنِيُّ أَيْضاً وَدُفِنَ، فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ فِي الْهَاوِيَةِ وَهُوَ فِي الْعَذَابِ، وَرَأَى إِبْرَاهِيمَ مِنْ بَعِيدٍ وَلَعَازَرَ فِي حِضْنِهِ، فَنَادَى وَقَالَ: يَا أَبِي إِبْرَاهِيمَ، ارْحَمْنِي، وَأَرْسِلْ لَعَازَرَ لِيَبُلَّ طَرَفَ إِصْبَعِهِ بِمَاءٍ وَيُبَرِّدَ لِسَانِي، لأَنِّي مُعَذَّبٌ فِي هذَا اللَّهِيبِ. »

في هذا المثل كان المسيح يلاقي الناس في ميدانهم. إنّ عقيدة وجود حالة يقظة بين الموت والقيامة كان يعتنقها كثيرون ممن كانوا يستمعون لأقوال المسيح. وقد عرف المُخَلِّص آراءهم فصاغ المثل لكي يدخل في أذهانهم حقائق هامة عن طريق هذه الآراء التي سبق فتصوروها. لقد رفع أمام أنظار سامعيه مرآة فيها يرون أنفسهم في علاقتهم الحقيقية باللّٰه. فقد أستعمل الرأي الشائع لكي ينقل الفكرة التي أراد أن يجعلها بارزة فوق غيرها – ألا وهي أنّ الإنسان لا يُقدَّر بكثرة أملاكه لأنّ كل ما يملكه هو له فقط كإعارة من الرب. وسوء استخدامه لهذه الهبات يضعه في مستوى أدنى من مستوى أفقر إنسان متألم ومبتلي يحب اللّٰه ويثق به.

والمسيح يريد أن يَفهم سامعوه أنه يستحيل على الناس أن يحصلوا على خلاص النفس بعد الموت. وإِبْرَاهيم يُصوَّر هنا على أنه يجيب الغني قائلا: « يَا ابْنِي، اذْكُرْ أَنَّكَ اسْتَوْفَيْتَ خَيْرَاتِكَ فِي حَيَاتِكَ، وَكَذلِكَ لِعَازَرُ الْبَلاَيَا.

وَالآنَ هُوَ يَتَعَزَّى وَأَنْتَ تَتَعَذَّبُ. وَفَوْقَ هذَا كُلِّه، بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ هُوَّةٌ عَظِيمَةٌ قَدْ أُثْبِتَتْ، حَتَّى إِنَّ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْعُبُورَ مِنْ هُهُنَا إِلَيْكُمْ لاَ يَقْدِرُونَ، وَلاَ الَّذِينَ مِنْ هُنَاكَ يَجْتَازُونَ إِلَيْنَا » وهكذا صور المسيح القنوط من انتظارهم فرصة إمهال أخرى. فهذه الحياة هي الفرصة الوحيدة المعطاة للإنسان للاستعداد للأبدية.

لم يكن الغني قد تخلى عن فكرة كونه ابنا لإبْرَاهيم، ويصوَّر كأنه [264] يصرخ إليه في ضيقه في طلب العون. فصلى قائلا: « يا أَبي إبْرَاهيم ارحمني ». فلم يصلِّ إلى اللّٰه بل إلى إبْرَاهيم. وهكذا برهن على أنه يرفع من مقام إبْرَاهيم فوق مقام اللّٰه، وأنّه اعتمد في أمر خلاصه على صلته بإبْرَاهيم. إنّ اللص المصلوب على الصليب قدم صلاته إلى المسيح إذ قال: « اُذْكُرْنِي يَا رَبُّ مَتَى جِئْتَ فِي مَلَكُوتِكَ » (لوقا ٢٣: ٤٢). ففي الحال جاءته الإجابةَ، الحق أقول لَك اليوم (فيماَ أنا معلق على الصليب في إذلال وعذاب) أنّك تكون معي في الفردوس (لوقا ٢٣: ٤٣). ولكن الغني صلّى إلى إبْرَاهيم فلم يُعطَ له طلبه. فالمسيح هو وحده الذي رفعه اللّٰه ليكون « رَئِيسًا وَمُخَلِّصًا، لِيُعْطِيَ إِسْرَائِيلَ التَّوْبَةَ وَغُفْرَانَ الْخَطَايَا » (أعمال ٥: ٣١). « وَلَيْسَ بِأَحَدٍ غَيْرِه الْخَلاَصُ » (أعمال ٤: ١٢).

لقد أنفق الغني حياته في إرضاءَ ذاتهَ، وبعَد فوات الأوان رأى أنّه لم يستعد للأبدية. فتحقق من غبائه وفكر في إخوته الذين كانوا يسيرون كما كان هو يسير ويعيشون ليلذذوا أنفسهم. ثم قدم ملتمسا آخر قائلا: « أَسْأَلُكَ إِذًا، يَا أَبَت، أَنْ تُرْسِلَهُ (لعازر) إِلَى بَيْتِ أَبِي لأَنَّ لِي خَمْسَةَ إِخْوَةٍ، حَتَّى يَشْهَدَ لَهُمْ لِكَيْلاَ يَأْتُوا هُمْ أَيْضًا إِلَى مَوْضِعِ الْعَذَابِ هذَا. قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: عِنْدَهُمْ مُوسَى وَالأَنْبِيَاءُ، لِيَسْمَعُوا مِنْهُمْ. فَقَالَ: لاَ، يَا أَبِي إِبْرَاهِيمَ، بَلْ إِذَا مَضَى إِلَيْهِمْ وَاحِدٌ مِنَ الأَمْوَاتِ يَتُوبُونَ. فَقَالَ لَهُ: إِنْ كَانُوا لاَ يَسْمَعُونَ مِنْ مُوسَى وَالأَنْبِيَاءِ، وَلاَ إِنْ قَامَ وَاحِدٌ مِنَ الأَمْوَاتِ يُصَدِّقُونَ » (لوقا ١٦: ١٧-٣١).

عندما توسّل الغنيَ في إرسال برهان إضافي إلى أخوته قيل له بكل صراحة أنّه لو قدم هذا البرهان لهم فإنهم لا يقتنعون. إنّ طلبه ألقى بعض اللوم على اللّٰه. فكأنما الغني يقول لو كنت قد أنذرتني بما فيه الكفاية لما كنت أنا الآن في هذا المكان. إنّ إبْرَاهيم بجوابه على هذا الطلب يصوَّر [265] كأنه يقول: إنّ أخوتك قد أنذروا إنذارا كافيا. لقد أعطي لهم النور ولكنهم رفضوا أن يبصروا، وقد قُدم لهم الحق ولكنهم رفضوا أن يسمعوا.

« إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء ولا إن قام واحد من الأموات يصدقون ». لقد تبرهن صدق هذا الكلام في تاريخ الأمة اليهودية. كانت آخر

معجزات المسيح وخاتمتها هي معجزة إقامة لعازر في بيت عنيا بعدما ظل مدفونا في القبر أربعة أيام. وقد قُدم لليهود هذا البرهان العجيب على ألوهّية المُخَلِّص ولكنهم قسّوا قلوبهم أمام كل برهان بل حاولوا اغتياله (يوحنا ١٢: ٩-١١).

إنّ الناموس والأنبياء هي وسائل اللّٰه المعينة لأجل خلاص الناس. وقد قال المسيح: ليلتفتوا إلى هذه الأدلة. فإذا لم يُصغوا إلى صوت اللّٰه في كلمته فإنهم لن يلتفتوا إلى شهادة إنسان مقام من الأموات.

إنّ من يلتفتون إلى أقوال موسى والأنبياء لن تكون لهم حاجة إلى نور أعظم عن اللّٰه فوق ما أعطي لهم، أمّا إذا رفض الناس النور ولم يقدروا الفرص الممنوحة لهم فلن يسمعوا لو جاءهم واحد من الأموات برسالة. لن يقتنعوا حتى بهذا البرهان، لأن من يرفضون الناموس والأنبياء يقسون قلوبهم جّدا بحيث يرفضون كل النور.

إنّ الحديث الذي جرى بين إِبْرَاهِيم وهذا الرجل الذي كان قبلا غنيا حديث مجازي. إنما الدرس الذي نقتَبسه منه هو أنّ كل إنسان قد أعطي نورا كافيا للقيام بالواجبات المطلوبة منه. إنّ مسؤوليات الإنسان متناسبة مع فرصه وامتيازاته. واللّٰه يمنح كل واحد نورا ونعمة كافيين للقيام بالعمل الذي قد أعطاه إيّاه ليعمله. فإذا أخفق إنسان في عمل ما يريه النور الضئيل أنه واجبه، فإنّ النور الأعظم سيكشف عن عدم أمانته وإهماله في استخدام البركات المعطاة له استخداما حسنا: « الأمين [266] في القليل أمين أيضًا في الكثير، والظالم في القليل ظالم أيضًا في الكثير » (لوقا ١٦: ١٠). أن من يرفضون الاستنارة من كتب موسى والأنبياء ويطلبون إجراء معجزة عجيبة لن يقتنعوا لو أجيبوا إلى طلبهم.

إنّ مثل الغني ولعازر يرينا كيف يُقدَّر الفريقان اللذان يرمز إليهما هذان الرجلان في العالم غير المنظور. لا خطية في أن يكون الإنسان غنيا إذا لم يجمع الإنسان الثروة بالظلم. أن الرجل الغني ليس مدينا لأن عنده ثروة، ولكن الدينونة تستقر عليه إذا كان ينفق الأموال المودعة لديه على نفسه وأنانيته. ولكن كان أفضل من ذلك بكثير لو أنه كنز أمواله إلى جوار عرش اللّٰه باستخدامها في عمل الخير. إنّ الموت لا يمكن أن يفقر الإنسان الذي يكرس نفسه هكذا لطلب الغني الأبدي.أمّا ذاك الذي يكنز كنزه لذاته فلا يمكنه أن يأخذ شيئا منه إلى السماء. لقد برهن على أنّه وكيل خائن. ففي حياته كانت له خيراته ولكنّه نسي التزامه للّٰه. لقد أخفق في صيانة الكنز السماوي.

إن الرجل الغني الذي كانت له امتيازات هذا عددها يصوَّر لنا على أنّه إنسان كان ينبغي له أن ينمي مواهبه حتى تصل أعماله إلى عالم الأبد العظيم حاملة معها امتيازات روحية عظيمة. إنّ غاية الفداء ليست فقط غفران الخطايا بل أيضا أن تعيد إلى الإنسان تلك الهبات الروحية التي خسرها بفعل قوة الخطية المضعّفة. إنّ المال لا يمكن أن يؤخذ إلى الحياة الأخرى إذ لا حاجة إليه هناك. ولكن الأعمال الصالحة التي نعملها في ربح النفوس للمسيح تؤخذ إلى مواطن السماء. أما من ينفقون عطايا اللّٰه بكل أنانية على نفوسهم تاركين بني جنسهم الفقراء بلا عون. ولا يعملون شيئا لتقدم عمل اللّٰه في العالم فإنّهم يهينون جابلهم. فسيكتب أمام أسمائهم في أسفار السماء إنّهم قد سلبوا اللّٰه. [267]

لقد كان عند الغني كل ما أمكن للمال أن يحصّله، ولكنّه لم يكن يملك الغنى الذي كان يمكن أن يجعل حسابه مضبوطا مع اللّٰه. لقد عاش كما لو إنّ كل ما كان عنده كان ملكه. لقد أهمل دعوة اللّٰه ومطاليب الفقراء المتألمين. ولكن أخيرا يأتيه نداء لا حيلة له في إغفاله. فبسلطان لا يستطيع أن يجادله أو يقاومه يُدعى لترك أملاكه التي ما عاد وكيلا عليها. فذاك الذي كان قبلا رجلا غنيّا هبط بحيث وصل إلى الفقر الذي لا يُجبر. وثوب برّ المسيح المنسوج في نول السماء لا يمكن أن يكسوه. وذاك الذي كان فيما مضى يلبس البز والأرجوان انحط فصار عارياً. لقد انتهت فرصة إمهاله. إنه لم يأت إلى العالم بشيء ولذلك لا يستطيع أن يأخذ منه شيئا.

لقد رفع المسيح الستار وعرض هذه الصورة أمام أذهان الكهنة والرؤساء والكتبة والفريسيين. فانظروا إليها يا من أنتم أغنياء في خيرات هذا العالم ولكنكم لستم أغنياء للّٰه. أفلا تتأملون في هذا المشهد؟ إنّ ما هو معتبر عظيما بين الناس مكروه في نظر اللّٰه. إنّ المسيح يسأل قائلا: « مَاذَا يَنْتَفِعُ الإِنْسَانُ لَوْ رَبِحَ الْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟ أَوْ مَاذَا يُعْطِي الإِنْسَانُ فِدَاءً عَنْ نَفْسِهِ؟ » (مرقس ٨: ٣٦، ٣٧).

تطبيق هذا على الأمة اليهودية

عندما قدم المسيح مثل الغني ولعازر، كان كثيرون من أبناء الأمة اليهودية في مثل حالة الغني التي يُرثى لها إذ كانوا يستخدمون خيرات اللّٰه في إشباع شهواتهم وأنانيتهم. على أهبة سماع الحكم عليهم قائلا: « وُزِنْتَ بِالْمَوَازِينِ فَوُجِدْتَ نَاقِصًا » (دانيال ٥: ٢٧). كان الغني منعما عليه بكل بركة زمنية

وروحية، ولكنه رفض التعاون مع اللّٰه في استخدام هذه البركات. وهذا ما حدث مع الأمة اليهودية. لقد جعل اللّٰه اليهود مستودعات للحق المقدس وأقامهم [268] وكلاء على نعمته. وقد منحهم كل امتياز روحي وزمني وطلب منهم أن يوزعوا هذه البركات. وقد أعطيت لهم وصية خاصة عن معاملتهم لإخوتهم الذين ساءت حالهم، وعن الغريب الذي في داخل أبوابهم والفقراء العائشين بينهم. لم يكن لهم أن يحاولوا جمع كل المغانم لأنفسهم بل كان عليهم أن يذكروا المعوزين ويقتسموا معهم تلك البركات. وقد وعد اللّٰه بأن يباركهم تبعا لأعمال المحبة والرحمة التي يعملونها. ولكنهم كالغني لم يمدوا يد العون لسد الأعواز الزمنية أو الروحية التي تعاني منها الإنسانية المتألمة. فإذ امتلأوا بالكبرياء اعتبروا أنفسهم شعب اللّٰه المختار والمحبوب، ومع ذلك فهم لم يخدموا اللّٰه ولا عبدوه. لقد جعلوا اعتمادهم على حقيقة كونهم أولاد إبْرَاهيم. لقد قالوا في زهو وكبرياء: « إِنَّنَا ذُرِّيَّةُ إِبْرَاهِيمَ » (يوحنا ٨: ٣٣). ولكن لما حلت الأزمة ظهر أنهم انفصلوا عن اللّٰه ووضعوا ثقتهم في إبْرَاهيم كما لو كان هو اللّٰه.

وقد اشتاق المسيح أن يشرق بالنور في العقول المظلمة عقول الشعب اليهودي. فقال لهم « لَوْ كُنْتُمْ أَوْلاَدَ إِبْرَاهِيمَ، لَكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ إِبْرَاهِيمَ! وَلكِنَّكُمُ الآنَ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي، وَأَنَا إِنْسَانٌ قَدْ كَلَّمَكُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي سَمِعَهُ مِنَ اللّٰهِ. هذَا لَمْ يَعْمَلْهُ إِبْرَاهِيمُ » (يوحنا ٨: ٣٩، ٤٠).

إنّ المسيح لم يعترف بأية فضيلة في النسب. فقد علّم أنّ الرابطة الروحية تلغي كل الروابط الطبيعية. كان اليهود يدّعون أنهم من نسل إبْرَاهيم، ولكن لأنهم لم يعملوا أعمال إبْرَاهيم برهنوا على أَنَّهُمْ ليسوا أولاده بالحق. ولكن الذين يبرهنون روحيا على أنهم في توافق مع إبْرَاهيم بإطاعة صوت اللّٰه هؤلاء هم وحدهم الذين يُحسبون من النسل الحقيقي. ومع أنّ المتسول المسكين كان ينتمي إلى فئة كان يُنظر إليها على أنّها من طبقة أدنى فالمسيح اعترف به كمن يحبّ إبْرَاهيم أن يدخله في صحبته الخاصة. [269]

إنّ الغني مع أنّه كان محاطا بكل أسباب ترف الحياة ورفاهيتها كان يجهل أنه قد وضع إبْرَاهيم حيث يجب أن يكون اللّٰه. فلو أنّه قدّر امتيازاته السامية وسمح لروح اللّٰه بأن يصوغ عقله وقلبه لكان قد أصبح في مركز يختلف اختلافاً بيّنا عمّا صار إليه. وكذلك الحال مع الأمة التي كان يمثلها. فلو أنّهم استجابوا لدعوة اللّٰه لكان مستقبلهم يختلف اختلافا عظيما عما صاروا إليه. فكانوا يبرهنون على تمييزهم وفهمهم الروحي. كانت عندهم أموال كان يمكن للّٰه أن

يزيدها ويجعلها كافية لأن تبارك كل العالم وتنيره. ولكنهم كانوا قد انفصلوا وابتعدوا عن تدبير الرب حتى فسدت كل حياتهم. فلم يستخدموا عطاياهم كمن هم وكلاء للّه بالحق والعدل. فلم يحسبوا للأبدية حسابا وكان من نتائج خيانتهم الدمار الذي حلّ بالأمة كلها.

لقد عرف المسيح أنّ اليهود سيذكرون إنذاره عند خراب أورشليم وحل بالشعب الجوع والآلام من كل نوع ذكروا أقوال المسيح هذه وفهموا المثل. لقد جلبوا على أنفسهم الآلام بإهمالهم تقديم النور المعطى لهم من اللّه لينير العالم كله.

في الأيام الأخيرة

إنّ المشاهد الأخيرة في تاريخ هذه الأرض مصورة في ختام تاريخ الغني. فقد ادّعى الغني أنّه ابن إِبْرَاهيم ولكنّ هوة لا تُعبر فصلت بينه وبين إِبْرَاهيم هي الصفات الخاطئة الّتي تربّت فيه. لقد خدم إِبْرَاهيم اللّه متَّبعاً كلامه بالإيمان والطاعة. أمّا الغني فلم يكترث للّه ولا لحاجات الإنسانية المتألمة. فالهوّة العظيمة التي قد أثبتت بينه وبين إِبْرَاهيم كانت هي هوة [270] العصيان. ويوجد كثيرون اليوم يسيرون في نفس الطريق. فمع أنهم أعضاء في الكنائس فهم غير متجددين. قد يشتركون في خدمة الكنيسة وقد يترنمون قائلين: « كَمَا يَشْتَاقُ الإِيَّلُ إِلَى جَدَاوِلِ الْمِيَاهِ، هكَذَا تَشْتَاقُ نَفْسِي إِلَيْكَ يَا اللّٰهُ » (مزمور ٤٢: ١)، ولكنهم يشهدون كذباً. فهم ليسوا أبرّ في نظر اللّه من أنجس خاطئ. فالنفس التي تشتاق إلى إثارة السرور العالمي، والعقل الذي يملأه حب الظهور لا يمكنهما أن يخدما اللّه. وكالغني المذكور في المثل لا يميل مثل هذا الإنسان إلى إثارة الحرب ضدّ شهوة الجسد. إنّه يتوق إلى الانغماس في النهم ويختار جوّ الخطية. وفجأة يختطفه الموت، فينحدر إلى الهاوية بالصفات التي كوّنها مدى حياته في معاشرته للأعوان الشيطانية. وفي الهاوية لا يمكنه أن يختار شيئا خيرا كان أم شرا لأنّه في اليوم الذي فيه يموت الإنسان تهلك أفكاره (مزمور ١٤٦: ٤؛ جامعة ٩: ٥، ٦).

وعندما يوقظ صوتُ اللّه الميّت فسيخرج من القبر بنفس الشهوات والأهواء، بنفس النزعات إلى الأشياء التي يحبّها والتي لا يحبها التي كانت له وهو على قيد الحياة. إنّ اللّه لا يصنع معجزة ليخلق من جديد إنساناً لم يرغب في ذلك عندما قدمت له كل الفرص وأُعدّت له كل المساعدات. ففي أثناء

سنيّ حياته لم يكن يفرح باللّٰه ولا وجد سرورا في خدمته. فصفاته لا تتفق مع صفات اللّٰه ولم يستطع أن يسعد بوجوده بين الأسرة السماوية.

وفي العالم اليوم يوجد فريق من الناس هم أبرار في أعين أنفسهم. إنّهم ليسوا شرهين ولا سكيرين ولا ملحدين، ولكنّهم يريدون أن يعيشوا لأنفسهم لا للّٰه. ليس اللّٰه في أفكارهم لذلك فهم يُحصَون بين غير المؤمنين. فلو كان من الممكن لهم أن يدخلوا من أبواب مدينة اللّٰه لما كان لهم الحق في الأكل من شجرة الحياة لأنَّه عندما وُضعت أمامهم وصايا اللّٰه بكل مطاليبها المُلزمة [271] رفضوها. فلم يخدموا اللّٰه في العالم ولذلك فلن يخدموه في الأبدية. لم يمكنهم أن يعيشوا في حضرته فلذلك هم يحسّون بأنّ أي مكان آخر يفضلُ السماء.

إنّ التعلم من المسيح معناه قبول نعمته التي هي خلُقه وصفاته. ولكن الذين لا يقدّرون ولا يستثمرون الفرص الثمينة والتأثيرات المقدسة الممنوحة لهم على الأرض ليسوا مؤهّلين للاشتراك في العبادة الطاهرة في السماء. فصفاتهم غير مصوغة بحسب المثال الإلهي. فبإهمالهم قد خلقوا هوّة لا يمكن عبورها. فبينهم وبين الأبرار هوة عظيمة قد أثبتت. [272]

٢٢

القَـول والعَمَـل

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في متى ٢١: ٢٣-٣٢).

« كَانَ لإِنْسَان ابْنَان، فَجَاءَ إِلَى الأَوَّل وَقَالَ: يَا ابْني، اذْهَب الْيَوْمَ اعْمَلْ في كَرْمي. فَأَجَابَ وَقَالَ: مَا أُريدُ. وَلكنَّهُ نَدمَ أَخيرًا وَمَضَى. وَجَاءَ إِلَى الثَّاني وَقَالَ كَذلكَ. فَأَجَابَ وَقَالَ: هَا أَنَا يَا سَيِّدُ. وَلَمْ يَمْضِ. فَأَيُّ الاثْنَيْن عَملَ إِرَادَةَ الأَب؟ قَالُوا لَهُ: الأَوَّلُ » (متى ٢١: ٢٨-٣١).

قال المسيح في الموعظة على الجبل: « لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَقُولُ لي: يَا رَبُّ، يَا رَبُّ! يَدْخُلُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَات. بَل الَّذي يَفْعَلُ إِرَادَةَ أَبي الَّذي في السَّمَاوَات » (متى ٧: ٢١). إنّ الإخلاص لا يُختبر بالأقوال بل بالأعمال. إنّ المسيح لا يقول لأي إنسان: ماذا تقول أكثر من الآخرين؟ بل: « أَيَّ فَضْل تَصْنَعُونَ؟ » (متى ٥:٤٧). إنّ قوله: « إِنْ عَلمْتُمْ هذَا فَطُوبَاكُمْ إِنْ عَملْتُمُوهُ » (يوحنا ١٣: ١٧) هو قول غني بالمعنى. إنّ الكلام لا قيمة له ما لم تصحبه الأعمال اللائقة. هذا هو الدرس الذي نتعلمه من مثل الابنين.

نطق المسيح بهذا المثل عندما زار أورشليم آخر مرة [273] قبل موته. كان قد طرد من الهيكل من كانوا يشترون ويبيعون. وقد تكلم صوته إلى قلوبهم بقوة اللّه. فإذ ذُهلوا وارتعبوا أطاعوا أمرَه بدون اعتذار أو مقاومة.

فبعدما هدأت مخاوفهم وعاد الكهنة والشيوخ إلى الهيكل وجدوا المسيح يشفي المرضى والمحتضرين. لقد سمعوا صوت الفرح وأغاني الحمد. وفي الهيكل نفسه كان الأولاد الذين عادت إليهم الصحة يلوحون بسعف النخل ويهتفون قائلين أوصنا لابن داود. والأطفال كانوا يلهجون بأصوات الحمد للشافي القدير. ومع ذلك فإن هذا كله لم يكن كافيا لقهر تعصّب الكهنة والشيوخ وحسدهم.

وفي اليوم التالي فيما كان المسيح يعلم في الهيكل تقدم إليه رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب وقالوا له: « بِأَيِّ سُلْطَانٍ تَفْعَلُ هذَا؟ وَمَنْ أَعْطَاكَ هذَا السُّلْطَانَ؟ » (متى ٢١: ٢٣).

لقد أُعطيَ للكهنة والشيوخ برهانٌ لا يُدحض على قدرة المسيح. ففيما كان يطهر الهيكلَ رأوا سلطان السماء يتألق في وجهه. ولم يستطيعوا أن يقاوموا السلطان الذي كان يتكلم به. ثم أيضا عندما كان يقوم بأعمال الشفاء العجيبة كان في ذلك الجواب على سؤالهم. لقد قدّم عن سلطانه البرهان الذي لم يمكن أن يجادل فيه. ولكن ما كان مطلوباً لم يكن هو البرهان. لقد كان الكهنة والشيوخ يتوقون إلى أن يعلن يسوع نفسه كمَسيَّا حتى يمكنهم أن يحرِّفوا أقواله ويثيروا الشعب ضدّه. كانوا يريدون أن يقضوا على نفوذه ويقتلوه.

وقد علم يسوع أنّهم إذا لم يستطيعوا أن يميزوا اللّه في ذاته هو أو يروا في أعماله البرهان على صفته الإلهية فلن يصدقوا شهادتَه بأنه المسيح. ففي جوابه تجنّب النتيجة التي كانوا يرجون الوصول إليها وجعل الاتّهام يرتدّ على رؤوسهم. [274]

فقال لهم: « وَأَنَا أَيْضًا أَسْأَلُكُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً، فَإِنْ قُلْتُمْ لِي عَنْهَا أَقُولُ لَكُمْ أَنَا أَيْضًا بِأَيِّ سُلْطَانٍ أَفْعَلُ هذَا: مَعْمُودِيَّةُ يُوحَنَّا: مِنْ أَيْنَ كَانَتْ؟ مِنَ السَّمَاءِ أَمْ مِنَ النَّاسِ؟ »

وقد ارتبَك الكهنة والرؤساء: « فَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ قَائِلِينَ: إِنْ قُلْنَا: مِنَ السَّمَاءِ، يَقُولُ لَنَا: فَلِمَاذَا لَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ؟ وَإِنْ قُلْنَا: مِنَ النَّاسِ، نَخَافُ مِنَ الشَّعْبِ، لأَنَّ يُوحَنَّا عِنْدَ الْجَمِيعِ مِثْلُ نَبِيٍّ. فَأَجَابُوا يَسُوعَ وَقَالُوا: لاَ نَعْلَمُ. فَقَالَ لَهُمْ هُوَ أَيْضًا: وَلاَ أَنَا أَقُولُ لَكُمْ بِأَيِّ سُلْطَانٍ أَفْعَلُ هذَا. »

« لا نعلم » لقد كان هذا الجواب كذباً. ولكنّ الكهنة رأوا المركز الحرج الذي كانوا فيه فكذبوا لكي يحموا أنفسهم. لقد أتى يوحنا المعمدان شاهداً للذي كانوا الآن يشكّون في سلطانه. وقد أشار إليه قائلا: « هُوَذَا حَمَلُ اللّهِ الَّذِي يَرْفَعُ

خَطِيَّةَ الْعَالَمِ » (يوحنا ١: ٢٩). وقد عمّده وبعد المعمودية فيما كان المسيح يصلي انفتحت السَّمَاوَات وروح اللّٰه مثل حمامة حَلّ عليه بينما سُمع صوت من السَّمَاوَات قائلا: « هذَا هُوَ ابْني الْحَبيبُ الَّذي به سُرِرْتُ » (متى ٣: ١٧).

إنّ الكهنة والرؤساء إذ ذكروا كيفَ كان يوحنَا يردّد النبوات الخاصة بالمسيح، وإذ ذكروا المشهد الذي رُئيَ عند عماد المسيح لم يجرؤوا على أن يقولوا إنّ معمودية يوحنا كانت من السماء. فلو اعترفوا بأن يوحنا نبي كما كانوا يعتقدون، فكيف كان يمكنهم أن ينكروا شهادته بأنّ يسوع الناصري هو ابن اللّٰه؟ كذلك لم يستطيعوا أن يقولوا إنّ معمودية يوحنا كانت من الناس بسبب الشعب الذين كانوا يؤمنون بأن يوحنا نبيّ. ولذلك قالوا: « لَا نَعْلَمُ ».

حينئذ قدم المسيح مثل الأب والابنين. فعندما جاء الأب إلى الابن الأول وقال له: « اذْهَب [275] الْيَوْمَ اعْمَلْ في كَرْمي » أجابه الابن قائلا على الفور: « مَا أُريدُ » رفض أن يطيع وأسلم نَفسه إلى طرق شريرة وسار مع عشراءُ أشرار. ولكنه بعد ذلك ندم وأطاع الدعوة.

ثم ذهب الأب إلى الابن الثاني بنفس الأمر قائلا: « اذْهَب الْيَوْمَ اعْمَلْ في كَرْمي » فأجابه هذا الابن قائلا: « هَا أَنَا يَا سَيِّدُ » ولكنه لَمْ يَمْض.

نجد في هذا المثل أنّ الأب يرمز إلى اللّٰه والكرم رمز إلى الكَنيسة. والابنان يرمزان إلى فريقين من [276] الناس. والابن الذي رفض إطاعة الأمر قائلا: « مَا أُريدُ » يرمز إلى من يعيشون في العصيان العلني والذين لا يَّدعون التقوى، والذين يجاهرون برفضهم الخضوع لنير الردع والطاعة الذي تفرضه شريعة اللّٰه. ولكن كثيرين من هؤلاء ندموا بعد ذلك وأطاعوا دعوة اللّٰه. فعندما جاءهم الإنجيل في رسالة يوحنا المعمدان قائلا: « تُوبُوا، لأَنَّهُ قَد اقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّماوَات » تابوا معترفين بخطاياهم (متى ٣: ٢).

أما الابن الذي قال: « هَا أَنَا يَا سَيِّدُ » ولم يمض فقد ظهرت فيه صفات الفريسيين. إنّ رؤساء اليهود كانوا قساة القلوب ومتكلين على أنفسهم كهذا الابن. لقد صارت الحياة الدينية بالنسبة إلى الأمة اليهودية مجرّد ادعاء. فعندما أعلنت الشريعة على جبل سيناء بصوت اللّٰه تعهد جميع الشعب بأن يطيعوها. فقد قالوا: « هَا أَنَا يَا سَيِّدُ » ولكنّهم لم يمضوا. وعندما جاء المسيح بنفسه ليضع أمامهم مبادئ الشريعة رفضوه، وقد قدم المسيح لرؤساء اليهود في أيامه البرهان الكافي على سلطانه وقدرته الإلهية ولكن مع أنهم اقتنعوا فقد رفضوا قبول البرهان. أراهم المسيح أنهم ظلوا سادرين في عدم إيمانهم

لأنّه لم تكن عندهم الروح التي تقود إلى الطاعة. وقد أعلن لهم قائلا: « فَقَدْ أَبْطَلْتُمْ وَصِيَّةَ اللّٰه بِسَبَب تَقْلِيدِكُمْ ... وَبَاطِلاً يَعْبُدُونَنِي وَهُمْ يُعَلِّمُونَ تَعَالِيمَ هِيَ وَصَايَا النَّاس » (مَتى ١٥: ٦، ٩).

وكان بين الجمع الذين كانوا أمام المسيح كتبة وفريسيون وكهنة ورؤساء، فبعدما قدّم مثل الابنين وجَّه المسيح إلى سامعيه هذا السؤال: « فَأَيُّ الاثْنَيْن عَمِلَ إِرَادَةَ الأَب؟ » فإذ نسي الفريسيون أنفسهم أجابوه قائلين: « الأَوَّلُ ». قالوا هذا وهم لا يدرون أنّهم إنّما يحكمون على أنفسهم. وحينئذ نطق المسيح بهذا الإنذار: « الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَ [277] الْعَشَّارِينَ وَالزَّوَانِيَ يَسْبِقُونَكُمْ إِلَى مَلَكُوت اللّٰه. لأَنَّ يُوحَنَّا جَاءَكُمْ فِي طَرِيق الْحَقِّ فَلَمْ تُؤْمِنُوا بِه، وَأَمَّا الْعَشَّارُونَ وَالزَّوَانِي فَآمَنُوا بِه. وَأَنْتُمْ إِذْ رَأَيْتُمْ لَمْ تَنْدَمُوا أَخِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِهَ. »

لقد جاء يوحنا المعمدان كارزا بالحق وبواسطة كرازته تبكّت الخطاة وتجدّدوا. هؤلاء يسبقون إلى ملكوت السَّمَاوَات من قد قاوموا الإنذار المقدس متّكلين على برّ أنفسهم. كان العشارون والزواني جهلة. أما هؤلاء العلماء فكانوا يعرفون طريق الحق. ومع هذا فقد رفضوا السير في الطريق المؤدي إلى فردوس اللّٰه. فالحقّ الذي كان ينبغي أن يكون لهم رائحة حياة لحياة أمسى رائحة موت لموت. فالذين كانوا يخطئون جهارا وكانوا يكرهون أنفسهم قبلوا المعمودية على يدي يوحنا، أمّا هؤلاء المعلمون فكانوا مرائين. لقد كانت قلوبهم العنيدة هي العقبة التي منعتهم من قبول الحق. لقد رفضوا تبكيت روح اللّٰه. ورفضوا الطاعة لوصايا اللّٰه.

إنّ المسيح لم يقل لهم: أنتم لا تستطيعون دخول ملكوت السَّمَاوَات، بل أراهم أنّ العقبة التي منعتهم هي من صنع أيديهم. كان الباب لا يزال مفتوحا أمام رؤساء اليهود هؤلاء، وكانت الدعوة [278] لا تزال مقدمة. وقد تاق المسيح لأن يراهم متبكتين متجددين.

لقد قضى كهنة إسرائيل وشيوخه حياتهم في ممارسة طقوس دينية اعتبروها أقدس من أن ترتبط بالأعمال الدنيوية. ولذلك كان من المفروض أن تكون حياتهم بجملتها حياة دينية. ولكنهم كانوا يمارسون طقوسهم ليراهم الناس ليظن العالم أنهم أتقياء ومكرسون. ففي حين كانوا عاملين بالحق الذي كانوا يعلّمون به.

وقد أعلن المسيح أنّ يوحنا المعمدان نبي من أعظم الأنبياء، وأبان لسامعيه أنه قد قُدم لهم البرهان الكافي على أنّ يوحنا مرسل من اللّٰه. فلقد كان نبي البرية يتكلم بقوة وقد حمل رسالته بلا تراجع، موبخا خطايا الكهنة والرؤساء

وموصيا إياهم بأن يعملوا أعمال ملكوت السَّمَاوَات. وقد وجه أنظارهم إلى احتقارهم الآثم لسلطان أبيهم برفضهم القيام بالعمل المعين عليهم. إنّه لم يجار الخطية وقد رجع كثيرون عن آثامهم.

ولو كان رؤساء اليهود صادقين في ادعائهم لقبلوا شهادة يوحنا وقبلوا يسوع كمسيا. ولكنهم لم يظهروا ثمار التوبة والبرّ. ونفس الناس الذين كانوا يحتقرونهم تقدموا نحو ملكوت اللّه قبلهم.

إنّ الابن المذكور في المثل والذي قال: « هَا أَنَا يَا سَيِّدُ » ادَّعى أنه أمين ومطيع، ولكنّ الزمن برهن على أنّ اعترافه لم يكن حقيقيا. لم يكن يحب أباه محبة صادقة. وهكذا كان الفريسيون يفخرون بقداستهم، ولكن لدى الامتحان وُجدت ناقصةً. فعندما قضت مصلحتهم أن يفعلوا هكذا جعلوا مطاليب الناموس صارمةً جدّاً، ولكن عندما كان يُطلب منهم أن يطيعوا فإنّهم بسفسطاتهم الماكرة أفقدوا وصية اللّه قوتها. وقد أعلن المسيح عنهم قائلا: « حَسَبَ أَعْمَالِهِمْ لاَ [279] تَعْمَلُوا، لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ وَلاَ يَفْعَلُونَ » (متى ٢٣: ٣). فلم تكن في قلوبهم محبة صادقة للّه أو الإنسان. لقد دعاهم اللّه ليكونوا عاملين معه في جلب البركات إلى العالم، ولكن في حين أنهم قبلوا الدعوة بأفواههم فإنهم بأعمالهم رفضوا الطاعة. لقد اتكلوا على ذواتهم وافتخروا بصلاحهم ولكنهم تحدّوا أوامر اللّه. وقد رفضوا العمل المعين لهم من اللّه وبسبب عصيانهم كان الرب مزمعا أن يفصل نفسه عن الأمة العاصية.

إنّ البر الذاتي ليس برّا حقيقيا والذين يتعلقون به سيُتركون ليحصدوا نتائج التمسك بخدعة قاتلة. إنّ كثيرين اليوم يدَّعون أنهم يطيعون وصايا اللّه ولكن ليست لهم محبة اللّه في قلوبهم لتفيض على الآخرين. فالمسيح يدعوهم لمشاركته في عمله لأجل خلاص العالم ولكنهم يكتفون بالقول: « هَا أَنَا يَا سَيِّدُ » ولكنهم لا يمضون. وهم لا يتعاونون مع من يقومون بخدمة اللّه. إنّهم متكاسلون. فكالابن الخائن يقدمون للّه مواعيد كاذبة. فإذ أخذوا على أنفسهم عهدَ الكنيسة المقدس تعهّدوا بقبول كلمة اللّه وإطاعتها، وأن يكرّسوا ذواتهم لخدمة اللّه ولكنهم لا يفعلون هذا. إنّهم بالاعتراف يدّعون أنّهم أبناء اللّه ولكنهم في حياتهم وأخلاقهم ينكرون هذه العلاقة. وهم لا يسلّمون الإرادة للّه. فهم يحيون حياة الادعاء.

ويبدو أنهم يتمّمون الوعد بالطاعة عندما لا ينطوي هذا على أية تضحية، ولكن عندما يتطلّب الأمر إنكار الذات والتضحية، وعندما يرون الصليب الذي

يجب أن يحملوه يتراجعون. وهكذا يتلاشى الاقتناع بالواجب ويصير العصيان السافر لوصايا اللّه عادة عندهم. فقد تسمع الأذن كلمة اللّه ولكن القوى الروحية الواعية قد تركت الإنسان. لقد صار القلب قاسيا والضمير موسوما.

لا تظنّ أنّك لكونك لا تبدي للمسيح عداوة صريحة [280] فأنت تقدم له خدمة. فنحن بهذا نخدع أنفسنا. فإذ نمسك عن اللّه ما قد أعطاه لنا لنستخدمه في خدمته سواء أكان ذلك وقتا أو مالا أو أيّ هبة من الهبات المودعة لدينا فإنّنا بذلك نحاربه.

إنّ الشيطان يستخدم بلادة وخمول المعترفين بالمسيحية المتغافلين ليدعُمَ قوّاته ويكسب النفوس إلى جانبه. وكثيرون ممّن يظنون أنهم مع كونهم لا يقومون بعمل حقيقي لأجل المسيح فإنهم مع ذلك في صفّه، هؤلاء يساعدون العدو على أن يسبق لاحتلال مواقع وكسب ميزات. إنّ هؤلاء الناس بإخفاقهم في أن يكونوا خداما مجدّين لأجل السيّد، وبتركهم للواجبات دون أن يعملوها، وصمتهم في حين يجب أن يتكلموا – بذلك سمحوا للشيطان بأن يسيطر على نفوسهم التي كان يمكن ربحها للمسيح.

لا يمكننا أبدا أن نخلُصَ في خمولنا وتوانينا. لا يوجد أبدا شخص متجدد تجديداً صحيحاً وهو يعيش حياة عاجزة عديمة النفع. ومن غير الممكن لنا أن ننجرفَ مع التيار إلى داخل السماء. فالسماء لا يمكن أن يدخلها إنسانٌ كسول، فإن لم نجتهد في الدخول إلى الملكوت، ولم نحاول بكلّ غيرة في تعلّم ما يكوّن شرائعها فلسنا مؤهلين للحصول على نصيب فيها. والذين يرفضون التعاون مع اللّه على الأرض لن يتعاونوا معه في السماء. فلا يكون من الأمان أخذهم إلى السماء.

يوجد رجاء للعشارين والخطاة أكثر ممّا لأولئك الذين يعرفون كلمة اللّه ولكنهم يرفضون إطاعتها. فالذي يرى نفسه خاطئا دون أن تكون لديه حجة يعتذر بها عن خطيته، والذي يعرف أنّه دائب على إفساد نفسه وجسده وروحه أمام اللّه يرتعب لئلا يُطرد إلى الأبد من ملكوت السَّمَاوَات. إنّه متحقق من حالته العليلة ويلتمس الشفاء من الطبيب العظيم الذي قال: « مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ لاَ أُخْرِجْهُ خَارِجًا » (يوحنا ٦: ٣٧). هؤلاء الناس يمكن للرب أن يستخدمهم خداما في كرَمه.

إنّ الابن الذي رفض طاعة أمر أبيه إلى حين لم يدنُهُ المسيح ولا مدحه. إنّ الفريق الذي يقوم أفراده بدور الابن الأول [281] في رفض الطاعة لا يستحقّون المديح لوقوفهم هذا الموقف. إنّ صراحتهم يجب أن لا تُحسب فضيلة. فالصراحة إذ يقدّسها الحقّ والقداسة كفيلة بجعل الناس شهودا باسلين للمسيح، ولكن إذ يستخدمها الخاطئ فإنّها تنطوي على الإهانة والتحدّي

وتكاد تكون تجديفا. إنّ حقيقة كون الإنسان ليس مرائياً تقلّل من كونه خاطئاً. فعندما تصل دعوات الرُّوح الْقُدُس إلى القلب فسلامتنا الوحيدة هي في الاستجابة لها بلا إبطاء. وعندما تأتي الدعوة قائلة: « اذْهَب الْيَوْمَ اعْمَلْ فِي كَرْمِي » فلا ترفضها: « الْيَوْمَ، إِنْ سَمِعْتُمْ صَوْتَهُ فَلاَ تُقَسُّوا قُلُوبَكُمْ » (عبرانيين ٤: ٧). إنّ تأجيل الطاعة لا يؤمّن جانبه. فقد لا تسمع الدعوة مرّة ثانية أبداً.

ولا يخدعنّ أحد نفسه بالظن أنّ الخطايا التي قد احتضنها بعض الوقت يستطيع بكل سهولة أن يتخلّص منها بعد قليل. إنّ الأمرَ ليس كذلك. فكل خطية يراعيها الإنسان في قلبه تُضعفُ الخُلُق وتقوّي العادة، وينتج عن ذلك انحطاط جسماني وعقلي وأدبي. قد تتوب عن خطأ ارتكبته وتسير في طرق الحق، ولكن اتجّاه عقلك وخبرتك بالشرّ سيجعلان من الصعب عليك أن تميّز بين الصواب والخطأ. فعن طريق العادات الشريرة التي كونتها سيهاجمك الشيطان مرارا وتكرارا.

في الأمر القائل: « اذْهَب الْيَوْمَ اعْمَلْ فِي كَرْمِي » يُمتحَن إخلاصُ كل نفس. فهل ستكون هنالك أفعال كما توجد أقوال؟ وهل سيستخدم المدعو كل المعرفة التي عنده ويخدم بأمانة ليس لمصلحته بل لأجل صالح صاحب الكرم؟

إنّ بطرس الرسول يوصينا فيما يختص بالخطة التي بموجبها يجب أن نخدم. فيقول: « لِتَكْثُرْ لَكُمُ النِّعْمَةُ وَالسَّلاَمُ بِمَعْرِفَةِ اللّٰهِ وَيَسُوعَ رَبِّنَا. كَمَا أَنَّ قُدْرَتَهُ الإِلهِيَّةَ قَدْ وَهَبَتْ لَنَا كُلَّ مَا هُوَ لِلْحَيَاةِ وَالتَّقْوَى، بِمَعْرِفَةِ الَّذِي دَعَانَا بِالْمَجْدِ وَالْفَضِيلَةِ، اللَّذَيْنِ بِهِمَا قَدْ وَهَبَ لَنَا الْمَوَاعِيدَ الْعُظْمَى وَالثَّمِينَةَ، [282] لِكَيْ تَصِيرُوا بِهَا شُرَكَاءَ الطَّبِيعَةِ الإِلهِيَّةِ، هَارِبِينَ مِنَ الْفَسَادِ الَّذِي فِي الْعَالَمِ بِالشَّهْوَةِ. »

« وَلِهذَا عَيْنِهِ وَأَنْتُمْ بَاذِلُونَ كُلَّ اجْتِهَادٍ قَدِّمُوا فِي إِيمَانِكُمْ فَضِيلَةً، وَفِي الْفَضِيلَةِ مَعْرِفَةً، وَفِي الْمَعْرِفَةِ تَعَفُّفًا، وَفِي التَّعَفُّفِ صَبْرًا، وَفِي الصَّبْرِ تَقْوَى، وَفِي التَّقْوَى مَوَدَّةً أَخَوِيَّةً، وَفِي الْمَوَدَّةِ الأَخَوِيَّةِ مَحَبَّةً » (٢بطرس ١: ٢-٧).

فإذا كنت بكل أمانة تهذّب كرم روحك فاللّٰه يجعلك عاملا معه. وسيكون لديك عمل تعمله ليس لأجل نفسك فقط بل أيضا لأجل الآخرين. إنّ المسيح وهو يرمز إلى الكنيسة بالكرم لا يعلّمنا أن نقصر عطفنا وخدماتنا على أفرادها فقط بل يجب توسيع كرم الرب. وهو يريده أن يمتدّ إلى كل أنحاء الأرض. وإذ نحصل على تعليمات ونعمة من اللّٰه يجب أن نخبر الآخرين ونعلمهم كيف يعتنون بالأغراس الثمينة. وهكذا يمكننا أن نوسّع كرم الرب. إنّ اللّٰه يراقبنا ليرى برهان إيماننا ومحبّتنا وصبرنا. إنّه يتطلع ليرى ما إذا كنا نستخدم كل ميزة روحية لنصير خدّاما ماهرين في كرمه على الأرض حتى يمكننا الدخول إلى

فردوس اللّٰه، أي جنة عدن التي قد طُرد منها آدم وحواء بسبب عصيانهما.

إنّ اللّٰه يقف من شعبه موقف الأب، وله علينا حقوق الأب في خدمتنا له بأمانة. تأمّلوا في حياة المسيح. فإذ يقف على رأس البشرية خادما أباه يقدّم نفسه مثالا لنا في ما يجب على كل ابن أن يكون وما يمكنه أن يكون. إنّ اللّٰه يطلب من كل بني الإنسان اليوم أن يقدّموا له طاعة كالتي قدمها المسيح. لقد خدم أباه بمحبة ورغبة وبمحض حرّيته. فقد أعلن قائلا: « أَنْ أَفْعَلَ مَشِيئَتَكَ يَا إِلهِي سُرِرْتُ، وَشَرِيعَتُكَ فِي وَسَطِ أَحْشَائِي » (مزمور ٤٠: ٨). إنّ المسيح لم يستعظم أيَة تضحيةَ ولم يستصعب أي تعبَ في سبيل إنجاز العمل الذي جاء ليكمله. وفي الثانية عشرة من عمره قال: « أَلَمْ تَعْلَمَا [283] أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ فِي مَا لأَبِي؟ » (لوقا ٢: ٤٩). لقد سمع الدعوة وبدأ بالعمل. وهو الذي قال: « طَعَامِيَ أَنْ أَعْمَلَ مَشِيئَةَ الَّذِي أَرْسَلَنِي وَأُتَمِّمَ عَمَلَهُ » (يوحنا ٤: ٣٤).

فهكذا ينبغي لنا أن نخدم اللّٰه. إنّ من يسلك بموجب أسمى مقياس للطاعة هو وحده الذي يخدم. فكل من يريدون أن يكونوا أولاداً للّٰه ينبغي لهم أن يبرهنوا على أنهم عاملون مع اللّٰه والمسيح وملائكة السماء. هذا هو الاختبار لكل نفس. والذين يخدمون الرب بأمانة يقول عنهم : « وَيَكُونُونَ لِي ... فِي الْيَوْمِ الَّذِي أَنَا صَانِعٌ خَاصَّةً، وَأُشْفِقُ عَلَيْهِمْ كَمَا يُشْفِقُ الإِنْسَانُ عَلَى ابْنِهِ الَّذِي يَخْدِمُهُ » (ملاخي ٣: ١٧).

إنّ غرَض اللّٰه العظيم في تنفيذ أعمال عنايته هو أن يمتحن الناس ويمنحهم فرصة لإنماء خلُقهم. وهكذا هو يبرهن ما إذا كانوا مطيعين لأوامره أو عصاة. إنّ الأعمال الصالحة لا تشتري محبة اللّٰه ولكنها تعلن عن امتلاكنا لهذه المحبة. وإنّ سلمنا أرادتنا للّٰه فإننا لا نعمل لكي نستحق محبة اللّٰه. ولكننا سنقبل محبته في نفوسنا كهبة مجانية ومن محبتنا له سنسرّ بإطاعة وصاياه.

يوجد في العالم اليوم فريقان، وهما الفريقان اللذان سيُعترَف بهما في يوم الدينونة – الذين ينتهكون شريعة اللّٰه، والذين يطيعونها. والمسيح يقدم الاختبار الذي به يتبرهن ولاؤنا أو عدم ولائنا. فهو يقول: « إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ ... اَلَّذِي عِنْدَهُ وَصَايَايَ وَيَحْفَظُهَا فَهُوَ الَّذِي يُحِبُّنِي، وَالَّذِي يُحِبُّنِي يُحِبُّهُ أَبِي، وَأَنَا أُحِبُّهُ، وَأُظْهِرُ لَهُ ذَاتِي ... اَلَّذِي لاَ يُحِبُّنِي لاَ يَحْفَظُ كَلاَمِي. وَالْكَلاَمُ الَّذِي تَسْمَعُونَهُ لَيْسَ لِي بَلْ لِلآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي » « إِنْ حَفِظْتُمْ وَصَايَايَ تَثْبُتُونَ فِي مَحَبَّتِي، كَمَا أَنِّي أَنَا قَدْ حَفِظْتُ وَصَايَا أَبِي وَأَثْبُتُ فِي مَحَبَّتِهِ » (يوحنا ١٤: ١٥، ٢١، ٢٤؛ ١٥: ١٠). [284]

٢٣

كَرْمُ الرَّبِ

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في متى ٢١: ٣٣-٤٤).

الأمة اليهودية

لقد تبع مثَلُ الابنين مثَلَ الكَرْم. ففي المثَل الأول وضع المسيح أمام معلمي اليهود أهمية الطاعة. أما في المثل الثاني فقد أشار إلى البركات الغنية الممنوحة لإسرائيل، وفي هذه أبان حقَّ اللّٰه في طلب طاعته. وقد وضع أمامهم قصد اللّٰه المجيد الذي كان يمكنهم إتمامه بالطاعة. وإذ أزاح الستار عن المستقبل أراهم كيف أنّ الأمة كلها بسبب إخفاقها في إتمام قصده خسرت بركته وجلبت على نفسها الدمار.

قال المسيح: « كَانَ إِنْسَانٌ رَبُّ بَيْت غَرَسَ كَرْمًا، وَأَحَاطَهُ بِسيَاجٍ، وَحَفَرَ فِيهِ مَعْصَرَةً، وَبَنَى بُرْجًا، وَسَلَّمَهُ إِلَى كَرَّامِينَ وَسَافَرَ » (متى ٢١: ٣٣).

لقد قدم إِشَعْيَاء وصفاً لهذا الكرم فقال: « لأُنْشِدَنَّ عَنْ حَبِيبِي نَشِيدَ مُحِبِّي لِكَرْمِه. كَانَ لِحَبِيبِي [285] كَرْمٌ عَلَى أَكَمَة خَصِبَة. فَنَقَبَهُ وَنَقَّى حِجَارَتَهُ وَغَرَسَهُ كَرْمَ سَوْرَقَ، وَبَنَى بُرْجًا فِي وَسَطِه، وَنَقَرَ فِيهِ أَيْضًا مِعْصَرَةً، فَانْتَظَرَ أَنْ يَصْنَعَ عِنَبًا » (إِشَعْيَاء ٥: ١، ٢).

إنّ الكرام يختار قطعة أرض من البرّية، ويحيطها بسياج وينقّبها ويفلحها ويغرسها بأجود أنواع الكرم منتظرا محصولا غنيا. إنّه ينتظر أنّ بقعة الأرض هذه في تفوّقها على القفر القاحل ستكرمه بكونها تبيّن نتائج عنايته وتعبه في إصلاحها وزرعها. وهكذا اختار اللّٰه لنفسه شعبا من بين العالم ليدرّبه المسيح ويعلّمه. والنبي يقول: « إِنَّ كَرْمَ يَهْوَه اَلْجُنُود هُوَ بَيْتُ إِسْرَائِيلَ، وَغَرْسَ لَذَّته رجَالُ يَهُوذَا » (إِشَعْيَاء ٥: ٧). لقد أغدَق اللّٰه على هذا الشعب بركات وامتيازات عظيمةً مباركا إياهم بغنى من فيض جوده. وقد انتظر أنّهم يكرمونه بكونهم يأتون بثمر. كان عليهم أن يُظهروا مبادئ ملكوته. ففي وسط العالم الساقط الشرير كان عليهم أن يُظهروا صفات اللّٰه.

فككرم الرب كان عليهم أن يثمروا ثمرا يختلف اختلافا كليا عن الأمم الوثنية. فهذه الشعوب الوثنية كانت قد أسلمت نفسها لعمل الشر. فقد انغمس الناس في القسوة والجرائم والطمع والظلم وأفسدوا الأعمال النجسة بغير مانع. فقد كان الإثم والانحطاط والشقاء هي ثمار هذه الشجرة الفاسدة. ولكن الكرم الذي هو من غرس يدي اللّٰه كان يجب أن يثمر ثمرا يختلف عن هذه الثمار اختلافا ملحوظا.

وقد كان امتيازٌ للأمة اليهودية أن تُظهر صفات اللّٰه كما قد أظهرت لموسى. وقد استجاب الرب لطلبة موسى: « أَرني مَجْدَكَ » بأن وعده قائلا : « أُجيزُ كُلَّ جُودَتي قُدَّامَكَ » (خروج ٣٣: ١٨، ١٩). « فَاجْتَازَ الرَّبُّ قُدَّامَهُ، وَنَادَى الرَّبُّ: الرَّبُّ إِلهٌ [286] رَحِيمٌ وَرَؤُوفٌ، بَطِيءُ الْغَضَب وَكَثِيرُ الإِحْسَان وَالْوَفَاء. حَافِظُ الإِحْسَان إِلَى أُلُوف. غَافِرُ الإِثْم وَالْمَعْصِيَة وَالْخَطِيَّة » (خروج ٣٤: ٦، ٧). هذا هو الثمر الذي طلبه اللّٰه من شعبه. ففي طهارة أخلاقهم وقداسة حياتهم، في رحمتهم ورأفتهم وإشفاقهم كان عليهم أن يبرهنوا على أنّ « نَامُوسُ الرَّبِّ كَامِلٌ يَرُدُّ النَّفْسَ » (مزمور ١٩: ٧).

فعن طريق الأمة اليهودية قصد اللّٰه أن يوزع بركاته على كل الشعوب. وعن طريق إسرائيل كان يجب إعداد الطريق حتى يشعّ نور اللّٰه على كل العالم. إنّ أمم العالم بمزاولتها أعمالا فاسدة أضاعت معرفة اللّٰه. ومع ذلك فإنّ اللّٰه في رحمته لم يمحُها من الوجود. فقد قصد أن يعطيهم فرصة للتعرف به عن طريق كنيسته. وقد قصد أنّ المبادئ المعلنة بواسطة شعبه تكون وسيلةَ إعادة صورة اللّٰه الأدبية إلى الإنسان.

ولأجل إتمام هذا الغرض دعا اللّٰه إبْرَاهيم من بين عشيرته الوثنية وأمره بالسكنى في أرض كنعان. فقال له: « أَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعظم اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً » (تكوين ١٢: ٢).

وقد نزل نسل إِبْرَاهِيم، يعقوب وأولاده، إلى مصر حتى وهُم في وسط تلك الأمة العظيمة الشريرة يعلنون مبادئ ملكوت اللّٰه. هذا وإنّ استقامة يوسف ونزاهته وعمله العجيب في حفظ حياة الشعب المصري كله كانت تصويرا لحياة المسيح. وقد كان موسى وكثيرون غيره شهوداً للّٰه.

وعند إخراج إسرائيل من مصر أظهر الرب قدرته ورحمته مرة أخرى. وعجائبه التي أجراها في إنقاذهم من العبودية ومعاملاته معهم أثناء ترحالهم في البرية لم تكن [287] لأجل منفعتهم وحدهم. فقد كان القصد منها أن تكون مثلا منظورا للأمم المجاورة. لقد أعلن الرب نفسه كالإله الذي يسمو فوق كل سلطان وعظمة بشرية. والآيات والعجائب التي أجراها لأجل شعبه برهنت على أن له سلطاناً على الطبيعة وعلى أعظم العظماء الذين عبدوا الطبيعة. لقد اجتاز اللّٰه ففي وسط أرض مصر المتكبّرة كما سيجتاز في الأرض في الأيام الأخيرة. فبالنار والعواصف والزلازل والموت افتدى أهيه العظيم شعبه. لقد أخرجهم من أرض العبودية. سار بهم في « الْقَفْرِ الْعَظِيمِ الْمَخُوفِ، مَكَانِ حَيَّاتٍ مُحْرِقَةٍ وَعَقَارِبَ وَعَطَشٍ » وأخرج لهم « مَاءً مِنْ صَخْرَةِ الصَّوَّانِ » (تثنية ٨: ١٥)، « وَبُرَّ السَّمَاءِ أَعْطَاهُمْ » (مزمور ٧٨: ٢٤). فقد قال موسى: « إِنَّ قِسْمَ الرَّبِّ هُوَ شَعْبُهُ. يَعْقُوبُ حَبْلُ نَصِيبِهِ. وَجَدَهُ فِي أَرْضِ قَفْرٍ، وَفِي خَلاَءٍ مُسْتَوْحِشِ خَرِبٍ. أَحَاطَ بِهِ وَلاَحَظَهُ وَصَانَهُ كَحَدَقَةِ عَيْنِهِ. كَمَا يُحَرِّكُ النَّسْرٌ عُشَّهُ وَعَلَى فِرَاخِهِ يَرِفُّ، وَيَبْسُطُ جَنَاحَيْهِ وَيَأْخُذُهَا وَيَحْمِلُهَا عَلَى مَنَاكِبِهِ، هكَذَا الرَّبُّ وَحْدَهُ اقْتَادَهُ وَلَيْسَ مَعَهُ إِلهٌ أَجْنَبِيٌّ » (تثنية ٣٢: ٩-١٢). وهكَذَا أتى بهم إلى نفسه ليسكنوا في ظل القدير. وقد كان المسيح هو القائد لبني إسرائيل في رحلاتهم عبر البرية. فإذ كان محتجبا في عمود السحاب في النهار وعمود النار في الليل قادهم وهداهم. وقد حفظهم من مخاطر البرية، وأتى بهم إلى أرض الموعد، وأمام عيون كل الأمم التي لم تعترف باللّٰه ثبّت إسرائيل كخاصته المختارة وكرّم الرب.

هذا الشعب أستؤمن على أقوال اللّٰه. وقد أُقيم حولهم سياج من وصايا شريعته – مبادئ الحق والعدل والطهارة. فكانت حمايتهم في إطاعتهم لهذه المبادئ لأنّ ذلك [288] كان يحفظهم من إهلاك أنفسهم بالأعمال الشريرة. وكالبرج الذي بُني في الكرم أقام اللّٰه في وسط الأرض هيكله المقدس.

ثم إنّ المسيح كان معلّما لهم. فكما كان معهم في البرية كذلك كان سيظل معلّمهم ومرشدهم. فقد حل مجده في الشَّكَينا المُقَدَّس فوق غطاء الرحمة

في الخيمة وفي الهيكل. وقد كشف لهم عن غنى محبته وصبره على الدوام.

كان اللّٰه يتوق لأن يجعل شعبه إسرائيل تسبيحة ومجداً. فقد أعطى لهم كل امتياز روحي. فاللّٰه لم يمنع عنهم شيئا موافقا أو مساعدا لتكوين الخلق الكفيل بأن يجعلهم نوابا عنه.

إنّ طاعتهم لشريعة اللّٰه كانت عتيدة أن تجعلهم معجزات للنجاح أمام أمم العالم. فذاك الذي يستطيع أن يمنحهم حكمة ومهارة في كل أعمال الصناعة الحاذقة كان يمكن أن يظل معلّما لهم ويسمو بهم ويرفعهم عن طريق الطاعة لنواميسه. فلو أطاعوا كانوا يُحفظون من الأمراض التي ابتُليت بها الأمم الأخرى وكانوا يبارَكون بالنشاط الفكري. وكان مجد اللّٰه وجلالُه وقدرتُه تُعلَن في كل نجاحهم. وكانوا يصيرون مملكة كهنة ورؤساء. وقد أمدّهم اللّٰه بكل ما يساعدهم على أن يكونوا أعظم أمة على الأرض.

لقد أعلمهم المسيح على لسان موسى قصد اللّٰه بكيفية ثابتة ومحددة، وأوضح لهم شروط نجاحهم فقال: « أَنْتَ شَعْبٌ مُقَدَّسٌ للرَّبِّ إِلهكَ. إِيَّاكَ قَد اخْتَارَ الرَّبُّ إِلهُكَ لتَكُونَ لَهُ شَعْبًا أَخَصَّ منْ جَميعِ الشُّعُوبَ الَّذينَ عَلَى وَجْه الأَرْض ... فَاعْلَمْ أَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ هُوَ اللّٰهُ، الإِلَهُ الأَمينُ، الْحَافظُ الْعَهْدَ وَالإِحْسَانَ للَّذينَ يُحبُّونَهُ وَيَحْفَظُونَ وَصَايَاهُ إِلَى أَلْف جيل ... فَاحْفَظ الْوَصَايَا [289] وَالْفَرَائضَ وَالأَحْكَامَ الَّتي أَنَا أُوصيكَ الْيَوْمَ لتَعْمَلَهَا. « وَمنْ أَجْل أَنَّكُمْ تَسْمَعُونَ هذه الأَحْكَامَ وَتَحْفَظُونَ وَتَعْمَلُونَهَا، يَحْفَظُ لَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ الْعَهْدَ وَالإِحْسَانَ اللَّذَيْن أَقْسَمَ لآبَائكَ. وَيُحبُّكَ وَيُبَارِكُكَ وَيُكَثِّرُكَ وَيُبَارِكُ ثَمَرَةَ بَطْنكَ وَثَمَرَةَ أَرْضكَ: قَمْحَكَ وَخَمْرَكَ وَزَيْتَكَ وَنتَاجَ بَقَرِكَ وَإِنَاثَ غَنَمكَ، عَلَى الأَرْض الَّتي أَقْسَمَ لآبَائكَ أَنَّهُ يُعْطيكَ إِيَّاهَا. مُبَارَكًا تَكُونُ فَوْقَ جَميعِ الشُّعُوب ... وَيَرُدُّ الرَّبُّ عَنْكَ كُلَّ مَرَض، وَكُلَّ أَدْوَاءِ مصْرَ الرَّديئَة الَّتي عَرَفْتَهَا لاَ يَضَعُهَا عَلَيْكَ » (تثنية ٧: ٦، ٩، ١١-١٥).

فإذا حَفظوا وصَايَا اللّٰه فقد وعد بأن يعطيهم أجود الحنطة ويخرج لهم من الصخرة عسلا. ومن طول الأيام يشبعهم ويريهم خلاصه.

إن آدم وحواء قد أضاعا عدن بسبب عصيانهما للّٰه، وبسبب الخطية لُعنت الأرض كلها. ولكن إذا اتبع شعب اللّٰه وصاياه فإنّ أرضهم سيُرَدّ إليها الخصب والجمال. وقد أعطاهم اللّٰه نفسُه توجيهات عن زرع الأرض، وكان عليهم أن يتعاونوا معه على استردادها. وهكذا تصير الأرض، تحت سلطان اللّٰه مثلا ملموسا لتعلم الحق الروحي. فكما أنّه بالطاعة لنواميس اللّٰه الطبيعية تخرج الأرض للإنسان خيراتِها وكنوزَها فكذلك في الطاعة لناموسه الأدبي كانت

قلوب الشعب ستعكس صفات اللّٰه وحتى الوثنيون يعترفون بسمو وتفوق من خدموا الإله الحيّ وعبدوه.

وقد قال موسى: « اُنْظُرْ. قَدْ عَلَّمْتُكُمْ فَرَائِضَ وَأَحْكَامًا كَمَا أَمَرَنِي الرَّبُّ إِلهِي، لِكَيْ تَعْمَلُوا هكَذَا فِي الأَرْضِ الَّتِي أَنْتُمْ دَاخِلُونَ إِلَيْهَا لِكَيْ تَمْتَلِكُوهَا. فَاحْفَظُوا وَاعْمَلُوا. لأَنَّ ذلِكَ حِكْمَتُكُمْ [290] وَفِطْنَتُكُمْ أَمَامَ أَعْيُنِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ كُلَّ هذِهِ الْفَرَائِضِ، فَيَقُولُونَ: هذَا الشَّعْبُ الْعَظِيمُ إِنَّمَا هُوَ شَعْبٌ حَكِيمٌ وَفَطِنٌ. لأَنَّهُ أَيُّ شَعْبٍ هُوَ عَظِيمٌ لَهُ آلِهَةٌ قَرِيبَةٌ مِنْهُ كَالرَّبِّ إِلهِنَا فِي كُلِّ أَدْعِيَتِنَا إِلَيْهِ؟ وَأَيُّ شَعْبٍ هُوَ عَظِيمٌ لَهُ فَرَائِضُ وَأَحْكَامٌ عَادِلَةٌ مِثْلُ كُلِّ هذِهِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي أَنَا وَاضِعٌ أَمَامَكُمُ الْيَوْمَ؟ » (تثنية ٤: ٥-٨).

كَانَ علَى بني إسرائيل أن يحتلوا كل الإقليم الذي عيّنه اللّٰه لهم. والأمم التي رفضت أن تعبد الإله الحقيقي وتخدمه كانت ستُطرد من الأرض. ولكن قصد اللّٰه كان أنه بواسطة إعلان صفاته عن طريق إسرائيل يُجتذب الناس إليه. وكان يجب أن تُقدّم دعوة الإنجيل لكل العالم. وبواسطة تعليم الخدمة الكفارية كان المسيح سيُرفع أمام الأمم وكل من ينظرون إليه يحيون. وكل من يهجرون عبادة الأوثان ليعبدوا الإله الحقيقي كراحاب الكنعانية وراعوث المؤابية ينضمون إلى شعبه المختار. وبقدر ما نما عدد بني إسرائيل وتكاثروا كان يجب عليهم أن يوسعوا تخومهم حتى تشمل مملكتهم العالم.

كان اللّٰه يريد أن يجمع كل الشعوب تحت حكمه الرحيم، كانت بغيته أن تمتلئ الأرض بالفرح والسلام. لقد خلق الإنسان ليسعد ، وهو يشتاق لأن يملأ قلوب الناس بسلام السماء، وهو يرغب أن تكون الأسرة التي على الأرض رمزاً للأسرة العظيمة في السماء.

ولكن إسرائيل لم يتمم قصد اللّٰه. فقد أعلن الرب قائلا: « وَأَنَا قَدْ غَرَسْتُكِ كَرْمَةَ سُورَقَ، زَرْعَ حَقٍّ كُلَّهَا. فَكَيْفَ تَحَوَّلْتِ لِي سُرُوغَ جَفْنَةٍ غَرِيبَةٍ؟ » (إرميا ٢: ٢١). « إِسْرَائِيلُ جَفْنَةٌ مُمْتَدَّةٌ. يُخْرِجُ ثَمَرًا لِنَفْسِهِ » (هوشع ١٠: ١). « وَالآنَ يَا سُكَّانَ أُورُشَلِيمَ وَرِجَالَ يَهُوذَا، احْكُمُوا بَيْنِي وَبَيْنَ كَرْمِي. مَاذَا يُصْنَعُ أَيْضًا لِكَرْمِي وَأَنَا لَمْ [291] أَصْنَعْهُ لَهُ؟ لِمَاذَا إِذِ انْتَظَرْتُ أَنْ يَصْنَعَ عِنَبًا، صَنَعَ عِنَبًا رَدِيئًا؟ فَالآنَ أُعَرِّفُكُمْ مَاذَا أَصْنَعُ بِكَرْمِي: أَنْزَعُ سِيَاجَهُ فَيَصِيرُ لِلرَّعْيِ. أَهْدِمُ جُدْرَانَهُ فَيَصِيرُ لِلدَّوْسِ. وَأَجْعَلُهُ خَرَابًا لاَ يُقْضَبُ وَلاَ يُنْقَبُ، فَيَطْلَعُ شَوْكٌ وَحَسَكٌ. وَأُوصِي الْغَيْمَ أَنْ لاَ يُمْطِرَ عَلَيْهِ مَطَرًا... فَانْتَظَرَ حَقًّا فَإِذَا سَفْكُ دَمٍ، وَعَدْلاً فَإِذَا صُرَاخٌ » (إشعياء ٥: ٣-٧).

وقد أوضح الرب لشعبه على لسان موسى النتائج المترتبة على عدم الأمانة. فإذا رفضوا إطاعة عهده فسيبترون أنفسهم من حياة اللّٰه ولن تحل عليهم بركته. فقال موسى: « احْتَرِزْ مِنْ أَنْ تَنْسَى الرَّبَّ إِلهَكَ وَلاَ تَحْفَظَ وَصَايَاهُ وَأَحْكَامَهُ وَفَرَائِضَهُ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ. لِئَلاَّ إِذَا أَكَلْتَ وَشَبِعْتَ وَبَنَيْتَ بُيُوتًا جَيِّدَةً وَسَكَنْتَ، وَكَثُرَتْ بَقَرُكَ وَغَنَمُكَ، وَكَثُرَتْ لَكَ الْفِضَّةُ وَالذَّهَبُ، وَكَثُرَ كُلُّ مَا لَكَ، يَرْتَفِعُ قَلْبُكَ وَتَنْسَى الرَّبَّ إِلهَكَ ... وَلِئَلاَّ تَقُولَ فِي قَلْبِكَ: قُوَّتِي وَقُدْرَةُ يَدِيَ اصْطَنَعَتْ لِي هذِهِ الثَّرْوَةَ ... وَإِنْ نَسِيتَ الرَّبَّ إِلهَكَ، وَذَهَبْتَ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى وَعَبَدْتَهَا وَسَجَدْتَ لَهَا، أُشْهِدُ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ أَنَّكُمْ تَبِيدُونَ لاَ مَحَالَةَ ... كَالشُّعُوبِ الَّذِينَ يُبِيدُهُمُ الرَّبُّ مِنْ أَمَامِكُمْ كَذلِكَ تَبِيدُونَ، لأَجْلِ أَنَّكُمْ لَمْ تَسْمَعُوا لِقَوْلِ الرَّبِّ إِلهِكُمْ » (تثنية ٨: ١١-١٤، ١٧، ١٩، ٢٠).

ولم يَكترث الشعبَ اليهودي للإنذار. فقد نسوا اللّٰه وغاب عن أنظارهم أمتيازهم السامي كنوّاب عنه. والبركات التي أغدقت عليهم لم يتبارك بها العالم وقد خصصوا كل امتيازاتهم لتمجيد ذواتهم. وقد سلبوا [292] اللّٰه الخدمة التي طلبها منهم وسلبوا بني جنسهم القيادة الدينية والمثال المقدس. فكسكان العالم قبل الطوفان اتبعوا كل تصورات قلوبهم الشريرة. وهكذا جعلوا الأشياء المقدسة تبدوا وكأنها مهزلة « قَائِلِينَ: هَيْكَلُ الرَّبِّ، هَيْكَلُ الرَّبِّ، هَيْكَلُ الرَّبِّ هُوَ » (إرميا ٧: ٤)، وفي نفس الوقت كانوا يشوهون صفات اللّٰه ويهينون اسمه وينجسون مقدسه.

إنّ الكرّامين الذين سلم إليهم كرم الربَ خانوا الأمانة. فالكهنة والمعلمون لم يكونوا معلمين أمناء للشعب. فهُم لم يجعلوا نُصْب عيونهم صلاح اللّٰه ورحمته وحقه في محبتهم وخدمتهم. هؤلاء الكرامون طلبوا مجد أنفسهم. فقد أرادوا الاستيلاء على ثمار الكرم. وقد اجتهدوا في تحويل أنظار الناس وولائهم إلى أنفسهم.

إن ذنب هؤلاء القادة في إسرائيل لم يكن كذنب أي خاطئ عادي. فهؤلاء الرجال كانوا تحت أقدس التزام ومسؤولية أمام اللّٰه. فقد تعهدوا بأن يعلّموا الناس ما قاله الرب وأن يطيعوا اللّٰه طاعة دقيقة في حياتهم العملية. ولكنهم بدلا من هذا كانوا يحرّفون الكتب المقدسة. فكانوا يحمِّلون الناس أحمالا ثقيلة ويفرضون عليهم طقوسا تناولت كل خطوة في الحياة. وقد عاش الشعب في انزعاج دائم إذ لم يستطيعوا إتمام كل المطاليب التي فرضها عليهم الأحبار. فإذ رأوا استحالة حفظ وصايا الناس أهملوا في حفظ وصايا اللّٰه.

وقد أوصى الرب شعبه وعلّمهم بأنّه هو صاحب الكرم وأنّ كل ما يملكونه قد أُعطيَ لهم كأمانة ليستخدموا لأجله. ولكن الكهنة والمعلمين لم يقوموا بأعمال وظيفتهم المقدسة كما لو كانوا يتصرفون في ملك اللّٰه. وبانتظام كانوا يسلبون اللّٰه أمواله وخيراته [293] وهي التي أودعت بين أيديهم لأجل تقدم عمله. إنّ طمعهم وجشعهم جعلاهم محتقرين حتى في نظر الوثنيين. وهكذا أُعطيت فرصة للعالم الأممي ليشوّه صفات اللّٰه وقوانين ملكوته.

ولكن اللّٰه احتمل شعبه وصبر عليهم بقلب الآب الصفوح الرحيم. فقد توسّل إليهم بالمراحم التي منحها لهم والمراحم التي أخذها منهم. وبكل صبر جعل خطاياهم أمام عيونهم وبطول أناة انتظر اعترافهم. وقد أرسل إليهم الأنبياء والرسل ليلحوا بحق اللّٰه على الكرامين، ولكن بدلا من الترحيب بهم عوملوا معاملة الأعداء. فقد اضطهدهم الكرَّامون وقتلوهم. وقد عاد اللّٰه فأرسل رسلا آخرين ولكنهم عوملوا بنفس معاملة الأولين، بل ذاد الكرَّامون في عدوانهم العنيد.

وقد أرسل اللّٰه أبنه كحل أخير قائلا: « يَهَابُونَ ابْنِي » (متى ٢١:٣٧). ولكن مقاومتهم جعلتهم ناقمين فقالوا فيما بينهم: « هذَا هُوَ الْوَارِثُ! هَلُمُّوا نَقْتُلْهُ وَنَأْخُذْ مِيرَاثَهُ » (متى ٢١: ٣٨). وحينئذ سنُترك لنستمتع بالكَرم ونتصرف في ثمره كما نشاء.

إن رؤساء اليهود لم يحبوا اللّٰه، ولذلك قطعوا صلتهم به، ورفضوا كل العروض للوصول إلى تسوية عادلة. فالمسيح حبيب اللّٰه أتى ليثبت حقوق صاحب الكرم، ولكن الكرامين عاملوه بازدراء ملحوظ قائلين لا نريد أن هذا يملك علينا. وقد حسدوا المسيح على جمال خلُقه. وطريقته في التعليم كانت أسمي بكثير من طريقتهم وكانوا يخشون من نجاحه. وقد آلمتهم توبيخاته التي لم يستطيعوا إسكاتها. وقد أبغضوا [294] مقياس البرّ السامي الذي قدمه المسيح على الدوام. ورأوا أن تعليمه وضعهم في كشف عن أنانيتهم فعوَّلوا على قتله. لقد أبغضوا مثاله في الصدق والتقوى والروحانية السامية الظاهرة في كل ما فعل. وقد كانت بجملتها توبيخا لأثرتهم، وعندما جاء الامتحان الأخير، الامتحان الذي كان معناه إما الطاعة للحياة الأبدية أو العصيان لـلهلاك الأبدي، رفضوا قدوس إسرائيل. وعندما قُدّمت لهم الفرصة ليختاروا إما المسيح أو باراباس صرخوا قائلين: « أَطْلِقْ لَنَا بَارَابَاسَ » (لوقا ٢٣: ١٨). وعندما سألهم بيلاَطُسُ قائلا: « فَمَاذَا أَفْعَلُ بِيَسُوعَ » صرخوا بشدّة قائلين: « لِيُصْلَب » (متى ٢٧: ٢٢). فلما سألهم بِيلاَطُسُ قائلا: « أَأَصْلِبُ

مَلِكَكُمْ؟ » جاء الجواب من أفواه الكهنة والرؤساء: « ليس لنا ملك إلاّ قيصر » (يوحنا ١٩: ١٥). وعندما غسل بيلاَطُسُ يديه قائلا: « إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ دَمِ هذَا الْبَارِّ » أشترك الكهنة مع الرعاع الجهلة مصرِّحين بانفعال: « دَمه علينا وعلى أولادنا » (متى ٢٧: ٢٤، ٢٥).

وهكذا تم اختيار رؤساء اليهود. وقد سُجِّلَ قرارهم هذا في السفر الذي رآه يوحنا في يد الجالس على العرش، السفر الذي لم يستطع أحد أن يفتحه. هذا القرار بكل ما ينطوي عليه من حقد وحب انتقام سيظهر أمامهم في اليوم الذي فيه سيفتحُ هذا السفر الأسدُ الذي من سبط يهوذا.

كان اليهود يعتزون بفكرة كونهم أحبّاء السماء ومحاسيبها وأنهم سيتمجدون دائما ككنيسة اللّٰه. وقد أعلنوا أنهم أولاد إِبْرَاهِيم، وقد بدأ أساس نجاحهم ثابتا بحيث كانوا يتحدّون الأرض والسماء عن أَن تحرماهم من حقوقهم. ولكنّهم بحياة عدم الأمانة كانوا موشكين على الوقوع تحت دينونة السماء والانفصال عن اللّٰه.

فبعدما صوَّر المسيح أمام الكهنة آخر أعمالهم الشريرة في مثل الكرم قدم لهم [295] هذا السؤال: « فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين؟ » كان الكهنة يتتبعون القصة باهتمام عظيم وبدون أن يلاحظوا علاقة الموضوع بأنفسهم اشتركوا مع الشعب في الإجابة قائلين: « أُولئِكَ الأَرْدِيَاءُ يُهْلِكُهُمْ هَلاَكًا رَدِيًّا، وَيُسَلِّمُ الْكَرْمَ إِلَى كَرَّامِينَ آخَرِينَ يُعْطُونَهُ الأَثْمَارَ فِي أَوْقَاتِهَا » (متى ٢١: ٤٠، ٤١).

بدون علمهم نطقوا على أنفسهم بحكم الدينونة. فنظر يسوع إليهم، وأمام نظرته الفاحصة علموا أنه كان يقرأ خفايا قلوبهم. لقد تألّقت ألوهيتُه أمامَهم بقوة واضحة جليّة فقد رأوا في الكرّامين صورةً لأنفسهم وعلى رغمهم صرخوا قائلين: « حاشا »! (لوقا ٢٠: ١٦).

فسألهم المسيح بوقار وأسف قائلا: « أما قرأتم قط في الكتب. الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية. أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ فِي الْكُتُبِ: الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ؟ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كَانَ هذَا وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا! لذلك أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَلَكُوتَ اللّٰهِ يُنْزَعُ مِنْكُمْ وَيُعْطَى لأُمَّةٍ تَعْمَلُ أَثْمَارَهُ. وَمَنْ سَقَطَ عَلَى هذَا الْحَجَرِ يَتَرَضَّضُ، وَمَنْ سَقَطَ هُوَ عَلَيْهِ يَسْحَقُهُ » (متى ٢١: ٤٢-٤٤).

كان يمكن للمسيح أن يبعد الدينونة عن الأمة اليهودية لو كان الشعب قد قبله. ولكن الحسد والغيرة جعلتهم متصلبين. لقد أصروا على عدم قبول

يسوع الناصري كمسيا. وقد رفضوا نور العالم ومنذ ذلك الحين اكتنفت حياتَهم ظلماتٌ داجيةٌ كظلمة منتصف الليل. والدينونة التي أُنبيء بها حاقت بالأمة اليهودية. ففي غضبهم الأعمى أهلكوا بعضُهم بعضا. [296] فكبرياؤهم المتمرّدة العنيدة جلبت عليهم غضب قاهريهم الرومان. فلقد خُرّبت أورشليم وصار الهيكل خرابا وحرث موقعه كحقل. وقد هلك بنو يهوذا بأرهب الميتات، وملايين منهم بيعوا ليخدموا كعبيد في بلدان وثنية.

لقد أخفق اليهود كشعب في إتمام غرض اللّٰه فنُزع الكرم منهم. والميزات التي أساءوا استعمالها والعمل الذي استخفوا به استُودع بين أناس آخرين.

كنيسة اليوم

إنّ مثَل الكرم لا ينطبق على الأمة اليهودية وحدَها. ولكنّ لنا فيه درسا. فالكنيسة في هذا العصر قد منحها اللّٰه ميزاتٍ وبركاتٍ عظيمةً وهو ينتظر نتائجَ تناسب ذلك كله.

إنّنا قد افتُدينا بثمن غال. فبواسطة هذه الفدية وعظمتها يمكننا إدراكَ نتائجها. فعلى هذه الأَرض، الأرض التي قد رُويَت تربتُها بدموع ابن اللّٰه ودمه يجب أن تطلعَ ثمارُ الفردوس. وفي حياة شعب اللّٰه يجب أن تُعلنَ حقائقُ كلمته مجدَها وسموها. والمسيح سيُظهر صفاتِه ومبادئ ملكوته بواسطة شعبه.

إنّ الشيطان يحاول أن يقاومَ عمل اللّٰه وهو على الدوام يلحّ على الناس في قبول مبادئه. وهو يصور شعب اللّٰه المختار كمن هو شعب مخدوع. إنّه المشتكي على الإخوة، وقوّته على الاتّهام تُستخدَم ضدّ من يصنعون البرّ. والرب يرغب بواسطة شعبه أن يجاوب على اتهامات الشيطان بإظهار نتائج الطاعة للمبادئ الصحيحة.

هذه المبادئ يجب أن تظهرَ في حياة كل فرد مسيحي وفي العائلة والكنيسة وكل مؤسّسة تُقام لأجل خدمة اللّٰه. فيجب أن يكون الجميع رموزا [297] لما يمكن عمله لأجل العالم. يجب أن يكونوا رموزا لقوّة حقائق الإنجيل المُخَلِّصة. وعلى الجميع أن يكونوا أعوانا في إتمام قصد اللّٰه العظيم للجنس البشري.

كان رؤساء اليهود ينظرون بفخر إلى هيكلهم العظيم وإلى طقوس خدمتهم الدينية المهيبة، ولكن كانت تنقصهم الرحمة والعدل ومحبة اللّٰه.

فمجد الهيكل وبهاء خدمتهم لم يمكنهما أن يعطياهم قبولا لدى اللّٰه، لأنّهم لم يقدموا له الشيء الوحيد الذي له قيمة في نظره. لم يقدموا له ذبيحة الروح المتواضعة المنسحقة. فعندما تختفي مبادئ ملكوت اللّٰه الحيوية تصبح الطقوس عديدة ومسرفة. [298] فعندما يُهمَل بناءُ الخلُق، وعندما لا توجد زينةُ النفس، وعندما يغيب عن الأنظار جمالُ التقوى وبساطتُها فإنّ الكبرياء وحب التفاخر يتطلبان أن تكون أبنية الكنائس فخمة، وزيناتُها فاخرة واحتفالاتُها مهيبةً. وفي كل هذا لا يُكرَم اللّٰه – فالديانة التي تتمشّى مع العصر والتي تنحصر في الطقوس والتظاهر والتفاخر غير مقبولة لديه. فخدماتُها لا تجدُ استجابةً من رسل السماء.

إن الكنيسة عزيزة جدا ففي نظر اللّٰه. وهو يقدرها لا على أساس ميزاتها الخارجية بل على أساس التقوى الخالصة التي تميزها على العالم. وهو يقدرها بنسبة نمو أعضائها في معرفة المسيح وبنسبة تقدمهم في الاختبار الروحي.

إنّ المسيح يشتهي لأن يحصل من كرمه على ثمر القداسة والإيثار. وهو يبحث عن مبادئ المحبة والصلاح. إنّ كل جمال الفنّ لا يمكنه أن يضارع جمال الطبع والخلُق الذي يظهر في مَن يمثلون المسيح. إنّ جوّ النعمة الذي يحيط بنفس المؤمن، والرُّوح الْقُدُس العامل في الذهن والقلب هو الذي يجعله رائحة حياة لحياة ويجعل اللّٰه قادرا على أن يباركَ عمله.

قد تكون جماعَة هيَ من أفقر الجماعات في البلاد. وقد لا يكون هنالك أي مظهر خارجي يجذب الناس إليها، ولكن إذا كان لأعضائها مبادئ صفات المسيح فسيملأ فرحُه نفوسهم. والملائكة سيشاركونهم في عبادتهم. وستصعد أغاني الحمد والشكر من القلوب الشاكرة كتقدمة طيّبة مقبولة.

والرب يريدنا أن نذكرَ صلاحَه ونخبرَ بقوّته. إنّ الذي يكرمه هو تعبيرُنا عن حمدنا وشكرنا. فهو يقول: « ذَابحُ الْحَمْدِ يُمَجِّدُني » (مزمور ٥٠: ٢٣). إنّ جموع شعب إسرائيل وهم [299] يسافرون عبر البرية حمدوا اللّٰه بالأغاني المقدسة. وقد نُظِّمت ألحانٌ لوصايا اللّٰه ومواعيده، وعلى طول الطريق في رحلاتهم رنم هؤلاء السيّاح بتلك الألحان. وفي كنعان عندما كانوا يجتمعون في أعيادهم المقدسة كان عليهم أن يعدّدوا عجائب اللّٰه، ويقدموا الشكر والحمد لاسمه. وقد رغب اللّٰه في أن تكون كل حياة شعبه حياة الحمد والتسبيح. وهكذا كان يجب أن « يُعْرَفَ فِي الأَرْضِ » طريقه « وَفِي كُلِّ الأُمَمِ» خلاصه. (مزمور ٢٧: ٢).

وهذا ما يجب أن يكون الآن. فأهل العالم يتعبّدون للآلهة الكاذبة. فيجب تحويلهم عن عبادتهم الكاذبة، ليس بواسطة التشهير بأوثانهم بل بتوجيه أنظارهم إلى شيء أفضل. ليُعلنَ جودُ اللّٰه: « أَنْتُمْ شُهُودِي، يَقُولُ الرَّبُّ » (إِشَعْيَاء ٤٣: ١٢).

والرب يريدنا أن نقدر تدبير الخلاص العظيم، وأن نستوعب امتيازَنا السامي كأولاد اللّٰه وأن نسلكَ أمامَه في طاعة بحمد وشكر. وهو يريدنا أن نخدمه في جدة الحياة بفرح في كل يوم. وهو يتوق لأن يرى الشكر يفيض من قلوبنا لأنّ أسماءَنا قد كُتبت في سفر حياة الخروف، ولأنه يمكننا أن نلقي كل همومنا على ذاك الذي يعتني بنا. إنّه يأمرنا بأن نفرحَ لأننا ميراث الرب، ولأنّ برّ المسيح هو رداء قدّيسيه الأبيض، ولأن لنا الرجاء المبارك، رجاءُ مجيء مخلصنا سريعا.

إنّ تسبيح اللّٰه في ملء وإخلاص القلب هو واجب كالصلاة. فعلينا أن نُظهر للعالم ولكل الكائنات السماوية على أننا نقدر محبة اللّٰه العجيبة للبشرية الساقطة، وعلى أننا ننتظر بركات أعظم وأعظم من ملئه غير المحدود. وعلينا أن نتحدث عن المراحل الثمينة في اختبارنا أكثر مما اعتدنا أن نفعل. فبعدما ينسكب علينا الرُّوح الْقُدُس انسكابا خاصا فإنّ فرحَنا في الرب [300] وكفاءَتنا في خدمته تزداد زيادة عظيمة متى أحصينا مظاهر جوده وأعماله العجيبة في صالح أولاده.

هذه الشهادات تصدُ قوة الشيطان. وهي تطرد روح التذمّر والشكوى والطبع الحاد لا يستطيع الثبات. وهي تغرس تلك السجايا الخلقية التي تؤهّل ساكني الأرض للمواطن السماوية.

مثلُ هذه الشهادة سيكون لها تأثيرٌ على الآخرين. ولا توجد وسائل أخرى أفعلَ منها يمكن استخدامُها في ربح النفوس للمسيح.

وعلينا أن نسبّحَ اللّٰه بخدمة ملموسة ظاهرة بأن نفعل كلَّ ما في مقدورنا لنقدّم مجدَ اسمه. فاللّٰه يمنحنا هباته لكي نوزعها نحن أيضا وهكذا نذيع صفاته في العالم. ففي النظام اليهودي كانت العطايا والتقدمات تكوّن جزءا جوهَريا من عبادة اللّٰه. فقد تعلّم بنو إسرائيل أن يكرّسوا عشر إيرادهم كله لخدمة المقدس. وفضلا عن هذا فقد كان عليهم أن يقدموا ذبائح خطية وعطايا اختيارية وتقدمات شكر. كانت هذه هي الوسائل المعينة لإعالة خدمة الإنجيل في ذلك الحين. واللّٰه لا ينتظر منّا أقل مما كان ينتظر من شعبه في القديم. فالعمل العظيم لأجل خلاص النفوس ينبغي أن يسير قُدما. ففي العشور مع العطايا والتقدمات أعدّ الربُ موردا لأجل هذا العمل. بهذه الكيفية

هو يقصد أن تُعال خدمة الإنجيل. وهو يطالب بالعشور على أنّها له فينبغي اعتبارها دائما على أنّها ذخيرة مقدسة توضع في الخزانة لأجل خير عمله. ثم هو يطلب منا أيضا عطايانا الطوعية وتقدمات الشكر. فينبغي تكريس هذه كلها لأجل إرسال الإنجيل إلى أقصى الأرض.

ثم إنّ الخدمة للّٰه تتضمن أيضا الخدمة الشخصية. بواسطة المجهود الفردي علينا أن نتعاون معه لأجل خلاص العالم. إنّ مأمورية المسيح التي قال فيها: « اذْهَبُوا إِلَى الْعَالَمِ أَجْمَعَ [301] وَاكْرِزُوا بِالإِنْجِيلِ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا » موجهة إلى كل واحد من أتباعه (مرقس ١٦: ١٥). فَجَمِيعَ المَكرسِينَ لحياة المسيح هم معينون ليخدموا لأجل خلاص بني جنسهم. وقلوبهم ستختلج بانسجام مع قلب المسيح. وسيظهر فيهم نفسُ الشوق لخلاص النفوس الذي كان هو يحسّ به. لا يمكن للجميع أن يملأوا نفسَ المكان في العمل، لكن يوجد مكان وعمل للجميع.

في العصور السالفة نجد أنّ إِبْرَاهِيم واسحق ويعقوب، وموسى بوداعته وحكمته، ويشوع بإمكانياته المتعددة، كلهم جُنّدوا في خدمة اللّٰه. وكانت الحاجة إلى الموسيقى التي قدمتها مريم وإلى شجاعة دبّورة وتقواها، وإلى محبة راعوث كابنة، وإلى طاعة صموئيل وأمانته، وإلى ولاء إيليا الصارم، وإلى تأثير أليشع المهدّئ المخضع. وهكذا الآن كل من قد أغدق اللّٰه عليهم بركاته عليهم أن يستجيبوا بالخدمة الفعلية، فينبغي استخدام كل هبة لأجل تقدّم ملكوته ومجد اسمه.

وعلى كل من يقبلون المسيح كمخلصهم الشخصي أن يقيموا الدليل على صدق الإنجيل وقوّته المُخَلِّصة للحياة. إنّ اللّٰه لا يطلب شيئا بدون أن يدبّر ما يلزم لإتمامه. فبنعمة المسيح يمكننا أن ننجز كل ما يطلبه منا. فكل غنى السماء وكنوزها ستُعلنُ بواسطة شعب اللّٰه. فقد قال المسيح: « بِهذَا يَتَمَجَّدُ أَبِي: أَنْ تَأْتُوا بِثَمَرٍ كَثِيرٍ فَتَكُونُونَ تَلاَمِيذِي » (يوحنا ١٥: ٨).

إنّ اللّٰه يطَالبُ بالأَرض كلّها ككرمَه. فمع أنّها الآن في أيدي الغاصب فهي ملك للّٰه. فهي له بحقّ الفداء كما أنّها له بحقّ الخلق. لقد قدم المسيح نفسه ذبيحة لأجل العالم: « هكَذَا أَحَبَّ اللّٰهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ » (يوحنا ٣: ١٦). فبواسطة تلك الهبة الواحدة تُمنح كل هبة أخرى للناس. وفي كل يوم يتناول العالم كله البركة من اللّٰه. فكل قطرة من قطرات المطر، وكل شعاعة من أشعة النور المنسكبة على جنسنا غير الشكور، [302] وكل ورقة وزهرة وثمرة تشهد لطول أناة اللّٰه وحبه العظيم.

وما هي التعويضات التي تقدَّم للمعطي العظيم؟ وكيف يتعامل الناس حيال مطاليب اللّٰه؟ ولمن يقدم جموع بني الإنسان خدمات حياتهم؟ إنّهم يخدمون المال. فالثروة والمركز والمسرات هي هدفهم في الحياة. فالثروة يحصلون عليها بالسلب، لا سلب الإنسان وحدَه بل سلب اللّٰه أيضا. فالناس يستخدمون هباته في إشباع أنانيتهم. وكل ما يمكنهم أن يستحوذوا عليه يستخدمونه في خدمة طمعهم وحبهم للملذات الأنانية.

إنّ خطية العالم اليوم هي الخطية التي جلبت على إسرائيل الهلاك. فنكران فضل اللّٰه وإهمال الفرص والبركات، والأنانية البادية في تخصيص هبات اللّٰه لذواتهم.

هذه كانت متضمنة في الخطية التي جلبت الغضب على إسرائيل. وهي لا تزال تجلب الدمار على العالم اليوم.

إنّ الدموع التي سكبها المسيح على جبل الزيتون عندما وقف يشرف على المدينة المختارة لم تكن لأجل أورشليم وحدها. فلقد شاهد في مصير أورشليم هلاك العالم « لَوْ عَلِمْتِ أَنْتِ أَيْضًا، حَتَّى فِي يَوْمِكِ هذَا، مَا هُوَ لِسَلاَمِكِ! وَلكِنِ الآنَ قَدْ أُخْفِيَ عَنْ عَيْنَيْكِ » (لوقا ١٩: ٤٢).

« فِي يَوْمِكِ هذَا ». إنّ اليوم موشك على الانتهاء. وفرصة الرحمة والامتياز قاربت أن تنتهي. وها هي سحب النقمة تتجمع. ورافضو نعمة اللّٰه موشكون على أن يطويهم الهلاك السريع الذي لا يجبر. ومع ذلك فالعالم نائم. فالناس لا يعرفون زمان افتقادهم.

وفي هذه الأزمة أين توجد الكنيسة؟ هل أعضاؤها يتممون مطاليب اللّٰه؟ وهل يقومون بنشر رسالته وتمثيل صفاته للعالم؟ وهل يوجهون بلجاجة انتباه بني جنسهم إلى رسالة الإنذار الرحيمة الأخيرة؟ [303]

إنّ الناس في خطر. فجماهيرُ كثيرة تهلك. ولكن ما أقل الذين يعترفون بأنّهم أتباع المسيح الذين هم مثقّلون بالمسؤولية نحو هذه النفوس! إنّ مصير العالم يتأرجح بين كفتي الميزان، ولكن هذا لا يكاد يحرّك حتى من يدّعون بأنّهم يؤمنون بأعظم حق بعيد المدى قد أُعطيَ لبني الإنسان. فلا توجد تلك المحبة التي جعلت المسيح يترك وطنه السماوي ويتخذ طبيعة الإنسان حتى يلامس ببشريّته بني الإنسان ويجتذب البشرية إلى الألوهية. يوجد ذهول وشلل أصابا شعب اللّٰه يمنعانهم من إدراك واجب الساعة.

عندما دخل بنو إسرائيل كنعان لم يتمّموا غرض اللّه بامتلاك الأرض كلها. فبعدما حازوا انتصارات جزئيةً استكانوا ليتمتعوا بثمرة انتصاراتهم – ففي عدم إيمانهم وحبهم للراحة اجتمعوا في أماكن سبق لهم أن افتتحوها بدلا من الاندفاع إلى الأمام لاحتلال أقاليم جديدة. وهكذا ابتدأوا يبتعدون عن اللّه. فبإخفاقهم في تنفيذ قصده جعلوا من المستحيل عليه أن يتمّم لهم وعدَه بالبركة. ألا تعمل كنيسة اليوم نفس هذا العمل؟ إنّ المعترفين بالمسيحية، والعالم كلّه أمامّهم يحتاج إلى الإنجيل، يجتمعون في أماكن يمكنهم فيها أن يمتعوا أنفسهم بامتيازات الإنجيل. إنّهم لا يحسّون بضرورة احتلال أقاليم جديدة وحمل رسالة الخلاص إلى أقاليم بعيدة. إنّهم يرفضون إتمام أمر المسيح القائل: « اذْهَبُوا إِلَى الْعَالَمِ أَجْمَعَ وَاكْرِزُوا بِالإِنْجِيلِ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا » (مرقس ١٦: ١٥). فهل همَ أقلّ جرمًا من الكنيسَة اليهودية؟

إنّ المعترفين أتباع المسيح يُمتحنون على ملا من المسكونة السماوية، ولكنّ فتور غيرتهم وضعف جهودهم في خدمة اللّه تدمغهم بوصمة عدم الأمانة. فلو أنّ ما يعملونه هو أفضل ما يمكنهم عمله ما كانت الدينونة تستقرّ عليهم. ولكن لو انّهم جنّدوا قلوبهم للعمل لكانوا يعملون أكثر من ذلك بكثير. [304] إنّهم يعلمون كما يعلم العالم أنّهم قد أضاعوا روح إنكار الذات وحمل الصليب إلى حد كبير. يوجد كثيرون ممن سيوجد مكتوبا أمام أسمائهم في أسفار السماء: ليسوا منتجين بل مستهلكين. إنّ كثيرين ممن يحملون اسم المسيح يحجبون مجدَه ويُخفون جمالَه ويحجزون كرامتَه.

ويوجد كثيرون ممّن أسماؤهم مكتوبة في سجلات الكنيسة ولكنهم ليسوا تحت سلطان المسيح. إنّهم لا يكترثون لوصاياه ولا يعملون عمله. ولذلك هم تحت سيطرة العدّو. إنّهم لا يقومون بأي عمل إيجابي، لذلك فهم يحدثون ضرراً لا يُحصر. فلكون تأثيرهم ليس رائحة حياة لحياة فهو إذن رائحة موت لموت.

يقول الرب: « أَمَا أُعَاقِبُ عَلَى هذَا » (إرْمِيَا ٥: ٩). فلكون بني إسرائيل أخفقوا في إتمام قصد اللّه فقد أُلقيَ بهم جانباً وامتدت دعوة اللّه إلى شعوب أخرى. فإذا برهن هؤلاء على عدمَ أمانتهم أفلا يُرفَضون كذلك؟

في مثل الكرم حكم المسيح على الكرامين بأنّهم مذنبون. فهم الذين رفضوا أن يردُوا لسيدهم من ثمر الكرم الذي هو ملكه. وبالنسبة إلى الأمة اليهودية نجد أن الكهنة والمعلّمين هم الذين بسبب تضليلهم للشعب سلبوا اللّه الخدمة التي طالبهم بها. فهم الذين أبعدوا الأمّة عن المسيح.

لقد قدم المسيح شريعة اللّٰه غير ممتزجة بالتقاليد البشرية كالمقياس العظيم للطاعة. هذا أثار عداوة الأحبار. لقد رفعوا تعاليم الناس فوق كلمة اللّٰه وحولوا الشعب بعيداً عن وصايا الناس ليطيعوا مطاليب كلمة اللّٰه. ورفضوا التضحية بكبرياء التفكير ومديح الناس لأجل الحق. وعندما جاء المسيح مقدماً مطاليب اللّٰه للامة [305] أنكر عليه الكهنة والشيوخ حقّه في التدخل بينهم وبين الشعب. ورفضوا توبيخاته وإنذاراته وعوَلوا على إثارة الشعب ضدّه لكي يقتلوه.

لقد كانوا مسؤولين عن رفض المسيح والنتائج التي تلت ذلك. فخطية الأمة وهلاكها نُسبا إلى الرؤساء الدينين.

وفي يومنا هَذا ألا نري أنّ التأثيرات دائبةٌ على العمل؟ ألا يوجد كثيرون من الكرامين في كرم الرب سائرين في نَفس خطوات رؤساء اليهود؟ ألا يحوّل المعلّمون الدينيون الناسَ بعيداً عن مطاليب كلمة اللّٰه الصريحة؟ وبدلا من أن يعلّموهم الطاعة لشريعة اللّٰه ألا يعلّمونهم العصيان؟ فالناس يتعلّمون من فوق كثير من منابر الكنائس أنّ شريعة اللّٰه ليست ملزمةً لهم. فتقاليدُ الناس وفرائضُهم وعاداتُهم تتمجّد. والكبرياء والرضا بالنفس بسبب هباتِ اللّٰه تترعرعُ بينما يتجاهل الناسُ مطاليبَ اللّٰه.

والناس إذ يطرحون شريعة اللّٰه جانبا لا يدرون ما هم فاعلون. إنّ شريعة اللّٰه هي صورةٌ حيّةٌ من صفاته. وهي تشمل مبادئ ملكوته. فالذي يرفض قبول هذه المبادئ إنّما يُبعد نفسَه عن نطاق مجرى بركاته.

إنّ الإمكانيات المجيدة التي وُضعت أمام إسرائيل كان يمكن تحقيقها بواسطة الطاعة لوصايا اللّٰه فقط. ونفَس السموّ في الخلُق، ونفس ملء البركة – البركة للعقل والنفس والجسد، البركة في البيت وفي الحقل، والبركَة في هذه الحياة والحياة العتيدة – ممكنةٌ لنا عن طريق الطاعة وحدَها.

وفي العالم الروحي كما في العالم الطبيعي نجد أنَّ الطاعة لنواميس اللّٰه هي شرطُ الإتيان بثمر. فعندما يعلّم الناس الشعب أن يحتقروا وصايا اللّٰه فإنهم يمنعونهم مَن الإتيان بثمرٍ لمجده. [306] إنّهم مذنبون في حرمان الرب من ثمار كرمه.

إنّ رسل اللّٰه يأتون إلينا بناء على أمر المسيح. إنّهم يقدّمون حقّه بالثمار ثمار الكرم، ثمار المحبة والوداعة والخدمة المضحية. ولكن ألاّ يهتاج كثيرون من الكرامين في الكرم ويغضبون كما فعل رؤساء اليهود؟ وعندما يوضع حق

شريعة اللّٰه أمام الشعب ألا يستخدم هؤلاء المعلّمون نفوذهم لتحريض الناس على رفضه؟ مثل هؤلاء المعلّمين يدعوهم اللّٰه خُداما غيرَ أمناء.

إنّ كلام اللّٰه لإسرائيل قديما فيه إنذار خطير للكنيسة وقادتها اليوم. فالرب يقول عن إسرائيل: « أَكْتُبُ لَهُ كَثْرَةَ شَرَائِعِي، فَهِيَ تُحْسَبُ أَجْنَبِيَّةً » (هوشع ٨: ١٢). وقد أعلن للكهنة والمعلمين قائلاً: « قَدْ هَلَكَ شَعْبِي مِنْ عَدَمِ الْمَعْرِفَةِ. لأَنَّكَ أَنْتَ رَفَضْتَ الْمَعْرِفَةَ أَرْفُضُكَ أَنَا ... وَلأَنَّكَ نَسِيتَ شَرِيعَةَ إِلهِكَ أَنْسَى أَنَا أَيْضًا بَنِيكَ؟ » (هوشع ٤: ٦).

فهل نسمحُ لإنذارات اللّٰه أن تمرّ بنا دون أن نكترث لها؟ ألا نحسن استخدام فرص الخدمة؟ وهل احتقار العالم وكبرياء الفكر والتشبّه بالناس في عاداتهم وتقاليدهم تمسّك من يعترفون بأنّهم تلاميذ المسيح عن خدمته؟ وهل يرفضون كلمة اللّٰه كما قد رفض رؤساء اليهود المسيح؟ إنّ عاقبة خطية إسرائيل هي أمامَنا؟ فهل تقبل كنيسة اليوم الإنذار؟

« فَإِنْ كَانَ قَدْ قُطِعَ بَعْضُ الأَغْصَانِ، وَأَنْتَ زَيْتُونَةٌ بَرِّيَّةٌ طُعِّمْتَ فِيهَا، فَصِرْتَ شَرِيكًا فِي أَصْلِ الزَّيْتُونَةِ وَدَسَمِهَا، فَلاَ تَفْتَخِرْ ... مِنْ أَجْلِ عَدَمِ الإِيمَانِ قُطِعَتْ، وَأَنْتَ بِالإِيمَانِ ثَبَتَّ. لاَ تَسْتَكْبِرْ بَلْ خَفْ! لأَنَّهُ إِنْ كَانَ اللّٰهُ لَمْ يُشْفِقْ عَلَى الأَغْصَانِ الطَّبِيعِيَّةِ فَلَعَلَّهُ لاَ يُشْفِقُ عَلَيْكَ أَيْضًا » (رومية ١١: ١٧-٢١). [307]

٢٤

إنسَان ليسَ عَليهِ لبَاس العُرس

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في متى ٢٢: ١-١٤).

إنّ مَثَل لباس العرس يكشف لنا درساً له أعظم النتائج. فالزواج يرمز إلى الاتحاد بين الناسوت واللاهوت، ولباس العرس رمز إلى الخُلُق الذي يجب أن يتحلّى به كل من يحسبون ضيوفا للعرس.

في هذا المثل كما في مثل العشاء تُوضّح دعوةُ الإنجيل. ورفضُ الشعب اليهودي لها، ودعوة الرحمة للأمم. أمّا من جانب من يرفضون الدعوة فان هذا المثل يعرض للأنظار إهانة أعظم وقصاصا أرهب. إنّ الدعوة إلى العرس هي دعوة ملك. فهي مرسلة من قبل من هو مزود بسلطان لان يأمر. وهي تمنح كرامة عظيمة. ومع ذلك فليس من يقدّر هذه الكرامة. فالناس يزدرون بسلطان الملك. ففي حين أنّ دعوة ربّ البيت قوبلت بعدم اكتراث فان دعوة الملك قوبلت بالإهانة والقتل. فلقد عاملوا عبيده بالاحتقار إذ شتموهم وقتلوهم.

إنّ ربّ البيت إذ رأي دعوته وقد استُخْفّ بها أعلن أنّه ولا واحد من أولئك الرجال المدعوين يذوق عشاءه. أمّا الذين احتقروا [308] الملك فقد أمر الملك

لهم بقصاص أعظم من الطرد من حضرته والحرمان من طعام مائدته: « أَرْسَلَ جُنُودَهُ وَأَهْلَكَ أُولئِكَ الْقَاتِلِينَ وَأَحْرَقَ مَدِينَتَهُمْ » (متي ٢٢: ٧).

في كلا المثلين أُعدَّ ضَيوفٌ للوليمة، ولكن المثل الثاني يرينا أنّ هنالك استعدادا يجب أن يقوم به كلّ من يحضرون إلى العرس. فالذين يهملون هذا الاستعداد يُطرحون خارجا: « فَلَمَّا دَخَلَ الْمَلِكُ لِيَنْظُرَ الْمُتَّكِئِينَ، رَأَى هُنَاكَ إِنْسَانًا لَمْ يَكُنْ لاَبِسًا لِبَاسَ الْعُرْسِ فَقَالَ لَهُ: يَا صَاحِبُ، كَيْفَ دَخَلْتَ إِلَى هُنَا وَلَيْسَ عَلَيْكَ لِبَاسُ الْعُرْسِ؟ فَسَكَتَ. حِينَئِذٍ قَالَ الْمَلِكُ لِلْخُدَّامِ: اربُطُوا رِجْلَيْهِ وَيَدَيْهِ، وَخُذُوهُ وَاطْرَحُوهُ فِي الظُّلْمَةِ الْخَارِجِيَّةِ. هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصَرِيرُ الأَسْنَانِ » (متى ٢٢: ١١-١٣).

إن الدعوة إلى الوليمة كان قد قدمها تلاميذ المسيح. لقد أرسل سيدنا الاثنى عشر وبعد ذلك أرسل السبعين معلنين أنّ ملكوت الله قد اقترب ومنادين الناس أن يتوبوا ويؤمنوا بالإنجيل. ولكن لم يكن من يكترث للدعوة. فالذين دُعوا إلى الوليمة لم يأتوا. وبعد ذلك أرسل العبيد ليقولوا: « هُوَذَا غَدَائِي أَعْدَدْتُهُ. ثِيرَانِي وَمُسَمَّنَاتِي قَدْ ذُبِحَتْ، وَكُلُّ شَيْءٍ مُعَدٌّ. تَعَالَوْا إِلَى الْعُرْسِ » (متى ٢٢: ٤). كانت هذه هي الرسالة المقدمة إلى الأمة اليهودية بعد صلب المسيح، ولكنّ الأمة التي ادّعت أنّها شعب الله الخاص رفضت الإنجيل المرسل إليها بقوة الرُّوح الْقُدُس. وكثيرون اغتاظوا جدا بسبب عطية الخلاص، وعطية غفران الخطايا، فعلوا هذا بكيفية تدل على منتهى الاحتقار. وآخرون اغتاظوا جداً ورفضوا رب المجد بحيث انقلبوا على حاملي الرسالة. فكان « اضْطِهَادٌ عَظِيمٌ » (أعمال ٨: ١). وكثيرون من الرجال والنساء أُلقِيَ بهم في السجن وبعض من رسل الرب كاستفانوس ويعقوب قتلوا.

وهكذا ختم الشعب اليهودي على رفضه لرحمة الله. [309] كان المسيح قد سبق فأنبأ بالنتيجة حين قال أن الملك: « أَرْسَلَ جُنُودَهُ وَأَهْلَكَ أُولئِكَ الْقَاتِلِينَ وَأَحْرَقَ مَدِينَتَهُمْ » (متى ٢٢: ٧). فالدينونة التي نطق بها حلت باليهود في خراب أورشليم وتشتيت الأمة.

أما الدعوة الثالثة إلى الوليمة فترمز إلى تقديم الإنجيل إلى الأمم. فقد قال الملك « أَمَّا الْعُرْسُ فَمُسْتَعَدٌّ، وَأَمَّا الْمَدْعُوُّونَ فَلَمْ يَكُونُوا مُسْتَحِقِّينَ. فَاذْهَبُوا إِلَى مَفَارِقِ الطُّرُقِ، وَكُلُّ مَنْ وَجَدْتُمُوهُ فَادْعُوهُ إِلَى الْعُرْسِ » (متى ٢٢: ٨، ٩). أما عبيد الملك الذين خرجوا إلى الطرق فقد « وَجَمَعُوا كُلَّ الَّذِينَ وَجَدُوهُمْ أَشْرَارًا وَصَالِحِينَ » (متى ٢٢: ١٠). كانوا جماعة مختلطة. فبعض منهم لم يكن

عندهم اعتبار حقيقي لصاحب الوليمة أكثر ممن قد رفضوا الدعوة. فالفريق الذين دعوا أولاً ظنوا بأنهم لا يستطيعون التضحية بأية منفعة عالمية ليحضروا إلى وليمة الملك، أمّا الذين قبلوا الدعوة فقد كان بينهم قوم لم يفكروا في غير منفعة أنفسهم. فقد جاءوا ليقتسموا طعام الوليمة ولكنهم لم يكونوا يرغبون في إكرام الملك.

وعندما دخل الملك لينظر الضيوف انكشف أمامه أخلاق الجميع على حقيقتها. وقد أُعدّ لكل ضيف حضر إلى الوليمة ثوبٌ هو لباس العرس. وكان هذا الثوب هبةً مَن الملك. فإذ لبسه الضيوف برهنوا على احترامهم لصاحب الوليمة. ولكن كان يوجد إنسانٌ يرتدي ثوبَه العادي. وقد رفض أن يقوم بالاستعداد الذي طلبه الملك فالثوب المعد له بثمن غال استنكف هو أن يلبسَه. وهكذا أهان مولاه. فعندما سأله الملك قائلاً: « كَيْفَ دَخَلْتَ إِلَى هُنَا وَلَيْسَ عَلَيْكَ لِبَاسُ الْعُرْسِ » (متى ٢٢: ١٢)، لم يستطع أن يجيب بشيء. لقد حكم على نفسه. حينئذ قال الملك: « اِرْبُطُوا رِجْلَيْهِ وَيَدَيْهِ، وَخُذُوهُ وَاطْرَحُوهُ فِي الظُّلْمَةِ الْخَارِجِيَّةِ » (متى ٢٢: ١٣). [310]

إنّ فحص المَلِكَ للضيوف الذين كانوا على المائدة يرمز إلى عمل من أعمال الدينونة. إنّ ضيوف وليمة الإنجيل هم الذين يعترفون بأنهم يخدمون اللّه، والذين أسماؤهم مكتوبة في سفر الحياة. ولكن ليس كلّ من يعترفون بأنّهم مسيحيون هم تلاميذ أمناء. فقبل تقديم الجزاء الأخير ينبغي الحكم في مَن هم المؤهلون لشركة ميراث الأبرار. وهذا الحكم ينبغي أن يسبق المجيء الثاني للمسيح في سحاب السماء، لأنَّه عندما يأتي ستكون أجرته معه: « لأُجَازِيَ كُلَّ وَاحِدٍ كَمَا يَكُونُ عَمَلُهُ » (رؤيا ٢٢: ١٢). إذا فقبل مجيئه ستكون قد تقرّرت طبيعةَ عمل كل واحد، وكل واحد من تلاميذ المسيح سيُخصّص له الجزاء بحسب أعماله

ففيما لا يزال الناس ساكنين على الأرض يأخذُ عمل الدينونة التحقيقية مجراه في ديار السماء. واللّه سيراجع حياة كل من يعترفون بأنّهم تلاميذه. وسيمتحن الجميع بموجب سجل أسفار السماء، وسيتقرّر المصير الأبدي لكل واحد بحسب أعماله.

إنَّ لباس العرس المذكور في المثل يرمز إلى الخلُق النقي غير الملوث الذي يملكه تلاميذ المسيح الحقيقيون. ولقد أُعطيَ للكنيسة أن « تَلْبَسَ بَزًّا نَقِيًّا بَهِيًّا». « لاَ دَنَسَ فِيهَا وَلاَ غَضْنَ أَوْ شَيْءٌ مِنْ مِثْلِ ذلِكَ » (رؤيا ١٩: ٨؛ أَفَسُس

٥: ٢٧). إنّ الكتاب يقول عن البرّ النقي أنّه « تَبَرُّرَاتُ الْقدِّيسينَ ». إنّه برّ المسيح وصفاته التي بلا لوم التي تعطي لكل من يقبلونه بإيمانَ كمَخلصهم الشخصي.

كان أبوانا الأولان يلبسان ثوب الطهارة الأبيض حين وضعهما اللّٰه في عدن المقدسة. لقد عاشا في حالة توافق تام مع إرادة اللّٰه. فكل قوة عواطفهما كانت معطاة لأبيهما السماوي. وقد اكتنف ذينك الزوجين المقدسين نورٌ جميلٌ ولطيفٌ هو نورُ اللّٰه. [311] وكان ثوب النور هذا رمزا لثيابهما الروحية ثياب الطهارة السماوية. فلو ظلاّ على أمانتهما للّٰه لظل ذلك الثوب يكسوهما إلى الأبد. ولكن لمّا دخلت الخطية قطعا صلتَهما باللّٰه واختفى النور الذي كان قبلا يحيط بهما. فإذ كانا عاريين خجلا وحاولا الاستعاضة عن الثياب السماوية بأن خاطا أوراق تين ليصنعا لأنفسهما مآزر.

هذا ما فعله من عصوا شريعة اللّٰه منذ عصر آدم وحواء لقد خاطوا أوراق تين لتغطية عريهم الذي كان سببه العصيان. لقد لبسوا ثيابا من ابتكارهم فبأعمالهم حاولوا ستر خطاياهم والظفر بقبول اللّٰه.

ولكن هذا عمل لا يستطيعونه أبدا. ولا يمكن للإنسان أن يبتكر شيئا يأخذ مكان ثوب الطهارة الذي قد أضاعه. فلا يمكن لثوب مصنوع من أوراق التين، أو ثوب عالمَي أن يلبسه من يجلسون مع المسيح وملائكته في عشاء عرس الحمل.

ولا يمكن لغير الكساء الذي قد أعدّه المسيح بنفسه أن يجعلنا أهلا للمثول في حضرة اللّٰه. هذا الكساء الذي هو ثوب برّ المسيح سيستر به كلّ نفس تائبة مؤمنة. إنّه يقول: « أُشيرُ عَلَيْكَ أَنْ تَشْتَرِيَ مِنِّي ... ثِيَابًا بِيضًا لِكَيْ تَلْبَسَ، فَلاَ يَظْهَرُ خِزْيُ عُرْيَتِكَ » (رؤيا ٣: ١٨).

هذا الثوب المنسوج في نول السماء لا يوجد فيه خيط واحد من صنع الناس. فالمسيح في بشرّيته صاغ خلُقا كاملا وهذا الخلُق هو مستعد لأن يمنّه لنا « كَثَوْبِ عِدَّةٍ كُلُّ أَعْمَالِ بِرِّنَا » (إِشَعْيَاء ٦٤: ٦). فكل ما يمكننا أن نعمله من أنفسنا هو منجّس بالخَطية. ولكنّ ابن اللّٰه قد « أُظْهِرَ لِكَيْ يَرْفَعَ خَطَايَانَا، وَلَيْسَ فِيهِ خَطِيَّةٌ » وتعريف الخطية هي « التَّعَدِّي » (١يوحنا ٣: ٥، ٤) ولكن [312] المسيح كان مطيعاً لكل مطاليب الناموس. فقد قال عن نفسه: « أَنْ أَفْعَلَ مَشِيئَتَكَ يَا إِلهِي سُرِرْتُ، وَشَرِيعَتُكَ فِي وَسَطِ أَحْشَائِي » (مزمور ٤٠: ٨). وعندما كان عَلَى الأَرْض قال لتلاميذه: « أَنَا قَدْ حَفِظْتُ وَصَايَا أَبِي » (يوحنا ١٥: ١٠). فبطاعته الكاملة جعل في إمكان كل إنسان أن يطيع وصَايا اللّٰه. فعندما نُخضِع ذواتِنا للمسيح فالقلب يتّحد بقلبه والإرادة

تندمج في إرادته والفكر يصبح واحدا مع فكره والتأملات يستأسرها لنفسه، فنحيا حياتَه. هذا هو معنى كوننا نلبس ثوب برّه. فحينئذ إذ ينظر الربّ إلينا فهو لا يرى ثوبا من أوراق التين، لا عري الخطية وتشويهاتها بل يرى ثوبَ برّه هو الذي هو الطاعة الكاملة لشريعة الرب.

وقد فحص الملك ضيوف العرس. فالذين أطاعوا أوامره ولبسوا ثوب العرس هم وحدهم الذين قبلوا وهكذا ستكون الحال مع ضيوف وليمة الإنجيل. فلا بدّ من أنّ الجميع يمرّون أمام نظرة الملك العظيم الفاحصة، فالذين قد لبسوا ثوب برّ المسيح هم وحدهم الذين يرحّب بهم.

البرّ هو عمل الصواب والحق. فبموجب هذه الأعمال يُدان الجميع. إنّ صفاتنا تكشف عنها أعمالنا. فالأعمال هي التي تبرهن عما إذا كان الإيمان حقيقياً.

لا يكفي كوننا نؤمن بأن يسوع لم يكن محتالا وان ديانة الكتاب ليست خرافات مصنّعة. فقد تؤمن بأن اسمَ يسوع هو الاسمُ الوحيد تحت السماء الذي به ينبغيَ أن نخلُص، ومع ذلك فقد لا نجعله مخلصنا الشخصي بالإيمان. فلا يكفي كوننا نؤمن بنظرية الحق، ولا يكفي كوننا نعترف بإيماننا بالمسيح وأن تُسجل أسماؤنا في سجلات الكنيسة: « وَمَنْ يَحْفَظْ وَصَايَاهُ يَثْبُتْ فيه وَهُوَ فيه. وَبهذَا نَعْرفُ أَنَّهُ يَثْبُتُ فينَا: [313] منَ الرُّوحِ الَّذي أَعْطَانَا ». « وَبهذَا نَعْرفُ أَنَّنَا قَدْ عَرَفْنَاهُ: إِنْ حَفظْنَا وَصَايَاهُ » (١يوحنا ٣: ٢٤؛ ٢: ٣) هذا هو البرهان الحَقيقي على التجديد. فمهما يكن اعترافنا فهو لا يساوي شيئاً ما لم يظهر المسيح في أعمال البرّ. [314]

والحق ينبغي أن يُغرس في القلب. ويجب أن يسيطر على العقل وينظم العواطف. والخلق كله يجب أن يُطبع بالأقوال الإلهية. وينبغي أن كل حرف وكل نقطة من كلمة اللّه تتدخل في الأعمال اليومية.

إنّ من يصير شريكا في الطبيعة الإلهية لابد أن يكون في وفاق مع مقياس اللّه العظيم للبرّ، أي شريعته المقدسة. هذا هو القياس الذي عليه يقيس اللّه أعمال الناس. وهذا سيكون محكَّ الخلق في يوم الدين.

كثيرون يدّعون أنّه بموت المسيح أُلغيَ الناموس، ولكنهم بهذا يناقضون نفس كلام المسيح إذ قال: « لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَو الأَنْبِيَاءَ... إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ لاَ يَزُولُ حَرْفٌ وَاَحدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحدَةٌ منَ النَّامُوس » (متى ٥: ١٧، ١٨). إنّ المسيح قد بذل حياته لكي يكفّر عن تَعدّيَ الإنسان على الناموس. فلو أمكن تغيير الناموس أو طرحه جانبا لما كانت بالمسيح حاجة لأن يموت. فبحياته على الأرض أكرم شريعة اللّه وبموته ثبّته. ولقد بذل نفسه

ذبيحة لا لينقض شريعة اللّٰه ولا ليخلق مقياسا أدني، بل لكي يحفظ العدل ولكي يتبرهن ثبات الشريعة ولكي تظلّ وطيدة إلى الدهر.

لقد ادّعى الشيطان انّه يستحيل على الإنسان أن يحفظ وصايا اللّٰه، الحقيقة هي أننا لا يمكننا إطاعتها بقوتنا الذاتية. ولكن المسيح جاء في صورة إنسان وبطاعته الكاملة برهن على أنّه إذا اتحدت البشرية بالألوهية يمكن إطاعة كل وصايا اللّٰه.

« أَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ اللّٰه، أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِه » (يوحنا ١: ١٢). فهذا السلطان ليس في الإنسان بل هو سلطان اللّٰه. فمتى قبل أي إنسان المسيح فهو يقبل القوة ليحيا في المسيح. [315]

إنّ اللّٰه يطلب من أولاده أن يكونوا كاملين. فشريعته هي صورةٌ طبق الأصل لصفاته وهي مقياس كل خلُق. فهذا المقياس اللامحدود مقدّمٌ للجميع لكيلا يكون هناك أيّ خطأ فيما يختص بنوع الناس الذين يقبلهم اللّٰه لكي يكوّنوا ملكوته. فقد كانت حياة المسيح على الأرض تعبيرا كاملا لشريعة اللّٰه. وعندما يصير من يدّعون انّهم أولاد اللّٰه كالمسيح في صفاتهم فسيكونون مطيعين لوصايا اللّٰه. وحينئذ يمكن للرب أن يثق بهم ليكونوا ضمن من سيكوّنون أسرة السماء. فإذ يتسربلون بثوب بر المسيح المجيد يكون لهم مكان في وليمة الملك. ولهم حق الانضمام إلى جموع المغتسلين بالدم.

إن الإنسان الذي دخل إلى الوليمة ولم يكن عليه لباس العرس يصوّر حالة كثيرين في عالمنا اليوم. فهم يدّعون انّهم مسيحيون ويطالبون بحقهم في بركات الإنجيل وامتيازاته ومع هذا فهم لا يحسّون بالحاجة إلى تغيير أخلاقهم. إنّهم لم يحسّوا قط بتوبة حقيقية عن الخطية. وهم لا يدركون حاجتَهم إلى المسيح أو ممارسة الإيمان به. ولم ينتصروا على ميلهم الموروث أو المغروس فيهم لفعل الشرّ. ومع ذلك فهم يظنون انّهم في أنفسهم صالحون صلاحا كافيا ويستندون على استحقاقاتهم بدلا من الاتكال على المسيح والثقة به. فكمن يسمعون الكلمة يحضرون الوليمة وليس عليهم لباس العرس أي ثوب برّ المسيح.

كثيرون ممن يدعون أنفسهم مسيحيين هم مجرد رجال أخلاق وآداب عالمية. لقد رفضوا الهبة التي هي وحدها تمكنهم من إكرام المسيح بتمثيله للعالم. إنّ عمل الرُّوح الْقُدُس عمل غريب بالنسبة إليهم. إنّهم ليسوا عاملين بالكلمة. فالمبادئ السماوية التي تميز من هم متحدون بالمسيح عمن هم متحدون بالعالم يكاد يمسي من الصعب تمييزها. فالمعترفون بأنهم تلاميذ

المسيح [316] ما عادوا شعبا منفصلا خاصا. فالحد الفاصل غير واضح المعالم. فالشعب نفسه يتبع العالم، في تصرفاته وعاداته وأنانيته والكنيسة تعبر إلى العالم في عصيانها للشريعة، في حين كان يجب أن يعبر العالم إلى الكنيسة في إطاعة الشريعة. وفي كل يوم ترجع الكنيسة إلى العالم.

كل هؤلاء ينتظرون أن يخلصوا بموت المسيح بينما هم يرفضون أن يحيوا حياتَه حياةَ التضحية. إنّهم يمجدون غنى النعمة المجانية ويحاولون أن يستروا أنفسهم بمظهر البر آملين أن يخفوا النقائص في خلقهم، ولكن جهودهم لن تجديهم نفعا في يوم اللّه.

إنّ بر المسيح لن يخفي خطية واحدة محبوبة. قد يكون إنسان كاسرا للشريعة في قلبه، ومع ذلك فإذا لم يرتكب عملا واحدا من أعمال العصيان العلني قد يعتبره العالم حائزا على نصيب كبير من الاستقامة والنزاهة. ولكن شريعة اللّه تفحص أعماق القلب وسرائره. فكل عمل يحكم عليه بالبواعث التي تدفع الإنسان لعمله. فقط ما يتفق مع مبادئ شريعة اللّه هو الذي يثبت في يوم الدين.

اللّه محبة. وقد برهن على محبته في عطية المسيح. عندما « بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ » لم يمنع شيئاً عن خاصته التي اقتناها (يوحنا ٣: ١٦). لقد وهب كل السماء التي منها يمكننا أن نستمد القوة والمقدرة حتى لا يصدنا خصمنا العظيم أو يغلبنا. ولكن محبة اللّه لا تجعله يتسامح مع الخطية. إنّه لم يتسامح مع الشيطان عندما أخطأ. وكذلك الخطية. ولن يتسامح معها في حياة أي واحد من بني الإنسان. ولن يتغاضى عن خطايانا أو يغتفر لنا مواطن النقص في أخلاقنا. فهو ينتظر منا أن ننتصر باسمه.

والذين يرفضون هبة برّ المسيح [317] إنما يرفضون سجايا الخلق التي تؤهلهم لأن يكونوا أبناء اللّه وبناته. إنّهم يرفضون الشيء الوحيد الذي يستطيع دون سواه أن يعطيهم الصلاحية للحصول على مكان في وليمة العرس.

نجد في المثل أنّ الرجل عندما سأله الملك قائلا: « كَيْفَ دَخَلْتَ إِلَى هُنَا وَلَيْسَ عَلَيْكَ لِبَاسُ الْعُرْسِ؟ » سكت. وكذلك سيكون الحال في يوم الدينونة العظيم. قد يتسامح الناس مع النقص البادي في أخلاقهم أمّا في ذلك اليوم فلن يقدّموا عذرا.

أن الكنائس المعترفة بالمسيح في هذا العصر قد سمت إلى أعلى حدود الامتيازات. فقد أعلن الرب لنا بنور متزايد على الدوام. وامتيازاتنا هي أعظم

بكثير من امتيازات شعب اللّٰه قديما. فإننا فضلا عن كوننا نملك النور العظيم المُسلّم لإسرائيل فإنّ لنا زيادة على ذلك البرهان المتزايد للخلاص العظيم المُعطى لنا بواسطة المسيح. فما كان لليهود صورا ورموزا صار حقيقة لنا. كانت عندهم شهادة العهد القديم وتاريخه أمّا نحن فلنا العهد الجديد أيضا. وعندنا يقين المُخَلِّص الذي قد أتى والذي صلب وقام والذي من فوق قبر يوسف المفتوح أعلن قائلا: « أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ » (يوحنا ١١: ٢٥). إنّ المسيح معلن لنا في العظات ونسمع اسمه يتردد في التسابيح. وها هي الوليمة الروحية مرتبة أمامنا بوفرة وغنى. وثوب العرس الذي أُعدّ لنا بثمن لا يمكن تقديره يُقدّم مجانا لكل نفس. وهاهم رسل اللّٰه يقدّمون لنا برّ المسيح، والتبرير بالإيمان والمواعيد العظمى والثمينة في كلمة اللّٰه، والقدوم بسعة إلى الآب بالمسيح وتعزية الروح، واليقين الراسخ بالحياة الأبدية في ملكوت اللّٰه. فما الذي كان اللّٰه يستطيع أن يعمله لأجلنا ولم يعمله في إعداد العشاء العظيم والوليمة السماوية؟ [318]

وفي السماء يقول الملائكة الخادمون: لقد قمنا بالخدمة التي كُلفنا بها. فقد صددنا جيش الملائكة الأشرار. وقد أدخلنا الصفاء والنور إلى نفوس الناس، إذ أنعشنا عقولهم بمحبة اللّٰه في يسوع المسيح. وقد تأثرت قلوبهم تأثراً عميقا بالشعور بالخطية التي صلبت ابن اللّٰه. وقد تبكتوا. وقد رأوا الخطوات التي تُتخذ في التجديد، وقد أحسّوا بقوة الإنجيل، وصارت قلوبهم رقيقة عندما رأوا عذوبة محبة اللّٰه. وشاهدوا جمال صفات المسيح. ولكنّ كل هذا كان عبثا بالنسبة لكثيرين. فلم يريدوا التنازل عن عاداتهم وأخلاقهم. لم يريدوا أن يخلعوا ثياب الأرض ليلبسوا حلة السماء. لقد أسلموا قلوبهم للطمع. وقد أحبوا عشرة العالم أكثر مما أحبوا إلههم.

وسيكون يوم الحكم النهائي يوما رهيبا. إنّ يوحنا الرسول يصفه في رؤيا نبوية فيقول: « ثُمَّ رَأَيْتُ عَرْشًا عَظِيمًا أَبْيَضَ، وَالْجَالِسَ عَلَيْهِ، الَّذِي مِنْ وَجْهِهِ هَرَبَتِ الأَرْضُ وَالسَّمَاءُ، وَلَمْ يُوجَدْ لَهُمَا مَوْضِعٌ! وَرَأَيْتُ الأَمْوَاتَ صِغَارًا وَكِبَارًا وَاقِفِينَ أَمَامَ اللّٰهِ، وَانْفَتَحَتْ أَسْفَارٌ، وَانْفَتَحَ سِفْرٌ آخَرُ هُوَ سِفْرُ الْحَيَاةِ، وَدِينَ الأَمْوَاتُ مِمَّا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي الأَسْفَارِ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ » (رؤيا ٢٠: ١١، ١٢).

وستكون ذكرى الماضي محزنة في ذلك اليوم الذي فيه يواجه الناس الأبدية. وستعرض الحياة بجملتها كما كانت تماما. ولن تبدو مسرات الناس وغناه وكراماته ذات أهمية تذكر. وسيرى الناس حينئذ أنّ البرّ الذي احتقروه هو وحده

الذي له قيمته. وسيرون أنّهم قد صاغوا أخلاقهم تحت تأثير إغراءات الشيطان الخادعة. والثياب التي اختاروها هي وسام ولائهم للمرتدّ الأعظم الأول. [319] وحينئذ سيرون عواقب اختيارهم. وسيعرفون معنى التعدي على وصايا اللّه.

ولن يكون هنالك إمهال في المستقبل فيما هم يستعدون للأبدية. ولكن علينا أن نلبس ثوب برّ المسيح في هذه الحياة. هذه هي فرصتنا الوحيدة لصوغ أخلاقنا للذهاب إلى الوطن الذي قد أعده المسيح لمن يطيعون وصاياه

إنّ أيام إمهالنا تسرع إلى نهايتها. فالنهاية قريبة. وقد أُعطيَ لنا هذا الإنذار: « فَاحْتَرِزُوا لأَنْفُسِكُمْ لِئَلاَّ تَثْقُلَ قُلُوبُكُمْ فِي خُمَار وَسُكْر وَهُمُوم الْحَيَاة، فَيُصَادِفَكُمْ ذلِكَ الْيَوْمُ بَغْتَةً » (لوقا ٢١: ٣٤). احترس لئلاً يجدكَ ذلك اليوم غير مستعد. احترس لئلا توجد جالسا في وليمة الملك وليس عليك لباس العرس.

« فِي سَاعَة لاَ تَظُنُّونَ يَأْتِي ابْنُ الإِنْسَانِ ». « طُوبَى لِمَنْ يَسْهَرُ وَيَحْفَظُ ثِيَابَهُ لِئَلاَ يَمْشِيَ عُرْيَانًا فَيَرَوْا عُرْيَتَهُ » (متى ٢٤: ٤٤؛ رؤيا ١٦: ١٥). [325]

٢٥

الوَزنـات

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في متى ٢٥: ١٣-٣٠).

إنّ المسيح إذ كان جالسا على جبل الزيتون تحدث مع تلاميذه عن مجيئه الثاني إلى العالم. وقد ذكر بعض الحوادث التي تدل على قرب مجيئه، وكان قد أوصى تلاميذه بأن يسهروا ويستعدوا. ومرة أخرى كرر الإنذار قائلا: « فَاسْهَرُوا إِذًا لأَنَّكُمْ لاَ تَعْرِفُونَ الْيَوْمَ وَلاَ السَّاعَةَ الَّتِي يَأْتِي فِيهَا ابْنُ الإِنْسَانِ » (متى ٢٥: ١٣). ومن ثم أبان لهم معنى السهر لمجيئه. فالوقت ينبغي أن لا يصرف في الانتظار الباطل بل في العمل باجتهاد. هذا هو الدرس الذي قدمه المسيح في مثل الوزنات.

فقال لهم ملكوت السَّمَاوَات « كَأَنَّمَا إِنْسَانٌ مُسَافِرٌ دَعَا عَبِيدَهُ وَسَلَّمَهُمْ أَمْوَالَهُ، فَأَعْطَى وَاحِدًا خَمْسَ وَزَنَات، وَآخَرَ وَزْنَتَيْن، وَآخَرَ وَزْنَةً. كُلَّ وَاحِدٍ عَلَى قَدْرِ طَاقَتِه. وَسَافَرَ لِلْوَقْت » (متى ٢٥: ١٤، ١٥).

إنّ الرَجل المسافر إلى كورة بعيدة يرمُز إلى المسيح [326] الذي حينما نطق بهذا المثل كان مزمعا أن ينطلق من الأرض إلى السماء. و « عبيده » أي الأسرى المذكورون في المثل يرمزون إلى أتباع المسيح. إننا لسنا لأنفسنا فقد « اشْتُرِيتُمْ بِثَمَن » (١كورنثوس ٦: ٢٠) « لا بأشياء تفنى بفضة أو ذهب... بل بدم كريم... دمٍ المسيح » (١بطرس ١: ١٨، ١٩). « كَيْ يَعِيشَ الأَحْيَاءُ فِيمَا بَعْدُ لاَ لأَنْفُسِهِمْ، بَلْ لِلَّذِي مَاتَ لأَجْلِهِمْ وَقَامَ » (٢كورنثوس ٥: ١٥).

كل الناس قد اشتُروا بهذا الثمن الذي لا يمكن تقديره. إذ سكب اللّٰه كل ما في خزانة السماء إلى هذا العالم، وإذ منحنا كل السماء في المسيح، فإنّه قد اشترى إرادةَ كل إنسان وعواطفَه وعقلَه ونفسَه. إنّ كلّ الناس، مؤمنين كانوا أو غير مؤمنين هم خاصة الرب. والجميع يُدعون ليخدموه، ولأجل الكيفية التي بها قابلوا هذا الطلب، سيُطلب من الجميع أن يقدموا حسابا في يوم الدينونة العظيم.

ولكنّ حقوق اللّٰه لا يعترف بها الجميع. فالذين يدّعون أنّهم قد قبلوا خدمة المسيح هم الذين يرمز إليهم المثل على أنّهم عبيده.

لقد افتُديَ أتباعُ المسيح ليخدموا. إنّ ربّنا يعلمنا أنّ هدف الحياة الحقيقي هو الخدمة. فقد كان المسيح نفسه خادما، وهو يقدّم لكل اتباعه قانون الخدمة. خدمة اللّٰه وخدمة بني جنسهم. لقد قدم المسيح للعالم هنا فكرة عن الحياة أسمى من كل ما سبقوه فعرفوه. إنّ الإنسان إذ يعيش ليخدم الآخرين يصير مرتبطاً بالمسيح. فقانون الخدمة يصير حلقة الاتصال التي تربط بيننا وبين اللّٰه وبني جنسنا.

إنّ المسيح يسلم عبيده « أَمْوالَهُ » – أي شيء يستثمر لأجله، فهو يعطي « لِكُلِّ وَاحِدٍ عَمَلَهُ » (مرقس ١٣: ٣٤). فلكل مكانه في تدبير السماء الأبدي. وعلى كل واحد أن يعمل متعاونا مع المسيح لأجل خلاص [327] النفوس. فكما نحن موقنون من انّه يوجد مكان معد لنا في المواطن السماوية فكذلك يجب أن نوقن انه قد تعين لنا مكان خاص على الأرض حيث نخدم اللّٰه.

مواهب الرُّوح الْقُدُس

إنّ الوزنات التي يسلمها المسيح لكنيسته تمثل خاصة المواهب والبركات التي يمنحها الرُّوح الْقُدُس: « فَإِنَّهُ لِوَاحِدٍ يُعْطَى بِالرُّوحِ كَلاَمُ حِكْمَةٍ، وَلآخَرَ كَلاَمُ عِلْمٍ بِحَسَبِ الرُّوحِ الْوَاحِدِ، وَلآخَرَ إِيمَانٌ بِالرُّوحِ الْوَاحِدِ، وَلآخَرَ مَوَاهِبُ شِفَاءٍ بِالرُّوحِ الْوَاحِدِ. وَلآخَرَ عَمَلُ قُوَّاتٍ، وَلآخَرَ نُبُوَّةٌ، وَلآخَرَ تَمْيِيزُ الأَرْوَاحِ، وَلآخَرَ أَنْوَاعُ أَلْسِنَةٍ، وَلآخَرَ تَرْجَمَةُ أَلْسِنَةٍ. وَلكِنَّ هذِهِ كُلَّهَا يَعْمَلُهَا الرُّوحُ الْوَاحِدُ بِعَيْنِهِ، قَاسِمًا لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمُفْرَدِهِ، كَمَا يَشَاءُ » (١كورنثوس ١٢: ٨-١١). إنّ كل الناس لا يتقبلون نفس المواهب، ولكن قد أُعطيَ الوعدُ بإعطاء موهبة من مواهب الروح لكل خادم للسيّد.

إنّ المسيح قبلما ترك تلاميذه: « نَفَخَ وَقَالَ لَهُمُ: اقْبَلُوا الرُّوحَ الْقُدُسَ » (يوحنا ٢٠: ٢٢). ثم قال: « هَا أَنَا أُرْسِلُ إِلَيْكُمْ مَوْعِدَ أَبِي » (لوقا ٢٤: ٤٩).

ولكنّهم لم يقبلوا تلك الهبة في ملئها إلا بعد الصعود. فلم يقبل التلاميذ انسكاب الروح إلاّ بعدما سلموا ذواتهم بالتمام لعمله بالإيمان والصلاة. حينئذ سلمت أموال السماء إلى تلاميذ المسيح بمعنى خاص: « إِذْ صَعِدَ إِلَى الْعَلاَءِ سَبَى سَبْيًا وَأَعْطَى النَّاسَ عَطَايَا » « لكُلِّ وَاحد منَّا أُعْطِيَت النِّعْمَةُ حَسَبَ قِيَاس هِبَة الْمَسِيح » (أَفَسُس ٤: ٨، ٧) (الروحَ) « قَاسِمًا لِكُلِّ وَاحد بِمُفْرَده، كَمَا يَشَاءُ » (١كورنثوس ١٢: ١١). إنّ الهبات هي لنا الآن في المَسِيح ولكَن امتلاكها امتلاكا فعليا يتوقف على قبولنا لروح اللّه. [328]

إنّ الوعد بإرسال الروح لا يقدّر كما ينبغي. وإتمامه لا يتحقق كما يجب. إنّ غياب الروح هو الذي يجعل خدمة الإنجيل بلا قوة. قد تمتلك العلم والمواهب والفصاحة وكل هبة طبيعية أو مكتسبة، ولكن بدون حضور روح اللّه لا يمكن أن يتأثر أي قلب، ولا يمكن ربح أي خاطئ للمسيح. ومن الناحية الأخرى فإن أفقر تلاميذ المسيح وأجهلهم إذا كانوا مرتبطين به وإن كانت لهم هبات الروح ستكون لهم قوة تؤثر في القلوب. فاللّه سيجعلهم سبيلا لإحداث أعظم تأثير في المسكونة.

وزنات أخرى

إنّ هبات الروح الخاصة ليست هي الوزنات الوحيدة المبينة في المثل. فهي تشمل كل الهبات والعطايا سواء أكانت أصيلة أو مكتسبة، طبيعية أو روحية. وهذه كلها ينبغي استخدامها في خدمة المسيح. فنحن إذ نصير تلاميذَ له. نسلم ذواتنا له بكل كياننا وكل ما نملك. وهو يعيد إلينا هذه الهبات طاهرة وسامية لتُستخدَم لمجده في جلب البركة لبني جنسنا.

إنّ اللّه قد أعطى كل واحد « عَلَى قَدْر طَاقَته » (متى ٢٥: ١٥). إنّ الوزنات لا تُقّسم لكل واحد على هواه. ولكن الذَي لهَ المقدرة على استثمار خمس وزنات أُعطيَ خمسا. والذي يمكنه أن يحسّن وزنتين يأخذ اثنتين، والذي يمكنه أن يتصرفَ بحكمة في وزنة واحدة فقط أعطيت له وزنة. فلا حاجة لأحد في أن ينتدب لأنَّه له وزنات أكثر، لأنّ الذي قسم لكل واحد نصيبه يتمجد عندما تحسّن كل وديعة سواء أكانت كثيرة أو قليلة. فالذي سُلّمَت إليه خمس وزنات عليه أن يستثمر الوزنات الخمس، والذي أخذ وزنة واحدة عليه أن يُحسن استخدام الواحدة فاللّه يَنتظر نتائج « عَلَى حَسَبِ مَا للإِنْسَانِ، لاَ عَلَى حَسَبِ مَا لَيْسَ لَهُ » (٢كورنثوس ٨: ١٢). [329]

نجد في المثل أن « الَّذِي أَخَذَ الْخَمْسَ وَزَنَات » مضى « وَتَاجَرَ بِهَا، فَرَبِحَ خَمْسَ وَزَنَات أُخَرَ. وَهكَذَا الَّذِي أَخَذَ الْوَزْنَتَيْنِ، رَبِحَ أَيْضًا وَزْنَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ » (متى ٢٥: ١٦، ١٧).

إنّ الوزنات مهما تكن قليلة العدد ينبغي أن تُستثمر. إنّ السؤال الذي يهمنا أكثر من غيره هو ليس: كم أخذت؟ بل: ماذا أنا فاعل بما قد أخذت؟ إنّ تحسين كل قوانا هو أول واجب نحن مدينون به للّه ولبني جنسنا. فمن لا ينمو كل يوم في المقدرة والنفع لا يتمّم غرضَ [330] الحياة. إننا إذ نعترف بإيماننا بالمسيح فنحن نتعهد أن نصبو إلى كل ما يمكننا أن نصير إليه كخدام للسيد، وان ننمّي كلّ قوة فينا إلى أقصى درجات الكمال حتى نستطيع أن نعمل أعظم قدر من الخير الذي نحن قادرون عليه.

إنّ للرب عملا عظيما يجب إنجازه، وفي الحياة العتيدة سيورث النصيب الأكبر لمن يقومون بأعظم خدمة أمينة عن طيب خاطر في الحياة الحاضرة. والرب يختار عماله وفي كل يوم في ظروف مختلفة يقدّم لهم اختبارا في خطة عمله، وفي كل مسعى أمين لتنفيذ خطّته يختار عماله لا لأنهم كاملون، بل لأنهم عن طريق ارتباطهم به يمكنهم أن يبلغوا حدّ الكمال.

واللّه لا يقبل إلاّ من يصمّمون على أن يسموا بأهدافهم. وهو يجعل كل عامل تحت التزام بأن يفعل أفضل ما يستطيعه. والكمال الأدبي مطلوب من الجميع. فينبغي ألاّ نخفض مقياس البرّ لكي نوفق بين الميول الموروثة أو المغروسة وبين عمل الشر. وعلينا أنّ ندرك أن النقص في الخلُق هو خطية. وكل سجايا الخلق البارة هي في اللّه الذي هو كلُّ كامل ومنسجم، وكل من يقبل المسيح مخلّصاً شخصيا له يصبح له امتياز امتلاك هذه السجايا.

وعلى الذين يريدون أن يكونوا عاملين مع اللّه أن يجتهدوا في جعل كل عضو من أعضاء الجسم وكل صفة من صفات العقل في حالة الكمال. الثقافة الصحيحة هي إعداد القوى الجسمية والعقلية والأدبية لأداء كل واجب، وهي تهيئة الجسم والعقل والنفس للخدمة المقدسة – تلك هي الثقافة الباقية للحياة الأبدية.

إنّ الرب يطلب من كل مسيحي أن ينمو في الكفاءة والمقدرة في كل فروع العمل. لقد دفع لنا المسيح أجرتنا أي دمَه وآلامَه، لكي يحصل على [331] خدمتنا الطوعية. ولقد أتى إلى عالمنا ليقدم لنا مثالا في كيف يجب أن نخدم وأي روح يجب أن ندخلها في عملنا. وهو يريدنا أن نفكر في كيف يمكننا أن

نتقدم بعمله ونمجد اسمه في العالم، ونتوّج بالكرامة وبأعظم محبة وتكريس الآب الذي « هكَذَا أَحَبَّ اللّٰهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ به، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ » (يوحنا ٣: ١٦).

ولكَن اَلمسيح لم يقدم لنا ضمَانا بإنّ بلوغ الكمال في الخلُق مسألة سهلة. إنّ الخلُق النبيل المكمّل لا يورث، ولا نؤتاه بمحض الصدفة، بل يُكتسب بالمجهود الشخصي باستحقاق المسيح ونعمته. فاللّٰه يُعطي الوزنات وقوي العقل أمّا نحن فنصوغ الخلُق. وهو إنما يُصاغ بمعارك شديدة حامية مع الذات، إذ لابدّ من إثارة حرب بعد حرب ضدّ الميول الموروثة، ولابد لنا من أن ننتقد نفوسنا بشدة وألاّ نسمح لأي خلة من الخلال غير المقبولة أن تظل بدون إصلاح.

لا يقل أحد: أنا عاجز عن إصلاح ضعفاتي الخلقية. فإذا وصلت إلى هذا القرار فستخفق في الحصول على الحياة الأبدية. إنّ الاستحالة كامنة في أرادتك أنت، فإذا لم ترد فلن تنتصر. إنّ الصعوبة الحقيقة ناشئة من فساد القلب النجس والنفور من الخضوع لسلطان اللّٰه.

ولكن كثيرين ممن قد أهّلهم اللّٰه للقيام بعمل جليل لا ينجزون إلاّ قليلا جدا، لأنهم يحاولون قليلا. إنّ آلافا من الناس يسيرون في الحياة وكأنّ ليس لهم غرض معين يعيشون لأجله ولا جعالة يصلون إليها. هؤلاء سينالون مجازاة تتناسب وأعمالهم.

واذكر أنك لن تصل إلى مقياس أعلى مما قد وضعته لنفسك. إذا فاجعل هدفك عاليا، وحينئذ فخطوة بعد خطوة. وان يكن بمجهود مؤلم لك، وبإنكار ذات وتضحية اصعد سلم [332] النجاح إلى قمّته. ولا تدع شيئاً يعوقك. إنّ الحظ لم ينسج خيوطه حول أيّ إنسان بكل قوة بحيث يظل عاجزاً وفي شكّ. إنّ مقارعة الظروف ومقاومتها ينبغي أن تخلق في النفس العزم الصادق على الانتصار عليها. إنّ نقض سياج واحد كفيل بأن يخلق في النفس قوة وشجاعة أعظم للتقدم إلى الأمام. فسر قدماً بعزم صادق في طريق الحق، وستكون الظروف مساعدة لك لا معرقلة.

كن طموحا لأجل مجد السيد لأن تغرس في خلُقك كلّ فضيلة. عليك في كلّ دور من أدوار بناء خلُقك أن ترضي اللّٰه. وأنت تستطيع أن تفعل هذا، لأنّ أَخْنُوخ أرضى اللّٰه مع انّه كان يعيش في وسط جيل منحط، ويوجد كثيرون من أمثال أَخْنُوخ في يومنا هذا.

قف كدانيالَ السياسي الأمين، الذي لم يمكّنْ لأية تجربة أن تفسده. لا تخيّب انتظارات من « هكذا أحبَكَ حتى بذل نفسه ليمحو خطاياك ». إنّه يقول: « بدُوني لاَ تَقْدرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئًا » (يوحنا ١٥: ٥). فاذكر هذا. فإن كنت قدَ أخطأت فأنت بالتأكيد تحرز النصرة إذا كنت ترى هذه الأخطاء وتعتبرها إنذارات بالخطر. وهكذا تقلب الهزيمة إلى نصرة، وهكذا تخيب انتظارات العدو وتكرم فاديك.

إنّ الخُلُق الذي يُصاغ حسب صورة اللّه هو الكنز الوحيد الذي نستطيع أن ننقله من هذا العالم إلى العالم الآتي. والذين هم خاضعون لتعليمات المسيح في هذا العالم سيأخذون معهم كل ما قد حصلوه من الأمور الإلهية إلى مساكن السماء. وفي السماء ستسير على الدوام في طريق التحسن. إذا فما أهم أن ننمّي خلقنا في هذه الحياة

إنّ أجناد السماء سيعملون مع العامل البشري الذي يطلب بإيمان ثابت كمال الخلق الذي يصل إلى كمال في العمل. إنّ المسيح يقول لكل من يشتغل في هذا العمل. إنّني سأعينك. [333]

وإذ تتعاون إرادة الإنسان مع إرادة اللّه فهي تصبح مقتدرة. وكل ما يمكن أن يعمل بأمره يمكن أن يتم بقدرته. وكل ملزماته تصير إمكانيات.

القوى العقلية

إن اللّه يطلب تدريب القوى العقلية. فهو يقصد أن يكون خدّامه حائزين ذكاء أعظم وتمييزاً أوضح من الإنسان العالمي، وهو يسخط على من هم عديمو الاكتراث ومتكاسلون جدا عن أن يصيروا خدّاما مقتدرين ذوي علم ودراية. إنّ الرب يأمرنا بأن نحبه من كل القلب ومن كل النفس ومن كل القدرة ومن كل الفكر. هذا يضعنا تحت التزام تنمية العقل إلى أكمل سعته، حتى نعرف خالقنا ونحبه بكل فكرنا.

إنّ العقل إذا صار تحت سيادة الروح فكلّما أُجيدَ تثقيفه وتهذيبه كلما أمكن استخدامه بأكثر فاعلية في خدمة اللّه. إنّ الرجل غير المتعلم المكرس للّه والمشتاق لأن يبارك الآخرين يمكن للرب أن يستخدمه في خدمته. ولكن الذين قد حصلوا على منفعة التعليم السليم ولهم نفس روح التكريس يمكنهم أن يخدموا المسيح خدمة أعظم في مجالات أوسع. فهم يقفون في مركز ممتاز.

إنّ الرب يريدنا أن نحصل على كل تعليم ممكن، وأمام أنظارنا هذا الغرض وهو أن نعرّف به الآخرين. ليس منا من يعرف أين أو كيف يمكن أن يُدعي ليخدم اللّٰه أو يتحدث عنه. إنّ أبانا السماوي هو وحده الذي يرى ما يمكنه أن يصنع من الناس. توجد أمامنا إمكانيات لا يمكن لإيماننا الضعيف أن يراها أو يميزها. فينبغي أن ندرّب عقولنا بحيث إذا لزم يمكننا أن نقدم حقائق كلمته لأرقى السلطات الأرضية [334] بطريقة تمجّد اسمه. فلا نترك فرصة واحدة تفلت منا دون أن نؤهل ذواتنا عقليا لخدمة اللّٰه.

فعلى الشباب المحتاجَين إلى العلم أن يبدأوا بالعمل بعزم لاجتناء ثمراته. لا تنتظروا حتى يُفتَح لكم الباب، بل افتحوا لأنفسكم. وتمسّكوا بأي طريق صغير يعرضُ نفسه لكم. ثم مارسوا الاقتصاد. فلا تنفقوا أموالكم في إشباع نهمكم أو طلب الملذات. اعزموا على أن تصيروا نافعين ومقتدرين كما يدعوكم اللّٰه أن تكونوا. كونوا كاملين ومتقنين وأمناء في كل ما تباشرونه. حصّلوا كل منفعة أو ميزة في متناول أيديكم لأجل تقوية عقولكم. واجمعوا بين دراسة الكتب والعمل اليدوي النافع، وبالمسعى الأمين والسهر والصلاة أحرزوا الحكمة التي من فوق. هذا يمنحكم تعليما شاملا. وهكذا يمكنكم أن تسموا بأخلاقكم وتكسبوا تأثيرا على عقول أخرى يقدركم على أن ترشدوهم في طريق البرّ والقداسة.

ويمكن إتمام أشياء أكثر في عمل تعليم النفس إذا كنا يقظين لفرصنا وامتيازاتنا. إنّ التعليم الصحيح يعني شيئا أكثر ممّا يمكن للكليات أن تقدمه. ففي حين يجب ألاّ نغفل درس العلوم فإنّ هنالك تعليما أعلى يمكن الحصول عليه عن طريق الارتباط الحيوي باللّٰه. فليأخذ كل طالب كتابه المقدس ويدخل في شركة مع المعلّم العظيم. وليتعلم العقل ويتدرب على أن يصارع المشاكل المستعصية بحثا عن الحق الإلهي.

إنّ من يجوعون إلى العلم لكي يباركوا بني جنسهم سيحصلون هم أنفسهم على بركة من اللّٰه. وعن طريق درسهم لكلمته تستيقظ قوى عقولهم للنشاط والعمل الغيور. وستتسع قواهم العقلية وتنمو وسيحصل العقل على القوة والكفاءة. [335]

وينبغي لكل من يريد أن يكون خادما للّٰه أن يمارس تدريب نفسه. هذا ينجز أكثر ممّا تستطيع الفصاحة أو أعظم المواهب المتألقة أن تنجزه. إنّ العقل العادي متى أُحسنَ تدريبه ينجز عملا أكثر وأسمى مما يمكن أن ينجزه العقل الحاصل على أعلَى تعليم وأعظم ثقافة وأعظم المواهب بدون ضبط النفس.

الخطابة أو الكلام

إنّ القدرة على الكلام هي موهبة ينبغي الاجتهاد في إصلاحها وتهذيبها. ومن بين كل الهبات التي تسلمناها من اللّه لا توجد هبة أخرى يمكنها أن تكون بركة أعظم من هذه. فبهذا الصوت نقنع الناس ونستميلهم، وبه نقدم الصلاة والتسبيح إلى اللّه. وبه نخبر الآخرين عن محبة المُخَلِّص. إذا فكم هو أمر مهمّ جدّا أن ندربه ليكون أكثر فاعلية للخير.

إنّ تهذيب الصوت واستخدامه استخداما صائباً مهملان إلى حدّ كبير حتى من ذوي الذكاء والنشاط المسيحي. يوجد كثيرون ممن يقرأون أو يتكلمون بصوت منخفض أو بسرعة بحيث لا يمكن فهم الكلام بسهولة. والبعض نطقهم غليظ وغير واضح، وغيرهم يتكلمون بنغمة عالية وصوت حاد « مصرصع » بحيث يتألم منه السامعون. والآيات والترانيم والتقارير وغيرها من الأوراق التي تقدم أمام مجتمعات عامة تقرأ أحياناً بطريقة تجعلها غير مفهومة وفي الغالب ما تضيع قوّتها على التأثير.

هذا شرّ يمكن ويجب إصلاحه. والكتاب يقدم لنا تعليمات بهذا الشأن. قد قيل عن اللاويين الذين قرأوا من الكتاب للشعب في أيام عزرا: « قَرَأُوا فِي السِّفْرِ، فِي شَرِيعَةِ اللّٰهِ، بِبَيَانٍ، وَفَسَّرُوا الْمَعْنَى، وَأَفْهَمُوهُمُ الْقِرَاءَةَ » (نَحَمْيَا ٨: ٨).

فبواسطة الاجتهاد والمثابرة يمكن للجميع أن يحصلوا على قوة على القراءة بوضوح ويتكلموا بنغمة كاملة جلية ممتلئة [336] وبكيفية واضحة ومؤثرة. فإذ نفعل هذا قد نزيد من مقدرتنا كخدام للمسيح إلى حد كبير.

إنّ كل مسيحي مدعوّ لأن يعرّف الآخرين بعنى المسيح الذي لا يُستقصى. فلهذا عليه أن يجتهد في أن يكون كاملا في الخطابة. وعليه أن يقدم كلمة اللّه بطريقة تمتدحها لدى السامعين. فاللّه لا يقصد أن تكون أقنيته البشرية فظّة أو خشنة. وليس من إرادته أن يحقر الإنسان أو يحط من شأن المجرى السماوي الذي يجري عن طريقه إلى العالم.

ينبغي لنا أن ننظر إلى يسوع مثالنا الكامل. ولنصلِّ في طلب معونة الرُّوح الْقُدُس، وبقوته علينا أن نحاول تدريب كل عضو ليعمل عملا كاملا.

وهذا ينطبق خصوصاً على من يُدعون لخدمة جهارية عامة. فعلى كل خادم وكل معّلم أن يذكر انّه إنّما يقدم للشعب رسالة تتضمن مصالح أبدية. والحق الذي يقال سيدينهم في اليوم الأخير يوم الحساب العظيم. وبالنسبة

إلى البعض نجد أنّ طريقة إلقاء الرسالة تقرّر قبولها أو رفضها. إذا لينطق بالكلمة بحيث تروق للفهم وتؤثر في القلب. يجب النطق بها على مهل وبوضوح ووقار، ومع ذلك بكل الغيرة التي تتطلّبها أهميتها.

إنّ التهذيب الصحيح والاستخدام الصائب لقوة الخطابة لها أهمية في كل فروع الخدمة المسيحية. لها دخل في الحياة البيتية وفي كل اتصالاتنا مع بعضنا البعض. فيجب أن نعوّد أنفسنا التحدث بنغمات مسرة ونستعمل لغة طاهرة وصحيحة وأقوالا مُشفقةً ولطيفة. فالأقوال الحلوة والمشفقة هي كالندى والسيول اللطيفة للنفس. والكتاب يقول عن المسيح إنّ النعمة قد انسكبت على شفتيه. « لأَعْرِفَ أَنْ أُغِيثَ الْمُعْيِيَ بِكَلِمَةٍ » (مزمور ٤٥: ٢؛ إِشَعْيَاء ٥٠: ٤). والرب يأمرنا قائلاً: « لِيَكُنْ كَلاَمُكُمْ كُلَّ حِينٍ بِنِعْمَةٍ » (كُولُوسِّي ٤: ٦) « كَيْ يُعْطِيَ نِعْمَةً لِلسَّامِعِينَ » (أَفَسُس ٤: ٢٩). [337]

وعندما نحاول تصحيحَ أخطاءَ الآخرين أو إصلاحهم علينا أن نكون حذرين وحريصين في كلامنا. فقد يكون كلامنا رائحة حياة لحياة أو رائحة موت لموت. إنّ كثيرين حين يوبّخون إنسانا أو ينصحون يتكلمون كلاما حادا صارما وكلمات لا تتلاءم مع النفس الجريحة. إذ بسبب هذه العبارة غير السديدة نغضب الروح وغالبا ما يجنح المخطئون إلى العصيان والتمرّد. إنّ كل من يريدون أن يدافعوا عن مبادئ الحق يحتاجون إلى أن يُمسحوا بزيت المحبة السماوية. وفى كل الظروف يجب أن يكون التوبيخ بمحبة. وحينئذ يُصلحْ كلامنا الناس دون أن يسخطهم. فالمسيح بروحه القدوس سيعطي القوة والسلطان. هذا هو عمله.

ينبغي ألاّ تُقال كلمة بتهوّر، وينبغي لمن يتبع المسيح ألاّ تفلت من شفتيه أيّ كلمة شرّيرة ولا حديث استهتار ولا كلمة تبرّم نكد أو اقتراح نجس. إنّ بولس الرسول يكتب بالرُّوح الْقُدُس فيقول: « لاَ تَخْرُجْ كَلِمَةٌ رَدِيَّةٌ مِنْ أَفْوَاهِكُمْ » (أَفَسُس ٤: ٢٩). إنّ الكلمة الردية لا تعني فقط الكلام الدَنيء. ولكنّها تعني أيضا أيّ تعبير يتنافى مع المبادئ المقدسة والديانة الطاهرة النقية. وهي تشمل أيضا التلميحات النجسة والإيعازات الخفية للشرّ. فهذه إذا لم نقاومها في الحال تقود إلى خطية عظيمة.

فعلى كل عائلة وفرد مسيحي يوضع واجب سد الطريق على الكلام الفاسد. فعندما نكون في رفقة من يكثرون من كلام الغباء علينا أن نغيّر موضوع الحديث إذا أمكن. فعلينا بنعمة اللّه أن ننطق بكلام أو ندخل موضوعاً يحوّل الحديث في مجرى نافع.

إنّ عمل الوالدين هو أن يربّوا أولادهم على العادات السليمة في الكلام. وأفضل مدرسة لهذه التربية هي الحياة البيتية. فمن بدء سني حياة الأولاد يجب تعليمهم أن يتكلموا مع والديهم ومع بعضهم البعض باحترام ومحبة. ويجب أن يتعلموا ألاّ يخرج من أفواههم إلاّ كلام [338] اللطف والصدق والطهارة. وليتعلم الوالدون أنفسهم كل يوم في مدرسة المسيح. وحينئذ يمكنهم بواسطة الوصية والمثال أن يعلّموا أولادهم كيف يقولون: « كَلاَمًا صَحِيحًا غَيْرَ مَلُومٍ » (تِيطُس ٢: ٨). هذا هو أحد واجباتهم الأعظم والأكثر مسؤولية.

وكتلاميذ للمسيح ينبغي أن نجعل كلامنا بحيث يكون عونا وتشجيعا لبعضنا البعض في الحياة المسيحية. وعلينا أن نتحدث عن الفصول الثمينة في اختبارنا أكثر بكثير مما نفعل. ويجب أن نتحدث عن رحمة اللّه ورأفته وعن أعماق محبة المُخَلِّص التي لا يُسبَرُ غورُها. ويجب أن يكون كلامنا كلام الشكر والحمد. وإذا كان العقل والقلب مفعمين بمحبة اللّه فهذا سيظهر في الحديث. ولن يكون أمراً صعبا أن نعطي للغير ما له صلة في حياتنا الروحية. فالأفكار العظيمة والاشتياقات النبيلة والإدراك الواضح للحق والأهداف الخالية من الأثرة والحنين إلى التقوى والقداسة، هذه كلها ستؤتي ثمرها في الأقوال التي تكشف عن صفة كنز القلب. فمتى أعلن المسيح هكذا في حديثنا فسيكون لذلك قوة في ربح النفوس له.

وينبغي لنا أن نتحدث عن المسيح مع من لا يعرفونه. فيجب أن نعمل كما عمل المسيح. فأينما وجد إن في المجمع أو على جانب الطريق أو في وليمة الفريسي، أو على مائدة العشار كان يحدث الناس عن الأمور المتعلقة بالحياة الأسمى. فأمور الطبيعة وحوادث الحياة اليومية كان يُربَط بينها وبين كلام الحق. وقد اجتذبت إليه قلوب سامعيه لأنَّه قد شفى مرضاهم وعزّى المحزونين منهم وحمل أولادهم بين ذراعيه وباركهم. فعندما فتح فمه ليتكلم اتّجه انتباههم إليه وكانت كل كلمة من كلامه رائحة حياة لحياة لبعض النفوس. [339]

وهكذا ينبغي أن يكون الحال معنا. فأينما نكون يجب أن نراقب الفرص للتحدث مع الآخرين عن المُخَلِّص. فإذا تمثلنا بالمسيح في عمل الخير فستنفتح لنا القلوب كما قد انفتحت للسيد. فيمكننا بدون أن نقطع حبل الحديث بل بلباقة صادرة من المحبة الإلهية يمكننا أن نحدثهم عن ذاك الذي هو « مُعْلَمٌ بَيْنَ رَبْوَة » و « كُلُّهُ مُشْتَهَيَاتٌ » (نشيد ٥: ١٠، ١٦). هذا هو أسمى عمل يمكننا فيه أن نستخدم موهبة الكلام. فلقد أُعطيت لنا حتى يمكننا أن نقدّم للناس المسيح كالمُخَلِّص غافر الخطايا.

التأثير

لقد كانت حياة المسيح تأثيرا دائم الاتساع لا شواطئ له، تأثير ربط بينه وبين الأسرة البشرية كلها. وبواسطة المسيح منح اللّه الإنسان تأثيرا يجعل من المستحيل عليه أن يعيش لنفسه. إنّ كل فرد منا مرتبط ببني جنسه، وهو جزء من كلّ اللّه العظيم، ونحن تحت التزامات متبادلة. ولا يمكن لإنسان أن يعيش مستقلا عن بني جنسه، لأن خير كل فرد أو رفاهيته تؤثر في الآخرين. واللّه يقصد أنّ كل واحد يشعر بأنّه لازم وضروري لأجل خير الآخرين، وأن يجتهدَ في العمل على إسعادهم.

إنّ كل نفس محاطة بجو خاص بها – جو يمكن أن يكون مشحونا بقوة الإيمان المانح الحياة والشجاعة والرجاء ومعطر بأريج المحبة، أو ربما يكون ثقيلا وباردا بفعل الحزن الناشئ عن التذّمر والأنانية، أو مسموما بسبب وصمة عار خطية محبوبة. وكل إنسان نختلط به لابدّ أن يتأثّر بالجو المحيط بنا، سواء علم بذلك أو لم يعلم.

هذه مسؤولية لا يمكننا أن نخلي أنفسنا منها. فأقوالنا وأعمالنا ولبسنا وتصرفنا وحتى تعبيرات وجوهنا لها تأثيرها. [340] وعلى التأثير الذي يحدث تتوقف نتائج للخير أو للشر لا يمكن لإنسان أن يقيسها. فكل دافع يبذل هكذا هو بذرة تزرع ولابد أن تؤتي ثمارها. وهو حلقة في السلسلة الطويلة سلسلة الحوادث البشرية التي لا نعلم إلى أين تمتدّ. فإذا كنا بمثالنا نساعد الآخرين على إنماء المبادئ الصالحة فإننا نزودهم بالقوة على عمل الخير. وهم بدورهم يستخدمون نفس التأثير على الآخرين، وهؤلاء على آخرين أيضا. وهكذا بتأثيرنا الذي لا نعلم به يمكن لآلاف من الناس أن يتباركوا.

ألق بعض الحصى في البحيرة فتتكون موجة وأخرى وأخرى. وإذ تزيد يتسع محيطها حتى يصل إلى الشاطئ. وكذلك الحال مع تأثيرنا. فبدون علمنا أو سيطرتنا هو يؤثر في الآخرين إن للبركة أو اللعنة.

والخلُق قوّة. فالشهادة الصامتة للحياة الأمينة التقيّة غير المحبة لذاتها تعمل تأثيرا يكاد لا يقاوم فنحن إذ نعلن صفات المسيح في حياتنا نتعاون معه في عمل خلاص النفوس. ولا يمكننا التعاون معه ما لم تظهر صفاته في حياتنا.

وكلما اتسع نطاق تأثيرنا كل ما أمكننا أن نفعل خيراً أعظم. فعندما يتبع من يعترفون بأنهم يخدمون اللّه مثال المسيح ممارسين مبادئ الناموس في حياتهم اليومية وعندما يشهد كل عمل بأنّهم يحبون اللّه أعظم حبّ ويحبون القريب كأنفسهم، حينئذ تكون في الكنيسة قوة بها تحرك العالم.

ولكن ينبغي ألاّ ننسى أنّ للتأثير قوة مماثلة للشرّ. إن خسر إنسان نفسه فذلك أمر مخيف، ولكن كون الإنسان يتسبب في هلاك نفوس الآخرين فهذا فكر مريع. إنّ كثيرين ممن يعترفون بأنّهم يجمعون مع المسيح هم في الواقع يفرقون الناس بعيدا عنه. وهذا هو السبب في ضعف الكنيسة. وكثيرون يمعنون [341] في الانتقاد والشكوى والاتهام. فإذ يعبرون عن الشك والحسد والتبرم يسلّمون ذواتهم آلات طيّعة في يد الشيطان. وقبلما يدركون ماذا هم صانعون يكون العدّو قد تمّم غرضه عن طريقهم. فلقد حدث التأثير الشرير وأُلقيَ الظل وسهام الشيطان قد أصابت مقتلا. فالشكّ وعدم الإيمان والإلحَاد الصريح قد ضيقت الخناق على أولئك الذين لولا ذلك كان يمكنهم أن يقبلوا المسيح. وفي أثناء ذلك ينظر خدام الشيطان بفرح إلى من قد ساقوهم إلى الإلحاد والذين قد تقسّوا الآن ضد التوبيخ والتوسل. إنّهم يخدعون أنفسهم قائلين إنّهم بالمقارنة مع هذه النفوس يعتبرون أفاضل وأبرارا. ولكنهم لا يدركون أن حطام هذه الأخلاق إنّما هو من صنع ألسنتهم التي أطلقوا لها العنان وقلوبهم المتمردة، فبسبب تأثيرهم سقط هؤلاء الناس المجرّبون.

وهكذا نجد أنّ الاستهتار والانغماس الأناني والإهمال وعدم الاكتراث من جانب المعترفين بالمسيحية تبعد نفوسا كثيرة عن طريق الحياة. ويوجد كثيرون ممن سيخافون أن يواجهوا عواقب تأثيرهم أمام محكمة اللّه.

إنّما بواسطة نعمة اللّه يمكننا استخدام هذه الهبة استخداما صائبا. ولا شيء في ذواتنا به يمكننا أن نؤثّر في الآخرين للخير. فإذا تحققنا من عجزنا وحاجتنا إلى القوة الإلهية لن نثق بذواتنا. إننا لا نعرف أيّ النتائج يمكن أن تُحدّد في يوم أو ساعة أو لحظة، وينبغي ألا نبدأ اليوم بدون أن نسلّم طرقنا لأبينا السماوي. إنّ ملائكته مكلّفون بالسهر علينا فإذا وضعنا أنفسنا تحت رعايتهم ففي كل وقت نتعرّض فيه للخطر يكونون عن يميننا. وعندما نكون في خطر إحداث تأثير خاطئ على غير علم منا فالملائكة يكونون إلى جانبنا يستحثوننا [342] للسير في طريق افضل، فيختارون لنا أقوالنا ويؤثرون في أعمالنا. وهكذا يمكن أن يكون تأثيرنا قوة وان تكن صامتة ولا نعلم بها فإنّها قوة جبّارة في اجتذاب الآخرين إلى المسيح وإلى العالم السماوي.

الوقت

أن وقتنا هو من حق اللّٰه، فكل لحظة هي له ونحن تحت أخطر التزام بأن نحسن استخدامه لمجده. ولن يطلب منّا إعطاء حساب عن أية وزنة من الوزنات الأخرى بأشدّ دقة من وقتنا.

إنّ قيمة الوقت هي فوق كل تقدير. لقد اعتبر المسيح كل برهة ثمينة ونحن يجب أن نعتبرها كذلك. إنّ الحياة أقصر من أن ننفقها في غير طائل. لقد أُعطيتْ لنا أيامُ إمهال قليلة فيها نستعد للأبدية. لا وقت لنا نضيعه ولا وقت ننفقه في المسرات الأنانية ولا وقت للانغماس في الخطية. فعلينا الآن أن نصوغ أخلاقنا للحياة العتيدة الخالدة. علينا الآن أن نتأهب للدينونة الكاشفة.

إنّ الأسرة الإنسانية ما أن بدأت تحيا حتى بدأت تموت، وإنّ تعب العالم الذي لا ينقطع ينتهي إلى العدم ما لم يحصل الإنسان على معرفة حقيقية بالحياة الأبدية. والإنسان الذي يقدّر الوقت على أنّه يوم عمله سيؤهل نفسه لمسكن وحياة خالدة. فخير لهذا الإنسان انه قد ولد.

إنّ الكتاب يوصينا بأن نفتدي الوقت. ولكن الوقت الذي يبعثر لا يمكن افتداؤه. إننا لا يمكننا استرداد لحظة واحدة. والطريقة الوحيدة التي يمكننا أن نفتدي بها الوقت هي أن ننتفع أعظم انتفاع بما قد بقي وهو بأن نعمل مع اللّٰه في تدبيره العظيم تدبير الفداء.

فالذي يفعل هذا يحدث تغييرٌ في أخلاقه. فيصير ابنا للّٰه وعضوا ضمن الأسرة الملكية وابنا لملك السماء. ويؤهل لأن يكون عشيرا للملائكة. [343]

هذا هو الوقت الذي فيه نعمل لأجل خلاص بني جنسنا. يوجد بعض من يظنون أنهم لو قدّموا مالاً لعمل المسيح فهذا كل ما يُطلب منهم عمله، والوقت الثمين الذي فيه كان يمكنهم أن يقوموا بخدمة شخصية له يمرّ عبثا. ولكنّه امتياز وواجب على كل من يتمتعون بالصحة والقوة أن يقدموا للّٰه خدمة نشيطة. فعلى الجميع أن يعملوا لربح النفوس للمسيح. فالعطايا المالية لا يمكنها أن تسدّ في مكان هذا العمل.

إنّ كل برهة محملة بنتائج أبدية. فيجب أن نقف كرجال الساعة مستعدين للخدمة لدى أول طلب فالفرصة التي بين أيدينا الآن لنتحدث مع نفس محتاجة بكلام الحياة قد لا تعرض لنا مرّة أخرى. فقد يقول اللّٰه لذلك الإنسان: « هذه اللَّيْلَةَ تُطْلَبُ نَفْسُكَ مِنْكَ » (لوقا ١٢: ٢٠). وقد لا يكون مستعدّا بسببَ إهمالنا. فكيف نقدّم حَسابنا للّٰه في يوم الدينونة العظيم؟

إنّ الحياة أخطر من أن تبتلعها المسائل الزمنية الأرضية، في طاحون الهم والقلق على الأشياء التي ليست سوى ذرة بالمقارنة بالأشياء التي بها خطورة أبدية. ومع هذا فقد دعانا اللّه لنخدمه في شؤون الحياة الزمنية. والاجتهاد في هذا العمل هو جزْء من الديانة الحقيقية بقدر ما هي العبادة. والكتاب لا يوافق على البطالة. فهي أعظم لعنة تصيب عالمنا. فكل رجل وامرأة متجددين حقا لابد أن يكونا عاملين مجدين.

وعلى استخدامنا الصائب لوقتنا يتوقف نجاحنا في الحصول على المعرفة والثقافة العقلية. إنّ تهذيب العقل لا ينبغي أن يعيقه الفقر أو الأصل الوضيع أو البيئة غير الموافقة. إنما ينبغي ادخار اللحظات. فاللحظات القليلة هنا والقليل منها هناك التي يمكن إنفاقها في حديث بلا هدف. وساعات الصباح التي تضيع ونحن راقدون في الفراش. والوقت الذي ينفق في السفر في الترام أو في سكة الحديد أو في الانتظار على [344] المحطة، واللحظات التي فيها ننتظر وجبات الطعام أو انتظار مجيء من قد تأخروا عن الميعاد المضروب – فلو أمسك الإنسان كتابا وأحسن استعمال هذه اللحظات في الدرس والمطالعة أو التفكير الحريص فما أكثر ما يمكن إنجازه. إنّ العزم الصادق والجد والمثابرة التي لا تلين والاقتصاد الحريص في صرف الوقت لابدّ أن يساعد الناس على اجتناء العلم وتدريب العقل ممّا يؤهلهم لأي مركز ذي نفوذ ونفع.

إنّه من واجب كل مسيحي أن يكتسب عادات النظام والإتقان والسرعة. لا عذر لاحد في التباطؤ أو عدم إتقان العمل من أي نوع. فإذا كان الإنسان دائبا على العمل دائما دون أن ينهي عمله فالسبب في ذلك هو انّه لا يضع كل عقله وقلبه في العمل. فالإنسان البطيء والذي يعمل لغير طائل بل للخسارة يجب أن يتأكد من أن هذه أخطاء ينبغي إصلاحها. إنّه بحاجة إلى تدريب عقله في رسم الخطة التي بها يستخدم وقته بحيث يحصل على أفضل النتائج. فبواسطة اللباقة والنظام يمكن للبعض أن ينجزوا في خمس ساعات قدر ما ينجزه غيرهم في عشر ساعات. إنّ بعض من ينشغلون في عمل منزلي هم دائما يشتغلون لا لأن عليهم عملا كثيرا بل لأنهم لا يحسبون حساب توفير الوقت. فبسبب طرق البطء والتواني التي يسيرون عليها يخلقون من العمل القليل عملاً كثيرا. ولكن كل من يريدون يمكنهم الانتصار على هذه العادات المملّة البطيئة. فليكن لهم هدف معين في عملهم. حدد الوقت المطلوب للقيام بعمل معين ثم ابذل قصاراك لإنجازه في الوقت المحدد. إن استخدام قوة الإرادة يجعل اليدين تعملان بمهارة.

إنّ الأشخاص عندما لا يوجد عندهم العزم لكي يضعوا أنفسهم في أيديهم ويصلحوا أمورهم يصيرون مصحّفين في طريق خاطئ للعمل، لكن إن دربوا قواهم يكتسبون قوة للقيام بأفضل خدمة. وحينئذ تنهال عليهم الطلبات في أي زمان وفي كل مكان. وسيقدرهم الناس بحسب قدرهم. [345]

إنّ كثيرين من الأولاد والشباب يضيعون الوقت الذي كان يمكن صرفه في حمل أعباء البيت وبذلك كانوا يبرهنون على اهتمامهم ومحبتهم لآبائهم وأمهاتهم. فيمكن للشباب أن يأخذوا على عواتقهم القوية الشابة كثيرا من التبعات التي يجب أن يحملها شخص ما.

إنّ حياة المسيح منذ سني عمره الباكرة كانت حياة النشاط والغيرة. فهو لم يعش ليرضي نفسه. كان ابنَ الإله السرمدي ومع ذلك فقد كان يحترف النجارة مع يوسفَ أبيه* وقد كان لحرفته مغزاها. فلقد أتى إلى العالم كبنّاء للأخلاق، وقد كان كل عمله بالغا حد الكمال من هذه الناحية. وقد أدخل إلى كل عمله الدنيوي نفس الكمال الذي أدخله في الصفات التي كان ينيرها بقدرته الإلهية. وهو مثالنا.

على الآباء أن يعلّموا أولادهم قيمة الوقت وكيف يستخدمونه استخداماً صائباً. فعلموهم إنّ كونهم يعملون عملا به يكرمون اللّه ويباركون الإنسانية هو عمل يستحق أن يعيشوا لأجله. ويمكنهم حتى في بكور شبابهم أن يكونوا مرسلين للّه.

إنّ أعظم خطية يرتكبها الوالدون هي أن يسمحوا لأولادهم بأن لا يكون لهم شيء يعملونه. وسرعان ما يحب الأولاد البطالة فيشبّون رجالا ونساء عديمي التدبير عديمي النفع. وعندما يكبرون ليكسبوا رزقهم ويجدون عملا فهم يقومون به بتراخٍ وتكاسل، ومع ذلك ينتظرون أجرا كاملا كما لو كانوا أمناء في عملهم. يوجد بونٌ شاسع بين هؤلاء العاملين وبين من يدركون أنهم يجب أن يكونوا وكلاء أمناء.

إنّ عادات الخمول والإهمال متي انغمس فيها الإنسان وهو يمارس أعماله الدنيوية لابدّ أن تتغلغل في الحياة الدينية وتجعله غير أهل لأن يقوم بخدمة نافعة للّه. إنّ كثيرين ممّن كان يمكنهم بواسطة الاجتهاد في العمل أن يكونوا بركة للعالم أصابهم الدمار بسبب البطالة. إنّ كون الإنسان بلا عمل وبلا غرض ثابت يفتح الباب لآلاف التجارب. إنّ عشراء السوء والعادات الشريرة تفسد العقل والنفس، ونتيجة ذلك الدمار في هذه الحياة والحياة الآتية. [346]

* كان يسوع مُسَجَّلاً قانونياً كابن ليوسف خطيب مريم.

مهما يكن نوع العمل الذي نشتغل فيه فإنّ كلمة اللّٰه تعلّمنا أن نكون « غَيْرَ مُتَكَاسلينَ في الاجْتهَاد، حَارِّينَ في الرُّوح، عَابدينَ الرَّبَّ » « كُلُّ مَا تَجِدُهُ يَدُكَ لتَفْعَلَهُ فَافْعَلْهُ بقُوَّتكَ »، « عَالمينَ أَنَّكُمْ منَ الرَّبِّ سَتَأْخُذُونَ جَزَاءَ الْميرَاث، لأَنَّكُمْ تَخْدمُونَ الرَّبَّ الْمَسيحَ » (روميَة ١٢: ١١؛ جامعة ٩: ١٠؛ كُولُوسِّي ٣: ٢٤).

الصحة

الصحة بركة لا يقدّر قيمتها غير القليلين. ومع ذلك فإنّ عليها تتوقف كفاءةُ قوى عقولنا وأجسامنا إلى حد كبير. إنّ نوازعنا وأهواءنا مركزها الجسم فينبغي حفظه في أفضل حالاته صحياً وتحت أكثر المؤثرات روحية حتى يمكننا أن نستخدم مواهبَنا أسمى استخدام.

إنّ أيّ شيء يقلل القوة البدنية يضعف العقل ويجعله أقل اقتداراً على التمييز بين الصواب والخطأ. ونحن نصير أقل اقتداراً على اختيار الخير وتصير إرادتنا أضعف من أن تعمل ما نعرف انّه الصواب.

إنّ سوء استخدامنا لقوانا البدنية يقصّر الوقت الذي فيه يمكن استخدام حياتنا لمجد اللّٰه. وهذا يجعلنا غير أهل لإتمام عمل اللّٰه الذي أعطاه لنا لنعمله. وإذ نسمح لنفوسنا بتكوين عادات خاطئة والتأخر ساعات طويلة وإشباع نهمنا على حساب صحتنا فإننا إنما نضع أساس ضعفنا. وإذ نهمل التمرينات البدنية ونجهد عقولنا أو أجسامنا فإننا نحدث اختلالا في الجهاز العصبي. والذين يقصّرون أعمارهم بهذه الكيفية ويجعلون أنفسهم غير أهل للخدمة بعدم مراعاتهم لقوانين الطبيعة فهم مجرمون بسلب اللّٰه. كما إنهم يسلبون بني جنسهم أيضاً. إنّ فرصة منحهم البركة للآخرين، أي نفس العمل الذي قد أرسلهم اللّٰه إلى العالم لأجله أمست قصيرة بسبب تصرّفهم. وقد جعلوا أنفسهم غير أهل لأن يعملوا ما [347] كان يمكنهم أن يعملوه حتى في فترة حياة أقصر. والربّ يعتبرنا مجرمين عندما نحرم العالم من الخير بهذه العادات الضارة.

التعدّي على الناموس الطبيعي هو أيضاً تعدّ على الناموس الأدبي، لأنّ اللّٰه هو مشرّع النواميس الطبيعية كما هو مشرع الناموس الأدبي. فناموسه مكتوب [348] بإصبعه على كل عصب وعلى كل عضلة وعلى كل قوة عقلية أعطيت للإنسان. ففي كل مرّة نسيء استخدام أيّ جزء من جهازنا فنحن ننتهك ذلك القانون.

وينبغي أن نكون للجميع معرفة واعية للجسم البشري لكي يحفظوا أجسامهم

في الحالة اللازمة للقيام بعمل اللّٰه. فيجب حفظ الحياة الطبيعية بكل حرص وتقويتها حتى عن طريق الطبيعة البشرية تعلن الطبيعة الإلهية في ملئها. إنّ العلاقة بين جهاز الجسم والحياة الروحية لمن أهم فروع التعليم. فيجب أن يُلتفتَ إليه بكل حرص في البيت وفي المدرسة. فالجميع بحاجة إلى التعرّف على تكوينهم الجسماني والقوانين التي تتحكم في الحياة الطبيعية. وينتهكها في جهل هو مخطئ إلى اللّٰه. فعلي الجميع أن يضعوا أنفسهم في أفضل صلة ممكنة بالحياة والصحة. فيجب أن تخضع عاداتنا للعقل الذي يسود عليه اللّٰه.

يقول بولس الرسول: أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم الذي لكم من اللّٰه وأنكم لستم لأنفسكم. لأنكم قد اشتريتم بثمن. فمجدوا اللّٰه في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي للّٰه (١كورنثوس ٦: ١٩، ٢٠).

القوة

علينا أن نحب اللّٰه ليس فقط من كل القلب ومن كل الفكر ومن كل النفس بل أيضاً من كل القوة. وهذا يتناول الاستخدام الواعي الكامل للقوي البدنية.

كان المسيح خادما أمينا في الأمور الزمنية كما في الروحية. وفي كل عمله قرّر أن يفعل إرادة أبيه. إنّ أمور السماء والأرض هي مرتبطة معا بربط دقيقة وتحت إشراف المسيح المباشر أكثر ممّا يدركه الكثيرون. [349] فالمسيح هو الذي رسم ترتيبات المسكن الأرضي الأول. وهو الذي أعطي كل المواصفات الخاصة ببناء هيكل سليمان. فذاك الذي كان في حياته الأرضية يشتغل كنجار في قرية الناصرة كان هو المهندس السماوي الذي رسم خطة البناء المقدس حيث كان اسمه سيُمجّد.

والمسيح هو الذي منح بناة المسكن حكمة لإتمام أمهر وأجمل صناعة. فقد قال: « أُنْظُرْ. قَدْ دَعَوْتُ بَصَلْئِيلَ بْنَ أُورِي بْنَ حُورَ مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا بِاسْمِهِ، وَمَلأْتُهُ مِنْ رُوحِ اللّٰهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْفَهْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَكُلِّ صَنْعَةٍ ... وَهَا أَنَا قَدْ جَعَلْتُ مَعَهُ أُهُولِيآبَ بْنَ أَخِيسَامَاكَ مِنْ سِبْطِ دَانَ. وَفِي قَلْبِ كُلِّ حَكِيمِ الْقَلْبِ جَعَلْتُ حِكْمَةً، لِيَصْنَعُوا كُلَّ مَا أَمَرْتُكَ » (خروج ٣١: ٢-٦).

إنّ اللّٰه يريد أن خدامه ينظرون إليه، في كل أنواع العمل، كمن قد أعطاهم كل ما يملكون. فكل المخترعات والتحسينات الصحيحة مصدرها منه هو العجيب في المشورة والمبدع في العمل. إنّ لمسةَ يد الطبيب الماهرة، وسلطانَه على الأعصاب والعضلات، ومعرفتَه لتركيب أعضاء الجسم الدقيق

هي حكمة القدرة الإلهية لتُستخدم لخير المتألمين. والمهارة التي بها يستعمل النجار المطرقة، والقوة التي بها يجعل الحداد السندان يدق ويطنّ آتية من اللّٰه. لقد استودع لدي الناس وزنات وهو ينتظر أنّهم ينظرون إليه في طلب المشورة. فكل ما نفعله في أيّ قسم من أقسام العمل نكون يريد هو أن يدير أفكارَنا حتى يمكننا أن نعمل عملا كاملا.

إنّ الدين والعمل ليسا شيئين منفصلين، فهما واحد. فيجب أن تتدخل ديانة الكتاب في كلّ ما نعمله أو نقوله. يجب أن تتّحد الوسائل البشرية في الأعمال [350] الزمنية كما في الأعمال الروحية. فيجب أنّها تتّحد في كلّ المطالب البشرية في الأعمال الميكانيكية والزراعية والمشاريع التجارية والعلمية. وأن يكون هناك تعاون في كلّ ما يشمله النشاط المسيحي.

ولقد أعلن اللّٰه المبادئ التي بها وحدها يمكن تحقيق هذا التعاون. فيجب أن يكون مجده هو الباعث لكل من يعملون معه. وأن نعمل كلّ عملنا بدافع المحبة للّٰه والتوافق مع إرادته.

إنّه أمر جوهري أن نفعل إرادة اللّٰه ونحن نقيم بناء كما عندما نشترك في خدمة دينية تماما. وإذا كان العمال قد ادخلوا المبادئ السليمة في تكوين أخلاقهم ففي إقامة كل بناء سينمون في النعمة والمعرفة.

ولكن اللّٰه لن يقبل أعظم المواهب ولا أجلّ الخدمات ما لم توضع الذات على المذبح ذبيحة حيّة مستهلكة، فينبغي أن يكون الأصل مقدسا وإلاّ فلن يكون هنالك ثمر مقبول لدى اللّٰه.

ولقد جعل الرب دانيال ويوسف مدبريَن ذكيّيَن. وقد أمكنه أن يستخدمهما لأنهما لم يعيشا لإرضاء ميولهما بل لإرضاء اللّٰه.

وفي حالة دانيال يوجد لنا درس نتعلمه. فهي تكشف لنا أنّ رجل الأعمال ليس بالضرورة رجلاً صارما في سياسته. فيمكنه أن يتعلّم من اللّٰه عند كل خطوة. إنّ دانيال إذ كان رئيساً لوزراء مملكة بابل كان نبياً للّٰه يقتبل نور الوحي الإلهي. إنّ الساسة العالميين الطموحين مصوّرون في كلمة اللّٰه كالعشب الذي ينمو وزهر العشب الذي يذبل. ومع ذلك فالرب يريد أن يكون في خدمته رجال أذكياء، رجال مؤهلون لمختلف فروع العمل. فتوجد حاجة إلى رجال أعمال يدخلون مبادئ الحق السامية في كل صفقاتهم وأعمالهم. ويجب أن تكمل مواهبهم بأكمل درس وتدريب. فإذا احتاج الناس في أيّ فرع من فروع العمل أن [351] يستثمروا الفرص المعطاة لهم ليصيروا حكماء وكفاة فإنّما

هم الذين يستخدمون مقدرتهم في بناء ملكوت اللّٰه في عالمنا. وإنّنا نعرف عن دانيال انّه في كلّ أعماله ومشاريعه عندما فُحِصَ فحصاً دقيقاً جدّا لم يوجد خطأٌ ولا عيب. لقد كان نموذجاً لما يمكن أن يَكون كل رجل أعمال. إن تاريخه يرينا ما يمكن أن يتمّ بواسطة رجل يكرّس قوى عقله وجسمه وعضلاته وقلبه وحياته لخدمة اللّٰه.

المال

ثم إنّ اللّٰه يستودع المال لدى الناس. فهو يعطيهم قدرة لاصطناع الثروة. هو يروي الأرض بندى السماء وبسيول المطر المنعشة. وهو يمنح النور الذي يملأ الأرض دفئاً محييا أشياء الطبيعة وجاعلاً إياها تزدهر وتثمر. وهو ينتظر أن نعطيه تعويضاً مما له.

إنّ أموالنا لم تُعطَ لنا لكي نكرم بها ذواتنا ونمجّدها. إنما علينا كوكلاء أمناء أن نستخدمَها في إكرام اللّٰه وتمجيده. البعض يظنّون أن ما يخص اللّٰه هو جزء صغير من مالهم. فبعدما يفرزون جزءا منه للأغراض الدينية والخيرية يعتبرون أنّ الباقي هو ملكهم لينفقوه في ما يروق لهم. ولكنّهم في هذا مخطئون. فكل ما نملكه هو للرب ونحن مسؤولون أمامه عن كيف نتصرّف فيه. فعند صرف كلّ قرش سيُرى ما إذا كنا نحب اللّٰه من كل القلب ونحب القريب كالنفس أم لا.

إنّ المال قيمة عظيمة لأنَّه يمكنه أن يصنع خيرا عظيما. والمال إذ يكون في أيدي أولاد اللّٰه يصير طعاما للجياع وماء للعطاش وكساء للعراة. وهو حمى للمظلومين ووسيلة لمعونة المرضى. ولكن المال لن تكون له قيمة أعظم من الرمال إلا إذا استُخدم في تدبير لوازم الحياة وجلب البركة للآخرين وتقدّم ملكوت المسيح. [352]

والمال المخزون لا يكون فقط عديم النفع بل هو لعنة. فهو في الحياة الحاضرة شرك للنفس إذ يبعد عواطف الناس بعيداً عن الكنز السماوي. وفي يوم اللّٰه العظيم تكون الشهادة عن الوزنات التي لم تستعمل والفرص المهملة سببا في إدانة صاحبه. فالكتاب يقول: « هَلُمَّ الآنَ أَيُّهَا الأَغْنِيَاءُ، ابْكُوا مُوَلْوِلِينَ عَلَى شَقَاوَتِكُمُ الْقَادِمَةِ. غِنَاكُمْ قَدْ تَهَرَّأَ، وَثِيَابُكُمْ قَدْ أَكَلَهَا الْعُثُّ. ذَهَبُكُمْ وَفِضَّتُكُمْ قَدْ صَدِئَا، وَصَدَأُهُمَا يَكُونُ شَهَادَةً عَلَيْكُمْ، وَيَأْكُلُ لُحُومَكُمْ كَنَارٍ! قَدْ كَنَزْتُمْ فِي

الأَيَّام الأَخيرَة. هُوَذَا أُجْرَةُ الْفَعَلَة الَّذينَ حَصَدُوا حُقُولَكُمُ، الْمَبْخُوسَةُ منْكُمْ تَصْرُخُ، وَصيَاحُ الْحَصَّادينَ قَدْ دَخَلَ إِلَى أُذُنَيْ رَبِّ الْجُنُود » (يعقوب ٥: ١-٤).

ولكن المسيح لا يُقرّ الإسراف أو الإهمال في استخدام المال. إن قول المسيح: « اجْمَعُوا الْكسَرَ الْفَاضلَةَ لكَيْ لاَ يَضيعَ شَيْءٌ » (يوحنا ٦: ١٢) موجّه لكل تلاميذه. فالذي يدرك أنّ أمواله هي وَزنة معطاة له من اللّه لابد أن يستخدمها بكلّ حرص وتدبير، ويحسّ أنّ الواجب يقتضيه لأن يوفّر لكي يعطي.

كلّما أسرفنا في إنفاق مالنا في المظاهرة وتدليل الذات كلّما قلّ ما نقدمه لإشباع الجياع وكساء العراة. فكل قرش ينفق دون داعٍ يُحرَمُ من ينفقه فرصةً ذهبيةً لعمل الخير. إنّ هذا سلب لكرامة اللّه ومجده اللّذين يجب أن يُقدّما له عن طريق استثمار وزناته المُسَلّمَةَ لنا.

بواعث وعواطف الرفق

إنّ عواطف الإشفاق والبواعث الكريمة والإدراك السريع للروحيات هي وزنات ثمينة وتضع على عاتق صاحبها مسؤوليات جسيمة. فيجب أن تُستخدم هذه كلُّها في خدمة اللّه. ولكن كثيرين يخطئون هنا. فإذ يقنعون بامتلاك هذه الصفات يُخفقون في استخدامها [353] في خدمة الآخرين. وهم يخدعون أنفسهم بالقول إنّه لو كانت لديهم فرصة، ولو كانت الظروف مواتية لكانوا يعملون عملا عظيما صالحا. ولكنّهم ينتظرون الفرصة، إنّهم يحتقرون بخل البخيل المسكين الذي يتبرم لو أعطى أقل القليل من ماله للفقراء وهم يرون أنّه عائش لنفسه وانه مسؤول عن وزناته التي قد أساء استخدامها. وبرضى وسرور عظيمين يقارنون بين أنفسهم وبين مثل أولئك الناس الضيّقي العقول ويحسّون أنّ حالتهم أفضل بكثير من جيرانهم ذوي النفوس الوضيعة. ولكنّهم يخدعون أنفسهم. إنّ مجرد امتلاكهم للصفات التي لم تُستعمل يزيد من مسؤوليتهم. فالذين عندهم عواطف متسعة هم تحت التزام للّه لأن يمنحوها ليس فقط لأصدقائهم بل أيضا لمن هم بحاجة إلى معونتهم. والميزات الاجتماعية هي أيضا وزنات ويجب استخدامها لخير كل من هم في دائرة نفوذهم. فالمحبة التي تقدم الرحمة لجماعة قليلة ليست محبة ولكنها أنانية. ولن تعمل بأي حال لخير النفوس أو تمجيد اللّه. فالذين يتركون وزنات سيدهم دون أن يستثمروها ذنبهم أعظم ممّن يضمرون لهم الاحتقار. وسيقال لهم: لقد عرفتم إرادة سيدكم ولكنكم لم تعملوها.

الوزنات تتضاعف بالاستخدام

إنّ الوزنات إذا استُخدمت لابدّ أن تتضاعف. النجاح لا يأتي نتيجة الصدفة أو بالقضاء والقدر، ولكنّه يأتي نتيجة لعمل عناية اللّٰه، وهو مكافأة الإيمان والفطنة والفضيلة والسعي بمثابرة. إنّ الرب يريدنا أن نستعمل كلّ هبة عندنا فمتي فعلنا هذا فستُعطى لنا هبات أعظم لنستعملها. إنّه لا يمنحنا مؤهلات ليست عندنا بطريقة خارقة للطبيعة، بل في حين نستخدم ما عندنا يعمل الرب معنا في زيادة كلّ كفاءة وتقويتها. [354] ففي كلّ مرّة نقدم على تضحية بكلّ قلوبنا وبغيرة لأجل خدمة السيد تزيد قوانا. وحين نقدّم ذواتنا آلات لعمل الرُّوح الْقُدُس فإن نعمة اللّٰه تعمل فينا لتنكر ميولنا القديمة ولننتصر على نزعاتنا القوية ونكوّن لأنفسنا عادات جديدة. وإذ نراعي دوافع الروح ونطيعها فان قلوبنا تتّسع لقبول المزيد من قوته وللقيام بعمل أكثر وأفضل. والقوى الهاجعة تستيقظ والقوى العاجزة تحصل على حياة جديدة.

الخادم المتواضع الذي بكل إذعان يستجيب لدعوة اللّٰه له يتأكد من الحصول على مساعدة إلهية. فكون الإنسان يقبل مثل هذه المسؤولية العظيمة المقدسة هو في ذاته يسمو بالخلق. وهو يعبئ للعمل أسمى قوى العقل والروح ويقوي العقل ويطهرهما. وعن طريق الإيمان بقوة اللّٰه هو عجيب حقا كيف يصير الإنسان الضعيف قويا وكيف تصير مساعيه ثابتة ومثمرة لنتائج عظيمة. فالذي يبدأ بقليل من المعرفة بكيفية متواضعة ويخبر الناس بما يعرفه ففي حين يطلب باجتهاد مزيدا من المعرفة سيجد أنّ كل كنز السماء ينتظر طلبه. وكلما حاول أن يعطي النور للغير كلما حصل على مزيد من النور. وكلما حاول الإنسان أن يشرح كلمة اللّٰه للآخرين مع المحبة للنفوس كلما وضحت له. فكلما استخدمنا معرفتنا ودرّبنا قوانا كلما حصلنا على مزيد من المعرفة والقوة.

كل مسعى نبذله لأجل المسيح سيكون له ردّ فعل من البركة علينا. فإن استخدمنا أموالنا لأجل مجده فسيعطينا أكثر ممّا قدمنا. وإذ نحاول أن نربح الآخرين للمسيح مثقلين بمسؤولية النفوس في صلواتنا فإن قلوبنا تختلج بقوة نعمة اللّٰه المحيية، وعواطفنا ستتوهج بمزيد من الغيرة الإلهية، وحياتنا المسيحية بجملتها ستصير حقيقية أكثر وأكثر غيرةً وأكثر صلاة.

قيمة الإنسان تُقدّر في السماء بنسبة [355] اتساع القلب لمعرفة اللّٰه. فهذه المعرفة هي النبع الذي تفيض منه كل قوة الفكر الإلهي، وهو يحاول

دائما أن يجعل عقل الإنسان في شركة مع فكر اللّٰه. إنّه يقدم لنا امتياز التعاون مع المسيح في إعلان نعمته للعالم حتى نحصل على مزيد من معرفة الأمور السماوية. وإذ ننظر إليه نتغيّر. فالصلاح ومحبتنا لبني جنسنا يصيران غريزة طبيعية فينا. وتنمو فينا صفات مماثلة لصفات اللّٰه. فإذ ننمو في التشبّه به تتسع مقدرتنا لمعرفة اللّٰه. ثم نتدرج أكثر فأكثر لتصير لنا شركة مع العالم السماوي وتصير لنا قوة متزايدة دائمة لقبول غنى معرفة الأبدية وحكمتها.

الوزنة الواحدة

إنّ الرجل الذي أخذ الوزنة الواحدة: مضى وحفر في الأرض وأخفى فضة سيده (متى ٢٥: ١٨).

فالذي أخذ أصغر عطية ترك وزنته دون أن يستثمرها. في هذا يُقدَّم إنذار لكل من يشعرون بأن قلّة الهبات المعطاة لهم تعفيهم من خدمة المسيح. فلو أمكنهم أن يعملوا عملا عظيما فبأي سرور كانوا يباشرونه، ولكن لأنهم لا يستطيعون أن يقوموا إلاّ بالخدمات الصغيرة فهم يظنون أنّ لهم الحق في ألاّ يفعلوا شيئا. ولكنهم مخطئون في هذا. فالرب وهو يوزع العطايا إنّما يختبر الخلق. فالرجل الذي أهمل في تشغيل وزنته برهن على انّه عبدٌ غير أمين. فلو أخذ خمس وزنات لكان يخفيها كما فعل بالوزنة الواحدة. فسوء استخدامه للوزنة الواحدة برهن على أنّه يحتقر هبات السماء. [356]

« اَلأَمِينُ فِي الْقَلِيلِ أَمِينٌ أَيْضًا فِي الْكَثِيرِ » (لوقا ١٦: ١٠). إنّ أهمية الأمور الصغيرة تُحتقَر غالبًا لأنّها صغيرة ولكنها تُقَدم كثيرا من التدريب الفعلي في الحياة. وفي الحق أنّه لا توجد أشياء غير جوهرية في الحياة المسيحية. إنّ بناء خلُقنا يتعرّض لمخاطر كثيرة حينما نبخس الأشياء الصغيرة أهميتَها.

« الظَّالِمُ فِي الْقَلِيلِ ظَالِمٌ أَيْضًا فِي الْكَثِيرِ » (لوقا ١٦: ١٠)، إنّ الإنسان إذ لا يكون أمينًا حتى في أصغر الواجبات يسلبَ خالقَه الخدمة التي هي من حقه. إنّ عدم الأمانة هذه لها ردّ فعل على الإنسان نفسه. فهو يخفق في نوال النعمة والقدرة وقوة الخلق التي يمكن الحصول عليها بواسطة الخضوع للّٰه في غير تحفّظ فإذ يعيش بعيدا عن المسيح يتعرّض لتجارب الشيطان ويرتكب أخطاء في خدمته للسيد. فلكونه لا يسترشد بالمبادئ السليمة في الأمور الصغيرة فهو لا يستطيع أن يطيع اللّٰه في الأمور العظيمة التي يعتبرها عمله الخاص.

فالنقائص التي يحتضنها في تصرّفه بالنسبة إلى التفاصيل الصغيرة تتغلغل في أهم الشؤون. فهو يتصرّف بموجب المبادئ التي قد عوّد نفسه عليها، وهكذا إذ تتكرر الأعمال تكوّن العادات، والعادات تكوّن الخلُق وبواسطة الخلُق يتقرّر مصيرنا في الحياة الحاضرة والأبدية.

إنّما فقط بالأمانة في صغائر الأمور يمكن للنفس أن تتدرب على أن تعمل بولاء وأمانة أمام المسؤوليات الجسام. لقد جعل اللّه دانيال ورفاقه يعاشرون عظماء بابل ويحتكون بهم حتى يتعرّف هؤلاء الوثنيون على مبادئ الدين الحقيقي. ففي وسط أمة أهلها يعبدون الأوثان كان على دانيال أن يمثّل صفات اللّه. ولكن كيف تسنّى له أن يؤهَّل لمثل ذلك المنصب ذي الثقة والكرامة العظيمين؟ إنّ أمانته في الأشياء الصغيرة هي التي شكلت حياته كلها. لقد أكرم اللّه في أصغر الواجبات فتعاون الرب معه. ولقد أعطى اللّه لدانيال ورفاقه [357] « مَعْرِفَةً وَعَقْلاً في كُلِّ كِتَابَةٍ وَحِكْمَةٍ، وَكَانَ دَانِيآلُ فَهِيمًا بِكُلِّ الرُّؤَى وَالأَحْلاَمِ » (دانيال ١: ١٧).

وكما دعا اللّه دانيال ليشهد له في بابل كذلك هو يدعونا لنكون شهوده في العالم اليوم. ففي أصغر شؤون الحياة كما في أعظمها هو يريدنا أن نعلن للناس مبادئ ملكوته.

والمسيح في حياته على الأرض علّم الناس درس الاهتمام الحريص بالأمور الصغيرة. فعمل الفداء العظيم أثقل نفسَه على الدوام. فإذ كان يعلّم ويشفي أجهد عقلَه وجسمَه إلى أبعد حدود الإجهاد، ومع ذلك فلم تغبْ عن انتباهه ابسطُ الأمور في الحياة وفي الطبيعة. وأعظم دروسه التعليمية كانت هي تلك التي فيها [358] شرح حقائق ملكوت اللّه العظيمة بواسطة أشياء الطبيعة البسيطة. وهو لم يغفل حاجات أحقر عبيده. فلقد سمعت إذنُه كلَّ صرخة محتاج. لقد كان واعيا إذ أحسّ بلمسَة المرأة المريضة في زحمة الجموع. فأضعف لمسة من لمسات الإيمان وجدت استجابة. وعندما أقام ابنة يايرس من الأمواتً ذكّر أبويها أنّها ينبغي أن تُعطى شيئا تأكله. وعندما قام من القبر بقوته العظيمة لم يترفّع عن أن يلف الأكفان التي كان ملفوفا فيها ويضعها بحرص في مكانها المناسب.

إنّ العمل الذي نحن مدعوون للقيام به كمسيحيين هو أن نتعاون مع المسيح لأجل خلاص النفوس. لقد دخلنا في عهد معه على القيام بهذا العمل. فإهمالنا العمل هو برهان على خيانتنا للمسيح. ولكن لكي نتمم هذا

العمل علينا أن نتبع مثاله في الاهتمام الأمين وبضمير حيّ بالأمور الصغيرة. هذا هو سرّ النجاح في كل فرع من فروع المجهود والتأثير المسيحي.

إنّ الربّ يريد أن يصلَ شعبُه إلى أعلى درجات السلم حتى يمجدوه بامتلاكهم للمقدرة التي يرغب في منحها لهم. وبواسطة نعمة اللّه قد أُعدّت كل مؤونة لأجلنا لنعلن أننا نسلك بموجب خطط أفضل من خطط العَالم. علينا أن نبرهن على تفوقنا في الذكاء والفهم والمهارة والمعرفة لأننا نؤمن باللّه وبقدرته على أن يؤثر في قلوب الناس.

ولكن لا حاجة لمن لا يملكون هبات كثيرة وعظيمة أن يفشلوا. بل ليستخدموا ما لديهم بأمانة متحفظين من كل نقط الضعف في أخلاقهم مجتهدين بنعمة اللّه في تقويتها. إنّ كل عمل من أعمال الحياة يجب أن ندخل فيه عنصر الأمانة والولاء إذ نغرس في نفوسنا السجايا التي تعيننا على إنجاز العمل.

وينبغي الانتصار على عادات الإهمال بعزم ثابت. [359] كثيرون يظنون أنّ حجة النسيان هي عذر كاف عن أشنع الأخطاء. ولكن ألا يملكون قوى عقلية كغيرهم من الناس: إذا فعليهم أن يدربوا عقولهم على حفظ ما يلقى عليها وتذكره. إنّ النسيان والإهمال كلاهما خطية. فإذا كونت في نفسك عادة الإهمال فقد تهمل خلاص نفسك وأخيرا تجد أنك غير مستعد لملكوت اللّه.

ويجب إدخال الحقائق العظيمة في الأشياء الصغيرة. ومن اللازم إدخال الدين العملي إلى أحقر واجبات الحياة اليومية. وأعظم مؤهل يمكن أن يحصل عليه أي إنسان هو أن يطيع كلمة اللّه بثقة تامة.

إن كثيرين من الناس يشعرون أن حياتهم عديمة النفع لكونهم غير مرتبطين بعمل ديني مباشر، وانهم لا يفعلون شيئا لأجل تقدّم ملكوت اللّه. ولكن هذا خطأ. فإذا كان عملهم مما يجب أن يقوم به أحد فينبغي أن لا يتّهموا أنفسهم بعدم نفعهم في أسرة اللّه العظيمة. ويجب ألاّ يتجاهل أحد أحقر الواجبات. إنّ أي عمل شريف هو بركة والأمانة فيه قد تكون تدريبا بموجبه يؤتمن الإنسان على ودائع أسمى.

إنّ أي عمل يُعمل لأجل اللّه بتسليم كامل للذات فمهما يكن وضيعا هو مقبول لديه كأسمى خدمة. وأية تقدمة ليست صغيرة ما دامت مقدمة بخلوص القلب وفرح النفس

وأينما نكون فالمسيح يأمرنا بأن نأخذ على عاتقنا الواجب الذي يُقدّم لنا. فان كان هذا الواجب في البيت خذه بكل رضى وغيرة لتجعل البيت

مكانا سعيدا. فإن كنت أمّا ربّي أولادك للمسيح. هذا هو في الواقع عمل اللّه كعمل الخادم في المَنبر. فإن كان عملك في المطبخ فاجتهدي أن تكوني طاهيةً ممتازةً. أعدّي الطعام الصحّي المغذيَ الشهي، وفيما أنت تستعملين أفضل المواد الغذائية في إعداد الطعام تذكري انّك يجب أن تغذي عقلك بأفضل الأفكار. وإذا كان عملكَ حرثُ الأرض أو الاشتغال في أيّة تجارة أو حرفة أخرى فاجعل عملَك الحاضرَ ناجحا. [360] واشغل عقلك فيما أنت صانع. ففي كل عملك مثّل المسيح واعمل ما كان يعمله لو كان في مكانك.

مهما تكن وزنتك صغيرة فإن عند اللّه مكانا لها. فتلك الوزنة الواحدة لو استُخدمت بحكمة سيُتمَّم عملُها المرتب لها. فبواسطة الأمانة في الواجبات الصغيرة علينا أن نعملَ بموجب خطّة الزيادة واللّه سيعمل لأجلنا بموجب خطة التكاثر أو المضاعفة. فهذه الأشياء الصغيرة ستصير أثمن المؤثرات في عمله.

ليجر الإيمان الحي كخيط من ذهب في إتمام حتى أصغر الواجبات. وحينئذ َفكلّ العمل اليومي سيساعد على النمو المسيحي. وسينظر المؤمن على الدوام إلى يسوع. فالمحبة له ستضفي على كل عمل يُعمل قوة حيوية. وهكذا فعن طريق الاستخدام الصائب لوزناتنا يمكننا أن نربط أنفسنا بالعالم الاسمي بسلسلة ذهبية. هذا هو التقديس الحقيقي لان التقديس ينحصر في إتمامنا لواجباتنا اليومية بفرح في طاعة كاملة لإرادة اللّه.

ولكنّ كثيرين من المسيحيين مازالوا ينتظرون أن يُسند إليهم عملٌ عظيم ليعملوه. فلكونهم لا يستطيعون أن يجدوا مكانا واسعا بالكفاية ليشبع طموحهم فهم يفشلون في إنجاز واجبات الحياة العادية بأمانة. فهذه يبدو أنّها غير ملذة في نظرهم. ويوما بعد يوم هم يفلتون الفرص لإظهار أمانتهم للّه. وفي حين أنّهم ينتظرون عملا عظيما تمضي الحياة دون أن تتم أغراضها ودون أن يكمل عملها.

إرجاع الوزنات

وبعد زمان طويل أتى سيد أولئك العبيد وحاسبهم (متى ٢٥: ١٩). عندما يحاسب الرب عبيده فلا بد من فحص مقدار ما ربحته كل وزنة. فالعمل الذي عمل يكشف عن صفات العامل.

فالذين أخذوا الخمس وزنات والوزنتين يرجعون إلى السيد الهبات المودعة عندهم مضافا إليها الربح. [361] فإذ عملوا هذا لا يدّعون أي استحقاق في

ذواتهم. فوزناتهم هي التي سُلّمت لهم، وقد ربحوا وزنات أخري، ولكن لولا الوديعة التي أعطيت لهم لما كان هنالك ربح. فهم يرون أنّهم لم يعملوا أكثر من واجبهم. فرأس المال هو للسيد والربح له كذلك. فلو لم يمنحهم المُخَلِّص محبته ونعمته لكانوا يصيرون مفلسين مدى الأبدية.

ولكن عندما يأخذ السيد الوزنات يمتدح الخدام ويكافئهم كما لو كان الفضل كلّه لهم. إنّ وجهه ممتلئ بالفرح والرضى. إنّه ممتلئ القلب بالبهجة لأنَّه يمكنه أن يمنحهم هباته. وهو يكافئهم على كل خدمة وكل تضحية لا كأنّه دين هو مدين لهم به بل لأنّ قلبه فائض بالحب والحنان.

وها هو يقول: « نعمَّا أَيُّهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ الأَمِينُ! كُنْتَ أَمِينًا فِي الْقَلِيلِ فَأُقِيمُكَ عَلَى الْكَثِيرِ. اُدْخُلْ إِلَى فَرَحِ سَيِّدِكَ » (متى ٢٥: ٢١، ٢٣).

فالأمانة والولاء للّه وخدمة المحبة هي التي تظفر برضى اللّه واستحسانه. فكل وازع يقود به الرُّوح الْقُدُس الإنسان إلى الصلاح وإلى اللّه يُسجّل في أسفار السماء، وفي يوم اللّه سيمتدَح الخدام الذين عمل بواسطتهم.

وسيدخلون إلى فرح سيدهم إذ يرون في ملكوته من قد افتدوا بواسطتهم. وسيُعطى لهم امتيازُ مشاركته في عمله هناك حيث قد ظفروا بالأهلية لذلك بمشاركتهم في عمله هنا. ما سنكون في السماء هو انعكاس لما نحن عليه الآن في الحق والخدمة المقدسة. لقد قال المسيح عن نفسه: « ابْنَ الإِنْسَانَ لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ » (متى ٢٠: ٢٨). فعمله هذا على الأرض هو عمله في السَماء. ومكافأتنا على خدمتنا للمسيح في هذا العالم هي قوة أعظم وامتياز أكبر للخدمة معه في العالم الآتي. [362]

« ثم جاء أيضا الذي أخذ الوزنة الواحدة وقال « يَا سَيِّدُ، عَرَفْتُ أَنَّكَ إِنْسَانٌ قَاسٍ، تَحْصُدُ حَيْثُ لَمْ تَزْرَعْ، وَتَجْمَعُ مِنْ حَيْثُ لَمْ تَبْذُرْ. فَخِفْتُ وَمَضَيْتُ وَأَخْفَيْتُ وَزْنَتَكَ فِي الأَرْضِ. هُوَذَا الَّذِي لَكَ » (متى ٢٥: ٢٤، ٢٥).

وهكذا يعتذر الناس عن إهمالهم لهبات اللّه. فهم ينظرون إلى اللّه على أنّه سيد قاس وطاغيةٌ متجبر، وكأنه يتجسس على أخطائهم ويفتقدهم بأحكامه ويتهمونه بأنّه يفرض عليهم ما لم يعطه لهم إذ يحصدّ ما لم يزرع.

يوجد كثيرون يتّهمون اللّه في قلوبهم بأنّه سيدٌ قاس لكونه يطالبهم بأموالهم وخدمتهم، ولكننا لا نستطيع أن نقدّم للّه شيئاً لم يكنَ في الأصل ملكه. فلقد قال الملك داود: لأن منك الجميع ومن يدك أعطيناك (١اخبار ٢٩: ١٤). فكل شيء هو ملك اللّه ليس فقط بحق الخلق بل أيضا بحق الفداء. فكل بركات

هذه الحياة والحياة العتيدة تسلّم لنا مختومة بصليب جلجثة. إذاً فالتهمة الموجهة إلى اللّه بأنّه سيدٌ قاس يحصد حيث لم يزرع هي تهمة مكذوبة.

والسيد لا ينكر تهمة ذلكً العبد الشرير مع أنّها تهمة ظالمة، ولكن إذ يواجهه على مستواه يريه أن لا عذر له في تصرفه. لقد أعدت له السبل والوسائل التي كان يمكن بواسطتها أن تُستَثمَر الوزنة فيربح صاحبها. فقال له: « فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَضَعَ فِضَّتِي عِنْدَ الصَّيَارِفَةِ، فَعِنْدَ مَجِيئِي كُنْتُ آخُذُ الَّذِي لِي مَعَ رِبًا » (متى ٢٥: ٢٧).

إنّ آبانا السماوي لا يطلب منا أكثر أو أقل مما قد أعطانا القدرة على عمله. وهو لا يحمّل عبيده أحمالا أثقل من أن يقووا على حملها: « لأَنَّهُ يَعْرِفُ جِبْلَتَنَا. يَذْكُرُ أَنَّنَا تُرَابٌ نَحْنُ » (مزمور ١٠٣: ١٤). فبواسطة النعمة الإلهيةَ يمكننا أن نقدم له كل ما يطلبه منا.

« أُعْطِيَ كَثِيرًا يُطْلَبُ [363] مِنْهُ كَثِيرٌ » (لوقا ١٢: ٤٨). فكل فرد منا سيكون مسؤولا عَن التقَصير في عمل أقَل القَليل ولو كان حرفاً واحداً أقل مما نستطيع أن نعمله. إنّ الرب يقيس بكل ضبط وتدقيق كل إمكانيات الخدمة والإمكانيات التي لم تُستخدم سيحاسب الناس عليها كالتي استثمرت. واللّه سيعتبرنا مسؤولين عن كل ما كان يمكننا أن نصل إليه عن طريق الاستخدام الصائب لوزناتنا. وسندان بحسب ما كان ينبغي لنا أن نفعله ولم نعمله لأننا لم نستخدم قوانا لتمجيد اللّه. وحتى إذا لم نخسر نفوسنا فسنتحقق في الأبدية نتيجة عدم استثمار وزناتنا. وستكون هنالك خسارة أبدية لكل المعرفة والمقدرة التي كان يمكننا أن نكتسبها ولكننا لم نفعل.

ولكن عندما نسلم ذواتنا بالتمام للّه وفي عملنا نتبع تعليماته فهل سيعتبر نفسه مسؤولا عن إتمامه. وهو لا يريدنا أن نخمن عن نجاح مساعينا الأمينة. وينبغي لنا ألاّ نفكر في الفشل مرة واحدة. فعلينا أن نتعاون مع ذاك الذي لا يعرف الفشل.

وينبغي لنا ألاّ نتحدث عن ضعفنا وعجزنا. فهذا شكّ واضح في اللّه وإنكار لكلمته. فعندما نتذمّر بسبب أعبائنا أو نرفض الاضطلاع بالمسؤوليات التي يدعونا لحملها فنحن في الواقع نقول عنه انّه سيد صارم وأنه يطلب منا عمل ما لم يعطنا قوة لنعمله.

إننا في غالب الأحيان ميّالون لأن ندعو روح العبد الكسلان وداعة. ولكن الوداعة الحقيقية تختلف عن ذلك اختلافا كبيراً. إنّ كوننا نتسربل بالوداعة لا

يعني أننا نكون أقزاما في أذهاننا أو ناقصين في أشواقنا أو جبناء في حياتنا، فنهرب من الأحمال لئلا نفشل في حملها بنجاح. أمّا الوداعة الحقة فتتمّم أغراض اللّه بالاعتماد على قوته.

إنّ اللّه يعمل بواسطة من يريده. وهو أحيانا يختار أحقر أداة للقيام بأعظم عمل لأن [364] قدرته تستعلن وتظهر بواسطة ضعف الناس. إنّ لنا مقياسنا وبموجبه نحكم على شيء أنّه عظيم وعلى شيءٍ آخر أنّه صغير، ولكن تقدير اللّه ليس بموجب قوانيننا. وينبغي ألاّ نظنّ أن ما هو عظيم في نظرنا ينبغي أن يكون عظيما في نظر اللّه، أو أنّ ما هو عظيم في نظرنا ينبغي أن يكون كذلك في نظره. وليس لنا نحن أن نحكم على وزناتنا أو نختار عملنا. بل علينا أن نحمل الأحمال التي يعّينها اللّه، فنحملها لأجله ونذهب إليه دائما في طلب الراحة. ومهما يكن نوع عملنا فاللّه يتمجّد بالخدمة المُخلصة الفرحة. وهو يسرّ عندما نقوم بواجباتنا بشكر فرحين لكوننا قد حُسِبنا مستَأهلين لأن نكون شركاءه في العمل.

الوزنة تؤخذ

وهذا هو الحكم الذي صدر على العبد الكسلان: « خُذُوا منْهُ الْوَزْنَةَ وَأَعْطُوهَا للَّذي لَهُ الْعَشْرُ وَزَنَات » (متى ٢٥: ٢٨). وهنا كما في مجازاة العَامل الأمين يتبين لَيس فقط الجزاء للدّينونة الأخيرة بل عملية الجزاء التدريجية في هذه الحياة. وكما في العالم الطبيعي كذلك في العالم الروحي كل قوة لا تُستخدم تنتهي إلى الضعَف والانحلالُ. إنّ النشاط هو قانون الحياة بينما الكسل هو الموت: « لكُلِّ وَاحد يُعْطَى إظْهَارُ الرُّوح للْمَنْفَعَة » (١كورنثوس ١٢: ٧). فإذ يستخدم الإنسَان مواهبَه ليبارك الآخرين فإنَها تتكاثر وتزيد. أمّا إذا حبسها لخدمة الذات فهي تنقص وتُسحب أخيراً. فالذي يرفض أن يوزع ممّا أُعطيَ له سيجد في النهاية أنّه لا يملك شيئاً يعطيه. إنّه يوافق على مجرى لابد وأن يعجز قوى النفس ويدمّرها في النهاية.

لا يظنن أحد أنه يمكنه أن يحيا حياة الأنانية وحينئذ بعدما يخدم مصالحه الخاصة يدخل إلى فرح سيده. إنّهم لا يمكنهم أن يشتركوا في فرح المحبّة المنكرة لذاتها. إنّهم لا يكونون مؤهلين للمواطن السماوية. [365] ولا يمكنهم أن يقدروا جو المحبة النقي الذي يعم السماء. وأصوات الملائكة وموسيقى قيثاراتهم لن ترضيهم. وعلم السماء يبدو لعقولهم لغزا يستعصي عليهم فهمه.

وفي يوم الدينونة العظيم. كل من لم يخدموا المسيح الذين انجرفوا مع التيار ولم يحملوا مسؤولية وكانوا يفكرون في أنفسهم وفي إرضاء ذواتهم

سيوقفهم ديّان كل الأرض مع فاعلي الشر وستقع عليهم نفس دينونتهم.

كثيرون ممّن يدّعون أنّهم مسيحيون يهملون مطاليب اللّه ومع ذلك لا يحسّون أنّ في هذا أيّ خطأ. إنّهم يعرفون أنّ المجدّف والقاتل والزاني يستحقّون العقاب. أمّا بالنسبة إليهم فهم يستمتعون بالخدمات الدينية. إنّهم يحبون سماع الكرازة بالإنجيل ولذلك يظنّون أنفسهم مسيحيين. ومع إنّهم قضوا حياتهم في الاهتمام بأنفسهم فإنّهم سيستغربون كما استغرب العبد غير الأمين المذكور في المثل عندما سمع الحكم القائل: خذوا منه الوزنة. وكاليهود يخلطون بين التمتع ببركاتهم وواجبهم في استخدامها.

وكثيرون ممن يستعفون من القيام بمسعى مسيحي يعتذرون بعجزهم عن العمل. ولكن هل جعلهم اللّه عاجزين بهذا المقدار؟ كلاّ أبدا. فهذا العجز قد حدث بسبب كسلهم وقد دام بسبب اختيارهم المتعمّد. ففي خلُقهم قد تحقّقوا نتيجة الحكم القائل: خذوا منه الوزنة. إنّ سوء استخدامهم المستمر لوزناتهم لابدّ أن يُطفئ أمامهم الرُّوح الْقُدُس الذي هو النور الوحيد. وإنّ الحكم القائل: « الْعَبْدُ الْبَطَّالُ اطْرَحُوهُ إِلَى الظُّلْمَةِ الْخَارِجِيَّةِ » (متى ٢٥: ٣٠) يضع ختم السماء على الاختيار الذي اختاروه لأنفسهم مَدَى الأبدية. [366]

٢٦

« أَصْدِقَاء بِمَالِ الظُّلْمِ »

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في لوقا ١٦: ١-٩).

كان مجيء المسيح في وقت زادت فيه محبة العالم. كان الناس يحقّرون من قيمة الأشياء الأبدية ويستبدلونها بالأشياء الزمنية، ويفضلون شؤون العصر الحاضر على مطاليب الدهر الآتي. كانوا يحسبون الأخيلة حقائق ثابتة ويعتبرون الحقائق الثابتة أوهاما من نسج الخيال. لم يروا العالم غير المنظور بالإيمان. لقد عرض الشيطان أمامهم أمور هذه الحياة على أنّ لها جاذبية وأهمية شاملة فاستجابوا لتجاربه.

وقد أتى المسيح ليغيّر هذا الوضع للأشياء. فحاول أن يحطّم السحر الذي به افتتن الناس وأُخذوا في الشرك. وفي تعليمه حاول أن يضع كلا من مطاليب السماء والأرض في وضعه اللائق ويحول أفكار الناس عن الزمن الحاضر إلى الأبدية. لقد دعاهم حتى يكفّوا عن الركض في أثر أمور هذا الزمان ويستعدوا للأبدية.

قال: « كَانَ إِنْسَانٌ غَنِيٌّ لَهُ وَكِيلٌ، فَوُشِيَ به إِلَيْه بِأَنَّهُ يُبَذِّرُ أَمْوَالَهُ » (لوقا ١٦: ١). لقد ترك الرجل الغني كلَّ أمواله في يَدَيْ خادمه. ولكنّ هذا الخادم لم يكن أمينا فاقتنع السيد بأنّ أمواله كانت [367] تُسلب بكيفية منظمة. فعول أن لا يبقيه في خدمته بعد ذلك. فأمر بفحص حساباته. وقال له: « مَا هذَا الَّذي أَسْمَعُ عَنْكَ؟ أَعْطِ حِسَابَ وَكَالَتِكَ لأَنَّكَ لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَكُونَ وَكِيلاً بَعْدُ » (لوقا ١٦: ٢).

وإذ كانَ ذلك الوكيلَ متوقعا الطردَ رأي ثلاث طرق مفتوحة أمامه ليختار منها ما يشاء. فإمّا أن يكدّ أو يستعطي أو يموت جوعا. فقال في نفسه: « مَاذَا أَفْعَلُ؟ لأَنَّ سَيِّدي يَأْخُذُ مِنِّي الْوَكَالَةَ. لَسْتُ أَسْتَطيعُ أَنْ أَنْقُبَ، وَأَسْتَحي أَنْ أَسْتَعْطِيَ. قَدْ عَلِمْتُ مَاذَا أَفْعَلُ، حَتَّى إِذَا عُزِلْتُ عَنِ الْوَكَالَةِ يَقْبَلُونِي فِي بُيُوتِهِمْ. فَدَعَا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ مَدْيُونِي سَيِّدِهِ، وَقَالَ لِلأَوَّلِ: كَمْ عَلَيْكَ لِسَيِّدِي؟ فَقَالَ: مِئَةُ بَثٍّ زَيْت. فَقَالَ لَهُ: خُذْ صَكَّكَ وَاجْلِسْ عَاجِلاً وَاكْتُبْ خَمْسِينَ. ثُمَّ قَالَ لآخَرَ: وَأَنْتَ كَمْ عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: مِئَةُ كُرِّ قَمْحٍ. فَقَالَ لَهُ: خُذْ صَكَّكَ وَاكْتُبْ ثَمَانِينَ » (لوقا ١٦: ٣-٧).

إنّ هذا الخادم الخائن أشرك آخرين معه في خيانته. فقد غدر بسيده لمنفعتهم وإذ قبلوا منه هذه المنّة وضعوا أنفسهم تحت التزام أن يقبلوه كصديق في بيوتهم.

« فَمَدَحَ السَّيِّدُ وَكِيلَ الظُّلْمِ إِذْ بِحِكْمَةٍ فَعَلَ » (لوقا ١٦: ٨). إنّ الرجل العالمي مدح من قد غدر به لأجل حذقه. ولكنّ مدح الرجل الغني ليس مدح اللّه.

إنّ المسيح لم يمتدح وكيل الظلم وإنّما استخدم تلك الحادثة المعروفة ليشرح الدرس الذي قصد أن يعلّمه. فقال: « اصْنَعُوا لَكُمْ أَصْدِقَاءَ بِمَالِ الظُّلْمِ، حَتَّى إِذَا فَنِيتُمْ يَقْبَلُونَكُمْ فِي الْمَظَالِّ الأَبَدِيَّة » (لوقا ١٦: ٩). [368]

كان الفريسيون قد لاموا المُخَلِّص لاختلاطه بالعشارين والخطاة. ولكن اهتمامَه بهم لم يقلّ ولا انقطعت جهودُه في سبيلهم. لقد رأى أنّهم أتوا أمام التجربة بحكم وظيفتهم. كانوا محاطين بغوايات الشرّ. كانت أول خطوة في طريق الخطأ سهلة وكان الانحدار سريعا إلى خيانة أعظم وجرائم أكثر. وكان المسيح يحاول بكل وسيلة أن يربحهم ويوجههم إلى أغراض أسمي ومبادئ أشرف. كان هذا الغرض ماثلا في ذهنه وهو يحكي قصة وكيل الظلم. فقد كان يوجد بين العشارين مثل تلك الحالة المصورة في المثل، وفي الوصف الذي أورده المسيح ميّزوا الأعمال التي يمارسونها. وقد استرعى انتباههم، وكثيرون منهم تعلّموا درس الحق الروحي من الصورة التي رسمها عن أعمالهم الخائنة.

ومع ذلك فقد كان المثل موجها إلى التلاميذ مباشرة. فقد كانوا أول من أعطيت لهم خميرة الحق وبواسطتهم كان يجب أن تصل للآخرين. إنّ كثيراً من تعاليم المسيح لم يفهمها التلاميذ في بادئ الأمر، وكثيراً ما كان يبدو وكان تعاليمه قد كادت تنسى. ولكن بقوة الرُّوح الْقُدُس [369] انتعشت هذه الحقائق فيما بعد ووضحت، وبواسطة التلاميذ اتضحت بكل جلاء أمام المهتدين الذين انضموا إلى الكنيسة.

وكان المُخَلِّص يخاطب الفريسيين أيضا. إنّه لم يزايله الأمل في أنّهم قد يحسّون بقوة كلامه. وقد تأثر كثيرون منهم تأثرا عميقا وإذ سمعوا الحق تحت تلقين الرُّوح الْقُدُس صار عدد غير قليل منهم مؤمنين بالمسيح.

وقد حاول الفريسيون أن يجلبوا العار على المسيح باتهامهم إيّاه بأنّه يندمج في وسط العشارين والخطاة. والآن ها هو يردّ اللوم على المشتكين عليه. فالمشهد المعروف بأنّه قد حدث بين العشارين يريه للفريسيين ليصور لهم أسلوب عملهم وأيضا ليريهم الطريق الوحيد الذي به يفتدون أخطاءهم.

لقد أودع السيد أمواله بين يدي وكيل الظلم لأجل أغراض خيرية. ولكنه استخدمها لنفسه. وكذلك الحال مع إسرائيل. فلقد اختار اللّٰه نسل إِبْرَاهِيم. فبيد رفيعة خلصهم من عبودية مصر. وقد جعلهم مستودعات للحق المَقدَس ليباركوا العالم. وقد أودع بين أيديهم كلمة اللّٰه الحية لينقلوا النور للآخرين. ولكن وكلاءه استخدموا هذه الهبات لكي يغتنوا ويمجدوا بها أنفسهم.

إنّ الفريسين إذا كانوا ممتلئين اعتدادا بذواتهم وبالبرّ الذاتي أساءوا استعمال الأموال التي استودعهم اللّٰه إيّاها ليستخدموها لمجده.

إنّ العبد المذكور في المثل لم يعدّ مؤونة للمستقبل. فالأموال المودعة لديه لأجل خير الآخرين صرفها على نفسه. ولكنّه لم يفكر في غير حاضره. فعندما تؤخذ منه الوكالة فلن يكون تحت يده شيء يمكن أن يحسبه ملكه. ولكن أموال سيده كانت لا تزال تحت يده فعوّل [370] على أن يتصرّف فيها بحيث يؤمّن نفسه ضد العوز في المستقبل. فلكي يتمم هذا كان عليه أن يوزع على الآخرين. وبهذه الكيفية يمكنه أن يكسب أصدقاء يقبلونه عندما يطرد. وهكذا كان الحال مع الفريسيين. فالوكالة كانت موشكة أن تؤخذ منهم، وكان عليهم أن يتزودوا للمستقبل. فما كان يمكنهم أن يفيدوا أنفسهم إلاّ إذا طلبوا خير الآخرين. وما كانوا يستطيعون أن يستعدّوا للأبدية إذا لم يوزعوا هبات اللّٰه في هذه الحياة.

بعدما أورد المسيح المثل قال: « أَبْنَاءَ هذَا الدَّهْرِ أَحْكَمُ مِنْ أَبْنَاءِ النُّورِ فِي جِيلِهِمْ » (لوقا ١٦: ٨). أي أنّ حكماء هذا العالم يظهرون حكمة وغيرة في خدمة أنفسهم أكثر مما يظهر المعترفون بأنهم أولاد اللّه في خدمتهم له. هكذا كان الحال في عهد المسيح. وهكذا هو الأمر في أيامنا هذه. تأمل في حياة الكثيرين ممّن يدّعون أنّهم مسيحيون فقد منحهم الرب إمكانيات وقوة ونفوذا. وقد أودع لديهم المال لكي يكونوا عاملين معه في عمل الفداء العظيم. وكل هباته يجب استخدامها في مباركة الإنسانية وتخفيف آلام المتألمين والمعوزين. فعلينا أن نطعم الجياع ونكسو العراة ونهتم بالأرملة واليتيم ونخدم المتضايقين المنسحقين. إنّ اللّه لم يكن يريد قط أن تعم حالة الشقاء هذه المنتشرة في العالم. وهو لم يقصد أن إنسانا واحدا يكون لديه من أسباب الرفاهية والترف ما يزيد كثيرا عن حاجته، بينما أبناء جيرانه يصرخون في طلب الخبز. فالأموال الزائدة عن حاجات الحياة الفعلية مسلمة للإنسان لكي يفعل بها الخير ويبارك البشرية. إنّ الرب يقول: « بِيعُوا مَا لَكُمْ وَأَعْطُوا صَدَقَةً » (لوقا ١٢: ٣٣). « أَسْخِيَاءَ فِي الْعَطَاءِ، كُرَمَاءَ فِي التَّوْزِيعِ » (١تيموثاوس ٦: ١٨)، « إذا صنعت ضيافة فادعِ المساكين الجدع العرج العمي » (لوقا ١٤: ١٣). « حَلَّ قُيُودَ الشَّرِّ » « فَكَّ عُقَدَ النِّيرِ » « إِطْلاَقَ الْمَسْحُوقِينَ أَحْرَارًا » [371] « قَطْعِ كُلِّ نِيرٍ » « أن تكسر للجائع خبزك وان تدخل المساكين التائهين إلى بيتك. إذا رأيت عريانا أن تكسوه « أَشْبَعْتَ النَّفْسَ الذَّلِيلَةَ » (إِشَعْيَاء ٥٨: ٦، ٧، ١٠). « اذْهَبُوا إِلَى الْعَالَمِ أَجْمَعَ وَاكْرِزُوا بِالإِنْجِيلِ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا » (مرقس ١٦: ١٥). هذه هي أوامر الرب. فهل الأكثرية العظمى من المعترفين بالمسيحية قائمون بهذا العمل؟

واأسفاه، فما أكثر من يخصصون هبات اللّه لأنفسهم وما أكثر من يضيفون بيتا إلى بيت ويقرنون حقلا بحقل. وما أكثر من ينفقون أموالهم على الملذّات وإشباع النهم والبيوت والأثاثات والثياب المتطرفة. إن بين جنسهم يتركون عرضة للشقاء والجرائم والأمراض والموت. إنّ كثيرين يهلكون دون أن يلقي أحد عليهم نظرة عطف أو ينطق بكلمة محبة أو يعمل عملا من أعمال العطف.

إنّ الناس مجرمون في سلب حقوق اللّه. فإنفاقهم للمال بكيفية تدل على الأثرة يسلب اللّه المجد الذي كان يجب أن يعود إليه في تخفيف آلام البشرية وخلاص النفوس. إنّهم يختلسون [372] أمواله المودعة لديهم. إنّ الرب يعلن قائلاً: « وَأَقْتَرِبُ إِلَيْكُمْ لِلْحُكْمِ، وَأَكُونُ شَاهِدًا سَرِيعًا عَلَى ... السَّالِبِينَ أُجْرَةَ الأَجِيرِ: الأَرْمَلَةَ وَالْيَتِيمِ، وَمَنْ يَصُدُّ الْغَرِيبَ » « أَيَسْلُبُ الإِنْسَانُ اللّٰهَ؟ فَإِنَّكُمْ

سَلَبْتُمُونِي. فَقُلْتُمْ: بِمَ سَلَبْنَاكَ؟ ... قَدْ لُعِنْتُمْ لَعْنًا وَإِيَّايَ أَنْتُمْ سَالِبُونَ، هذه الأُمَّةُ كُلُّهَا » (ملاخي ٣: ٥، ٨، ٩). « هَلُمَّ الآنَ أَيُّهَا الأَغْنِيَاءُ ... غِنَاكُمْ قَدْ تَهَرَّأَ، وَثِيَابُكُمْ قَدْ أَكَلَهَا الْعُثُّ. ذَهَبُكُمْ وَفِضَّتُكُمْ قَدْ صَدِئَا، وَصَدَأُهُمَا يَكُونُ شَهَادَةً عَلَيْكُمْ ... قَدْ كَنَزْتُمْ فِي الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ » « قَدْ تَرَفَّهْتُمْ عَلَى الأَرْضِ، وَتَنَعَّمْتُمْ » « هُوَذَا أُجْرَةُ الْفَعَلَةِ الَّذِينَ حَصَدُوا حُقُولَكُمُ، الْمَبْخُوسَةُ مِنْكُمْ تَصْرُخُ، وَصِيَاحُ الْحَصَّادِينَ قَدْ دَخَلَ إِلَى أُذْنَيْ رَبِّ الْجُنُودِ » (يعقوب ٥: ١-٣، ٥، ٤).

وسيُطلب من كل واحد أن يسلم الهبات المودعة لديه. وفي يوم الدينونة الأخير ستكون الثروة التي اكتنزها الناس بلا قيمة لهم. فهم لا يملكون شيئا يمكن أن يقولوا عنه إنّه ملكهم.

إنّ الذين يقضون حياتهم في جمع الكنوز العالمية يبرهنون على أنهم أقل حكمة وأقل تفكيراً وحرصاً على خيرهم الأبدي من حرص وكيل الظلم على أعالته الأرضية. فهؤلاء الذين يقولون إنّهم أبناء النور هم اقل حكمة من أبناء هذا الدهر في جيلهم. هؤلاء هم الذين يعلن النبي في رؤياه عن يوم الدينونة العظيم قائلا عنهم: « يَطْرَحُ الإِنْسَانُ أَوْثَانَهُ الْفِضِّيَّةَ وَأَوْثَانَهُ الذَّهَبِيَّةَ، الَّتِي عَمِلُوهَا لَهُ لِلسُّجُودِ، لِلْجُرْذَانِ وَالْخَفَافِيشِ، لِيَدْخُلَ فِي نُقَرِ الصُّخُورِ وَفِي شُقُوقِ الْمَعَاقِلِ، مِنْ أَمَامِ هَيْبَةِ الرَّبِّ وَمِنْ بَهَاءِ عَظَمَتِهِ عِنْدَ قِيَامِهِ لِيَرْعَبَ الأَرْضَ » (إِشَعْيَاء ٢: ٢٠، ٢١). [373]

يقول المسيح: « اصْنَعُوا لَكُمْ أَصْدِقَاءَ بِمَالِ الظُّلْمِ، حَتَّى إِذَا فَنِيتُمْ يَقْبَلُونَكُمْ فِي الْمَظَالِّ الأَبَدِيَّةِ » (لو ١٦: ٩). إنّ اللّه والمسيح والملائكة يخدمون المتضايقين والمتألمين والخطاة. فسلّم نفسك للّه لأجل هذا العمل واستخدم هباته لأجل هذا الغرض فتدخل في شركة مع الكائنات السماوية. وسيخفق قلبك بالشفقة مشاركة لقلوبهم. وستتشبّه بهم في الصفات. ولن يكون هؤلاء الساكنون في المظال الأبدية غرباء عنك. فعندما تزول الأشياء الأرضية سيرحب بك الحراس الواقفون على أبواب السماء.

والأموال التي تصرف لجلب البركة للآخرين سيُعطَى عنها تعويض. فالمال الذي يُستخدم بطريقة صحيحة سيعمل خيرا عظيماً. فستُربح نفوس للمسيح. والذي يتبع خطة المسيح في الحياة سيري في مساكن اللّه من قد خدم وضحّى لأجلهم على الأرض. وبالتدريج سيذكر المفديون مَن كانوا واسطة في خلاصهم. وستكون السماء عزيزة وثمينة في نظر من كانوا أمناء في عمل خلاص النفوس.

إنّ درس هذا المثل مقدم للجميع. فكل واحد سيكون مسؤولا عن النعمة المعطاة له في المسيح. إنّ الحياة هي أخطر من أن تبتلعها الأمور الزمنية أو الأرضية. والرب يريدنا أن نوصل إلى الآخرين ما نتلقاه من العالم الأبدي غير المنظور.

وفي كلّ سنة يدخل ملايين فوق ملايين من النفوس البشرية إلى عالم الأبد بدون إنذار وبدون خلاص. ومن ساعة إلى ساعة في حياتنا المختلفة تفتح أمامنا الفرص للوصول إلى النفوس وتخليصها. وهذه الفرص تجيء وتروح بلا انقطاع. واللّه يريدنا أن نُحسن استخدامها. فالأيام والأسابيع والشهور تمرّ. وهكذا تنقص أعمارُنا يوما وأسبوعا وشهرا لنتمم فيها عملنا. وبعد سنوات قليلة أخرى على أكثر تقدير سنسمع الصوت الذي [374] لا يمكننا الاستعفاء من الإجابة عليه قائلا لنا: « أَعْطِ حِسَابَ وَكَالَتِكَ » (لوقا ١٦: ٢).

إن المسيح يدعو كل إنسان ليفكر. فاحسب حسابا أمينا ودقيقا. وضع في الكفة الواحدة يسوع الذي معناه الكنز الأبدي والحياة والحق والسماء وفرح المسيح بالنفوس المفدية، وفي الكفة الأخرى ضع كل الجواذب التي يمكن للعالم أن يقدمها. ضع في الكفة الواحدة هلاك نفسك والنفوس التي كان يمكنك أن تكون وسيلة لخلاصها، وفي الكفّة الأخرى الحياة لك ولتلك النفوس، الحياة التي تقاس بقدر حياة اللّه. زن للوقت الراهن وللأبدية. وفيما أنت مشغول بهذا يقول المسيح: « مَاذَا يَنْتَفِعُ الإِنْسَانُ لَوْ رَبِحَ الْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟ » (مرقس ٨: ٣٦).

إنّ اللّه يريدنا أن نختار الأمور السماوية بدلَ الأرضية. وهو يقدم لنا الإمكانيات للمساهمة في الأمور السماوية. وهو يقدم تشجيعا لأسمى أهدافنا وضمان سلامة أغلى كنوزنا. فهو يعلن قائلا: « أَجْعَلُ الرَّجُلَ أَعَزَّ مِنَ الذَّهَبِ الإِبْرِيزِ، وَالإِنْسَانَ أَعَزَّ مِنْ ذَهَبِ أُوفِيرَ » (إِشَعْيَاء ١٣: ١٢). فعندما تتلاشى وتَندَثرَ الثروة التي يأكلها العثَ ويفسدها الصدأ فإنّ لتلاميذ المسيح أن يفرحوا بكنزهم السماوي والغنى الذي لا يزول ولا يفنى.

إنّ صحبة مفديّي المسيح هي أفضل من صحبة كل العالم. وصك امتلاكنا للمنازل التي قد ذهب سيدنا ليعدها لنا هو أفضل من وثيقة امتلاكنا لأجمل قصور الأرض. وافضل من كل عبارات المديح الأرضي سيكون قول المسيح لخدامه الأمناء: « تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي، رِثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ » (متى ٢٥: ٣٤).

أما للذين قد بَذروا أموالَه فالمسيح لا يزال يعطيهم الفرص لإحراز الغنى الدائم الأبدي. فهو يقول: « أَعْطُوا تُعْطَوْا » اِعْمَلُوا لَكُمْ أَكْيَاساً لَا

تَفْنَى وَكَنْزاً لَا يَنْفَدُ فِي السَّمَاوَات، [375] حَيْثُ لَا يَقْرَبُ سَارِقٌ وَلَا يُبْلِي سُوسٌ » (لوقا ٦: ٣٨؛ ١٢: ٣٣) « أَوْصِ الأَغْنِيَاءَ فِي الدَّهْرِ الْحَاضِرِ ... يَصْنَعُوا صَلاَحًا، وَأَنْ يَكُونُوا أَغْنِيَاءَ فِي أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ، وَأَنْ يَكُونُوا أَسْخِيَاءَ فِي الْعَطَاءِ، كُرَمَاءَ فِي التَّوْزِيعِ، مُدَّخِرِينَ لأَنْفُسِهِمْ أَسَاسًا حَسَنًا لِلْمُسْتَقْبَلِ، لِكَيْ يُمْسِكُوا بِالْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ » (١تيموثاوس ٦: ١٧-١٩).

إذا فاجعلوا أموالكم تسبقكم إلى السماء واكنزوا لكم كنوزا بجوار عرش اللّه. وتأكدوا من وثيقة امتلاككم لغنى المسيح الذي لا يستقصى. « اصْنَعُوا لَكُمْ أَصْدِقَاءَ بِمَالِ الظُّلْمِ، حَتَّى إِذَا فَنِيتُمْ يَقْبَلُونَكُمْ فِي الْمَظَالِّ الأَبَدِيَّةِ » (لوقا ١٦: ٩). [376]

٢٧

« مَنْ هُوَ قَرِيبِي؟ »

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في لوقا ١٠: ٢٥-٣٧).

إنّ هذا السؤال القائل: « مَنْ هُوَ قَريبي؟ » كان مثار كثير من الجدل الذي لا ينتهي بين اليهود. لم يكن عندهم شَكّ بالنسبة إلى الوثنيين والسامريين. فهؤلاء كانوا غرباء وأعداء. ولكن أين يوضع الحدّ الفاصل بين شعب أمتهم وبين طبقات المجتمع المختلفة؟ ومن هو الذي يجب أن يعتبره الكاهن أو المعلم أو الشيخ قريبه؟ لقد قضوا حياتهم في ممارسة طقوس لا تنتهي لكي يجعلوا أنفسهم أنقياء. وقد علموا أن ملامستهم للجهال والمهملين من عامة الشعب تسبب لهم نجاسة تتطلب بذل جهد ممل ومتعب لإزالتها. وهل كان لهم أن يعتبروا « النَّجسينَ » أقرباء لهم؟

وقد أجاب المسيحَ على هذا السؤال في مثل السامري الصالح. فقد برهن أنّ قريبنا لا يعني مجرد أن يكون الإنسان فردا في الكنيسة التي ننتمي إليها أو العقيدة التي ندين بها. وكلمة قريب لا توجد فيها أي إشارة إلى الجنس أو اللون أو أي تمييز طبقي. ولكن قريبنا هو أيّ إنسان محتاج إلى معونتنا. قريبنا هو كل إنسان جرحه العدو وسحقه. قريبنا هو كل إنسان يخصّ اللّه. [377]

والذي دعا إلى إيراد مثل السامري الصالح هو سؤال قدمه ناموسي إلى المسيح. ففيما كان المُخَلِّص يعلم « إِذَا نَامُوسِيٌّ قَامَ يُجَرِّبُهُ قَائِلاً: يَا مُعَلِّمُ، مَاذَا أَعْمَلُ لأَرِثَ الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ؟ » (لوقا ١٠: ٢٥). لقد اقترح الفَريسيون هذا السؤال علىَ الناموسي علَى أمل أن يوقعوا المسيح في شرك من كلامه فأصغوا إلى جوابه بكلّ شوق. لكنّ المُخَلِّص لم يشتبك في جدال مع أحد. فطلب من السائل أن يجيب بنفسه على سؤاله. فسأله قائلا: « مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي النَّامُوسِ. كَيْفَ تَقْرَأُ؟ » (لوقا ١٠: ٢٦). كان اليهود لا يزالون يتهمون يسوع بأَنّه يستخفّ بالناموس المُعطى من سيناء ولكنّه حوّل السؤال عن الخلاص إلى حفظ وصايا اللّه.

فأجابه الناموسي قائلا: « تُحِبُّ الرَّبَّ إِلهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ قُدْرَتِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ، وَقَرِيبَكَ مِثْلَ نَفْسِكَ » فقال له المسيح: « بِالصَّوَابِ أَجَبْتَ. افْعَلْ هذَا فَتَحْيَا » (لوقا ١٠: ٢٧، ٢٨).

إنّ الناموسي لم يكن راضياً عن موقف الفريسيين وأعمالهم. فقد كان يقرأ الكتب المقدسة وهو مشتاق لمعرفة معناها الحقيقي. كان مهتما اهتماما حيويا بالمسألة فسأل قائلا بإخلاص: ماذا أعمل؟ وفي جوابه عن مطاليب الناموس أغفل كل مجموعة الوصايا الطقسية والفرضية. فلم يدّع أنّ لهذه الأشياء أيّة قيمة بل قدّم المبدأين العظيمين اللذين يتعلق بهما الناموس كلّه والأنبياء. وإنّ مدح المسيح وثناءه على هذا الجواب وضع المسيح في مركز امتياز مع المعلمين. فلم يستطيعوا أن يدينوه على مصادقته على ما قدمه رجل هو مفسر للناموس.

قال له المسيح: « افْعَلْ هذَا فَتَحْيَا » (لوقا ١٠: ٢٨). ففي تعليمه كان دائما يقدم الشريعة علىَ أنّها وحدة إلهية مبينا انّه يستحيل على إنسان أن يحفظ وصية ويكسر أخرى لأنّ نفس المبدأ الواحد يسري فيهن جميعا. [378] ومصير الإنسان يتقرر بموجب طاعته لكل الناموس.

ولقد عرف المسيح أنّه لا يستطيع إنسان أن يطيع الناموس بقوته. فأراد أن يُرشد الناموسي إلى بحث أوضح وأكثر دقة حتى يجد الحق. إننّا لا نستطيع أن نحفظ الناموس إلاّ إذا قبلنا فضيلةَ وقوى المسيح ونعمته. فالإيمان بالكفارة عن الخطية يمكّن الإنسان الساقط من أن يحب اللّه من كل قلبه ويحب قريبه كنفسه.

وقد عرف الناموسي أنّه لم يحفظ الوصايا الأربع الأولى ولا الوصايا الأخرى. كان متبكّتا من أقوال المسيح الفاحصة، ولكن بدلا من الاعتراف بخطيّته حاول

أن يتسامح معها. وبدلا من الاعتراف بالحق حاول أن يبرهن على مقدار صعوبة حفظ [379] الوصية. وهكذا كان يرجو أن يتفادى الاقتناع ويبرّر نفسه في عيون الشعب. وأن كلام المسيح يبرهن على سؤال الرجل لم يكن ثمة ما يدعو إليه لأنَّه كان قادرا على أن يجيب عليه بنفسه. ومع ذلك فقد قدم إليه سؤالا آخر قائلا: « وَمَنْ هُوَ قَرِيبِي؟ » (لوقا ١٠: ٢٩).

ومرّة أخري رفضَ المسيح الدخول في جدال. بل أجاب على السؤال بقصة حادثة وقعت وكانت ذكراها لا تزال ماثلة في أذهان السامعين. قال: « إِنْسَانٌ كَانَ نَازِلاً مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى أَرِيحَا، فَوَقَعَ بَيْنَ لُصُوصٍ، فَعَرَّوْهُ وَجَرَّحُوهُ، وَمَضَوْا وَتَرَكُوهُ بَيْنَ حَيٍّ وَمَيْتٍ » (لوقا ١٠: ٣٠).

كان على المسافرِ من أورشليم إلى أريحا أن يعبر في جزء من بريّة يهوذا. وكان الطريق يفضي إلى واد ضيق موحش صخري كان يكمن فيه اللصوص وكثيراً ما كانت تُرى فيه مشاهد العنف. ففي هذا المكان هوجم المسافر وعُرّي من كل ثيابه الغالية وتُرك على جانب الطريق بين حيّ وميّت. وفيما كان مطروحا في حالته تلك عَرض أن كاهنا نزل في تلك الطريق فرأي الرجل مطروحا جريحا ومرضّضا ومتمرّغا في دمه، ولكنه تركه ومضى دون أن يمدّ إليه يد الغوث بل « جَازَ مُقَابِلَهُ » (لوقا ١٠: ٣١). ثم ظهر لاوي. فإذ دفعه فضوله لمعرفة ما قد حدث وقفَ ونظر إلى الرجل المتألم. وكان مقتنعا بما يجب عليه عمله ولكن ذلك الواجب لم يكن ممّا يروق له. وكان يتمنّ لو لم يأت في ذلك الطريق حتى لا يرى ذلك الجريح. وقد اقنع نفسه بأن ليس له دخل في المسألة « جَازَ مُقَابِلَهُ » (لوقا ١٠: ٣٢).

ولكنّ سامرياً مسافرا جاء في نفس الطريق ورأي المتألم وعمل ما تنحّى غيره عن عمله. فبكلّ رقة وحنان خدم الجريح: « وَلَمَّا رَآهُ تَحَنَّنَ فَتَقَدَّمَ وَضَمَدَ جِرَاحَاتِهِ، وَصَبَّ عَلَيْهَا زَيْتًا وَخَمْرًا، وَأَرْكَبَهُ عَلَى دَابَّتِهِ، وَأَتَى بِهِ [380] إِلَى فُنْدُقٍ وَاعْتَنَى بِهِ. وَفِي الْغَدِ لَمَّا مَضَى أَخْرَجَ دِينَارَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا لِصَاحِبِ الْفُنْدُقِ، وَقَالَ لَهُ: اعْتَنِ بِهِ، وَمَهْمَا أَنْفَقْتَ أَكْثَرَ فَعِنْدَ رُجُوعِي أُوفِيكَ » (لوقا ١٠: ٣٣-٣٥). كان كلّ من الكاهن واللاوي يدعي التقوى، ولكنَّ السامري اظهر أنّه متجدد حقاً. كان ذلك العمل الذي قام به كريها لديه كما كان كريها لدى الكاهن واللاوي. ولكنّه برهن بروحه وعمله على أنه متوافق مع اللّٰه.

إنّ المسيح وهو يقدّم هذا الدرس قدّم مبادئ الناموس بكيفية مباشرة وفعالة، مبينا لسامعيه أنّهم قد أهملوا في تنفيذ هذه المبادئ. وكان كلامه

محددا وسديدا بحيث لم يجد سامعوه فرصة للمماحكة. ولم يجد ذلك الناموسي في هذا الدرس شيئا يمكنه أن ينتقده. وقد زال تعصّبه ضد المسيح. ولكنه لم يكن قد انتصر على كراهيته القومية بحيث يذكر اسم السامري ممتدحا إياه. فعندما سأله المسيح قائلا: « أَيَّ هؤُلاَءِ الثَّلاَثَةِ تَرَى صَارَ قَرِيبًا لِلَّذِي وَقَعَ بَيْنَ اللُّصُوصِ؟ فَقَالَ: الَّذِي صَنَعَ مَعَهُ الرَّحْمَةَ » (لوقا ١٠: ٣٦، ٣٧).

قال له المَسيح: « اذْهَبْ أَنْتَ أَيْضًا وَاصْنَعْ هكَذَا » (لوقا ١٠: ٣٧). أي أظهر نفس الحنان والرقة لمن يحتاجونهما. وبهذا تبرهن على أنك تحفظ كل الناموس.

كان الخلاف العظيم بين اليهود والسامريين خلافا يتناول العقيدة الدينية، والسؤال عن ماذا يحدد العبادة الحقة. إنّ الفريسيين لم يريدوا أن يمتدحوا السامريين في شيء بل صبوا عليهم أمرّ لعناتهم. لقد كان النفور بين اليهود والسامريين على أشدّه حتى لقد بدا للمرأة السامرية أمراً غريبا أن يطلب منها المسيح جرعة ماء فقالت له: « كَيْفَ تَطْلُبُ مِنِّي لتَشْرَبَ، وَأَنْتَ يَهُودِيٌّ وَأَنَا امْرَأَةٌ سَامِرِيَّةٌ؟ » ثم أضاف البشير القول: « لأَنَّ الْيَهُودَ لاَ يُعَامِلُونَ السَّامِرِيِّينَ » [381] (يوحَنا ٤: ٩). وعندما امتلأت قلوب اليهود بالعداوة القاتلة للمسيح حتى قاموا ليرجموه في الهيكل لم يجدوا كلاما يعبرون به عن عداوتهم أفضل من قولهم: « أَلَسْنَا نَقُولُ حَسَنًا: إِنَّكَ سَامِرِيٌّ وَبِكَ شَيْطَانٌ؟» (يوحنا ٨: ٤٨). ومع ذلك فقد أهمل الكاهن واللاوي نفس العملَ الذي قد أوصاهما الرب به وفرضه عليهما في كونهما قد تركا سامريا مكروهاً ومحتقراً ليخدم أحد مواطنيهما.

لقد تمم السامري الوصية: تحب قريبك كنفسك وبهذا برهن على انّه أبرّ ممّن كانوا يشهّرون به. فإذ خاطر بحياته عامل الجريح معاملة الأخ لأخيه. إنّ هذا السامري يرمز إلى المسيح. إنّ مخلِّصنا [382] قد أظهر نحونا محبة لا يمكن أن تضارعها محبة للإنسان. فعندما كنا مسحوقين وأمواتا لا محالة تحنن علينا. إنّه لم يجُزْ مقابلنا تاركاً إيانا في حال العجز واليأس لنهلك. ولم يظلّ في مسكنه المقدس السعيد حيث كان يحبه جميع أجناد السماء. لقد رأي حاجتنا الشديدة الملحّة وأخذ قضيتنا وقرن مصالحه بمصالح الإنسانية. لقد مات لكي يخلص أعداءه. وصلّى لأجل قاتليه. وإذ يشير إلى مثاله يقول لتلاميذه: « بِهذَا أُوصِيكُمْ حَتَّى تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا »، « كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا تُحِبُّونَ أَنْتُمْ أَيْضًا بَعْضُكُمْ بَعْضًا » (يوحنا ١٥: ١٧؛ ١٣: ٣٤).

كان الكاهن واللاوي قد ذهبا للعبادة في الهيكل الذي كانت خدمته معينة من اللّٰه نفسه. وكان الاشتراك في تلك الخدمة امتيازا عظيما ومجيدا،

وقد أحس الكاهن واللاوي انّه حيث قد أُكرما ذلك الإكرام فليس مما يليق بكرامتهما أن يقدما خدمة لإنسان غريب مُلقى على قارعة الطريق. وهكذا أهملا الفرصة الخاصة التي قدمها لهما اللّه كنائبين عنه في جلب البركة لأحد بني جنسهما.

وكثيرون يرتكبون نفس هذا الخطأ اليوم. فهم يقسمون واجباتهم إلى قسمين متميزين. فأحدهما يتكون من الأمور العظيمة التي تنظمها شريعة اللّه، أما القسم الآخر فيتكون مما يُسمى بالأمور الصغيرة التي فيها يتجاهلون الوصية القائلة: تحب قريبك كنفسك. ومحيط هذا العمل يترك لهوى الإنسان أو مزاجه ويخضع لميله وبواعثه. وهكذا يتشوّه الخلق ويساء تمثيل ديانة المسيح.

يوجد من يظنّون أنّ في خدمة الإنسانية المتألمة تحقيراً لكرامتهم. وكثيرون ينظرون إلى من قد جعلوا هيكل النفس خرابا باحتقار وغير اكتراث. وآخرون يهملون الفقراء مدفوعين بدافع مختلف. إنّهم يخدمون، حسب اعتقادهم، في عمل المسيح لكي يقيموا مشروعا مستحقا، [383] فهم يحسّون بأنهم عاملون عملا عظيما ولا يستطيعون التوقف للنظر في احتياجات المعوزين والمتضايقين. ففي التقدم بعملهم الذي يظنون انه عظيم يظلمون المساكين ويسحقونهم. وقد يضعونهم في ظروف شاقة قاسية ويجردونهم من حقوقهم أو يهملون حاجاتهم. ومع ذلك فهم يحسّون بأنّ هذا كله مشروع لأنهم يعملون على تقدم عمل اللّه كما يظنّون.

وكثيرون يتركون أخا أو قريبا ليكافح ضدّ ظروف معاكسة دون أن يجد عونا من أحد. فلكونهم يعترفون بأنهم مسيحيون فهذا قد يجعله يظنّ أنّهم في أنانيتهم الفاترة يمثلون المسيح. فلأن من يعترفون بأنهم خدام الرب غير متعاونين معه فإنّ محبة اللّه التي يجب أن تفيض منهم تتقطع بدرجة عظيمة ويحرم منها بنو جنسهم. ثم يمنع جانب كبير من الحمد والشكر من أن يرفع من القلوب والألسن البشرية الفائضة بهما إلى اللّه. فهو يسلب المجد اللائق لاسمه القدوس. وتُسلب منه النفوس التي قد مات المسيح لأجلها، النفوس التي يتوق للإتيان بها إلى ملكوته ليعيشوا في حضرته مدي دهور الأبد.

إنّ الحقّ الإلهي لا يُحدث إلاّ تأثيرا ضئيلا في العالم في حين كان يجب أن يُحدث تأثيرا عظيما بفضل ممارستنا إيّاه. إنّ مجرد الاعتراف بالديانة كثير، ولكنّ أكثره لا قيمة له. فيمكننا أن ندّعي أننا تلاميذ المسيح، وأن ندّعي بأننا نؤمن بكل حق وارد في كلمة اللّه. ولكن هذا لن يفيد أقرباءنا شيئا ما لم ننفّذ

ما نعتقده في حياتنا اليومية. وقد يرتفع الاعتراف إلى عنان السماء، ولكنه لن يخلص نفوسنا أو بني جنسنا ما لم نكن مسيحيين بالحق. إنّ المثال الصالح يحقق منافع للعالم أكثر من كل اعترافنا.

الأعمال الأنانية لا يمكنها أبدا أن تخدم ملكوت اللّٰه. إنّ ملكوته هو ملكوت المظلومين والفقراء. ففي [384] قلوب المعترفين بأنهم تلاميذه توجد حاجة إلى عطف المسيح الرقيق – ومحبة أعمق لمن قد قدرهم أعظم تقدير بحيث بذل نفسه لأجل خلاصهم. هذه النفوس غالية جدا، وأغلى بكثير من أية ذبيحة يمكننا أن نقدمها إلى اللّٰه. إنّ كوننا نبذل أعظم قوى نشاطنا لنجاح عمل يبدو عظيما في حين أننا نهمل المعوزين أو نصدّ الغريب عن أخذ حقه ليس خدمة يمكن أن تظفر برضى اللّٰه واستحسانه.

إنّ تقديس النفس بعمل الرُّوح الْقُدُس هو غرس طبيعة المسيح في القلب البشري. إنّ دين الإنجيل هو المسيح في الحياة – وهو مبدأ حيّ عامل. إنّه نعمة المسيح الظاهرة في الخلق والمثمرة في الأعمال الصالحة. إنّ مبادئ الإنجيل لا يمكن فصلها عن دائرة الحياة العملية. وكل فرع من فروع الاختبار والعمل المسيحي يجب أن يكون صورة تمثل حياة المسيح.

المحبة هي أساس التقوى. فمهما يكن نوع الاعتراف فلا يمكن أن يكون لإنسان محبة ظاهرة للّٰه ما لم يحب أخاه محبة خالية من الأنانية. ولكن لا يمكننا امتلاك هذه الروح بواسطة جهدنا في محبة الآخرين. فالذي نحتاجه هو محبة المسيح في القلب. فعندما تندمج الذات في المسيح فالمحبة تنبثق من تلقاء ذاتها. ويمكن بلوغ الكمال في الخلق المسيحي عندما ينبثق من الداخل الوازع على مساعدة الآخرين ومباركتهم بلا انقطاع وعندما يملأ القلبَ ضياءُ السماء ويظهر على الوجه.

إنّ القلب الذي يسكنه المسيح يستحيل عليه أن يكون خاليا من المحبة. فإذا أحببنا اللّٰه لأنّه هو أحبنا أولا فسنحب كل من قد مات المسيح لأجلهم. ولا يمكننا ملامسة اللاهوت دون أن نلامس الناسوت، لأن ذاك الجالس على عرش الكون فيه يتحد اللاهوت بالناسوت. فإذ نرتبط بالمسيح نرتبط ببني جنسنا [385] بحلقات سلسلة المحبة الذهبية. حينئذ تظهر في حياتنا شفقة المسيح وحنانه. لن ننتظر حتى يؤتي إلينا بالمحتاجين والتعساء ولن نحتاج إلى أن يستعطفنا أحد لنحسّ ببلايا الآخرين. بل في خدمتنا للمحتاجين والمتألمين ستكون أمرا طبيعيا بالنسبة إلينا كما كانت بالنسبة إلى المسيح حين كان يجول يصنع خيرا.

فأينما يوجد وازع للمحبة والعطف. وأينما يسعى القلب ليبارك الآخرين ويرفعهم هناك يعلن عمل روح اللّٰه القدوس. وفى أعماق الوثنية حدث أنّ أناسا لم يكونوا يعرفون شيئا عن شريعة اللّٰه المكتوبة، ولا سمعوا قط اسم المسيح كانوا لطفاء تجاه خدامه وحفظوهم مخاطرين في ذلك بحياتهم. فأعمالهم تلك ترينا عمل القوة الإلهية. لقد غرس الرُّوح الْقُدُس نعمة المسيح في قلب الإنسان الوحشي محييا عواطفه على نقيض طبيعته وتربيته. « النُّورُ الْحَقِيقِيُّ الَّذي يُنِيرُ كُلَّ إِنْسَان آتِيًا إِلَى الْعَالَمِ » (يوحنا ١: ٩) ينير خفايا نفسه، وهذَا النور إذا انتبه إليه سيقوّم قدميه إلى ملكوت اللّٰه. [386]

إنّ مجد السماء هو في إقامة الساقطين وتعزية المحزونين المتضايقين. وأينما يسكن المسيح في القلوب فهو سيعلن بنفس هذه الطريقة. وديانة المسيح لابدّ أن تبارك أينما تعمل. وأينما تعمل فهناك الضياء والصفاء.

إنّ اللّٰه لا يعترف بأي تمييز من ناحية القومية أو الجنس أو الطبقات. فهو خالق كل الجنس البشرى فالجميع هم أفراد أسرة واحدة بالخلق والجميع واحد بالفداء. ولقد جاء المسيح لينقض كل حائط فاصل، وليفتح كل أقسام الهيكل لكي يمكن لكل نفس أن تقترب إلى اللّٰه بحرية. إنّ محبته عريضة جدا وعميقة جدا وكاملة جدا بحيث تنساب في كل مكان. وهي ترفع من دائرة الشيطان النفوس المسكينة التي قد انخدعت بتمويهاته وهي تضعها قرب عرش اللّٰه، العرش المحاط بقوس قزح الوعد.

وفي المسيح لا يهودي ولا يوناني ولا عبد ولا حر فالجميع صاروا قريبين بدم المسيح. (غلاطية ٣: ٢٨؛ أَفَسُس ٢: ١٣).

فمهما يكن الاختلاف في العقيدة الدينية فإنّ النداء الصادر من الإنسانية المتألمة يجب أن يسمع ويجاب. وحيث يكون الشعور بالبغضة مراً بسبب الخلاف في الدين فيمكن عمل خير كثير بالخدمة الفردية. إنّ خدمة المحبة تحطم التعصّب وتهدمه وتربح نفوسا للّٰه.

ونحن يجب أن نتوقع الأحزان والصعوبات والاضطرابات من الآخرين. فيجب أن ندخل إلى أفراح وهموم العال والدون، الأغنياء والفقراء. وقد قال المسيح: « مَجَّانًا أَخَذْتُمْ، مَجَّانًا أَعْطُوا » (متى ١٠: ٨). فكل من حولنا نفوس مسكينة مجرّبة وتحتاج إلى كلمات العطف وأعمال العون. فتوجد أرامل يحتجن إلى العطف والمساعدة. كما يوجد يتامى أمر المسيح تابعيه أن يقبلوهم كأمانة مسلمة لهم من اللّٰه. وفى أغلب الأحيان يمرّ الناس على هؤلاء

ويهملونهم. وقد يكونون رثّي الثياب وخشني الطباع، ويبدو أنّهم منفردون في كل شيء، ولكنهم مع كل ذلك خاصة اللّه. لقد أُشْتروا [387] بثمن، وهم أعزاء في نظره مثلنا تماما. وهم أفراد في أسرة اللّه العظيمة، المسيحيون كوكلاء للّه مسؤولون عنهم. وهو يقول: دمه من يدك أطلبه.

إنّ الخطية هي أعظم كل الشرور، وواجبنا أن نشفق على الخاطئ ونساعده. ولكن لا يمكن الوصول إلى الجميع بنفس الطريقة. فيوجد كثيرون ممن يخفون جوع أرواحهم. هؤلاء يمكن مساعدتهم مساعدة عظيمة بكلمة رقيقة أو ذكري مشفقة. ويوجد آخرون ممن هم في أشد الحاجة ومع هذا فهم لا يعرفون ذلك. فهم يدركون فاقة النفس المخيفة. وكثيرون قد غاصوا إلى أعماق الخطية بحيث قد أضاعوا الإحساس بالحقائق الأبدية، وأضاعوا صورة اللّه ولا يكادون يعرفون ما إذا كانت لهم نفوس يجب أن تخلص أم لا. فلا إيمان لهم باللّه ولا ثقة بإنسان. كثيرون من هؤلاء يمكن الوصول إليهم فقط عن طريق أعمال الشفقة غير المغرضة. ويجب الاهتمام بسد حاجاتهم الجسدية أولا. فينبغي إطعامهم وتنظيفهم وإلباسهم لباس الحشمة فإذ يرون برهان محبتكم التي لا تعرف الأنانية فسيكون من السهل عليهم أن يؤمنوا بمحبة المسيح.

ويوجد كثيرون ممن يخطئون ويحسّون بخزيهم وعارهم. إنهم ينظرون إلى أخطائهم وغلطاتهم حتى ليكادون ينساقون مع تيار اليأس. فعلينا ألاّ نهمل هذه النفوس عندما يلتزم الإنسان أن يسبح عكس التيار، فكل قوة التيار تحاول أن تجرفه إلى الوراء. إذا فلتمتد إليه يد معينة كما قد امتدت يد الأخ الأكبر لإنقاذ بطرس من الغرق. حدّثه بكلام الرجاء، كلام يوطد ثقتَه ويوقظ محبتَه.

إنّ أخاك السقيم الروح يحتاج إليك كما قد احتجت أنت إلى محبة أخيك. إنّه يحتاج لأن يعرف اختبار إنسان في مثل ضعفه. ويمكنه أن يعطف عليه ويعينه. إنّ معرفتنا لضعفنا يجب أن تساعدنا على مساعدة إنسان آخر في حاجته المرة. [388] فينبغي ألاّ نتجاوز أي إنسان متألم دون أن نحاول أن نقدم له التعزية التي نتعزّى بها من اللّه.

إنّ معاشرتنا للمسيح واتصالنا الشخصي بالمُخَلِّص الحيّ تمكنان العقل والقلب والنفس من الانتصار على الطبيعة الدنيا. أخبر الضال عن اليد المقتدرة التي ستسنده والإنسانية اللامتناهية في المسيح التي تعطف عليه. لا يكفيه أن يؤمن بالناموس والعنف – الأشياء التي لا ترفق ولا تسمع صرخة الاستنجاد. إنّه بحاجة إلى مصافحة يد دافئة، والثقة بقلب مفعم بالحنان.

اجعل عقله يتركز في فكرة الحضور الإلهي إلى جانبه دائما، إذ ينظر الرب إليه في رفق وحب. اجعله يفكر في قلب الآب الذي تحزنه الخطية، ويد الآب التي لا تزال ممتدة، وصوت الآب وهو يقول: « يَتَمَسَّكُ بِحِصْنِي فَيَصْنَعُ صُلْحًا مَعِي. صُلْحًا يَصْنَعُ مَعِي » (إشَعْيَاء ٢٧: ٥).

فإذ تنشغل بهذا العمل فإنّ لك رفاقا لا تراهم عيون الناس. لقد كان ملائكة السماء إلى جوار السامري الذي اهتم بالغريب الجريح. وإنّ الملائكة القادمين من السماء يقفون إلى جانب كل من يخدم اللّه بخدمة بني جنسه. بل أن المسيح نفسه يتعاون معك. إنّه الشافي وإذ تخدم تحت إشرافه ستري نتائج عظيمة.

فعلى أمانتك في هذا العمل يتوقف ليس خير الآخرين فحسب بل مصيرك الأبدي أيضا. إنّ المسيح يجتهد في أن يقيم كل من يريد أن يرتفع إلى معاشرته لنكون واحدا معه كما انه واحد مع الآب. إنّه يسمح لنا بالاقتراب من الآلام والبلايا لكي يخرجنا من نطاق الأنانية. وهو يحاول أن ينمي فينا سجايا خلقه – كالحنان والرقة والمحبة. فإذ نقبل عمل هذه الخدمة فإننا ننتظم في [389] مدرسته لنكون مؤهلين لمساكن اللّه. أما إذا رفضناها فإنما نرفض وصيته ونختار الانفصال بعيدا عن وجهه إلى الأبد.

إنّ الرب يعلن قائلا: « إِنْ حَفِظْتَ شَعَائِرِي » « أُعْطِيكَ مَسَالِكَ بَيْنَ هؤُلاَءِ الْوَاقِفِينَ » – أي بين الملائكة المحيطين بالعرش (زكريا ٣: ٧). فإذ نتعاون مع الخلائق السماوية في عملهم على الأرض فإننا نتأهب لمعاشرتهم في السماء « أَرْوَاحًا خَادِمَةً مُرْسَلَةً لِلْخِدْمَةِ لأَجْلِ الْعَتِيدِينَ أَنْ يَرِثُوا الْخَلاَصَ » (عبرانيين ١: ١٤)، والملائكة في السماء سيرحبون بمن حين كانوا على الأرض عاشوا لا ليُخدَموا بل ليَخْدموا. (متى ٢٠ :٢٨). وفي هذه المصاحبة المباركة ممّا يفرحنا إلى الأبد أننا سنتعلم كل ما كان مشتملا هذا السؤال: « مَنْ هُوَ قَرِيبِي؟ » [390]

٢٨

مجَازاة النـّعمـة

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في متى ١٩: ١٦-٣٠، ٢٠: ١-١٦؛ مرقس ١٠: ١٧-٣١؛ لوقا ١٨: ١٨-٣٠).

لقد غاب عن أنظار اليهود حق نعمة اللّٰه المجانية. فلقد علّم المعلّمون الشعب أنّ رضى اللّٰه ونعمته يجب أن يُكتسبا. وكانوا يؤمّلون أن يحصلوا على مجازاة الأبرار بأعمالهم. وهكذا كانت عبادتهم تمارس بروح تجارية طامعة. وحتى تلاميذ المسيح أنفسهم لم يكونوا متحررين تماما من هذه الروح، وقد انتهز المُخَلِّص كل فرصة ليريهم خطأهم. وقبلما نطق بمَثَل الفعلة مباشرة حدث حادث أفسح له المجالَ ليقدم لهم المبادئ السليمة.

ففيما كان سائرا في الطريق جاء رئيس شاب راكضا وجثا له وحيَّاه بوقار قائلا له: « أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ، أَيَّ صَلاَحٍ أَعْمَلُ لِتَكُونَ لِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ؟ » (متى ١٩: ١٦) .

إنّ ذلك الرئيس خاطب المسيح على أنه معلّم مكرم، دون أن يعرف انّه ابن اللّٰه. فقال له المُخَلِّص: « لِمَاذَا تَدْعُونِي [391] صَالِحًا. لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا إِلاَّ وَاحِدٌ وَهُوَ اللّٰهُ » (متى ١٩: ١٧). فكأنه يقول له: « على أي أساس

تدعوني صالحا؟ » إنّ اللّه هو وحده الصالح. فإذا كنت تعترف بأنني صالح فيجب أن تقبلني كابنه ونائبه.

ثم أضاف يقول: « إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ فَاحْفَظِ الْوَصَايَا » (متى ١٩: ١٧). إنّ صفات اللّه موضحة في شريعته، فلكي تكون فَي وفاق مع اللّه يجب أن تكون مبادئ شريعته هي نبع كل أعمالك.

إنّ المسيح لا يقلل مطاليب الشريعة. ولكنّه بلغة لا تخطيء يقدّم الطاعة لها كشرط الحياة الأبدية وهو نفس الشرط الذي طُلب من آدم قبل سقوطه. والرب لا يتوقع من النفس الآن أقل ممّا توقع من الإنسان في الفردوس، أي الطاعة الكاملة والبرّ الذي لا عيب فيه. إنّ ما يطلب من الإنسان في عهد النعمة هو في نفس اتساع ما طلب من الإنسان الأول في عدن – أي التوافق مع شريعة اللّه التي هي مقدسة وعادلة وصالحة.

فإذ قال له السيد « احْفَظِ الْوَصَايَا » أجاب الشاب قائلا: « أَيَّةَ الْوَصَايَا؟» (متى ١٩: ١٨) فقد حسب أَنّ المقصود هو فرضٌ طقسي، أمّا المسيح فكان يتحدث عن الشريعة المعطاة في سيناء. ثم ذكر له عدة وصايا مما كان مكتوبا على اللوح الثاني من الوصايا العشر. ثم أجملها كلها في وصية واحدة: « أَحِبَّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ » (متى ١٩: ١٨، ١٩).

فأجابه الشاب قائلا بدون تردد: « هذِهِ كُلُّهَا حَفِظْتُهَا مُنْذُ حَدَاثَتِي. فَمَاذَا يُعْوِزُنِي بَعْدُ؟ » (متى ١٩: ٢٠). إنّ فهمهم للشريعة كان خارجيا وسطحيا. فمن وجهة نظر الحكم بالقياس البشري كان خلُقه نقيا لا شائبةَ فيه. وكانت حياته الخارجية خالية من الذنوب إلى حد كبير، وفي الواقع انّه ظن أنّ طاعته كانت بلا عيب. ومع ذلك فقد كان في قلبه خوف خفيّ من أنّ كل شيء لم يكن على ما يرام بينه وبين اللّه. هذا جعله يقدّم سؤاله القائل: «مَاذَا يُعْوِزُنِي بَعْدُ؟ »

فقال له المسيح: « إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ كَامِلاً فَاذْهَبْ وَبِعْ أَمْلاَكَكَ وَأَعْطِ الْفُقَرَاءَ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي [392] السَّمَاءِ، وَتَعَالَ اتْبَعْنِي. فَلَمَّا سَمِعَ الشَّابُّ الْكَلِمَةَ مَضَى حَزِينًا، لأَنَّهُ كَانَ ذَا أَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ » (متى ١٩: ٢١، ٢٢).

إنّ من يحب نفسه هو متعدّ على الشريعة. هذا ما أراد يسوع أن يعلنه للشاب فقدّم له امتحانا يمكن أن يكشف عن أنانية قلبه. فأراه مكان العيب في خلُقه. ولم يطلب الشاب أن يحصل على نور أكثر. لقد أقام في قرارة نفسه صنما يخرّ أمامه ساجدا. فقد كان العالم هوَ إلهه. لقد ادّعى أنّه قد حفظ

الوصايا، ولكنه كان يفتقر إلى المبدأ الذي هو روح وحياة كل الوصايا. فلم تكن في قلبه محبة صادقة للّه أو للإنسان. فالافتقار إلى هذا كان افتقارا إلى كل شيء يؤهله لدخول ملكوت السَّمَاوَات. فإذ كان محبا لذاته وللربح العالمي كان في حالة عدم توافق مع مبادئ السماء.

عندما أتى هذا الرئيس الشاب إلى يسوع استمال إخلاصه [393] وغيرته قلب المُخَلِّص إليه: « نَظَرَ إِلَيْهِ يَسُوعُ وَأَحَبَّهُ » (مرقس ١٠: ٢١). فقد رأي في هذا الشاب إنساناً يمكن أن يقدم خدمة ككارز للبر. كان يمكنه أن يقبل هذا الشاب الموهوب النبيل باستعداد كما قد قبل الصيادين المساكين الذين تبعوه. فلو أنّ الشاب كرّس موهبته لعمل خلاص النفوس لصار خادما للمسيح مجدّاً وناجحاً.

ولكن عليه أوّلا أن يقبل شروط التلمذة. عليه أن يسلّم نفسه للّه في غير تحفّظ. إنّ يوحنا وبطرس ومتى ورفقاءهم عندما سمعوا دعوة المُخَلِّص تركوا كل شيء وقاموا وتبعوه (لوقا ٥: ٢٨). ونفس هذا التكريس كان مطلوبا من الرئيس الشاب. وفي هذا لم يسأله الإقدام على تضحية أعظم مما فعل هو نفسه الذي « مِنْ أَجْلِكُمُ افْتَقَرَ وَهُوَ غَنِيٌّ، لِكَيْ تَسْتَغْنُوا أَنْتُمْ بِفَقْرِه » (٢كورنثوس ٨: ٩). لم يكنَ علىَ الشاب إلاّ أن يتبع المَسيح في الطريق الَذيَ أرشده.

نظر المسيح إلى الشاب واشتاق إلى نفسه. كان يتوق إلى أن يرسله كرسول بركة للناس. وفي مكان ما طلب منه المسيح أن يتنازل عنه قدّم له امتياز صحبته ومشاركته. قال له: « اتْبَعْنِي ». إنّ بطرس ويعقوب ويوحنا اعتبروا هذا الامتياز فرحا. والشاب نفسه نظر إلى المسيح بإعجاب، فقد انجذب قلبه إلى المُخَلِّص. إلاّ أنّه لم يكن مستعدا لقبول مبدأ التضحية الذي طلبه المُخَلِّص. لقد فضل غناه على يسوع. نعم انه كان يريد الحياة الأبدية ولكنه لم يرد أن يقبل في نفسه تلك المحبة الخالية من الأنانية التي هي وحدها الحياة، وبقلب حزين مضى تاركا المسيح.

فلما مضى الشاب قال يسوع: « مَا أَعْسَرَ دُخُولَ ذَوِي الأَمْوَالِ إِلَى مَلَكُوتِ اللّه » (مرقس ١٠: ٢٣). هذا الكلام أدهش [394] التلاميذ. فلقَد تعلّموا أَن ينظَروا إلى الأغنياء على أنهم محاسيب السماء، وكانوا هم أنفسهم يرجون أن يحصلوا على السلطان والغنى العالمي في ملكوت مسيّا، فاذا كان الأغنياء سيخيبون من دخول الملكوت فأي رجاء يبقى لباقي الناس؟

« فَأَجَابَ يَسُوعُ أَيْضًا وَقَالَ لَهُمْ: « يَا بَنِيَّ، مَا أَعْسَرَ دُخُولَ الْمُتَّكِلِينَ عَلَى الأَمْوَالِ إِلَى مَلَكُوتِ اللّهِ! مُرُورُ جَمَلٍ مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى

مَلَكُوت اللّٰه. فَبُهتُوا إِلَى الْغَايَة » (مرقس ١٠: ٢٤-٢٦). وها هم الآن يدركون أنّ ذلكَ الإنذار الخطير يشملهم هم أنفسهم. وفي نور أقوال المُخَلِّص انكشف شوقهم الخفي إلى السلطان والغنى. ففي شكهم من جهة أنفسهم تعجبوا قائلين: « فَمَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْلُصَ؟ » (مرقس ١٠: ٢٦).

« فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ يَسُوعُ وَقَالَ: عِنْدَ النَّاسِ غَيْرُ مُسْتَطَاعٍ، وَلكِنْ لَيْسَ عِنْدَ اللّٰهِ، لأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ عِنْدَ اللّٰهِ » (مرقس ١٠: ٢٧).

إنّ إنساناً غنيا كهذا لا يقدرَ أن يدخل السماء. فأمواله لا تعطيه حقا يؤهله لشركة ميراث القديسين في النور. إنما فقط بواسطة نعمة المسيح التي لا استحقاق لأحد فيها يتيح لأي إنسان أن يجد دخولا إلى مدينة اللّٰه.

إنّ كلام الرُّوح الْقُدُس موجّه إلى الغني كما إلى الفقير حين يقول: « إِنَّكُمْ لَسْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ، لأَنَّكُمْ قَد اشْتُرِيتُمْ بِثَمَن » (١كورنثوس ٦: ١٩، ٢٠). فعندما يؤمن الناس بهذا فإن أموالهم تكون بين أيديهم على أنها أمانة لتستخدم فيما يأمر به اللّٰه لأجل خلاص الهالكين وتعزية المتألمين والفقراء. هذا غير مستطاع عند الناس لأن القلب يتعلق بكنوزه الأرضية. فالنفس المقيّدة بخدمة المال آذانها صمّاء عن أن تسمع صرخة الحاجة الإنسانية. ولكن عند اللّٰه كلّ شيء مستطاع. فالقلب الأناني إذ ينظر إلى محبة المسيح الفريدة يلين ويخضع. وسيُقاد الإنسان الغني إلى أن يقول مع شاول الفريسي: « مَا كَانَ لِي رِبْحًا، [395] فَهذَا قَدْ حَسِبْتُهُ مِنْ أَجْلِ الْمَسِيحِ خَسَارَةً. بَلْ إِنِّي أَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ أَيْضًا خَسَارَةً مِنْ أَجْلِ فَضْلِ مَعْرِفَةِ الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّي » (فيلبي ٣: ٧، ٨). حينئذ لن يعتبروا شيئا ملكا لهم. وسيفرحون إذ يعتبرون ذواتهم كوكلاء على نعمة اللّٰه المتنوعة ولأجل اسمه يصيرون خداما لكل الناس.

وقد كان بطرس أوّل من استردّ قواه من الاقتناع الذي أحدثه كلام المُخَلِّص. ففكر برضى وارتياح فيما قد تركه هو وإخوته لأجل المسيح. ثم قال: ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك فإذ تذكّر وعد المسيح المشروط الذي قدمه للرئيس حين قال له: فيكون لك كنز في السماء سأل المسيح حينئذ عن ماذا سيكون له هو ورفاقه من جزاء لتضحياتهم.

فهزّ جواب المُخَلِّص أوتار قلوب صيادي الجليل أولئك. فقد صور لهم الأمجاد التي حقّقت أسمى أحلامهم إذ قال لهم: الحق أقول لكم إنكم انتم الذين تبعتموني في التجديد متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون انتم أيضا على اثني عشر كرسيا تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر ثم أضاف قوله:

« وَكُلُّ مَنْ تَرَكَ بُيُوتًا أَوْ إِخْوَةً أَوْ [396] أَخَوَات أَوْ أَبًا أَوْ أُمًّا أَو امْرَأَةً أَوْ أَوْلاَدًا أَوْ حُقُولاً مِنْ أَجْل اسْمِي، يَأْخُذُ مِئَةَ ضِعْف وَيَرِثُ الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ » (متى ١٩: ٢٧-٢٩).

إلاّ أَن سؤَال بطرس القائل: « مَاذَا يَكُونُ لَنَا؟ » (متى ١٩: ٢٧) كشف عن روح كانت كفيلة بأن تجعل التلاميذ غير مؤهلين لأن يكونوا رسل المسيح ما لم تُعالج تلك الروح وتُصلح، لأنها كانت روح الأجير. إنّ التلاميذ في حين أنّهم كانوا قد اجتُذبوا بمحبة يسوع لم يكونوا قد تحرروا تماما من الروح الفرّيسية. فقد كانوا يعملون بفكرة استحقاقهم للجزاء بنسبة تعبهم. لقد احتضنوا روح تمجيد النفس والرضى عن النفس وجعلوا يقارنون بين بعضهم البعض. وعندما كان أحدهم يفشل في أي شيء كان الآخرون يغرقون في مشاعر التفوق.

ولكن حتى لا تغيب عن عقول التلاميذ مبادئ الإنجيل أورد لهم المسيح مثلا فيه شرح لهم الكيفية التي بها يتعامل اللّه مع خدامه، والروح التي يريدهم أن يخدموه بها.

فقال لهم: « مَلَكُوتَ السَّمَاوَات يُشْبهُ رَجُلاً رَبَّ بَيْت خَرَجَ مَعَ الصُّبْحِ لِيَسْتَأْجِرَ فَعَلَةً لِكَرْمِه » (متى ٢٠: ١). كان من عادة منً يطلبون عملا أن ينتظرواَ في السوق حيث كان يذهب المؤجرة ليجدوا من يخدمون. إنّ الرجل المذكور في المثل مصوّر على انه خرج ساعات مختلفة بحثا عن فعلة. والذين استؤجروا في ساعات الصباح الباكرة اتفقوا على أن يعملوا مقابل اجر معلوم، أما الذين بدأوا في الشغل بعد ذلك فقد تركوا تقدير أجرهم لفطنة رب البيت

« فَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ قَالَ صَاحبُ الْكَرْمِ لوَكيله: ادْعُ الْفَعَلَةَ وَأَعْطهمُ الأُجْرَةَ مُبْتَدئًا منَ الآخرينَ إِلَى الأَوَّلينَ. فَجَاءَ أَصْحَابُ السَّاعَة الْحَاديَةَ عَشْرَةَ وَأَخَذُوا دينَارًا دينَارًا. فَلَمَّا جَاءَ الأَوَّلُونَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ أَكْثَرَ. فَأَخَذُوا هُمْ أَيْضًا دينَارًا دينَارًا » (متى ٢٠: ٨-١٠).

إنّ معاملة رب البيت للفعلة الذين اشتغلوا في [397] كرمه تمثل لنا معاملة اللّه للأسرة البشرية. فهي على نقيض العادات الشائعة بين الناس. ففي الأشغال العالمية تُعطى الأجرة على قدر ما أُنجز من العمل. فالعامل يتوقع أن يأخذ فقط أجرة عمله الذي يستحقه. ولكن المسيح في هذا المثل كان يشرح مبادئ ملكوته – الملكوت الذي ليس من هذا العالم. إنّه لا يخضع لأي مقياس بشري. فالرب يقول: « لأَنَّ أَفْكَاري لَيْسَتْ أَفْكَارَكُمْ، وَلاَ طُرُقُكُمْ طُرُقي ... لأَنَّهُ كَمَا عَلَت السَّمَاوَاتُ عَن الأَرْض، هكَذَا عَلَتْ طُرُقي عَنْ طُرُقكُمْ وَأَفْكَاري عَنْ أَفْكَارِكُمْ » (إِشَعْيَاء ٥٥: ٨، ٩).

في هذا المثل نجد أنّ الفعلة الأولين اتفقوا على أن يشتغلوا مقابل مبلغ متفق عليه وقد أخذوا ذلك المبلغ المخصص لا أكثر. أمّا الذين أُجّروا بعد ذلك فصدقوا وعد السيد حين قال له: « فَتَأْخُذُوا مَا يَحِقُّ لَكُمْ » (متى ٢٠: ٧). وقد برهنوا على ثقتهم فيه إذ لم يسألوه شيئا عن الأجرة. لقد وثقوا في عدالته وإنصافه. وقد كوفئوا لا على قدر كمية الشغل الذي قاموا به بل بحسب سخائه في قصده.

وهكذا اللّٰه يريدنا أن نثق بمن يبرر الفاجر. فهو يعطي الأجرة لا على قدر استحقاقنا بل على حسب قصده: « الَّذِي صَنَعَهُ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا » (أَفَسُس ٣: ١١)، « لاَ بِأَعْمَال فِي برّ عَمِلْنَاهَا نَحْنُ، بَلْ بِمُقْتَضَى رَحْمَته خَلَّصَنَا » (تيطُس ٣: ٥). وللذين يثقون به هو سيفعل « أَكْثَرَ جِدًّا مِمَّا نَطْلُبُ أَوْ نَفْتَكِرُ » (أَفَسُس ٣: ٢٠).

فالذي يجعل العمل ذا قيمة في نظر اللّٰه ليس هو كمية العمل الذي نقوم به أو نتائجه المنظورة بل هو الروح التي بها نعمل العمل. إنّ الذين أتوا إلى الكرم في الساعة الحادية عشرة كانوا شاكرين على الفرصة المقدمة لهم للعمل. وقد امتلأت قلوبهم امتنانا لمن قد قبلهم. وعندما أعطاهم ربّ البيت أجر عمل يوم كامل [398] اندهشوا جدّا. لقد عرفوا أنّهم لا يستحقون مثل ذلك الأجر. كما أنّ أمائر الحنان التي ارتسمت على وجه مستخدمهم ملأتهم فرحاً. إنّهم لم ينسوا قط صلاح رب البيت أو الأجر السخي الذي قد أخذوه وهكذا الحال مع الخاطئ الذي مع علمه بعدم استحقاقه دخل كرم السيد في الساعة الحادية عشرة. إنّ وقت خدمته قصير جدا بحيث لا يري نفسه مستحقّاً لأية أجرة، ولكن قلبه مفعم بالفرح لأنّ اللّٰه قد قبله. إنّه يخدم بروح متواضعة واثقة، وهو شاكر على امتياز حسبانه شريكا للمسيح في عملهً. واللّٰه يسر بأن يكرم هذه الروح.

إنّ الرب يريدنا أن نستريح فيه بدون سؤال عن مقدار أجرتنا. وعندما يسكن المسيح في النفس فإنّ فكرة الأجر لن تكون أهم مطلب. فهذا ليس الباعث الذي يحرّكنا للخدمة. نعم إننا بمعنى ثانوي علينا أن نحترم تعويض الأجرة. فاللّٰه يريدنا أن نقدر البركات التي وعدنا بها. ولكنه لا يريدنا أن نكون مشتاقين إلى أجورنا ولا أن نحس أننا يجب أن نأخذ تعويضا عن كل واجب نؤديه.

وينبغي ألاّ تكون رغبتنا في الحصول [399] على الأجر قدر رغبتنا في عمل الحق بغض النظر عن الربح. فيجب أن يكون باعثنا هو المحبة للّه ولبعضنا البعض.

ولكن هذا المثل لا يتسامح مع من يسمعون الدعوة الأولى ولكنهم يهملون الدخول في كرم الرب. فعندما ذهب رب البيت إلى السوق في الساعة الحادية عشرة ووجد رجالا بطالين قال لهم: لماذا وقفتم ههنا كل النهار بطالين فقالوا له : « لأَنَّهُ لَمْ يَسْتَأْجِرْنَا أَحَدٌ » (متى ٢٠: ٦، ٧). إنّه ولا واحد ممّن دُعوا في أواخر النهار كان موجودا في الصباح. فلم يسبق لهم أن رفضوا الدعوة. فالذين يرفضون وبعد ذلك يندمون يفعلون حسنا إذ يندمون، ولكن لا أمان لمن يستخفّ بدعوة الرحمة الأولى.

وعندما أخذ الفعلة الذين عملوا في الكرم « دِينَارًا دِينَارًا » (متى ٢٠: ٩، ١٠) فالذين بدأوا العمل باكرا في النهار استاءوا. ألم يشتغلوا اثنتي عشرة ساعة؟ هكذا تساءلوا، أو ليس من العدل أن يأخذوا أجرا أكثر ممن اشتغلوا ساعة واحدة في الوقت الذي فيه خفت الحرارة؟ فقالوا: « هؤُلاَءِ الآخِرُونَ عَمِلُوا سَاعَةً وَاحِدَةً، وَقَدْ سَاوَيْتَهُمْ بِنَا نَحْنُ الَّذِينَ احْتَمَلْنَا ثِقَلَ النَّهَارِ وَالْحَرَّ» (متى ٢٠: ١٢).

فقال رب البيت لواحد منهم: « يَا صَاحِبُ، مَا ظَلَمْتُكَ! أَمَا اتَّفَقْتَ مَعِي عَلَى دِينَارٍ؟ فَخُذِ الَّذِي لَكَ وَاذْهَبْ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُعْطِيَ هذَا الأَخِيرَ مِثْلَكَ. أَوَ مَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَفْعَلَ مَا أُرِيدُ بِمَا لِي؟ أَمْ عَيْنُكَ شِرِّيرَةٌ لأَنِّي أَنَا صَالِحٌ؟ »

« هكَذَا يَكُونُ الآخِرُونَ أَوَّلِينَ وَالأَوَّلُونَ آخِرِينَ، لأَنَّ كَثِيرِينَ يُدْعَوْنَ وَقَلِيلِينَ يُنْتَخَبُونَ » (متى ٢٠: ١٣-١٦).

إنّ الفعلة الأولين المذكورين في المثل يمثلون من يدّعون الأفضلية على غيرهم بسبب خدماتهم. إنّهم يشرعون في العمل بروح فيها يهنئون أنفسهم ولكنهم لا يدخلون في العمل روح إنكار الذات والتضحية. ربما يَّدعون أنّهم قد خدموا اللّه مدى حياتهم. وقد يكونون [400] في مقدمة من احتملوا المشقات والعوز والتجارب ولذلك يظنّون أنفسهم مستحقين لأجر كبير. إنّهم يفكرون في الأجرة أكثر من تفكيرهم في امتياز كونهم خداما للمسيح. وهم يفكرون في أن تعبهم وتضحياتهم تؤهلهم للحصول على كرامة أكثر من غيرهم. ولكون هذا الادّعاء غير مُعترَف به يغضبون. فلو أدخلوا في عملهم روحاً محبةً واثقةً لكانوا يظلون في المقدمة. ولكن ميلهم إلى المشاكسة

والتشكّي لا يمتّ إلى المسيحية بصلة ويبرهن على أنّهم غير أهل للثقة. وهذا يكشف عن رغبتهم في أن يكونوا متقدمين، وعلى عدم ثقتهم باللّه، وروحهم الحسود الحقود على إخوتهم. إنّ صلاح الرب وكرمه هو بالنسبة إليهم فرصة للتذمر. وبهذا يبرهنون على أنّه لا توجد صلة بين نفوسهم وبين اللّه. وهم لا يعرفون فرح التعاون مع الخادم الأعظم.

لا يوجد شيء يكرهه اللّه أكثر من هذه الروح المتزمتة التي لا تكترث لغير نفسها. وهو لا يمكنه أن يعمل أو يتعاون مع أي إنسان تبدو منه هذه الصفات. فهو لا يحسّ بعمل روح اللّه.

لقد كان اليهود أول من دُعوا إلى كرم الرب ولهذا كانوا متكبرين وأبرار في أعين أنفسهم. وقد اعتبروا أنّ سني خدمتهم الطويلة تؤهلهم للحصول على أجر أكثر من غيرهم ولم يكن ما يثيرهم قدر إبلاغهم بأنّ الأمم سيسمح لهم بالحصول على امتيازات تساوي امتيازاتهم في أمور اللّه.

وقد حذر المسيح التلاميذ الذين كانوا أول من دعاهم ليتبعوه لئلا يُبقوا على نفس ذلك الشرّ فيما بينهم. وقد رأى أنّ الضعف الذي هو لعنة الكنيسة هو روح البرّ الذاتي فالناس يظنون أنّه يمكنهم أن يفعلوا شيئا به يستحقون مكاناً في ملكوت السَّمَاوَات. وقد يتصورون أنّهم عندما يحرزون بعض التقدم فالرب سيتقدم [401] لمعونتهم. وهكذا يكون الجانب الأكبر من الثقة في الذات والجانب الأصغر في يسوع. وكثيرون ممن قد أحرزوا قليلا من النجاح قد ينتفخون ويظنون أنفسهم أفضل من غيرهم. وقد يتوقون إلى التملق ويأكل الحسد قلوبهم إذا لم يفتكر الناس فيهم أنّهم أهمّ بكثير من غيرهم. والمسيح يحاول أن يحمي تلاميذه من هذا الخطر.

إنّه لا يوجد مجال لأن نفتخر باستحقاق في ذواتنا: « لاَ يَفْتَخِرَنَّ الْحَكِيمُ بِحِكْمَتِه، وَلاَ يَفْتَخِرِ الْجَبَّارُ بِجَبَرُوتِه، وَلاَ يَفْتَخِرِ الْغَنِيُّ بِغِنَاهُ. بَلْ بِهذَا لِيَفْتَخِرَنَّ الْمُفْتَخِرُ: بِأَنَّهُ يَفْهَمُ وَيَعْرِفُنِي أَنِّي أَنَا الرَّبُّ الصَّانِعُ رَحْمَةً وَقَضَاءً وَعَدْلاً فِي الأَرْضِ، لأَنِّي بِهذِهِ أُسَرُّ، يَقُولُ الرَّبُّ » (إِرْمِيَا ٩: ٢٣، ٢٤).

والأجرة ليست من الأعمال كي لا يفتخر آخر بل الكلّ من النعمة: « فَمَاذَا نَقُولُ إِنَّ أَبَانَا إِبْرَاهِيمَ قَدْ وَجَدَ حَسَبَ الْجَسَدِ؟ لأَنَّهُ إِنْ كَانَ إِبْرَاهِيمُ قَدْ تَبَرَّرَ بِالأَعْمَالِ فَلَهُ فَخْرٌ، وَلكِنْ لَيْسَ لَدَى اللّهِ. لأَنَّهُ مَاذَا يَقُولُ الْكِتَابُ؟

« فَآمَنَ إِبْرَاهِيمُ بِاللّٰه فَحُسِبَ لَهُ بِرًّا. أَمَّا الَّذِي يَعْمَلُ فَلاَ تُحْسَبُ لَهُ الأُجْرَةُ عَلَى سَبِيل نِعْمَةَ، بَلْ عَلَى سَبِيل دَيْن. وَأَمَّا الَّذِي لاَ يَعْمَلُ، وَلكِنْ يُؤْمِنُ بِالَّذِي يُبَرِّرُ الْفَاجِرَ، فَإِيمَانُهُ يُحْسَبُ لَهُ بِرًّا » (رومية ٤: ١-٥). لذلك لا مجال لأن يفتخر أحد على [402] آخر أو يحقد على آخر. لا يوجد أحدٌ مفضّل على آخر ولا لأحد أن يدّعي أن الأجرة هي من حقه.

فالأولون والآخرون سيكون لهم نصيب في الأجرة العظيمة الأبدية، ويجب على الأولين أن يرحبوا بالآخرين بسرور. فالذي يحقد على الآخر لحصوله على الأجرة ينسى انه هو نفسه مخلص بالنعمة وحدها. أن مثل الفعلة توبيخ لكلّ حسد وشكّ. إن المحبة تفرح بالحق ولا تقرّ أية مفارقات حسودة. إنّ من عنده محبة يقارن فقط بين جمال المسيح وبين نقص أخلاقه هو.

هذا المثل هو إنذار لكل الخدام مهما طالت خدمتهم ومهما كثر عملهم وتعبهم، حتى أنّهم إذا لم يكونوا محبين لإخوتهم وليسوا متواضعين أمام اللّٰه فليسوا شيئا. ليس هنالك دين في تربّع الذات على العرش. فالذي يجعل تمجيد الذات هدفه يجد انّه مجرّد من تلك النعمة التي تستطيع وحدها أن تجعله كفوءا في خدمة المسيح. فكلما انغمس الإنسان في الكبرياء والرضى بالذات يُفسد العمل.

إنّ ما يجعل خدمتنا مقبولة لدى اللّٰه ليس هو طول مدة الخدمة بل هو استعدادنا للقيام بها عن طيب خاطر وولاؤنا. ففي كل خدمتنا يطلب منا تسليم الذات تسليما كاملاً. إنّ أصغر واجب نؤديه بروح الإخلاص ونسيان الذات هو مرضيّ أكثر لدى اللّٰه من أعظم عمل يفسده طلب ما للذات. إنّه ينظر ليرى مقدار ما فينا من روح المسيح ومقدار ما يظهر عملنا من صورة المسيح. إنّه يعتبر المحبة والأمانة اللتين بهما تعمل أكثر من كمية العمل الذي ننجزه

إنّما فقط عندما نُميت الأنانية، وعندما نقضي على التنازع لأجل السلطة والسيادة، وعندما يمتلئ القلب بروح الشكر وعندما تُعطّر المحبة الحياة – حينئذ فقط يكون المسيح ساكنا في النفس ويُعتَرَفُ بأننا عاملون مع اللّٰه

إنّ الخدام الأمناء لا يعتبرون خدمتهم عناء مهما تكن شاقة أو مضنية. فهم مستعدون لأن ينفقوا [403] وينفقوا، ولكنّه عمل مسرّ يُعمَل بقلوب فرحة. فهم يُعبّرون عن فرحهم باللّٰه بيسوع المسيح. فسرورهم هو السرور

الموضوع أمام المسيح – « أَنْ أَعْمَلَ مَشِيئَةَ الَّذِي أَرْسَلَنِي وَأُتَمِّمَ عَمَلَهُ » (يوحنا ٤: ٣٤). فهم متعاونون مع رب المجد. هذا الفكر يجعل كل تعب حلواً ويشدّد الإرادة ويقوّي الروح لمواجهة كل ما يصيبنا. إنّهم إذ يخدمون بقلوب خالية من الأنانية، وقد سمت لأنهم شركاء المسيح في آلامه، وشركاءه في عواطفه وإذ يتعاونون معه في عمله فإنّهم يساعدون في بهجة قلبه وتقديم الكرامة والحمد لاسمه الممجد.

هذه هي روح كل خدمة أمينة تقدم للّٰه. وبسبب انعدام هذه الروح كثيرون ممّن يبدو أنّهم أولون يصيرون آخرين، في حين أنّ من عندهم هذه الروح مع أنّهم يحسبون آخرين يصيرون أولين.

يوجد كثيرون ممّن قد سلّموا ذواتهم للمسيح، ومع ذلك لا يجدون فرصة فيها يعملون عملا عظيما أو يُقدمون على تضحيات عظيمة في خدمته. أمثال هؤلاء يمكنهم أن يجدوا لأنفسهم العزاء في الفكر بأنّ تسليم الشهيد لا يجعله بالضرورة أكثر قبولا لدى اللّٰه. فقد لا يكون المرسل الذي يواجه الخطر والموت كل يوم هو الأرفع منزلة في أسفار السماء. فالمسيحي الذي هو هكذا في حياته الخاصة في تسليمه لذاته كل يوم، وفي خلوص قصده وطهارة فكره، وفي وداعته أمام الإثارة، وفي الإيمان والتقوى، وفي أمانته في القليل، والذي في حياته البيتية يمثل صفات المسيح – مثل هذا قد يكون أعظم في نظر اللّٰه من أشهر مرسلي العالم وشهدائه.

ما أبعد الفرق بين مقاييس اللّٰه ومقاييس الناس للخلُق. فاللّٰه يري تجارب كثيرة وجدت مقاومة ولم يعرف عنها العالم ولا حتى الأصدقاء الأقربون شيئاً – تجارب في البيت وفي القلب. وهو يري وداعة النفس أمام ضعفها، [404] والتوبة الخالصة حتى عن فكر واحد شرّير. كما يرى التكريس القلبي لخدمته. وقد لاحظ ساعات الصراع المرير القاسي مع الذات – الصراع الذي كُلّل بالنصرة. كل هذا يعرفه اللّٰه والملائكة. يوجد سفر تذكرة مكتوب أمامه للذين اتّقوا الرب وللمفكرين في اسمه.

إنّ سرّ النجاح لا يوجد في علومنا أو مركزنا، لا في كثرة عددنا أو الوزنات المودعة بين أيدينا، ولا في مشيئة إنسان. فإذ نحسّ بعدم كفايتنا وعجزنا علينا أن نفكر في المسيح، وفيه الذي هو قوة كل قوة، وفكر كل فكر يحرز المستعدون والمطيعون نصرة بعد نصرة.

ومهما تكن خدمتنا قصيرة أو عملنا متواضعاً، فإذا اتبعنا المسيح بإيمان بسيط فلن نخيب من الأجرة. فما لا يستطيع حتى أعظم الناس أو أحكمهم أن يستحقّوه يمكن لأضعف الناس وأحقرهم أن ينالوه. إنّ باب السماء الذهبي لا يُفتح لمن يمجدون ذواتهم، ولا تُرفع أرتاجه للمتكبّري الروح. ولكن الأبواب الدهرية تفتح على رحبها أمام اللمسة المرتعشة من طفل صغير. وسيكون ثواب النعمة مباركا لمن قد خدموا اللّه في بساطة الإيمان والمحبة. [405]

٢٩

« لِلِقَـاء العَـريس »

(يعتمد هذا الفصل على ما جاء في متى ٢٥: ١-١٣).

ها هو المسيح جالس مع تلاميذه فوق جبل الزيتون وقد غابت الشمس خلف الجبال فالتحفت السَّمَاوَات بغلاف من ظلال المساء. وأمامهم تماما بيت أضيئت فيه الأرض متألقة كما لو أن هناك احتفالا مبهجاً. والنور ينبثق من النوافذ، وهناك جماعة منتظرة حول الباب مما يدل على قرب ظهور موكب عرس. ففي كثير من بلدان الشرق تقام حفلات الأعراس في وقت المساء. والعريس يخرج لملاقاة عروسه والإتيان بها إلى بيته. والجماعة المرافقة للعروس تسير على نور المشاعل متقدمة من بيت أبيها إلى بيت العريس حيث تقام وليمة للضيوف المدعوين. وفي المشهد الذي يراه المسيح توجد جماعة منتظرة ظهور موكب العرس على نيّة الانضمام إلى الموكب.

وبالقرب من بيت العروس تقف عشر عذارى متسربلات بالحلل البيضاء. وكل منهنّ تحمل مصباحا منيرا أو آنية صغيرة للزيت. وكلّهن ينتظرون ظهور [406] العريس بشوق. ولكنّ العريس يتأخّر. تمرّ ساعة بعد ساعة. فتنام العذارى المنتظرات وينمن. وفي نصف الليل يُسمع صراخ يقول: « هُوَذَا

الْعَرِيسُ مُقْبِلٌ، فَاخْرُجْنَ للِقَائِه » (متى ٢٥: ٦). فإذ تصحو العذارى النائمات فجأة ينهضنَ على أقدامهنَ. إنَّهن يرين الموكب سائرا وقد أشرقت فيه الأنوار وصدحت الموسيقى. وها هنّ يسمعن صوت العريس وصوت العروس. فتمسك العذارى العشر مصابيحهن ويصلحنها ليخرجن سريعا. ولكن خمسا منهن أهملن أن يملأن آنيتهن زيتا. إنّهن لم يكنّ يحسبن حساب هذا التأخّر الطويل فلم يتأهّبن لذلك الطارئ. ففي كربهنّ لجأن إلى رفيقاتهن الحكيمات قائلات: « أَعْطِينَنَا منْ زَيْتِكُنَّ فَإِنَّ مَصَابِيحَنَا تَنْطَفِئُ » (متى ٢٥: ٨). أمّا الخمس العذارى المنتظرات فكن قد أفرغن الزيت من آنيتهن بعدما أصلحن مصابيحهن. فلم يتبقَ معهن زيت ولذلك يُجبن صواحبهن قائلات: « لَعَلَّهُ لاَ يَكْفِي لَنَا وَلَكُنَّ، بَل اذْهَبْنَ إِلَى الْبَاعَة وَابْتَعْنَ لَكُنَّ » (متى ٢٥: ٩).

وفيما هنّ ذاهبات ليبتَعْن تقدمَ الموكب أما هنّ فتخلّفن أما الخمس العذارى ذوات المصابيح المضاءة فانضممن إلى الموكب ودخلن البيت مع موكب الفرح وأُغلق الباب. وعندما وصلت العذارى الجاهلات إلى بيت الوليمة لم يُسمح لهن بالدخول على عكس ما كنّ يتوقعن. فقد أعلن صاحب الوليمة قائلا لهنّ: ما أعرفكنّ. فتُركن واقفاتٍ خارجا في الشارع الخالي من المارة وفي ظلمة الليل الداجية.

فإذ جلس المسيح ليرى تلك الجماعة المنتظرة قدوم العريس أخبر تلاميذه بقصّة العذارى العشر، وباختبارهنّ شرحن اختبار الكنيسة التي ستعيش قبيل مجيئه الثاني.

إنّ الفريقين المنتظرين يمثّلان الفريقين اللذين سيعترفان بأنهما ينتظران السيد. إنّهما يُسمّيان عذارى لأنهما يعترفان باعتناق الإيمان النقي. والمصابيح ترمز إلى كلمة اللّه. فالمرنم يقول: « سِرَاجٌ لرِجْلِي كَلاَمُكَ وَنُورٌ لسَبِيلِي » [407] (مزمور ١١٩: ١٠٥). والزيت رمز إلى الرُّوحِ الْقُدُس. وهكذا نجد أن الروح يُرمز إليه في نبوة زكريا بالقول: « فَرَجَعَ الْمَلاَكُ الَّذي كَلَّمَني وَأَيْقَظَني كَرَجُل أُوقظَ منْ نَوْمه. وَقَالَ لي: مَاذَا تَرَى؟ فَقُلْتُ: قَدْ نَظَرْتُ وَإِذَا بمَنَارَة كُلُّهَا ذَهَبٌ، وَكُوزُهَا عَلَى رَأْسهَا، وَسَبْعَةُ سُرُج عَلَيْهَا، وَسَبْعُ أَنَابيبَ للسُّرُجِ الَّتي عَلَى رَأْسهَا. وَعنْدَهَا زَيْتُونَتَان، إحْدَاهُمَا عَنْ يَمين الْكُوز، وَالأُخْرَى عَنْ يَسَاره. فَأَجَبْتُ وَقُلْتُ للْمَلاَك الَّذي كَلَّمَني قَائلاً: مَا هذه يَا سَيِّدي؟ ... فَأَجَابَ

وَكَلَّمَني قَائلاً: هذه كَلِمَةُ الرَّبِّ إِلَى زَرُبَّابِلَ قَائلاً: لاَ بالْقُدْرَة وَلاَ بالْقُوَّة، بَلْ بِرُوحِي قَالَ رَبُّ الْجُنُود... وَأَجَبْتُ ثَانِيَةً وَقُلْتُ لَهُ: مَا فَرْعَا الزَّيْتُون اللَّذَان [408] بِجَانِب الأَنَابِيب منْ ذَهَب، الْمُفْرِغَان منْ أَنْفُسهمَا الذَّهَبيَّ؟ ... فَقَالَ: هَاتَان هُمَا ابْنَا الزَّيْت الْوَاقفَان عنْدَ سَيِّد الأَرْض كُلِّهَا » (زكريا ٤: ١-١٤).

لقد أفرغ الزيت الذهبي من الزيتونتين في الأنابيب الذهبية ليصب في طاس المنارة ومنها إلى المصابيح الذهبية التي أنارت القدس. وهكذا بواسطة القديسين الواقفين في حضرته يعطى اللّٰه روحه للأداة البشرية المكرسة لخدمته. إن رسالة الممسوحين هي أن يوصلا إلى شعب اللّٰه تلك النعمة السماوية التي تستطيع وحدها أن تجعل كلمته سراجاً ونوراً لسبلنا: « لاَ بالْقُدْرَة وَلاَ بالْقُوَّة، بَلْ بِرُوحِي قَالَ رَبُّ الْجُنُود » (زكريا ٤: ٦).

إننا نجد في المثل أنّ العذارى العشر جميعهن خرجن للقاء العريس. وكانت معهن جميعاً المصابيح وأواني الزيت. وقد ظللن بعض الوقت وكأن لا فرق بينهن. وكذلك ستكون الحال مع الكنيسة التي ستكون موجودة قبيل المجيء الثاني للمسيح مباشرة. فالجميع يعرفون الكتب. وقد سمع الجميع الرسالة المنبئة بقرب مجيء المسيح وهم ينتظرون ظهوره بثقة. ولكن كما في المثل كذلك الحال الآن. فان فترة انتظار ستتوسط في ذلك الوقت ويُجرَّب الإيمان، وعندما يسمع الصراخ القائل: « هُوَذَا الْعَرِيسُ مُقْبِلٌ، فَاخْرُجْنَ للِقَائه » سيكون كثيرون غير مستعدين. إذ لا يوجد زيت في آنيتهم مع مصابيحهم. إنَّهم محرومون من الرُّوح الْقُدُس.

إنّ معرفة كلمة اللّٰه بدون روحه لا جدوى منها. ونظرية الحق ما لم يصحبها الرُّوح الْقُدُس لا يمكنها أن تحيي النفس أو تقدس القلب. قد يكون الإنسان على علم ودراية بأوامر الكتاب المُقَدَّس ومواعيده ولكن ما لم يعمّق روح اللّٰه الحق في القلب فلن تتغير الأخلاق. وبدون إنارة الروح لن يستطيع الناس أن [411] يميزوا الحق من الضلال فيسقطون في تجارب الشيطان البارعة.

إنّ الفريق الذي ترمز إليه العذارى الجاهلات ليسوا مرائين. فهم يقدرون الحق وقد دافعوا عن الحق وهم يميلون إلى من يؤمنون بالحق، لكنهم لم يخضعوا ذواتهم لعمل الروح. إنّهم لم يسقطوا على الصخرة، المسيح يسوع ولم يسمحوا لطبيعتهم القديمة أن تنكسر. وهذا الفريق يرمز إليهم أيضاً السامعون الذين تُشبه

قلوبهم الأرض المحجرة. إنّهم يقبلون الكلمة حالا ولكنّهم لا يستوعبون مبادئها. فتأثير الكلمة لا يدوم. إنّ الروح يعمل في قلب الإنسان بحسب رغبة الإنسان ورضاه غارساً فيه طبيعة جديدة. ولكنّ أفراد الفريق الذين ترمز إليهم العذارى الجاهلات اقتنعوا بعمل سطحي. إنّهم لا يعرفون اللّه، إنّهم لم يتأملوا في صفاته ولا كانت لهم شركة معه، ولذلك فهم لا يعرفون كيف يثقون، ولا كيف ينظرون إليه ويحيون. إن خدمتهم للّه تنحط بحيث تصير أمراً شكلياً « يَأْتُونَ إِلَيْكَ كَمَا يَأْتِي الشَّعْبُ، وَيَجْلِسُونَ أَمَامَكَ كَشَعْبِي، وَيَسْمَعُونَ كَلاَمَكَ وَلاَ يَعْمَلُونَ به، لأَنَّهُمْ بِأَفْوَاههِمْ يُظْهِرُونَ أَشْوَاقًا وَقَلْبُهُمْ ذَاهِبٌ وَرَاءَ كَسْبِهِمْ » (حزْقِيَال ٣٣: ٣١). والرسول بولس يشير إلى أن هذا سيكون هو الصفة المميزة لمن يعيشون قبيل المجيء الثاني للمسيح. فيقول: « إِنَّهُ فِي الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ سَتَأْتِي أَزْمِنَةٌ صَعْبَةٌ، لأَنَّ النَّاسَ يَكُونُونَ مُحِبِّينَ لأَنْفُسِهِمْ ... مُحِبِّينَ لِلَّذَّاتِ دُونَ مَحَبَّةٍ لِلّٰهِ، لَهُمْ صُورَةُ التَّقْوَى، وَلكِنَّهُمْ مُنْكِرُونَ قُوَّتَهَا » (٢تيموثاوس ٣: ١-٥).

هؤلاء هم الجماعة الذين في وقت الخطر يقولون سلام وأمان. إنّهم يسكنون قلوبهم لتشعر بالطمأنينة ولا يحلمون بأي خطر. وعندما يجفلون من سباتهم يستعيبون عوزهم ويتوسّلون إلى الآخرين ليسدوا تلك الحاجة، ولكن في الشؤون الروحية لا يمكن لإنسان إنّ يسد [412] نقص إنسان آخر. إنّ نعمة اللّه قد قُدّمت مجاناً لكل نفس. وقد أذيعت بشرى الإنجيل تقول: « مَنْ يَعْطَشْ فَلْيَأْتِ. وَمَنْ يُرِدْ فَلْيَأْخُذْ مَاءَ حَيَاةٍ مَجَّانًا » (رؤيا ٢٢: ١٧) ولكن الخلُق لا يمكن نقله أو إعارته. فلا يمكن أن يؤمن إنسانٌ لإنسان آخر، ولا يمكن لواحد أن يقبل الروح نيابة عن آخر. ولا يستطيع إنسان أن يُعطي لآخر الخلُق الذي هو ثمرة عمل الروح في قلبه: « وفى وسطها (وسط الأرض) نوح ودانيال وأيوب فحيّ أنا يقول السيد الرب أنّهم لا يخلّصون ابناً ولا ابنةً. إنّما يخلّصون أنفسهم ببرّهم » (حزْقِيَال ١٤: ٢٠).

الخلُق يظهر في الأزمات. فعندما أعلن الصوت الغيور في نصف الليل قائلاً: « هُوَذَا الْعَرِيسُ مُقْبِلٌ، فَاخْرُجْنَ للقَائه » واستيقظت العذارى النائمات من نومهن رُؤيَ من هنّ اللائي أعددن العدة لذلك الحادث. لقد أُخذ كلا الفريقين على غرّة، ولكن فريقاً منهما كان متأهباً لمواجهة ذلك الظرف الطارئ، بينما الفريق الآخر كان على غير استعداد. هكذا الآن فإنّ بليّة مفاجئة غير متوقعة، وشيئاً يوقف النفس وجهاً لوجه أمام الموت سيَرى ما إذا كان هنالك

إيمان حقيقي بمواعيد اللّٰه. وهذه البلية ستبرهن ما إذا كانت النفس مدعمة بالنعمة. إنّ الامتحان الأخير العظيم يأتي في نهاية فرصة الإمهال المقدمة للناس عندما يكون قد مضى الوقت الذي فيه تُسدّ حاجة النفس.

إنّ العذارى العشر ساهراتٍ في مساء تاريخ العالم هذا. والجميع يدّعون أنّهم مسيحيون. والجميع لهم دعوةٌ واسم ومصباح، والجميع يعترفون بأنّهم يعملون خدمة اللّٰه. والجميع يبدو عليهم أنّهم ينتظرون مجيء المسيح. ولكن خمساً غيرُ مستعدات، خمساً سيجدن أنفسهن مندهشات بئسات خارج بيت الوليمة.

وفى اليوم الأخير سيَدّعي كثيرون أنّ لهم الحقَ في دخول ملكوت المسيح إذ يقولون: « أَكَلْنَا قُدَّامَكَ وَشَرِبْنَا، وَعَلَّمْتَ فِي شَوَارِعِنَا »، يَا رَبُّ، يَا رَبُّ! [413] أَلَيْسَ بِاسْمِكَ تَنَبَّأْنَا، وَبِاسْمِكَ أَخْرَجْنَا شَيَاطِينَ، وَبِاسْمِكَ صَنَعْنَا قُوَّاتٍ كَثِيرَةً؟ » فيأتي الجواب: « أَقُولُ لَكُمْ: لاَ أَعْرِفُكُمْ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ، تَبَاعَدُوا عَنِّي » (لوقا ١٣: ٢٦، ٢٧؛ متى ٧: ٢٢). إنّهم لم يعاشروا المَسيح في هذه الحياة، ولذلك فهم لا يعرفون لغة السماء وهم غرباء عن أفراحها: « لأَنْ مَنْ مِنَ النَّاسِ يَعْرِفُ أُمُورَ الإِنْسَانِ إِلاَّ رُوحُ الإِنْسَانِ الَّذِي فِيهِ؟ هكَذَا أَيْضًا أُمُورُ اللّٰهِ لاَ يَعْرِفُهَا أَحَدٌ إِلاَّ رُوحُ اللّٰهِ » (١ كورنثوس ٢: ١١).

إنّ أعظم الأقوال حزناً سمعتها أذنُ إنسان هي كلمات الدينونة هذه القائلة: « لا أعرفكن ». إنّ شركة الروح التي قد ازدريتم بها هي دون سواها التي كان يمكنها أن تجعلكم متّحدين مع ذلك الجمع الفرح في وليمة العرس. ولكنكم لا تستطيعون الاشتراك في ذلك المشهد. فنوره يقع على عيونكم العمياء وآذانكم الصمّاء لا تسمع أنغامه. ومحبة تلك الوليمة وفرحها لا يمكنها أن توقظ أوتار الفرح في قلب خدّره العالم. فأنتم تُمنعون من الدخول إلى السماء لأنكم غير مؤهلين لمعاشرة سكانها.

ونحن لا يمكننا أن نكون مستعدين لملاقاة الرب إذا كنا لا نستيقظ إلا عند [414] سماع صوت الصراخ القائل: « هُوَذَا الْعَرِيسُ مُقْبِلٌ » وحينئذ نجمع مصابيحنا الفارغة لكي تُملأ ثانية. ولا نستطيع أن نُبقيَ المسيح بعيداً عن حياتنا هنا ومع ذلك نكون مؤهلين لمعاشرته في السماء.

أنّنا نجد في المثل أنّ العذارى الحكيمات أخذن زيتاً في آنيتهنّ مع مصابيحهنّ. وقد تألق نورهنّ بلهيب لامع في ليل الانتظار. وهذا زاد من الإنارة لإكرام العريس. فإذ أشرق النور في تلك الظلمة فقد أعان على إنارة الطريق لبيت العريس وإلى وليمة العرس.

وكذلك يجب على تلاميذ المسيح أن يشرقوا بنورهم في ظلمة العالم. فبواسطة الرُّوح الْقُدُس تصير كلمة اللّه نوراً إذ تصير قوّةً مجددةً لحياة من يقبلها. إنّ الرُّوح الْقُدُس إذ يغرسُ في قلوب الناس مبادئ كلمته فهو ينمّي فيهم صفات اللّه. فيجب أنّ نور مجده – أي صفاته – يضيء في حياة تابعيه. وهكذا عليهم أن يمجدوا اللّه، وأن ينيروا الطريق إلى بيت العريس، إلى مدينة اللّه، إلى عشاء عرس الحمل.

وفى نصف الليل جاء العريس – أي في أظلم ساعات الليل. وهكذا سيجيء المسيح في أظلم فترة من تاريخ هذه الأرض. إنّ أيام نوح وأيام لوط تصوّر لنا حالة العالم قبيل مجيء ابن الإنسان. والكتب المقدسة إذ تشير إلى الأمام إلى هذا الوقت تعلن أن الشيطان سيعمل بكل قوة و « بِكُلِّ خَدِيعَةِ الإِثْمِ » (٢تيموثاوس ٢: ٩، ١٠). إنّ عمله يظهر بوضوح بواسطة الظلمة المنتشرة بسرعة والضلالات الكثيرة والهرطقات ومخادعات هذه الأيام الأخيرة. إنّ الشيطان ليس فقط دائباً على أن يأسر العالم بل إنّ غواياته تخمّر الكنائس المعترفة بربنا يسوع المسيح. وسيتطور الارتداد العظيم حتى يصير ظلمة داجية كظلمة منتصف الليل لا يمكن اختراقها كمسح من الشعر. وبالنسبة إلى شعب اللّه [415] فسيكون ليل التجارب، ليل البكاء، ليل الاضطهاد لأجل الحقّ. ولكن من ليل الظلام ذاك سيضيء نور اللّه.

« يُشْرِقَ نُورٌ مِنْ ظُلْمَة » (٢كورنثوس ٤: ٦). فحين « كَانَت الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ » كان « رُوحُ اللّه يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاه. وَقَالَ اللّهُ: لِيَكُنْ نُورٌ، فَكَانَ نُورٌ » (تكوين ١: ٢، ٣). وكذلك في ليل الظلمة الروحية تخرج كلمة اللّه قائلة: « لِيَكُنْ نُورٌ » ثم يقول لشعبه: « قُومِي اسْتَنِيرِي لأَنَّهُ قَدْ جَاءَ نُورُك، وَمَجْدُ الرَّبِّ أَشْرَقَ عَلَيْك » (إِشَعْيَاء ٦٠: ١).

والكتاب يقول: « لأَنَّهُ هَا هِيَ الظُّلْمَةُ تُغَطِّي الأَرْضَ وَالظَّلاَمُ الدَّامِسُ الأُمَمَ. أَمَّا عَلَيْك فَيُشْرِقُ الرَّبُّ، وَمَجْدُهُ عَلَيْك يُرَى » (إِشَعْيَاء ٦٠: ٢).

إنّ الظلمة التي تكتنف العالم هي ظلمةَ سوء إدراك الناس للّه. فالناس يضيّعون معرفتهم لصفاته. لقد أُسيء فهمها وحُرّفت. ففي هذا الوقت ستعلن رسالة من اللّه. رسالة منيرة بتأثيرها ومخلصة بقوّتها. فيجب أن تعرف صفاتُه. فسيخترق ظلام العالم نور مجده ونور صلاحه ورحمته وحقه.

هذا هو العمل الذي يلخّصه إِشَعْيَاء النبي في قوله: « ارْفَعِي صَوْتَكِ بِقُوَّة، يَا مُبَشِّرَةَ أُورُشَلِيمَ. ارْفَعِي لاَ تَخَافِي. قُولِي لِمُدُنِ يَهُوذَا: هُوَذَا إِلهُكُمْ. هُوَذَا السَّيِّدُ الرَّبُّ بِقُوَّة يَأْتِي وَذِرَاعُهُ تَحْكُمُ لَهُ. هُوَذَا أُجْرَتُهُ مَعَهُ وَعُمْلَتُهُ قُدَّامَهُ.» (إِشَعْيَاء ٤٠: ٩، ١٠).

فالذين ينتظرون مجيء العريس عليهم أن يقولوا للشعب: « هُوَذَا إِلهُكُمْ ». إنّ آخر أشعة نور الرحمة. وآخر رسالة الرحمة للعالم هي الإعلان عن صفته صفة المحبّة. وعلى أولاد [416] اللّٰه أن يعلنوا مجده. ففي حياتهم وصفاتهم عليهم أن يعلنوا ما قد صنعته نعمة اللّٰه لأجلهم.

ويجب أن يشرق نور شمس البرّ في الأعمال الصالحة – في أقوال الحق وأعمال القداسة.

إنّ المسيح الذي هو بهاء مجد الآب قد أتى نوراً للعالم. وهو جاء ليمثل اللّٰه للناس. [417] وقد قال عنه الكتاب انه قد مُسح « بالرُّوح الْقُدُس وَالْقُوَّة » و « جَالَ يَصْنَعُ خَيْرًا » (أعمال ١٠: ٣٨). وإذ كان في مجمع الناصرة قال: « رُوحُ الرَّبِّ عَلَيَّ، لأَنَّهُ مَسَحَنِي لأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ، أَرْسَلَنِي لأَشْفِيَ الْمُنْكَسِرِي الْقُلُوب، لأُنَادِيَ لِلْمَأْسُورِينَ بِالإِطْلاَقِ وَلِلْعُمْيِ بِالْبَصَرِ، وَأُرْسِلَ الْمُنْسَحِقِينَ فِي الْحُرِّيَّةِ وَأَكْرِزَ بِسَنَةِ الرَّبِّ الْمَقْبُولَةِ » (لوقا ٤: ١٨، ١٩). كان هذا هو العمل الذي فوض لتلاميذه أمر القيام به. وقد قال: « أَنْتُمْ نُورُ الْعَالَمِ » « فَلْيُضِئْ نُورُكُمْ هكَذَا قُدَّامَ النَّاسِ، لِكَيْ يَرَوْا أَعْمَالَكُمُ الْحَسَنَةَ، وَيُمَجِّدُوا أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ » (متى ٥: ١٤، ١٦).

هذا هو العمل الذي يصفه النبي إِشَعْيَاء حين يقول: « أَلَيْسَ أَنْ تَكْسِرَ لِلْجَائِعِ خُبْزَكَ، وَأَنْ تُدْخِلَ الْمَسَاكِينَ التَّائِهِينَ إِلَى بَيْتِكَ؟ إِذَا رَأَيْتَ عُرْيَانًا أَنْ تَكْسُوَهُ، وَأَنْ لاَ تَتَغَاضَى عَنْ لَحْمِكَ. حِينَئِذٍ يَنْفَجِرُ مِثْلَ الصُّبْحِ نُورُكَ، وَتَنْبُتُ صِحَّتُكَ سَرِيعًا، وَيَسِيرُ بِرُّكَ أَمَامَكَ، وَمَجْدُ الرَّبِّ يَجْمَعُ سَاقَتَكَ » (إِشَعْيَاء ٥٨: ٧، ٨).

وهكذا ففي ليل الظلام الروحي يشرق مجد اللّٰه بواسطة كنيسته في إقامة المنحنين وتعزية النائحين.

ففي كل مكان حولنا تسمع ولولةَ أحزان العالم. وفى كل ناحية يوجد المحتاجون والمتضايقون. وواجبنا أن نساعد على إراحة الناس والتخفيف من مشقات الحياة وشقائها.

إنّ العمل الفعلي سيكون له تأثير أبعد في مداه من مجرّد إلقاء العظات. فعلينا أن نقدّم طعاماً للجياع وكساء للعراة وملجأ للمشرّدين. ثم إنّنا مدعوون لأن نفعل أكثر من هذا. فحاجات النفس لا يمكن أن تسدّها غير محبّة المسيح. فإذا كان المسيح ساكناً فينا فستمتلئ قلوبنا بالعطف الإلهي. وستنفتح الينابيع المختومة ينابيع المحبة المسيحية الغيورة. [418]

واللّٰه لا يطلب فقط أن نقدّم عطايانا للمحتاجين بل يطلب أيضا أن تكون وجوهنا طلقة باسمة فرحة، وأن يكون كلامَنا باعثا على الرجاء وأن تكون مصافحتنا مشفقة. فالمسيح عندما شفى المرضى كان يضع يده عليهم. فكذلك علينا أن نختلط بمن نحاول أن نساعدهم.

يوجد كثيرون ممن قد فارقهم الرجاء. فعليكم بأن تعيدوا إليهم نور الشمس. وكثيرون قد ضاعت شجاعتهم فعليكم أن تحدثوهم بكلام يدخل الفرح إلى قلوبهم. صلّوا لأجلهم. ويوجد من هم بحاجة إلى خبز الحياة. فاقرأوا لهم من كلمة اللّٰه. وكثيرون نفوسهم سقيمة ولا يمكن لأي علاج أرضي أن يصل إليها ولا يستطيع أي طبيب أن يشفيها. فصلّوا لأجل هذه النفوس وأحضروهم إلى يسوع. وقولوا لهم انه يوجد بلسان في جلعاد ويوجد هناك طبيب.

إنّ النور هو بركة. بركة عامة يسكب كنزه على عالم غير شاكر ونجس وفاسد الأخلاق. كذلك الحال مع نور شمس البرّ. فالأرض كلها وهي ملتحفة بظلمة الخطية والحزن والألم يجب أن تستنير بمعرفة محبة اللّٰه. وهذا النور المنبثق من عرش السماء يجب أن لا تُحرم منه أية طائفة أو طبقة أو فريق من الناس.

ورسالة الرجاء والرحمة يجب أن تصل إلى أقصى الأرض. فأي من يريد يمكنه أن يمدّ يده ويمسك بقوة اللّٰه ويتصالح معه فيصطلح. ولا حاجة بالوثنيين إلى أن يلتحفوا بالظلمة، ظلمة منتصف الليل فيما بعد. فالظلمة تنقشع أمام أشعة شمس البرّ المتألقة. فلقد غلبت قوة الجحيم.

ولكن لا يمكن لإنسان أن يوزّع على الآخرين ما لم يحصل عليه. ففي عمل اللّٰه لا يمكن للبشرية أن تخلق شيئاً منه. فلا يمكن لإنسان بمجهوده أن يجعل ذاته حامل النور لأجل اللّٰه. فالزيت الذهبي المفرغ بأيدي رسل السماء في الأنابيب الذهبية ليصل من الطاس الذهبية إلى مصابيح القدس هو الذي أوجد نوراً دائماً ولامعاً ومضيئاً. ومحبة اللّٰه التي تُنقل إلى الإنسان بلا [419]

انقطاع تجعله قادراً على أن يوزع النور. إنّ زيت المحبة الذهبي يفيض بغزارة في قلوب كل من هم مرتبطون باللّٰه بالإيمان لينير من جديد في الأعمال الصالحة، وفى الخدمة الحقيقية القلبية للّٰه.

إنّ كل موارد السماء مشتملةٌ في عطية الرُّوح الْقُدُس العظيمة غير المحدودة. فالسبب الذي لأجله لا يفيض غنى نعمة اللّٰه تجاه الأرض للناس ليس هو أي تحديد من جانب اللّٰه. فلو أنّ الجميع يرغبون أن يأخذوا فالجميع سيصيرون ممتلئين بروحه.

إنّه امتياز لكل إنسان أن يكون قناة حيّة يمكن للّٰه بواسطتها أن يمنح للعالم كنوز نعمته، وغنى المسيح الذي لا يُستقصى. لا يوجد ما يرغب فيه المسيح قدر أن يجد اتباعا له يمثلون للعالم روحه وصفاته. ولا شيء يحتاجه العالم قدر إعلان محبة المُخَلِّص بواسطة بني الإنسان. وكل السماء تنتظر قنواتٍ فيها يمكن أن يُصبّ الزيتُ المقدسُ ليكون فرحاً وبركة لقلوب الناس.

لقد أعد المسيح كل ما يلزم حتى تكون كنيسته هيئة متجددة مستنيرة بالذي هو نور العالم وحائزة على مجد عِمَّانُوئيل. إنّه يقصدُ أن يكون كل مسيحي محاطا بجوّ روحي من النور والسلام. وهو يريدنا أن نُظهر فرحَه في حياتنا.

إنّ سكنى الرُّوح الْقُدُس فينا يتبرهن بواسطة المحبة السماوية الفائضة. فملء اللّٰه يفيض عن طريق الوسائل البشرية المكرسة ليُعطى للآخرين.

إنّ شمس البرّ تشرق و « الشِّفَاءُ فِي أَجْنِحَتِهَا » (ملاخي ٤: ٢). وهكذا سيشع من كل تلميذ أمين قوةٌ للحياة وشجاعةٌ ومعونةٌ وشفاءٌ حقيقي.

إنّ ديانة المسيح تعنى شيئاً أكثر من غفران [420] الخطية، فهي تعني إبعاد خطايانا وملءَ الفراغ بهبات الرُّوح الْقُدُس. وهي تعني الإنارةَ الإلهيةَ والفرحَ في اللّٰه. وتعني خلوّ القلب من الذات وحصوله على البركة بحلول المسيح الدائم فيه. ومتى ملك المسيح في النفس فهناك الطهارة والتحرر من الخطية. ويتمّ في النفس مجدُ تدبير الإنجيل وملؤه وكماله. وقبولنا للمخلص يُكسب النفسَ تألّقَ السلام الكامل والمحبة الكاملة واليقين الكامل. وإنّ جمال صفات المسيح ورائحتَه الزكيةَ الظاهرةَ في النفس تشهد بأنّ اللّٰه قد أرسل ابنه حقاً إلى العالم ليكون مخلّصاً له.

والمسيح لا يأمر تلاميذه أن يحاولوا أن ينيروا. ولكنّه يقول: ليضيء نوركم. فإذا كنت قد قبلت نعمة اللّه فالنور فيك. فإن أزلت الموانع سيعلن مجدُ اللّه. فالنور سيضيء مخترقاً أحشاء الظلمة ومبدداً غياهبها. ولن يمكنك إلاّ أن تنير ضمن نطاق تأثيرك.

إنّ إعلان المُخَلِّص لمجده في صورة البشرية سيقرّب السماء إلى الناس بحيث أنّ الجمال الذي يزيّن قدسَ الأقداس يُرى في كل نفس يسكن هو فيها. والناس سيُسْبون بمجد المسيح الساكن في النفس. وفى غمرة الحمد والشكر الذي تنطق به النفوس الكثيرة التي رُبحت للّه سيعود المجد إلى المُعطي الأعظم.

« قُومي اسْتَنيري لأَنَّهُ قَدْ جَاءَ نُورُك، وَمَجْدُ الرَّبِّ أَشْرَقَ عَلَيْك » (إشَعْيَاء ٦٠: ١). إنّ هذه الرسالة موجهة إلى من يخرجون للقاء العريس. فالمسيح آت بقوة ومجد عظيم. إنّه آت بمجده ومجد الآب. وهو آت وجميع الملائكة القديسين معه. فحين يكون العالم كلّه غارقاً في الظلام فسيكون نور في كل مساكن القديسين وسينتبهون لأول نور لظهوره الثاني. فالنور النقيّ سيضيئ من بهاء [421] المسيح. والمسيح الفادي سيُتعجب منه من جميع الذين خدموه. فحين يهرب الأشرار من حضرته سيفرح تلاميذ المسيح. إنّ أيّوب القديس الشيخ إذ نظر عبر الأجيال إلى المجيء الثاني للمسيح قال: « الَّذي أَرَاهُ أَنَا لنَفْسي، وَعَيْنَايَ تَنْظُرَان وَلَيْسَ آخَرُ » (أيوب ١٩: ٢٧). لقد كان المسيح رفيقاً في كل يوم وصديقاً وعشيراً لكل تلاميذه الأمناء. لقد عاشوا على اتصال وثيق وفي شركة دائمة مع اللّه. فلقد أشرق عليهم مجد الرب. وقد انعكس فيهم نور معرفة مجد اللّه في وجه يسوع المسيح. والآن هم يفرحون بالأنوار الساطعة أنوار بهاء مجد الملك في جلاله. وهم متأهبون لشركة السماء لأنّ السماء في قلوبهم.

وبأيادٍ مرتفعة, وبأنوار شمس البرّ المتلألئة والساطعة عليهم, وبفرحهم لأنّ فداءهم يقترب يخرجون للقاء العريس قائلين: « هوذا هذا إلهنا انتظرناه فخلصنا » (إشعياء ٢٥: ٩). لشركة السماء لأنّ السماء في قلوبهم.

وبأيادٍ مرتفعة, وبأنوار شمس البرّ المتلألئة والساطعة عليهم, وبفرحهم لأنّ فداءهم يقترب يخرجون للقاء العريس قائلين: « هوذا هذا إلهنا انتظرناه فخلصنا » (إشعياء ٢٥: ٩). لشركة السماء لأنّ السماء في قلوبهم.

وبأيادٍ مرتفعة، وبأنوار شمس البرّ المتلألئة والساطعة عليهم، وبفرحهم لأنّ فداءهم يقترب يخرجون للقاء العريس قائلين: « هُوَذَا هذَا إِلهُنَا. انْتَظَرْنَاهُ فَخَلَّصَنَا » (إِشَعْيَاء ٢٥: ٩).

« وَسَمِعْتُ كَصَوْت جَمْعٍ كَثِير، وَكَصَوْت مِيَاه كَثِيرَة، وَكَصَوْت رُعُود شَدِيدَة قَائِلَةً: « هَلِّلُويَا! فَإِنَّهُ قَدْ مَلَكَ الرَّبُّ الإِلهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. لِنَفْرَحْ وَنَتَهَلَّلْ وَنُعْطِه الْمَجْدَ! لأَنَّ عُرْسَ الْخَرُوف قَدْ جَاءَ، وَامْرَأَتُهُ هَيَّأَتْ نَفْسَهَا ... وَقَالَ لِيَ: اكْتُبْ: طُوبَى لِلْمَدْعُوِّينَ إِلَى عَشَاء عُرْس الْخَرُوف ». « لأَنَّهُ رَبُّ الأَرْبَابَ وَمَلِكُ الْمُلُوك، وَالَّذِينَ مَعَهُ مَدْعُوُّونَ وَمُخْتَارُونَ وَمُؤْمِنُونَ » (رؤيا ١٩: ٦-٩؛ ١٧: ١٤).

للحصول على المزيد مِن الكُتُب التنويرية يُرْجى زيارة:

www.middle-east-publishers.com

الشَّرْق الأَوْسَط
للنَّشْر

الوعد

www.al-waad.tv

ليكون الوعد من نصيبك.

facebook.com/**al.waad**

youtube.com/**alwaadtv**

+961 76 888 419